



اقرأ

الدكتور مصطفى عبد العزيز
الدكتور محمد رشاد الطوبي

الفيتامينات

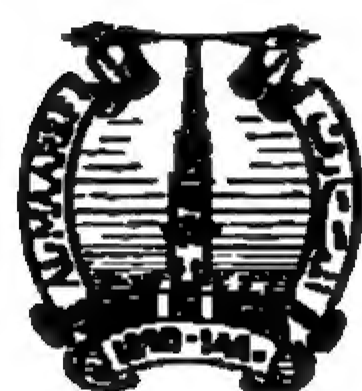
دار المعارف للطباعة والنشـ

الفيتامينات

الدكتور مصطفى عبد العزيز
الدكتور محمد رشاد الطوبي

الفيتامينات

اقرأ ٤١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



١

مقـــــدمة

إذا نظر الإنسان فيما حوله من مبتدعات العلوم والمخترعات ، رأى أن الطاقات التى نستمدها من نور وكهرباء ، وبخار وماء ، مصدرها جميعاً الوقود . . . ومثل الوقود فى تحريك الآلات الصناعية كمثل الغذاء فى الأجسام البشرية ، فالإنسان لا بد له لاستمرار حياته من جملة طاقات كامنة تولدها المواد الغذائية ، منها ما يستطيع بواسطته القيام بالحركات الآلية ، ومنها ما يمكنه من التدفئة الحرارية ، ومنها ما يعينه على استكمال كفايته الذهنية، ومنها ما يسبغ عليه نعمة المناعة ضد الأمراض المعدية ... فالبحث فى وسائل التغذية وأنواعها ، ودراسة ما هيتها وتأثيرها ، من أهم الأهداف الإنسانية السامية التى يتسابق فى حل معضلاتها جمهرة العلماء وكبار الباحثين ، ليقينهم أن التغذية الصحية الكاملة هى أنجع الطرق وأقومها لاستكمال صحة الأجسام ومناعتها ، ونضوج العقول وكفايتها . . فالإنسان مهما تضاءل

جسده أو كبر حجمه إن هو إلا مجموعة من خلايا مختلفة تتعاون فيما بينها تعاونا وثيقا فى سبيل كفاح الحياة واستمرارها ، وتستمد هذه الخلايا طاقاتها الحيوية من المواد الغذائية التى يتناولها الإنسان ، تلك المواد التى تعد من أهم العوامل وأقواها فى التحكم فى الآلة البشرية وتمكين إدارتها ، وفى تنظيم مختلف وظائفها ووسائل إنتاجها . . .

وقد كانت دراسة التغذية من أهم الموضوعات التى شغلت أذهان الباحثين منذ قديم الزمان ، إلا أن بعضاً من أهم الحقائق المتعلقة بها لم يتوصل العلماء إلى إدراك كنهه إلا منذ عهد قريب . . . فقد كان الاعتقاد الشائع حتى أوائل القرن الحالى أن الجسم لا يحتاج لاستيفاء حاجاته الغذائية إلا إلى خمسة أنواع من المواد ، هى الماء والمواد الكربوهيدراتية (السكرية والنشوية) والزلالية والدهنية وبعض الأملاح المعدنية ، وقد ظلت الأبحاث مقصورة على دراسة هذه المواد وحدها حتى أوائل الحرب العظمى الماضية ، حين تحقق العلماء أن المأكولات الطازجة والخضراوات النضيرة تحتوى على مواد مجهولة ضرورية لسلامة الأجسام واستمرار حياتها . . . وقد جاء اكتشاف هذه

المواد متأخرا فى تاريخ علم التغذية بسبب وجودها بكميات ضئيلة للغاية لا يمكن الإحساس بها ، وللصلة الوثيقة بين هذه المواد والحياة أطلق عليها اسم «فيتامينات» ، وهذا اللفظ مشتق من كلمتين ، « فيتا » ومعناها « الحياة » ، « وأمينات » ومعناها « قواعد عضوية » ، فهى بذلك القواعد العضوية التى تعمل على استمرار الحياة ومواصلة كفاحها . . .

واكتشاف الفيتامينات هو إحدى المصادفات السعيدة التى تقابل العلماء بين كل حين وآخر ، فتزيد آفاق العلوم سعة ومعرفة ، وتبعث فى الحياة البشرية نفحات الطمأنينة والراحة !. ولم يكن اكتشاف الفيتامينات نتيجة مجهود فرد من الأفراد ، ولكنه كان وليد جملة مشاهدات متواصلة ودراسات متعددة اشترك فيها الكثيرون من جهابذة الباحثين والعلماء . . . ففى أوائل هذا القرن ظهرت بين الناس نزعات قوية للانتقال من ظلمات الأرياف وهدوئها إلى مغريات المدن وصخبها ، وقد لاحظ المتتبعون لهذه الظاهرة نقصاً كبيراً فى استهلاك المواد الغذائية الطازجة والأطعمة النضيرة ، إذ أصبحت منتجات الأرياف — من بيض وألبان وخضراوات — عزيزة المنال ،

غالية الأثمان ، لا سيما بين طبقة الفقراء من السكان ، فانتشرت تبعا لذلك بعض الأمراض ! . . وشوهد منذ زمن بعيد أن الأطفال — الذين يولدون فى مدينة لندن وما شابهها من المدن الكبيرة — يتغذون بمواد غير مستوفية للمصادر الفيتامينية اللازمة لنمو أجسامهم ، فكان يصيب معظمهم مرض الكساح فى إحدى فترات حياتهم ، وكان نصفهم يقاسون نقصا ملحوظا فى قوة إبصارهم . . . وقد أحدث اكتشاف الفيتامينات انقلاباً عظيما ، لا فى علم التغذية وتنظيمها فحسب ، بل فى علم الأمراض ومعالجتها . . . فقد تحقق العلماء أن كثيرا من الأمراض ليس سببه العدوى بالميكروبات أو الديدان أو غيرها من الأسباب المعروفة ، ولكنها نتيجة نقص بعض المصادر الفيتامينية فى الغذاء ، وقد كان الجهل بوجود الفيتامينات فيما مضى من أهم الأسباب فى عـــدم تشخيص بعض الأمراض ، كأمراض الكساح والأسقربوط والبلاجرا والبرى برى وغيرها .

والعلاقة بين التغذية والأمراض علاقة متعددة النواحى متصلة الحلقات ، فقلة التغذية أو سوء اختيارها أو خلوها من المصادر الفيتامينية يسبب نهك الأجسام البشرية ويقلل من

قوتها أو مناعتها ، كما أن هناك أنواعاً خاصة من الأطعمة تحتوى على مواد مضادة لنمو الميكروبات وتكاثرها ، فتذيبها وتبطل تأثيرها ... فأنواع الغذاء لها أهميتها القصوى فى تجلد الأجسام لازدياد مقاومتها للأمراض أو إضعافها !.. وقد اكتشفت بعض الجامعات الإنجليزية ، الشهيرة بإنتاجها ، العريقة فى تاريخها ومجدها ، كجامعتى كمبردج واكسفورد ، العلاقة المتبادلة بين الطاقات الصحية والعقلية لطلابها و بين وسائل تغذيتهم ، فحتمت عليهم تناول عدد مخصوص من الوجبات اليومية تحت إشراف كلياتهم ، وهذه الوجبات تحتوى على جميع العناصر الغذائية والفيتامينية التى تتطلبها الأجسام لاستمرار نموها وازدياد إنتاجها ، ويشرف على هذا المشروع الحيوى العظيم المختصون فى علوم التغذية من رجالات الجامعة وعلمائها . . . وتتردد الشكاوى فى مصر سنويا من ضعف الطلبة وسوء النتائج فى امتحاناتهم ، وتتخبط الآراء بين مندد بأخلاق الطلبة وسلوكهم ، و بين مفند لمجهودات المدرسين ومؤهلاتهم ، ولكن لم نجد بين هؤلاء جميعاً من يلقى اللوم على سوء التغذية وفساد نظامها . . . إذ أن العقول ، مهما بلغت فى صفاء تفكيرها مبلغ السمو والكمال ، إن لم تسعفها

الوسائل الغذائية الصحية أصابها العطل وأدركها الهزال .

وقد سار الباحثون فى علوم التغذية شوطاً بعيداً فى دراسة الأنواع المختلفة من الأطعمة والفيتامينات باعتبارها إحدى الوسائل لإصلاح النفوس وتقوية الأجسام ؟ . . . ولقد كانت السياسة الارتجالية التى اتبعتها بعض الشعوب فى تنظيم طرق غذائها من الأسباب الهامة فى تدهور عقول أبنائها وانتشار الأمراض فيها ... فمن هذه الشعوب طائفة مازالت إلى الآن على فطرتها تلتهم كل ما يصادفها من المأكولات ، مثلها كمثل غيرها من سائر الحيوانات ، ومنها ما هذبتها العلوم وصقلتها المعارف فنظمت طرق تغذيتها على أساس صحى كامل ! . . . ولقد اشتهر المطعم الشرقى بكثرة تنوع أصنافه وتعدد محتوياته . ولم يكن مثار هذا التصنيف نزعة صحية لاستيفاء الضروريات الغذائية للأجسام ، ولكنها نزعة وراثية إلى حب التهام كل ما تيسر من الطعام ؟.. وقد أصبحت القيمة الصحية للمواد الغذائية لا تقدر بكمياتها بل بمحتوياتها من مختلف العناصر التى تتطلبها الأجسام لتقوية بنيانها وازدياد مقاومتها ؟... ولئن كان الفقر من أهم العوائق وأقساها فى استيفاء الكثيرين لمطالبهم الغذائية الضرورية ، فإن هناك نفراً

من الأغنياء ومتوسطى الحال ما زالوا ضعاف الأجسام لأنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة دراسة التغذية الصحية واستكمال عناصرها . . . ولئن كان للنكبات التى تصيب الإنسانية بين كل حين وآخر بعض فوائد وعظات ، فقد كان لوباء الملاريا الذى تفشى فى الصعيد الفضل الأول فى توجيه الأنظار إلى أهمية التغذية فى ازدياد قوة الأجسام ومناعتها .

ولا تقتصر فوائد التغذية وفيتاميناتها على استكمال قوة الأجسام ومناعتها ولكن تمتد آثارها إلى التحكم فى كميات الهرمونات التى تفرزها بعض الغدد الداخلية ... تلك الهرمونات التى تسيطر على طول الأجسام أو قصرها ، بدانتها أو نحافتها ، صفاء العقول أو بلادتها ، قوة التناسل أو فقدانه ، وغير ذلك من مختلف الصفات البشرية ومؤهلاتها . . . ولقد كان كفاح الحياة فيا مضى سهلا ميسورا ، ولكن ارتقت الحياة بارتقاء علومها ، وتعقدت مطالبها بتعقد أساليبها وازدياد سكانها ، وأصبح من اللازم على الإنسان الناجح أن يتزود بمؤهلات كفاحية قوية ليستطيع أن يساير ظروف الحياة ومستلزماتها . . . ولما كانت معرفة الأصول الصحية للتغذية من أهم ضروريات الحياة

ومستلزمات كفاحها ، يحتاجها الفقير قبل الغنى ، ويتطلبها الجاهل قبل المتعلم ، فقد رأينا أن نلج هذا الموضوع الهام — موضوع الفيتامينات — عسى أن نسد به فراغا ملحوظا فى المكتبة العربية ! . . . ولما كانت علاقة الفيتامينات بالتغذية علاقة قوية الأثر واضحة المعالم ، كان من الضرورى أن نطرق باب التغذية قبل أن نبدأ قصة الفيتامينات ، حتى يتمكن القارىء من الإلمام بهذا الموضوع من جميع نواحيه ، ولذلك فإننا سنلقى نظرة سريعة على التغذية وأهميتها للجسم أولا ، ثم نبدأ بعد ذلك فى الكلام على الفيتامينات ... وسيجد القارىء بين طيات هذا الكتيب دراسة شاملة للفيتامينات ، من حيث تاريخ اكتشافها وأنواعها ، مصادرها والأمراض الناتجة عن نقصها .

٢

التغذية

ينظر الشخص العادى إلى التغذية نظرة سطحية خالية من التعقيد ، فهى عنده لا تخرج عن تناول الطعام الذى لا بد له من الحصول عليه لـكى يتمكن من الحياة ! ... وقد يشكو الإنسان فى يوم من الأيام بعضاً من العلل الطارئة التى تجعله لا يتمتع بحياة رغيدة هانئة وهو لا يدرك أن التغذية نفسها هى مرجع هذه العلل . وهناك عدد كبير من الأمراض التى تصيب الإنسان لا تنتج إلا من سوء التغذية ، وقد لا يكون سوء التغذية ناتجاً من ضآلة الـكميات التى يتناولها بل من عدم تعدد أصنافها . وقد لوحظ أن بعض الشعوب التى تعتمد فى غذائها على نوع واحد تنتشر فيها بعض الأمراض بشكل واضح ، فالأرز مثلا هو الغذاء الرئيسى فى كل من الهند والصين واليابان ، وقد كان ذلك سبباً فى انتشار المرض المعروف باسم « البرى برى » ، وسنعرض لهذا المرض فى موضع آخر من هذا الـكتاب .

وموضوع التغذية من الموضوعات الفسيولوجية الهامة التى

وجه إليها العلماء كثيراً من الاهتمام ، وقد أجريت عدة أبحاث مختلفة لدراسة هذا الموضوع للتشعب النواحى . وأخذت الحقائق التى أدت إليها هذه الأبحاث تنير الطريق للانسان شيئاً فشيئاً حتى أصبح الآن أشد إدراكا للتغذية وأكثر اهتماماً بها مما مضى . . . وقد أشار الدكتور فرانك ووكس فى كتابه الذى أصدره حديثاً عن الغذاء بأن تنظيم استخدام المواد الغذائية التى يمكن الحصول عليها قد يكون عاملا هاماً فى تقرير مصير هذه الحرب القريبة ، كما ذكر أيضاً أن نقص المواد الغذائية فى ألمانيا عام ١٩١٨ كان من العوامل الرئيسية التى أدت إلى انهزامها فى الحرب العالمية الأولى .

وليس هناك ما هو أدل على أهمية التغذية من تلك النكبة التى نزلت بأرض الصعيد عند ما تفشى مرض الملاريا فى مديريتى قنا وأسوان ، فقد أخذ هذا المرض يفتك بالناس فتكا شديداً ، وكان له من بينهم كثير من الضحايا . ويعرف الكثيرون ممن تتبعوا أنباء هذا المرض فى ذلك الحين أن السبب الرئيسى لارتفاع نسبة الوفيات بين المصابين هو نقص التغذية ، وذلك لأن الأجسام الضعيفة لا تستطيع أن تقاوم المرض كما تقاومه

أجسام قوية لم يدركها المزال . وليست هذه الظاهرة مقصورة على مرض الملاريا فحسب بل إنها تتعداها إلى شتى الأمراض بوجه عام، فقد ثبت بشكل قاطع أن الأجسام القوية أشد مقاومة للأمراض وأقدر على التغلب عليها من الأجسام الضعيفة . وهناك أنواع خاصة من المأكولات ـ كبياض البيض و بعض الخضراوات ـ تحتوى على خمائر طبيعية لها القدرة على إذابة الجراثيم ومقاومة تأثيرها فى داخل الأجسام الإنسانية ، فهى بذلك تزيد فى قوة الأجسام وتزيد من مناعتها وتجلدها للأمراض .

ولا تتوقف أهمية التغذية على مقاومة الأمراض فقط بل إنها تعتبر عاملا أساسياً لتقدم الشعوب وقدرتها على الإنتاج والابتكار ، وذلك لأن الأمة التى لا يستطيع أفرادها أن يحصلوا على ما يلزمهم من الغذاء الكافى غير قادرة على الإنتاج ، وإن أنتجت فهو إنتاج ناقص مبتور . ولقد كان الاهتمام بأمر التغذية دائماً فى مقدمة المسائل التى يعتنى بها المصلحون فى أية أمة من الأمم ، كما أن العلم قد أسهم بنصيب وافر فى إنارة هذا السبيل ، فقدم لنا بياناً شاملا عن جميع المواد التى لا يستغنى عنها الجسم ، والكميات التى يتحتم الحصول عليها حتى يظل الإنسان

فى صحة جيدة . ولكى يتمكن الجسم من القيام بوظائفه المختلفة والمحافظة على حيويته لا بد له أن يحصل على قدر كاف من المواد السكر بوهيدراتية والدهنية والزلالية والأملاح المعدنية والماء والفيتامينات . وسنبين فيما يلى هذا أهمية كل من تلك المواد للجسم ، عدا الفيتامينات التى سنتكلم عنها بالتفصيل فى غير هذا الباب .

والغذاء له ثلاث وظائف رئيسية يقوم بتأديتها للجسم ... وأولى هـذه الوظائف هى إنتاج الحرارة التى لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها ما دام حياً ، فحرارة الجسم التى يظل محتفظاً بهـا عند درجة ثابتة لا تتغير إذا تغيرت حرارة الجو مستمدة من الأغذية التى يتناولها الإنسان !... وبالرغم من أن الأنواع المختلفة من الأغذية تقوم كلها بإنتاج الحرارة . فإن البعض منها يقوم بإنتاجها أكثر من البعض الآخر ، وأكثر الأغذية إنتاجاً للحرارة هى المواد الدهنية . ولهذا نرى أن الإسكيمو ، الذين يعيشون فى جو شديد البرودة ، يتناولون كمية كبيرة منها فى كل وجبة ، وقد تختزن المواد الدهنية فى الجسم فتصبح مستودعاً يستمد منه حاجته من الحرارة ، ويستمد الجسم أيضاً ما يحتاج

إليه من الحرارة من المواد السكربوهيدراتية ولكنها أقل إنتاجاً للحرارة من المواد الدهنية .

والوظيفة الثانية للغذاء هي أنه يمد الإنسان بالطاقة أو القوة التي يستخدمها في القيام بمختلف الأعمال ، والمصدر الرئيسي الذي يستمد منه الجسم ما يحتاج إليه من هذه الطاقة هو المواد السكرية والنشوية ، ولكن تستطيع المواد الدهنية والزلالية أيضاً أن تقوم بهذه الوظيفة الحيوية . فإذا لم يحصل الجسم على قدر كاف من المواد السكرية والنشوية فإن المواد الأخرى تقوم بتقديم هذه الطاقة إليه . أما إذا تناول الإنسان مقداراً كبيراً من السكريات والنشويات فإن الزائد منها يختزن في الجسم لاستعماله وقت الحاجة ، وأهم مكان لاختزان هذه المواد هو الكبد ، وهي أيضاً تختزن بكميات أصغر في عضلات الجسم المختلفة . وفي المرض المعروف بمرض السكر لا تختزن المواد السكربوهيدراتية الزائدة عن حاجة الجسم في داخل الكبد ولكنها تخرج من الجسم على هيئة سكر في البول . فمن وظائف الكبد امتصاص المواد السكرية من الدم وتحويلها إلى نشا حيواني « جليكوچين » يختزن بداخله ، وتستمر السكريات

مختزنة فى الكبد حتى يتطلبها الجسم ثانياً فتخرج منه إلى الدم. والعملية التى يستطيع الكبد بواسطتها تحويل المواد السكرية إلى نشا حيوانى تتوقف على وجود مادة خاصة يفرزها البنكرياس وتسمى « الإنسولين » ، وتعالج حالات السكر باستعمال حقن الإنسولين التى تعوض النقص الطبيعى لهذه المادة فى داخل جسم الإنسان ، وباتخاذ نظام دقيق خاص فى الأكل .

والوظيفة الثالثة للغذاء هى أنه يقوم بتقديم المواد اللازمة لنمو الجسم ولإصلاح بعض الأنسجة التالفة ، وذلك لأن الجسم فى حاجة مستمرة إلى هذا الاصلاح ، شأنه فى ذلك شأن الآلة التى تتآكل بعض أجزائها ، ولا يمكن استخدامها بعد ذلك إلا إذا استبدلت بالأجزاء التالفة أجزاء جديدة . . . ومع أن الجسم لا يمكنه تجديد عضو كامل من أعضائه إلا أن الخلايا التالفة فى حاجة مستمرة إلى التجديد . . . وتعتبر كرات الدم الحمر مثلا هاما لذلك ، فهى تتكون فى داخل نخاع العظام ثم تنتقل منها إلى الأوعية الدموية ، وهناك تقوم بوظيفة من أهم الوظائف في الجسم ، وذلك لأنها تحمل الأكسيجين من الرئة إلى العضلات ثم تعود إلى الرئة مرة أخرى محملة بغاز ثانى أكسيد

الكربون الذى يترك الجسم مع هواء الزفير ، وتستمر الكرات الحمر قائمة بهذا العمل مدة شهر تقريبا ثم تدركها الشيخوخة فتتحلل لتأخذ مكانها كرات جديدة فتية ! . . . والمواد الزلالية هى التى تقوم ببناء الجسم وتجديد الخلايا . . . وأهم المواد الزلالية في غذاء الإنسان اللحم والسمك والبيض واللبن والجبن ، و بعض الخضراوات كالفول والبسلة وغيرها ، ولكن يلاحظ أن المواد الزلالية المستمدة من مصدر حيوانى أسهل فى هضمها من المواد الزلالية النباتية . . .

ويحتاج الجسم بجانب المواد الكربوهيدراتية والدهنية والزلالية إلى عدة أنواع مختلفة من الأملاح المعدنية ، وأهمها أملاح الجير والفسفور والحديد والنحاس . . . وتعتبر أملاح الجير على جانب كبير من الأهمية لأنها ضرورية لتكوين العظام والأسنان خصوصا أثناء الطفولة ، وهى ضرورية جدا للسيدات أثناء الحمل والرضاع . . . وتحتاج العضلات والأعصاب لأملاح الجير كى تتمكن من القيام بوظائفها على وجه صحيح ، ويعتبر اللبن أغنى مصدر لأملاح الجير ، التى توجد أيضا فى بعض الحبوب وفى كثير من الفواكه والخضراوات ، وأهم الخضراوات

التى تحتوى على كمية كبيرة من أملاح الجير هى السبانخ والكرنب والخس وغيرها . . . أما الحديد فهو ضرورى لتكوين كرات الدم الحمر ، إذ أنه يدخل فى تركيب الهيموجلوبين ، ويؤدى نقص الحديد فى الغذاء إلى فقر الدم « الأنيميا » ، وهذا يؤدى بدوره إلى نقص مقاومة الجسم للأمراض . . . وتعتبر الكبد من أغنى المصادر للحديد ، وهى توصف غذاء لعلاج المرضى بفقر الدم ، وهناك عدد كبير من الأغذية الأخرى التى تمد الجسم بالحديد ومن بينها الكلى واللحم الأحمر وبعض الخضراوات والفواكه ومنها البرتقال والمشمش والعنب والكمثرى . . .

أما الماء فهو على جانب كبير من الأهمية ، وقد يستطيع الإنسان أن يعيش زمنا طويلا بدون طعام ، ولكنه غير قادر على الحياة بغير الماء إلا وقتاً قصيراً ، وأهميته للجسم لا تقل عن أهمية الهواء الذى تتنفسه . . . ولا يوجد الماء فى الأنسجة المختلفة بنسبة واحدة ، بل إن هذه النسبة تترجح بين اثنين وعشرين فى المائة ـ وهى نسبة الماء فى العظام ـ وبين ثلاث وثمانين فى المائة ، وهى نسبته فى الكليتين . . . ويكون الماء الوسط الذى تجرى فيه جميع العمليات الحيوية فى الجسم كعمليات

الهضم وامتصاص الأغذية وغيرها . ولا يحصل الجسم على ما يحتاج إليه من الماء بواسطة الشرب فقط ، ولكنه يحصل عليه أيضا من جميع الأغذية التى تتناولها تقريبا ، فاللحم الطازج والخضراوات تحتوى على ما يقرب من خمسة وسبعين فى المائة من وزنها ماء . . . ويتخلص الجسم من الماء الزائد عن حاجته بواسطة الرئتين ، حيث يخرج الماء منهما مع هواء الزفير على هيئة بخار ، وبواسطة الجلد الذى يفرزه مع بعض المواد الأخرى فى صورة العرق ، وبواسطة الكليتين والأمعاء . . . ويخرج الجسم يوميا كمية من الماء أكثر قليلا من الكمية التى يتناولها ، إذ أن هناك كمية أخرى من الماء تتكون داخل الجسم بأكسدة الأيدروجين الموجود فى الأغذية العضوية ، وهناك تنظيم دقيق لكمية الماء التى توجد فى الجسم ، فإذا شرب الإنسان مقدارا كبيرا من الماء فإن الكليتين تنشطان فى إخراج البول ، حتى تظل نسبة الماء فى الجسم ثابتة تقريبا . . .

ويتم هضم المواد الغذائية التى يتناولها الإنسان فى داخل القناة الهضمية ، ويحتوى جدار هذه القناة على عدد هائل من الغدد الصغيرة التى تقوم بإفراز العصارات الهاضمة ، وهناك

غدتان كبيرتان ـ هما الكبد والبنكرياس ـ تقعان فى خارج القناة الهضمية ، وهما يصبان بداخلها ما يتكون فيهما من العصارات بواسطة قنوات خاصة !... ويبدأ هضم الطعام داخل الفم بواسطة اللعاب ، ويقوم بإفراز هذا السائل عدد من الغدد اللعابية التى تفتح فى الفم ، وهى تبدأ فى إفراز اللعاب بعد دخول الطعام مباشرة ، وقد تبدأ في إفرازه بمجرد رؤية الإنسان للطعام أو إذا وصلت إليه رائحته ... وتفرز الغدد اللعابية كمية كبيرة من اللعاب أثناء تناول الطعام ، أما بين الوجبات فهى لا تفرز منه إلا ما يكفى لترطيب الفم ... ويستمر هضم الطعام فى المعدة التى تفرز عليه عصارة هاضمة تحتوى على بعض الخمائر كما تحتوى على حامض الكلورودريك ... ولقد كان لمعرفة تركيب هذه العصارة أثر كبير فى علاج حالات سوء الهضم ، فإذا كان هناك نقص فى إفرازها عولج المريض بإعطائه مستخلص خميرة البيسين وحامض الكلورودريك المخفف ، كما تعالج الزيادة فى إفراز الحامض بإعطائه بعض القلويات مثل بيكربونات الصودا أو بيكربونات المغنسيوم (اللبانيزيا) ...

وقد أظهرت تجارب بافلوف — العالم الروسى المشهور —

كثيراً من الحقائق الخاصة بإفراز المعدة للعصارة الهاضمة ، فقد بين بوضوح فى تجاربه الكثيرة التى أجراها على الكلاب كيف أن المعدة تبدأ فى إفراز هذه العصارة بمجرد إثارة الشهية للطعام بأية طريقة كانت ، سواء أكان هذا بواسطة الرؤية أم الشم أم التذوق . . . فقد كان يكفى أن يشاهد الكلب قطعة من اللحم حتى تبدأ المعدة فى هذا الإفراز . . . وتعتبر التجربة الآتية من التجارب الطريفة التى أجراها بافلوف ، فقد أتى بأحد الكلاب وكان لايعطيه طعامه إلا بعد دق الناقوس ، واستمر على تكرار هذه العملية عدداً من المرات ، وقد وجد بعد ذلك أن دق الناقوس وحده كاف لأن تبدأ المعدة فى إفراز عصارتها ، ولو لم يكن هناك أى شىء من الطعام !

وليست المعدة عضواً يقوم بهضم الطعام فحسب ولكنها تعتبر أيضاً مكاناً لاختزانه ، ولهذا فاننا نأخذ من الطعام ما يكفينا طول اليوم فى وجبتين أو ثلاث وجبات . . . . ويخرج الطعام من المعدة إلى الأمعاء الدقيقة على دفعات صغيرة تترك المعدة بين آن وآن ! . . . ويتم هضم الطعام فى داخل الأمعاء الدقيقة بواسطة ثلاث عصارات مختلفة ، وهى العصارة البنكرياسية

والكبدية والمعوية . . . . فإذا ماتم هضم الطعام بفعل هـذه العصارات الثلاث أصبح فى حالة تسمح بامتصاصه لينتفع منه الجسم ، ويحدث امتصاص الطعام المهضوم فى الأمعاء الدقيقة حيث يمر منها إلى الأوعية الدموية والليمفاوية الصغيرة ، ومنها يحمله تيار الدم الى مختلف أجزاء الجسم . . . . أما بقايا الطعام غير المهضوم فإنهـا تمر الى الأمعاء الغليظة حيث يتخلص منهـا الجسم . . . وهناك جزء من هذه الأمعاء يعرف بالمصير الأعور وله شهرة بين الناس كافة ، ويرجع سبب ذلك إلى أنه يتصل به من أسفل زائدة صغيرة على هيئـة الدودة وتعرف بالزائدة الدودية ، وتحتوى هذه الزائدة عادة على تجويف صغير قد تستقر فيه بعض بقايا الطعـام ، فيؤدى ذلك الى المرض المعروف بالتهاب الزائدة الدودية ، ويرى بعض ثقات الطب أن هذا الخطر قـد بولغ فيه كثيراً ، وأن نسبة ضئيلة فقط من حالات التهاب الزائدة الدودية ترجـع إلى هذا السبب ، أما فى معظم الحالات فان السبب الحقيقى فى التهابهـا لايزال موضع كثير من الجدل . .

وإذا كان فى استطاعتنا أن نعرف بصورة دقيقة كية

الوقود التى تحتـاج اليها أى آلة من الآلات لكى نتمكن من إدارتها ، ففى قدرتنا أيضا أن نقوم بحساب كمية الغذاء الذى ينتج الطاقة اللازمة للاجسام لكى تتمكن من القيام بمختلف وظائفها . . . وقد أجريت حتى الآن عدة أبحاث مختلفة للوصول إلى هذه الغاية ، وتتوقف كمية الغذاء اليومى التى يحتاج اليها الجسم على عدة عوامل مختلفة . . فهى أولا تتوقف على السن ، فالطفل مثلا لا يحتاج إلى كمية من الغذاء تماثل الكميـة التى يحتاج اليها رجل كبير، وهى أيضاً تتوقف على وزن الجسم، إذ كلما زاد هذا الوزن احتاج الأنسان إلى كمية كبيرة من الغذاء . وهى تتوقف كذلك على الحالة التى يكون عليها الإنسان ، فإذا كان مسترخياً فى فراشه فهو فى حاجه إلى كمية قليلة من الطعام ، أما إذا كان يقوم بأى عمل من الأعمال فلا شك فى أنه محتاج إلى أن يضاعف هذه الكمية — لأنه يستهلك مقداراً أكبر من الطاقة ـــ ويحتاج إلى كمية أكبر من الغذاء . . وهى أيضاً تتوقف على نوع العمل الذى يقوم به ، فمن كان يقوم بعمل عضلى عنيف كالنجار أو البناء فانه فى حاجة إلى كمية من االغذاء أكبر من الكمية التى يحتاج اليها الـكاتب مثلا ! . .

ويميل بعض الأشخاص إلى الإفراط فى الأكل ، فهم يتناولون من الغذاء أكثر مما تحتاج إليه أجسامهم ، والواقع أن الإفراط فى الأكل له أضرار كثيرة ، فهو أولا لا يخرج عن كونه خسارة مادية ، كما أنه يرهق المعدة والأمعاء بغير مسوغ ، يضاف إلى ذلك أنه قد يؤدى فى النهاية إلى البدانة المفرطة . . ولقد كان الإنسان يدرك دائما مساوىء هذه البدانة ، ولكن علاقتها بالمرض لم تفهم فيهما حقيقاً إلا منذ عهد قريب ، وقد وجد أن هناك عدة أمراض ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً ، فالشحم المختزن لا يتراكم على سطح الجسم ولكنه يتخلل الأعضاء الحيوية ، فيلقى عبئاً إضافياً على القلب والكلى والأوعية الدموية ، ولذلك كان الشخص البدين معرضاً للاصابة بأمراض القلب والكليتين والكبد والمرارة . . وهناك اعتقاد شائع بأن ضغط الدم العالى ناتج من البدانة ، وذلك بالرغم من أن العلاقة بينهما لم تثبت بشكل قاطع ، فمع أن هناك حقيقة عدة أشخاص بدينين لا يشكون ضغط الدم العالى إلا أن ضغط الدم يكون عادة أعلى عند البدينين منه عند الأشخاص العاديين . . كما أن مرض السكر كثيراً ما يكون مرتبطاً بالبدانة والإفراط فى الأكل ،

ويظهر أن الشخص البدين عنده قابلية للإصابة بمختلف الأمراض المعدية ، فاذا وقع فريسة لأحد هذه الأمراض كانت فرصة شفائه أعز من فرصة شخص عادى أصيب بالمرض نفسه ، وقد لوحظت هذه الظاهرة مرات بين الجنود خلال الحرب العالمية الماضية . . . .

وتنشأ البدانة فى معظم الأحوال من الإفراط فى الأكل والخمول وعدم ممارسة الألعاب الرياضية ، كما أنها قد تنشأ أحيانا من اختلال بعض الغدد الداخلية ... وفى هذه الحالة تظهر البدانة عادة فى سن مبكرة ، ولا يكون التخلص منها من الأمور الهينة ، أما إذا كانت البدانة لا ترجع إلى اختلال الغدد فإن التخلص منها أمر يسير . . . فإذا كان وزن الجسم لا يتفق مع السن أو طول القامة كان من الواجب على الإنسان — لكى يحتفظ بصحة جيدة — أن يتخلص من الوزن الزائد ، ولكن يجب أن يحدث النقص فى الوزن تدريجياً ، لأن الجسم إذا نقص وزنه بسرعة فقد يكون ذلك أشد خطرا على الصحة من البدانة نفسها ، ولهذا فإن التخلص من البدانة بممارسة ألعاب شاقة أو الإقلال من تناول الطعام بدرجة تقرب من الصوم فيه خطر عظيم على

الصحة ، وكثيرا ما يلجأ بعض الناس وخصوصا السيدات إلى مثل هذه الطرق الضارة التى أدت فى كثير من الحالات إلى أسوأ النتائج ، كما أنه من الواجب أن لا يلجأ أى إنسان إلى استعمال الأدوية المجهزة التى يقال عنها إنها مضمونة الأثر فى انقاص الوزن ، لأن استعمالها ينتج عنه فى أغلب الحالات كثير من الأضرار .

وخير وسيلة للتخلص من البدانة هى الاعتدال فى تناول الطعام وممارسة الألعاب الرياضية ، لأن ذلك يؤدى إلى نقص الوزن نقصا تدريجياً مع المحافظة على الصحة ، كما أن الإقلال من تناول المواد النشوية والسكرية والدهنية يكون له أثر واضح فى الوصول إلى هذه الغاية ، ومهما يكن نوع الطعام الذى يتناوله الشخص البدين الذى يرغب فى إنقاص وزنه فإنه من الضرورى جدا أن يحتوى هذا الغذاء على مقدار مناسب من الخضراوات والفواكه، وهى تعرف بالأغذية الواقية لأنها تمد الجسم بالفيتامينات والأملاح المعدنية اللازمة لحفظ كيانه وازدياد مناعته ، فإذا حذفت هذه الأغذية الواقية من قائمة الطعام فإن الجسم لا ينقص وزنه فحسب ولكنه يصاب ببعض الأمراض الخطيرة .. وفى كل

الحالات يجب ألا يزيد النقص فى الوزن عن ربع رطل يومياً .

وإذا كان من الواجب على الإنسان أن يهتم بأمر البدانة المفرطة حتى يكون فى مأمن من الأمراض الناتجة عن وجودها فهو أيضاً فى حاجة شديدة إلى أن يولى النحافة المفرطة شيئاً كثيراً من الاهتمام ، وذلك لأنها قد تكون هى أيضاً مصحوبة ببعض الأمراض كما هو الحال فى البدانة . . . . ومع أن مرض السكر كثيراً ما يشاهد فى الأشخاص البدينين إلا أنه قد يوجد أحياناً عند بعض النحفاء ، وتؤكد الإحصاءات الحديثة التى قامت بها شركات التأمين المختلفة الاعتقاد الشائع بأن مرض السل أكثر انتشاراً بين النحفاء منه بين بقية الناس ، وقد دلت الاحصاءات أيضاً على أن الوفاة بالسل بين البدينين تكاد تكون معدومة .... وقد لوحظ أن مرض السل قد زادت نسبته بين السيدات الامريكيات فى السنوات الأخيرة ، وربما كان الاندفاع الطائش نحو النحافة وإنقاص الوزن هو السبب فى ذلك ، ويعلم الكثير من السيدات أن وزنهن أقل كثيراً من الوزن العادى ومع ذلك فهن يفتخرن بهذا كما يتجنبن بعضاً من الأغذية الهامة خوفا من زيادة وزنهن . . . والواقع أن اكتساب النحافة عن

هذا الطريق — وهو سوء التغذية — قد يمهد السبيل لإصابة الجسم بمختلف الأمراض !

وإذا أراد الإنسان أن يتخلص من النحافة المفرطة وجب عليه أولا أن يبحث عن الأسباب التى أدت اليها قبل أن يأخذ فى علاجها ، فقد تكون النحافة وراثية كما هو الحال فى بعض الأسر ، أو قد تكون ناشئة عن سوء التغذية ، أو عن الإجهاد الفكرى الذى يتسبب عن كثرة المتاعب والهموم ، وقد يكون لها سبب عضوى فى الجسم نفسه ، فالغدة الدرقية مثلا إذا زاد إفرازها زيادة كبيرة فإن ذلك يؤدى إلى نقص الوزن نقصاً ملحوظا ، وهناك حالات أخرى من النحافة ليس لها من سبب سوى عدم التمتع بقسط وافر من الراحة والتنزه !.. ويجب على كل من كانت نحافته مفرطة أن ينام تسع ساعات أو عشراً أثناء الليل ، ومايقرب من نصف ساعة بعد الظهر ، كما يجب عليه أن يعالج كل الاضطرابات الهضمية كالإمساك وسوء الهضم وكثرة المرارة ، ويجب عليه أيضاً أن يهيء فى المنزل جوا يستطيع فيه أن يحصل على القدر اللازم من الراحة والدعة . . ومن الضرورى أن يكون الطعام مغذيا إذ لا يمكن أن يزداد وزن الجسم دون أن يتناول الانسان

الغذاء المناسب ... وهناك عدة أنواع من الطعام إذا أضيفت إلى الغذاء اليومى كان لها أثر واضح فى زيادة الوزن ، ومنها اللبن والزبدة والقشدة والفواكه والخضراوات النضيرة ، وبعض المقويات كزيت السمك أو مستحضرات الشعير أو غيرها ، وللرياضة اليومية فى الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس فائدة كبيرة !

٣

تاريخ الفيتامينات

إن قصة الفيتامينات تحتوى بين طياتها فصولاً متعددة ، منها ما هو خاص بتاريخ اكتشافها ، ومنها ما هو خاص بدراسة فوائدها واستجلاء مصادرها . . . وهذه القصة ملأى بأنواع النضال ، من صراع بين الاخفاق والنجاح ، وصراع بين الصحة والمرض . . . فالإنسان منذ اتخذ طريقه فى الحياة يبحث عن القوت الضرورى لحفظ حياته واستكمال بنيانه ... وقد كان الشائع قديماً ، وما زال متداولاً بين عامة الناس ، أن الإنسان كلما تناول مقداراً كبيراً من الطعام ازدادت قوته وتحسنت صحته ، ولذلك نرى أن هناك كثيراً من الناس قد جعلوا كل رسالتهم فى الحياة إشباع بطونهم الخاوية ، دون أن يهتموا بتعدد أنواع المأكولات واختلاف مصادرها . . . وقد أثبت علم التغذية الحديث فساد هذا الرأى ، ودل بصورة قاطعة على أن الفائدة الصحية أو الإنشائية للأطعمة تقدر بمحتوياتها قبل أن تكون بكمياتها ، وسنبدأ قصتنا هذه من ذلك العهد الذى اتخذ فيه علم التغذية مكانه اللائق بين مختلف العلوم والفنون .

كان من الحقائق العلمية المعروفة منذ قديم الزمان أن الجسم الإنسانى يحتاج لسد احتياجاته الغذائية إلى جملة مواد مختلفة ، منها المواد العضوية كالزلالية والدهنية والنشوية ، ومنها المواد غير العضوية كالماء والأملاح المعدنية ... وقد كان معروفاً أيضاً أن هذه المواد تعمل على استكمال نمو الجسم ، وأنها بفضل ما تحدثه من احتراق داخلى — وذلك بتحولها إلى مواد أخرى بسيطة — تمد الجسم بما يتطلبه من مختلف الطاقات اللازمة لاستمرار حياته.

كانت العلاقة بين أنواع الأغذية ومقدار ما تولده من طاقة حرارية هى إحدى الحقائق التاريخية التى اتخذها العلماء قديماً وسيلة للموازنة بين القيم الغذائية لمختلف المأكولات. . . . فكما أن نوعاً خاصاً من الفحم يولد طاقة حرارية تختلف عن نظيرتها الناتجة من نوع آخر ، فإن الأطعمة تختلف فى مقدار ما تولده من طاقات حرارية باختلاف أنواعها وتعدد مصادرها ... وكان معروفا أن الطاقات التى يستفيد منها الجسم ، فى بنائه وحركته . تزداد بازدياد مقدار الحرارة التى يولدها نوع خاص من الطعام وتنخفض بانخفاضها . . . وقد اتخذ مقياس خاص لمعرفة مختلف الطاقات الحرارية ، وهذا المقياس يعرف بالسعر ، ومثله فى قياس

الحرارة كمثل القدم فى تمييز الأطوال ، وكمثل الرطل فى تعيين الأوزان . . . والسعر هو كمية الحرارة اللازمة لازدياد درجة حرارة كيلوجرام واحد من الماء درجة حرارة واحدة ... والقيمة الغذائية أو ما يعادلها من طاقة حرارية إما أن تقاس بآلة خاصة تسمى بالمسعر ، أو تقاس بمقدار ما يحتوى عليه الطعام من المواد الدهنية والسكرية والزلالية ، إذ كان معروفا أن الرطل الواحد من المواد الدهنية يولد طاقة حرارية مقدارها ٤٢٢٠ سعراً ، وأن كل رطل من المواد السكرية والزلالية له طاقة حرارية تعادل ١٨٦٠ سعراً .

سيطرت هذه النظرية الحرارية فى معرفة القيمة الغذائية لمختلف الأطعمة حيناً طويلا من الزمن ، حين كان علم التغذية لا يزال فى طور التكوين .... ثم كان ارتقاء هذا العلم وتعدد أبحاثه من أهم العوامل فى تزعزع الثقة بالنظرية الحرارية ... فقد وجد العلماء أن هناك أنواعاً من الأغذية تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً فى تأثيرها فى النمو والصحة ، مع أنها تتساوى فى مقدار ما تولده من طاقة حرارية ، وما تحتوى عليه من مختلف المواد السكرية والدهنية والزلالية .

أخذت النتائج تتضارب تباعاً بين النظرية الحرارية و بين مقدار ما يستفيده الجسم من مختلف المواد الغذائية ، وفى عام ١٨٩٧ اكتشف « إيكمان » أن تغذية أفراخ الدجاج بأرز مقشور يسبب لها مرض الالتهاب العصبى ، وفسر حدوث هذا المرض تفسيراً نظرياً بحتاً ، ورجح سببه إلى فقدان مادة مجهولة توجد فى الغلاف الخارجى لحبات الأرز ، وهذه المادة تفصل عند نزع القشرة فى أثناء عملية صقل الأرز وتلميعه ... ويجدر بنا فى هذا المقام أن نصف الطريقة المتبعة فى تحضير الأرز للتجارة .. فحبة الأرز تتكون من قشرة خارجية وعجبة داخلية ، ويغطى العجبة و يتصل بها اتصالا وثيقاً غلاف رقيق أسمر ، وهذا الغلاف يكون دائماً نصيبه الفصل لسواد منظره وعدم لمعانه فتصبح حبة الأرز بعد نزع هذا الغلاف جذابة للانظار ، تحاكى اللآلىء فى بياض لونها وشدة لمعانها ... ومثل هذه الصفات — من لون جذاب ولمعان براق — من الصفات التجارية المرغوب فيها بين جمهرة العملاء ... وهناك أشياء كثيرة فى الحياة تبهر الإنسان ببريقها وتجذبه بلمعانها ، وهى تخفى تحت طيات هذا البريق عوامل الإبادة والهلاك !.. و بعد مضى عشر سنوات على

اكتشاف إيكمان وجد بعض الباحثين من أهالى الفليبين أن الالتهابات العصبية فى الإنسان يمكن معالجتها بتغذية المصابين بها بالمادة المجهولة التى توجد فى الغلاف الخارجى لحبات الأرز بعد استخلاصها منه بواسطة محلول كحولى .

كانت هذه الظاهرة من أهم الأسباب التى وجهت الأبحاث وجهة جديدة فى دراسة بعض الأمراض ... فقد كان الشائع وقتئذ أن معظم الأمراض منشؤها إضافة جسيمات غريبة إلى الأداة البدنية كالميكروبات والديدان وغيرها من الطفيليات ، فأخذ العلماء بعد ذلك يفكرون فى أن بعض الأمراض التى يصاب بها الإنسان قد يكون السبب فى ظهورها عدم احتواء الطعام على بعض المواد الأساسية التى يتطلبها الجسم لاستكمال نموه واستمرار صحته ... وقد اتخذت هذه التكهنات مظهر اليقين عند ما أجرى العلامة « كاسيمير فونك » عام ١٩١١ عدة تجارب لدراسة القيمة الغذائية لقشور الأرز والخمائر ، فقد وجد أن المواد التى تحتويها القشور والخمائر لها تأثير علاجى فعال فى التخلص من مرض الالتهاب العصبى فى الطيور وفى شفاء مرض البرى برى فى الإنسان ،

وقد أطلق « كاسيمير » على هـذه المواد الغذائية المجهولة اسم « الفيتامينات » .

وقد اكتشفت عدة أنواع منها وحار العلماء فى تسميتها ، فتارة يسمونها بالحروف الهجائية مثل فيتامين ا – ب – حـ – د ، وتارة يسمونها بحسب وظيفة كل منها فى الجسم مثل الفيتامين الواقى من الكساح والفيتامين المضاد للبلاجرا ، وأحيانا يطلقون عليها أسماء تدل على تركيبها الكيميائى مثل حامض الاسكوربيك والريبوفلافين وغيرهما ... والفيتامينات المعروفة الآن هى :

(١) فيتامين ا : أو الفيتامين المضاد لمرض جفاف العين

(٢) فيتامين ب المركب : وهو عبارة عن خليط من عدة فيتامينات معقدة التركيب ،أهمها فيتامين النمو ، والفيتامين المضاد لمرض البرى برى ، والفيتامين الواقى من البلاجرا .

(٣) فيتامين ج : أو الفيتامين المضاد لمرض الأسقربوط

(٤) فيتامين د : أو الفيتامين الواقى من الكساح

(٥) فيتامين هـ : أو الفيتامين المضاد للعقم

(٦) فيتامين ك (K) : أو الفيتامين المضاد لنزف الدم

(٧) فيتامين ل (P) : أو الفيتامين المقاوم لمرض الفرفورية

وسنذكر فيما يلى هذا نبذات تاريخية مقتضبة فى كل نوع من هذه الفيتامينات، ذاكرين الملابسات التى قادت إلى اكتشافها، والعوامل التى ساعدت على استجلاء فوائدها وانتشار صيتها .

فيتامين ا هو الفيتامين الذى يسبب نقصه فى الغذاء فقد القدرة على الإبصار فى الظلام . . . وقد كان هذا المرض مصدر كوارث كثيرة منذ قديم الزمان ، خصوصا بين المشتغلين بصيد الأسماك أثناء الليل . . . فقد يسيرون من الصخور إلى الماء ، فتلتهمهم الأمواج وتطويهم أعماق البحار . . .

وقد ذكرت فائدة الكبد وسيلة لمعالجة هـذا المرض فى المخطوطات المصرية القديمة الموجودة على ورق البردى منذ عام ١٦٠٠ قبل الميلاد . . . وكان الصينيون منذ عام ١٥٠٠ قبل الميلاد يعطون مرضاهم الكبد والعسل وروث الوطواط وصدفة السلحفاة ، وكانت هذه المواد ذات أثر فعال فى إبراء الأعشين ، وهم المرضى بفقد الإبصار فى الظلام . . . وقد ذكر كثير من الكتاب الإغريق أهمية استعمال الكبد فى معالجة هذا المرض ، وأوصى الحكيم الإغريقى أبقراط بتناول كبد الثور بعد إشباعها بالعسل ، وذكر غيره من الكتاب أهمية الكبد فى إبراء المرضى بهذا

الداء . . . . وهكذا كان قدماء المصريين والإغريق أول من عرف هذا المرض ووصفوا لمرضاهم الكبد ، وكان بعضهم يفضل وضع زيت الكبد على العين المصابة ، بدلا من تعاطيه بالفم ! .

وقد كان التأثير السحرى العجيب الذى تحدثه الكبد فى شفاء هذا المرض مصدر إلهام بعض الشعراء . . . فكتب « جاكوب » ، وهو أحد الشعراء الهولنديين فى القرن الرابع عشر ، ما ترجمته :

إذا كنت أعشى لا تستطيع الإبصار فى الظلام
فلا بد لك من تناول كبد الأغنام
ففيها قوة الإبصار وشفاء الأجسام

ولم تتخذ هذه العلاقة بين تناول الكبد وشفاء فقد الإبصار فى الظلام مظهرها الجدى حتى عام ١٦٥٥ ، فقد ذكر العالم الإنجليزى « موفيت » أهمية هذه العلاقة فى كتابه الذى وضعه عن « تحسين الصحة » ، وقبل ذلك نصح الدكتور « بيلى » —وكان الطبيب الخاص للملكة فكتوريا — باستعمال الأعشاب النضيرة لزيادة قوة العيون وشدة إبصارها ، وقد عرف حديثاً

أن هذه الأعشاب تحتوى على المواد الكاروتينية التى تولد فيتامين ا . .

وفى أوائل هذا القرن اقتنع العلماء بأن بعض إصابات العيون الخطيرة فى الأطفال - وخصوصا مرض جفاف الملتحمة - يرجع سببه إلى نقص إحدى المواد الغذائية الضرورية . واعتقد الطبيب «مورى» فى اليابان عام ١٩٠٤ أن هذه المادة الناقصة هى نوع من الدهون ، فأعطى المرضى بجفاف الملتحمة زيت السمك ! . . .

ومرض جفاف العين غير منتشر فى غرب أوربة ، ولكن أثناء الحرب العالمية الأولى أصبحت موارد التغذية قليلة ، وباعت الدانمرك معظم الزبد الذى لديها ، واستعاض عنه الأهالى بالزبد الصناعى . . . فظهرت فى أثناء ذلك أعراض هذا المرض مصحوبة بالتهاب رئوى ، وخاصة بين الأطفال ، وقد عرف أن السبب الرئيسى هو خلو الزبد الصناعى من الفيتامين ، فأصدرت الحكومة الدانمركية عام ١٩١٧ أمرا بمنع تصدير الزبد ، وكانت النتيجة أن قل هذا المرض بدرجة كبيرة !

وقد أثبتت التجارب المختلفة التى أجريت على الفئران منذ عام ١٩٠٩ أن مرض جفاف العين سببه نقص إحدى المواد

الموجودة فى الدهون ، وأثبت بعد ذلك كل من « مكالوم » و « سيموندس » عام ١٩١٧ أن نقص أحد الفيتامينات الذائبة فى الدهون يسبب مرض جفاف العين فى الفئران ، والتهاب الملتحمة فى الأطفال . . . وتوالت النتائج بعد ذلك معلنة وجود مادتين مختلفتين فى الدهون ، إحداهما عامل النمو المقاوم لمرض جفاف العين (فيتامين ا) ، والثانية هى العامل الذى يساعد على شفاء مرض الكساح (فيتامين د) .

وقد اكتشفت فى عام ١٩٢٠ العلاقة بين مادة الكاروتين فى النباتات وبين فيتامين ا ، حيث شوهد أن قدرة بعض الخضراوات على إمداد فيتامين ا تزداد بازدياد محتوياتها من الكاروتين وتنخفض بإنخفاضها ! . . . وأثبت « مور » فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٠ أن الحيوانات تستخدم الكاروتين مصدرا من مصادر فيتامين ا ، وقد وجد أن الكاروتين يتحول إلى فيتامين ا بتأثير خميرة خاصة تفرزها أنسجة الكبد ، ويبقى الزائد منه عن حاجة الجسم مختزنا فى الكبد ! . . .

والكاروتين هى صبغيات حمر أو صفر ، وهى منتشرة انتشارا

كبيراً فى البكتيريات والطحالب والنباتات الراقية . . . ولا يعرف للآن مقدار فائدتها للنباتات ، ولكن يغلب على الظن ـ لامتزاج هذه الصبغيات الملونة بمادة اليخضور فى الأوراق ـ أن وجودها قد يكون له تأثير هام فى عملية التمثيل ، وهى عملية حيوية يتمكن النبات بواسطتها من امتصاص غاز ثانى أكسيد الكربون من الجو وتحويله إلى مواد سكرية ونشوية . . . أما فائدة المواد الكاروتينية للحيوان فتنحصر فى أنها تعتبر مصدرا أوليا هاما لفيتامين ا . . .

وقد اكتشفت باحثة أمريكية ، من المشتغلات بكيمياء الأغذية ، أن الجزر الذى ينبت فى أرض ولاية الأريزونا بالولايات المتحدة الأمريكية يحتوى على كميات كبيرة من الكاروتين تفوق مثيلاتها الموجودة فى الجزر العادى وأجريت الأبحاث الكثيرة لتعليل هذه الظاهرة ، وهل مردها إلى طبيعة التربة فى هذه الولاية ، أو إلى تأثير ضوء الشمس فى نمو النبات؟ وقد اهتم سلاح الطيران اهتماماً خاصاً بهذا الاكتشاف ، لأن الكاروتين هو مصدر فيتامين ا ، وهذا الفيتامين لا غنى عنه للابصار الدقيق فى الظلام . . . وهذه القدرة من أهم الصفات

الممتازة التى يجب أن يتصف بها رجال الطيران من المشتغلين بالمطاردات الليلية . . . . .

وأما تاريخ فيتامين ب فيسير جنباً إلى جنب مع الدراسات الخاصة بمرض البرى برى . . . وقد عرف هذا المرض فى الصين واليابان منذ قديم الزمان ، وقد كان منتشراً انتشاراً كبيراً بين البحارة اليابانيين . . . . وفى عام ١٨٨٢ عمل الجنرال « تا كا كى » على استئصال هذا المرض من البحارة بإمدادهم بغذاء خاص يتكون من الأرز والسمك والخضراوات واللحوم والشعير . . . وقد كان لهذا الغذاء تأثير كبير فى تخفيف وطأة المرض ، فبينما كان مرض البرى برى يفتك بحوالى ثلاثة وعشرين إلى أربعين فى المائة من بحارة الأسطول اليابانى بين عامى ١٨٧٨ و١٨٨٢ ، انخفضت هذه النسبة بفضل غذاء تا كا كى إلى حوالى نصف فى المائة . . . .

وقد أرسلت الحكومة الهولندية بعثة طبية . على رأسها العالم كريستيان إيكمان ، لدراسة مرض البرى برى فى الهند الشرقية الهولنديه . . . وقد كانت الأعمال الباهرة التى قامت بها هذه البعثة إحدى المقدمات التاريخية الخالدة فى اكتشاف

فيتامين ب . . . . . فقد لاحظ إيكمان أن حالات الشلل فى بعض أنواع من الدجاج — وهى حالات تشابه فى أعراضها مرض البرى برى فى الإنسان — يمكن إحداثها عملياً بتغذية الدجاج بأرز قد انتزعت منه القشور الخارجية . . . . أما إذا أطعمت هذه الطيور أرزاً غير مقشور فلا يكون هناك أى أثر للمرض ، وقد تمكن أيضاً من معالجة الدجاج المريض بإعطائه نخالة الأرز المحتوية على قشوره الخارجية . . . وقد أثبت إيكمان أن هناك عاملا هاماً مضاداً لمرض البرى برى تحتوى عليه نخالة الأرز ، وأنه يمكن استخراجه من القشور إما بمعالجتها بالماء أو بمحاليل كحولية . . . . وقد استنتج كريجنيس — وهو خليفة إيكمان فى الإشراف على البعثة الطبية الهولندية — فى عام ١٩٠١ أن مرض البرى برى فى الإنسان والتهاب الأعصاب فى الطيور سببهما نقص عامل غذائى هام موجود فى القشور الخارجية للأرز . . . .

ولم توضع نظرية كريجنيس موضع التجربة حتى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٠٥ و ١٩١٠ حين بدأ كل من فلتشر وفريزر وستانتون فى دراسة مرض البرى برى فى الملايو ! . . . . فأخذ

فلتشر بعض المصابين بهذا المرض وقسمهم طائفتين ، وأعطيت إحداهما طعاماً من الأرز المقشور ، وأعطيت الأخرى هذا الطعام مضافاً إليه نخالة الأرز أو القشور الخارجية ، وسرعان ما ظهرت النتائج ناطقة جلية ... أما أفراد الطائفة الأولى — وكان عددهم مائة وعشرين — فاستمر ستة وثلاثون منهم مصابين بالمرض ، وطوى الردى ثمانية عشر شخصاً . . . وأما أفراد الطائفة الثانية — وكان عددهم ثلاثة وعشرين ومائة — فقد شفوا من المرض إلا اثنين ، ولم يصطف الموت أى فرد منهم ... وقد تأيدت نتائج فلتشر ببعض تجارب مماثلة قام بها كل من فريزر وستانتون فى حوالى ثلاثمائة عامل من عمال الطرق . . .

كانت الخطوة الطبيعية التالية هى العمل على استجلاء مكنون هذا العامل الغذائى الموجود فى القشور الخارجية للأرز ، والذى يحدث مثل هذا التأثير السحرى العجيب . . . . ففى عام ١٩١١ حاول « فونك » ، وهو أحد علماء معهد ليستر ، أن يفصل من نخالة الأرز هذه المادة العاملة على شفاء مرض البرى برى فى الإنسان والتهاب الأعصاب فى الطيور ، وقد نجح فى تحضير محلول مركز من هذه المادة له القدرة على شفاء مرض التهاب

الأعصاب فى الحمام إذا أعطى لها جرعات صغيرة لا تتجاوز العشرين مليجراماً ! . . . . وقد ظن فونك أنه تمكن بذلك من فصل العامل المضاد لمرض البرى برى فصلا تاماً نقياً ، ولكن أثبتت الابحاث التالية أن المادة التى فصلها فونك وإن تكن غنية بمادتها الفعالة إلا أنها لم تكن كاملة النقاء . وقد استنتج فونك أن مرض البرى برى ليس هو المرض الوحيد الذى يرجع سببه إلى غياب عامل غذائى ضرورى ، ولكن يوجد غيره كثير من الأمراض يرجع حدوثها إلى نقص إحدى المواد الغذائية الضرورية ، وهذه الأمراض مثل البلاجرا والأسقربوط والكساح وغيرها .

وبينما كانت أبحاث فونك تسير سيرها الطبيعى كانت هناك تجارب غذائية هامة تجرى على الفيران.. فقد اكتشف كل من ماكولم وديفيس عام ١٩١٣ أن نخالة الأرز وسكر اللبن الخام يحتويان على مادة تزيد فى سرعة نمو الفيران ، وثبت أيضاً أن هذه المادة كثيرة الانتشار فتوجد فى الألبان والخمائر وأجنة القمح ، وقد أطلقا عليها اسم فتيامين ب . . . . وقد وجد بعد ذلك أن فيتامين النمو والفيتامين المضاد لمرض البرى برى والتهاب

الأعصاب هما مادة واحدة ، وأطلق عليهما معاً اسم فيتامين ب، وهكذا اتخذ هذا الفيتامين طريقه فى الحياة ليكون فيه شفاء للآكلين و بلسم للمصابين ...

وفيتامين ج هو الفيتامين المضاد لمرض الأسقربوط ... وهذا المرض من أشد الأخطار التى كان يتعرض له الذين يركبون البحار والمستكشفون والجيوش... وقد جاء أول ذكر لهذا المرض فى تقارير الأطباء الذين كانوا يرافقون المحاربين فى الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر ، وشوهد فى القارة الأوربية — فى أوائل القرن السابع عشر — أن هناك نقصاً ملموساً فى ضحايا الاسقربوط عقب إدخال البطاطس ، وقد قل حدوث هذا المرض تدريجياً بازدياد استعمال الموالح والخضراوات النضيرة .. وقد كان مرض الاسقربوط يسبب أشد الخسائر وأقواها خصوصاً بين البحارة ، فقد ذكر أن المستكشف البرتغالى المشهور «فاسكو دى جاما» عند ماقام برحلته التاريخية عام ١٤٩٨ حول رأس الرجاء الصالح فقد مائة من بحارته، وكان عددهم مائة وستين، هؤلاء كانوا ضحايا مرض الأسقربوط، فطواهم الردى بين ثنايا الأمواج وأعماق البحار ... وقد وجد « كارتير » أثناء رحلاته الاستكشافية فى كندا عام ١٥٣٥ أن الهنود الحمر

يشربون عصيراً خاصاً مستخرجاً من أوراق نبات الصنوبر لشفاء مرض الأسقربوط ، وما زال هذا العصير متداول الاستعمال إلى الآن فى بعض البلدان الاسكنديناڤية باعتباره أحد العقاقير لشفاء هذا المرض !...

وقد كان « البرت » عام ١٥٦٣ أول من وصف عصير الليمون لبحارته الذين كانوا يقاسون آلام مرض الأسقربوط ..وأثبت السير ريتشارد هوكينز عام ١٥٩٣ أهمية هـذا العصير فى علاج هذا المرض وشفائه ... وفى عام ١٧٢٦ أمر الأميرال « فاجنر » بحارته بتناول عصير الليمون منعاً لانتشار مرض الأسقربوط بينهم ، وحافظ الرحالة الكابتن كوك على رجاله — أثناء رحلته الخالدة حول العالم بين عامى ١٧٧٢ و١٧٧٥ — من هذا المرض بإمدادهم بقـدر المستطاع بطعام طازج من مختلف الفواكه والخضراوات النضيرة، وأصبح بعد ذلك من ضمن القوانين الأساسية للاسطول البريطانى — منذ عام ١٨٠٤ — تزويد البحارة بمقدار يومى من عصير الليمون !... وكانت هذه العلاقة بين مرض الأسقربوط وعصير الليمون سبباً مباشراً فى تخفيف وطأة المرض وطيه بين سجل الذكريات التاريخية الماضية . . . ولـكن ذلك لم يؤد إلى

استئصاله استئصالا كاملا ، إذ لا زال إلى الآن موجوداً فى بعض بلدان متفرقة من أجزاء المعمورة ، ويكثر انتشاره إبان الحروب والمجاعات ، فقد حدث فى الحرب الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) أن انتشر هــذا المرض انتشاراً خطيراً بين القوات البريطانية المحاصرة لمدينة كوت ، وحدثت أيضاً حالات مماثلة بين المدنيين من سكان جلاسجو ونيوكاسل ومانشستر بسبب فقدان الكميات الكافية من البطاطس ! . . .

ومنذ عام ١٩٠٧ ابتدأت التجارب الخاصة باستجلاء أسباب مرض الأسقربوط ودراسة مختلف أعراضه ... وقد كان اكتشاف سبب هذا المرض إحدى المصادفات السعيدة التى تقابل العلماء بين حين وحين ، فتهديهم الطريق القويم فى أبحاثهم ، وتقودهم إلى أنجح الأهداف الإنسانية وأسماها !... فبينما كان نفر من العلماء منهمكين فى تجاربهم على الخنازير الهندية ، مجتهدين فى إحداث مرض البرى برى فى هذه الحيوانات بتغذيتها تغذية ناقصة ، أنتجت هذه التجارب مرض الأسقربوط بدلا من مرض البرى برى ، فثبت بذلك أن مرض الأسقربوط يشابه مرض البرى برى فى أن كلا منهما ترجع أسبابه إلى نقص إحدى المواد الغذائية الضرورية ،

وتستعمل الخنازير الهندية منذ ذلك الحين فى كل التجارب الغذائيــة الخاصة بمرض الأسقربوط ! . . . وقد رجح فونك عام ١٩١٢ وجود فيتامين خاص مضاد لهــذا المرض ، ونجح « زلفا » وغيره من الباحثين — بين عامى ١٩٢٤ و ١٩٢٩ — فى الحصول على محاول مركز من عصير الليمون ، ووجد أن هذا العصير إذا أعطى للخنازير الهندية على هيئة جرعات يوميــة صغيرة — تختلف بين مليجرام ومليجرامين — كان ذلك كافياً لاكتساب هذه الحيوانات الحصانة الكافية ضـــد مرض الأسقربوط !... وفى عام ١٩٢٨ فصل «جيورجى» فيتامين ج، أو الفيتامين المضاد لمرض الأسقربوط، من الكرنب والكظران، ومن ثم تكرر فصل هذا الفيتامين من جملة مصادر أخرى كعصير الليمون والبرتقال .

أما فيتامين د فهو الفيتامين المضاد لمرض الكساح ، وقد عرف أن الكساح مرض من الأمراض فى النصف الأخير من القرن السابع عشر، وكان أول من درس أعراضه على أسس علمية صحيحة هو «دانييل هو يستلر» فى رسالته التى تقدم بها عام ١٦٤٥ للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة ليدن، ومنذ ذلك التاريخ

توالت الدراسات الخاصة بهذا المرض بواسطة غيره من العلماء .
ومع أن زيت السمك كان معروفا لدى الفلاحين في اسكتلندا وشمال أوروبا كوسيلة من الوسائل لمعالجة مرض الكساح ، إلا أن هذا الدواء لم يتخذ سبيله في العالم الطبي إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وقد لاقى استعماله نجاحاً منقطع النظير في ألمانيا وهولندا وفرنسا وغيرها من البلدان الأوربية . وأثبت العلامة « تروسو » في أواسط القرن الماضي أن زيت السمك من أشهر العقاقير وأشدها أثراً في معالجة مرض الكساح ! . . . وقد أجرى « چولس » عام ١٨٣٨ بعض التجارب العلمية على صغار الكلاب أثبت فيها أن مرض الكساح يرجع سببه إلى نقص إحدى المواد الغذائية الضرورية ، ووجد أن استعمال زيت السمك واللبن والعظم المجروش يشفي جراء الأسود المصابة بالكساح في حدائق الحيوانات ! . . .

وقد تضاربت الآراء في أوائل القرن الحالي في تعليل أسباب مرض الكساح ، وكان هناك نظريتان مختلفتان . أما النظرية الأولى فكانت نتيجة استنتاجات كل من العالمين فرجوسون وفيندلى على مشاهداتهما الخاصة بمرض الكساح الذي حدث

فى جلاسجو عام ١٩١٨ ، وقد رجحا أن السبب الأساسى فى حدوثه راجع إلى النقص فى الهواء النقى وأشعة الشمس والتمرينات الرياضية . . . أما النظرية الثانية فكانت نتيجة للتجارب التى قام بها « إدوارد ميلانى » فى العام نفسه ، فقد نجح هذا الباحث فى إحداث مرض الكساح فى صغار الكلاب بعد تغذيتها بطعام ينقصه إحدى المواد الموجودة فى بعض الدهون الحيوانية ، واستنتج من ذلك أن هذا المرض يرجع سببه إلى نقص إحدى المواد الضرورية ! . . وقد ظن « ميلانى » أن المادة الغذائية الموجودة فى الدهون الحيوانية والمقاومة لمرض الكساح هى بعينها فيتامين ا أو الفيتامين المضاد لمرض جفاف العين ، ولكن أثبتت التجارب بعد ذلك أن المادة الشافية لمرض الكساح تختلف اختلافاً تاماً عن تلك المقاومة لمرض جفاف العين . . . فمع أن كلا المادتين مصدرهما الدهون إلا أنهما توجدان فى مختلف أنواعها بنسب متباينة ، فمن الدهون الحيوانية ما له تأثير ضعيف فى شفاء مرض جفاف العين ، ولكنه ذو آثار فعالة فى معالجة المرضى بالكساح ، ومنها ما قد يكون له تأثير عكسى . . . ولا تتأثر المادتان بنسبة واحدة بفعل الأكسدة والحرارة ولكن بنسب متفاوتة ، إذ أن المادة

المقاومة لمرض جفاف العين يفسد مفعولها بتأثير هـذه العوامل بدرجة أكبر كثيراً من تلك التى تتأثر بها المادة المقاومة لمرض الكساح ، وقد تمكن العلماء بعد ذلك بعدة أعوام من فصل العامل المقاوم لمرض الكساح (فيتامين د) من العامل المضاد لمرض جفاف العين (فيتامين ا) من جملة مصادر دهنية .

وقد وضعت نظرية « ميلانى » ، الخاصة بانتساب مرض الكساح إلى نقص إحدى المواد الغذائية ، موضع الاختبار عام ١٩١٩ ، ففى هذا العام ذهبت الباحثة « شيك » بمرافقة بعض معاونيها إلى فيينا لدراسة مرض الكساح ، وكان هذا المرض حينذاك منتشراً إنتشاراً عظيماً فى المجاعة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى . . . ولم تكن هذه الأبحاث مقصورة على دراسة تأثير المواد الغذائية فى شفاء المرض بل امتدت آفاقها لتشمل دراسة القيمة العلاجية لأشعة الشمس وللإشعاع الضوئى الصـادر من مصابيح حاوية لبخار الزئبق، وقد أثبتت هذه التجارب التاريخية أن معالجة المصابين بمرض الكساح بتجرع زيت السمك أو التعرض لأشعة الشمس أو إشعاع الزئبق لها تأثير مفيد فى شفاء

المرض ، وسيجد القارىء ذلك مفصلا كل التفصيل فى الباب الخاص بدراسة أمراض الفيتامينات ! . . .

وفيتامين ه هو الفيتامين المضاد للعقم ، وقد ثبت حديثاً فى التجارب التى أجريت على الفيران أن غياب هذا الفيتامين فى حالة الذكور يسبب لها عقما لا يمكن شفاؤه ، أما فى الإناث فهو يؤثر فى الأجنة فيقف نموها ويسبب موتها ! وسيذكر التاريخ اسم العالم الأمريكى « هربرت ماكليان إيفانس » ، أحد أهالى كاليفورنيا ، كلما ذكر اسم هذا الفيتامين ، وكلما ذكرت منافعه وتعددت مزاياه ، فقد كان إيفانس عام ١٩٢٢ أول من عمل — بمساعدة « بيشوب » — على إثبات وجود فيتامين حيوى يسبب غيابه من الغذاء إحداث حالات العقم ، وكان أول من وضع بمساعدة « بور » عام ١٩٢٧ رسالة مطولة يصف فيها خواص هذا الفيتامين الجديد ، وما زال هـذا العمل التاريخى الخالد هو المرجع الأساسى فى دراسة هذا الفيتامين ، ووجد أن الأوراق الخضر والزيوت النباتية من أغنى المصادر وأقواها إحتواء عليه !

وقد أجريت التجارب الأولى على الفيران لدراسة تأثير هذا الفيتامين ، ووجد أن نقصه يسبب العقم عند الذكور ، ولكن لم يكن له تأثير ملحوظ فى خصوبة الإناث ، وقد اعتبر فيتامين ه منذ ذلك الحين أحد العوامل الفعالة فى قوة التناسل . . . ووجد كل من إيفانس و بور عام ١٩٢٨ أن الفيران الصغيرة ، التى تستمد لبن رضاعها من أم ينقصها فيتامين ه ، يكون مآلها دائماً إلى الهزال والشلل ، وثبت بعد ذلك أن الأرانب والخنازير الهندية إذا حرمت مصادر هذا الفيتامين فى غذائها سبب ذلك تأثيراً سيئاً فى العضلات ، وهـذا التأثير يشابه فى أعراضه حالات الشلل المعروفة فى الإنسان . . . ويلاحظ المتتبع لتاريخ الفيتامينات أن التجارب الغذائية الأولية لدراسة تأثيراتها العلاجية تجرى أولا على مختلف الحيوانات من أرانب وفيران وخنازير هندية ، ومن ثم يمتد استعمالها إلى الإنسان ، وهكذا أصبح فيتامين ه بعد نجاحه الملحوظ فى تجارب الفيران معداً للاستعمال لمعالجة الإنسان ، ومعالجة الأمراض البشرية أحد الأهداف الإنسانية السامية التى يسعى إليها الباحثون ويتوخاها العلماء . . . وقد وجد أحد الأطباء الدانيمركيين أن مرض العقم فى الأبقار يمكن

التخلص منه بإمدادها بمصدر غذائى يحتوى على فيتامين هـ ، واستطاع أيضاً أن يعالج بنجاح عظيم امرأتين كانتا دائمتى الإجهاض ، ومن ثم تعددت النتائج وترامت الأنباء من كل من انجلترا وكندا متحدثة بفضله شائدة بذكره . . . وهكذا اتخذ هذا الفيتامين طريقه إلى العالم الطبى لمعالجة حالات العقم والإجهاض ، ومعالجة مثل هـذه الحالات من أهم المظاهر وأقواها فى حفظ النسل وزيادة العمران ...

ومن أهم الفيتامينات التى اكتشفت حديثاً فيتامين ك (K) أو الفيتامين المضاد لنزف الدم . . . وقد كان أول وصف لظواهر هذا المرض فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٩ و ١٩٣٩ حيث شاهد الكثيرون من المشتغلين بتربية أفراخ الدجاج حدوث هـذا المرض بين هذه الحيوانات عندما يكون غذاؤها الرئيسى خالياً من الدهون ، وقد فسر الباحثون حدوث المرض بفقد أحد الفيتامينات الموجودة فى الدهون ، وظن فى بادئ الأمر أن هـذا النزف هو أحد أعراض مرض الأسقربوط . . . وقد جربت عدة مواد غذائية لوقف النزف ، فجرب عصير الليمون وفيتامين ج (حامض الاسكوربيك النقى) وزيت السمك وأجنة البذور وغيرها من

مختلف الزيوت النباتية ، ولكن عجزت هـذه المواد جميعها — بالرغم من غناها بمختلف الفيتامينات المعروفة — عن وقف النزف الدموى . وقـد نسب « دام » عام ١٩٣٤ حدوث هذا المرض فى أفراخ الدجاج إلى فقد إحدى المواد الذائبة فى الدهون ، وقد سماها فيتامين ك أو الفيتامين المسبب لجلطة الدم ، وكان تعليل « دام » لأسباب مرض نزف الدم تعليلا نظريا بحتاً ، ولكن أثبت « ما كفارلين » وغيره من الباحثين عام ١٩٣١ أن فيتامين ك هو أحد أفراد المجموعة الفيتامينية الذائبة فى الدهون ، ووجد أن الكتاكيت المصابة بالنزف يمكن علاجها بإمدادها بطعام يحتوى على لحوم الأسماك . . . ولكن إذا عولجت هذه اللحوم قبل استعمالها بإحدى مذيبات الدهون فإن اللحوم الناتجة الخالية منها لا يكون لها أى تأثير علاجى ، وأمكن الحصول على محلول مركز من هذا الفيتامين باستخلاص المحتويات الدهنية بواسطة الإيثير من مختلف المواد الغذائية .

ولم تتخذ دراسة العلاقة بين نقص فيتامين ك وحدوث نزف الدم مظهرها الجدى إلا عام ١٩٣٦ ، وقبل أن نصف هذه العلاقة يجب علينا معرفة طريقة تكوين جلطة الدم ، فالدم عند مفارقته

الأجسام الحية يجمد بتكوين مادة ليفية خاصة ، وتحدث هذه الظاهرة بتأثير خميرة تعرف بالفيبرين ، وتتكون هـذه الخميرة من مادة أولية موجودة فى الدم تعرف بالبروفيبرين . وقد وجد الباحثون أن صغار الدجاج المصابة بالنزف الدموى يكون دمها خالياً خلواً تاماً من المادة الأولية المولدة لخميرة الفيبرين وهى البروفيبرين ، على حين توجد هذه المادة فى غيرها من أفراخ الدجاج الصحيحة العادية ، وأثبت « كويك » عام ١٩٣٧ أن كمية البروفيبرين الموجودة فى دم أفراخ الدجاج تنقص تدريجياً عند تغذيتها بمأكولات خالية من فيتامين ك ، ويستمر هـذا النقص حتى يصل إلى درجة معينة يظهر بعدها نزف الدم ، ولكن هـذه الأعراض تزول زوالا سريعاً عند إمداد الجسم بمواد غذائية غنية بهذا الفيتامين ، فتزداد تبعاً لذلك كمية البروفيبرين وتختفى أعراض النزف . . . ومن ذلك نرى أن نقص كمية البروفيبرين فى الدم — هـذا النقص الذى يتوقف على عدم الحصول على فيتامين ك — من أهم الأسباب فى عدم حدوث جلطة الدم .

وقد وجد أن نقص فيتامين ك فى الإنسان وغيره من الثدييات — وما يتبعه من نقص البروفيبرين وحدوث النزف — لا يرجع سببه إلى عوامل سوء التغذية وخلو الأطعمة من هذا الفيتامين فقط ولكن قد يكون سببه أيضاً غياب الصفراء فى الأمعاء ، والصفراء مادة ذهبية اللون ، غروية الملمس ، يفرزها الكبد ، وهى تتركب من أملاح صفراوية وكولسترين ومخاط وبعض أصباغ .

وقد اكتشف فيتامين ل (P) عام ١٩٣٦ حيث وجد «جيورجى» أن مسحوق الفلفل الأحمر المجرى وعصير الليمون يحتويان على مادة تفوق فيتامين ج فى تأثيرها العلاجى الخاص بمنع الدم من النفاذ من الأوعية الحاوية له ، وقد أثبت هذا الفيتامين فوائده العلاجية إذ استعمل بنجاح فى علاج ثلاثة من المصابين بمرض المرفورية ، وعولجت به أيضاً حالات من الأمراض المعدية والأوذيما المخاطية وزيادة الإفرازات البولية .

وقد وجد جيورجى أن فيتامين ل يقلل من عدد حالات النزف الدموى فى الخنازير الهندية المصابة بمرض الأسقربوط ، كما أنه يمد فى أعمارها من ثمانية وعشرين يوماً ونصف يوم إلى

أربعة وأربعين يوماً ، إذا أعطيت جرعات يومية من هـذا الفيتامين . ويرى بعض العلماء أن الأعراض المرضية للأسقربوط فى الخنازير الهندية ناتجة عن نقص فيتامين ج وفيتامين ل معاً ، وما زالت الأبحاث الخاصة بفيتامين ل تحبو فى طفولتها وتتعثر فى بدايتها ! . . .

٤

خواص الفيتامينات ومصادرها

إن معرفة الخواص المختلفة التى يتميز بهـا كل نوع من الفيتامينات كانت دائماً من أهم المسائل التى أخذ العلمـاء فى استجلاء غوامضها والوقوف على أسرارها ، لأن دراسة هذه المميزات هى الخطوة الأولى فى سبيل الاستفادة من هذه العناصر الغذائية الجوهرية ... كما أن معرفة المصادر المختلفة التى يستطيع الإنسان التعويل عليها لاستيفاء حاجته من الفيتامينات قد نالت قسطاً وافراً من اهتمام الباحثين، فكلما ترامت الأنباء باكتشاف نوع جديد من الفيتامينات أخذ الباحثون فى توجيه عنايتهم إلى تحليـل الأنواع المختلفة من الاغذية كى يتوصلوا إلى معرفة الأطعمة التي تحتوى على هذا النوع الجديد . ولذلك كانت معرفة خواص الفيتامينات ومصادرها من الموضوعات التى يجب على الإنسان أن يلم بها إلماما تاما ، حتى يتمكن من القيام بتنظيم غذائه على أسس علمية صحيحة ، تكفل له صحة الجسم وسلامته من فتك الامراض الناتجة عن نقص الفيتامينات !

وفيتامين ا — أول هذه الفيتامينات — هو اسم عام لنوعين متشابهين من الفيتامينات أطلق عليهما اسم فيتامين ا١ وفيتامين ا٢ ، ويوجد الفيتامين الأول فى الحيوانات وفى الاسماك البحرية ، على حين يوجد النوع الثانى فى الأسماك التى تعيش فى المياه المذبة ، ولما كان هذان النوعان من الفيتامينات يتشابهان فى تركيبهما الكيميائى وفى تأثيرهما الحيوى فقد نطلق عليهما معاً اسم فيتامين ا . . .

ومن مميزات هذا الفيتامين أنه يذوب فى الدهون ، ولذلك كانت الدهون المستخرجة من مختلف أنواع الحيوانات تعتبر أهم المصادر التى يستطيع الإنسان التعويل عليها فى الحصول على الكميات اللازمة له من هذا الفيتامين . وهو يوجد فى اللبن والزبد وزيت السمك ودهون الأبقار والبيض وغيرها من المواد ، كما أنه يختزن بكميات كبيرة داخل أكباد الحيوانات المختلفة . ولا يحصل الإنسان على ما يحتاج إليه من فيتامين ا من هذه المواد فحسب ولكنه يحصل عليه أيضاً من النباتات المختلفة التى يتناولها مع الغذاء ، وذلك لأن هذه النباتات تحتوى على عدة أنواع من الصبغيات الحمر أو الصفر التى يطلق عليها جميعاً اسم الكاروتين ،

وفائدة الكاروتين للإنسان هو أنه يتحول داخل الجسم إلى فيتامين ا .

وقد قام عدد من الباحثين فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٣٠ و ١٩٣٧ بفصل فيتامين ا وتحضيره تحضيراً نقياً ، ومعرفة تركيبه الكيميائى ، وتحديد العلاقة بينه وبين المواد الكاروتينية . وفى عام ١٩٣٧ قام كل من هولمز وكوربيت بتحضير فيتامين ا فى صورة بلورات صفر ، تنصهر عند درجة حرارة منخفضة حيث تتحول إلى مادة لزجة زيتية . ولا يتحلل فيتامين ا الموجود فى الزبد إذا سخن إلى درجة عالية وكان الأكسيجين غائباً ، أما إذا كان الأكسيجين موجودا فإن فيتامين ا يتحلل ببطء حتى فى درجة حرارة الجو العادية ، وهو يتحلل أيضاً بفعل الضوء ، فقد وجد أن كمية الفيتامين الموجودة فى زيت السمك تتضاءل تدريجياً إذا عرض هذا الزيت للضوء فترة طويلة ، ولذلك فإنه يجب أن يوضع زيت السمك فى زجاجة دكناء !

ولما كان الكاروتين يتحول داخل جسم الإنسان إلى فيتامين ا فقد وجه العلماء اهتمامهم إلى هذه المادة النباتية ، فأخذوا يواصلون أبحاثهم عليها حتى يعرفوا الطريقة التى تتحول بواسطتها إلى

فيتامين ا ، ويدرسوا مقدار استفادة الجسم الإنسانى من كميات الكاروتين التى يحصل عليها دائماً من الخضراوات وغيرها من الأغذية . ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ان الإنسان لا يستطيع أن يقوم بتكوين مادة الكاروتين فى داخل جسمه ، كما لا تستطيع الحيوانات الأخرى المختلفة أن تقوم بصنعها فى داخل أجسامها، بل ان الكاروتين لا يتكون إلا فى النباتات المختلفة ، ولا يستطيع الإنسان أن يقوم بصنع احتياجاته من فيتامين ا إلا من المواد الكاروتينية ، فليس هناك أى نوع آخر من المواد يستطيع الإنسان استخدامه فى هذا السبيل . وهناك اختلاف فى الرأى فى كمية الكاروتين التى تمتصها الأجسام من مختلف الأغذية ، فقد وجد أحد الباحثين أن الكاروتين — الموجود فى السبانخ — إذا أضيف إلى غذاء الإنسان فإن الجسم يمتص منه كمية كبيرة ، على حين وجدت باحثة أخرى أن كاروتين السبانخ ما هو إلا مصدر ضعيف لفيتامين ا ، إذ أن أثره لا يزيد على نصف أثر الكاروتين الموجود فى البسلة الخضراء ، كما وجد أيضاً أن الكاروتين الموجود فى زيت بذرة القطن لا يزيد مفعوله على نصف

مفعول فيتامين ا الموجود فى زيت السمك ، لأن أغلبية هذا الكاروتين تترك الجسم مع البراز .

ويستمر امتصاص الكاروتين من الأمعاء مدة يومين أو ثلاثة بعد تناوله مع الطعام ، ويلزم وجود المواد الدهنية لكي يمتص الكاروتين امتصاصاً جيداً ... فقد وجد أن الإنسان إذا تناول طعاما خالياً من الدهون فإن نسبة الكاروتين التى يمتصها الجسم تهبط إلى النصف ، كما وجد أن الحمى والإسهال يضعفان من امتصاص الكاروتين فى الجسم ، وقد أظهرت بعض التجارب — التى أجريت على الحيوانات — أن نسبة الكاروتين التى تمتصها أجسامها تختلف بين عشرة وعشرين فى المائة إن كان طعامها خالياً من المواد الدهنية ، وأن هذه النسبة ترتفع إلى ثمانين أو تسعين فى المائة إذا أضيف إلى طعامها كمية من الدهون ... ويغلب على الظن أن أهمية المواد الدهنية تنحصر فى أنها تذيب الكاروتين بداخلها ، وبذلك تقدمه للامتصاص على هيئة مستحلب دقيق ، كما وجد أيضاً أن الصفراء — وهى المادة التى يقوم الكبد بإفرازها — من العوامل الضرورية لامتصاص الكاروتين فى الجسم ، إذ لاحظ بعض الباحثين أن

الصفراء إذا منعت من الوصول إلى الأمعاء فى حيوانات التجارب فإن الكاروتين لا يمتص فى داخل الجسم إلا اذا أعطيت هذه الحيوانات كمية من أملاح الصفراء ، وعندما يتم امتصاص الكاروتين فى جدار الأمعاء تحمله الأوعية الليمفاوية إلى الكبد، حيث يتحول هناك إلى فيتامين ا بفعل خميرة خاصة تفرزها الكبد تسمى « الكاروتينيز » ... وقد لوحظ أنه إذا أطعمت الفيران — بعد حرمانها فيتامين ا فترة من الزمن — كمية من الكاروتين فإن هذا الفيتامين يظهر مرة أخرى فى الكبد ، كما أنه إذا أضيف إلى الكاروتين قطعة من الكبد الطازج أو كمية من خلاصته فإنه يتحول بتأثيرها إلى فيتامين ا .

وتعتمد الحيوانات آكلة الأعشاب اعتماداً تاماً على الكاروتين فى الحصول على احتياجاتها من فيتامين ا ، أما الحيوانات التى تتناول شتى أنواع الطعام — وكذلك الإنسان — فإنها تحصل على هذا الفيتامين من المواد الكاروتينية الموجودة فى النباتات المختلفة ومن المحتويات الفيتامينية الموجودة فى الأغذية الحيوانية. وقد وجد أن الأطفال ينتفعون كثيراً من الكاروتين كمصدر لفيتامين ا ، كما وجد أن بعض الحيوانات آكلة اللحوم ليس فى

استطاعتها تحويل الكاروتين إلى فيتامين ا فى الأحوال العادية، ولذا فهى لا تستطيع الاعتماد على المواد الكاروتينية فى الحصول على حاجتها من هذا الفيتامين ... ولا يزال هناك شىء من الغموض فى تعليل الكيفية التى تستطيع الأسماك بواسطتها اختزان كميات كبيرة من فيتامين ا داخل أكبادها ، وكذلك بخصوص الفوائد التى تعود عليها من اختزانها ، والمصدر الأساسى الذى تحصل منه الأسماك على فيتامين ا هو المواد الكاروتينية الموجودة فى الطحالب والأعشاب البحرية .

أما فيتامين ب فهو من الفيتامينات الهامة التى نالت قسطاً وافراً من اهتمام العلماء والباحثين . وقد ظل فى بادىء الأمر أن هذا الفيتامين إن هو إلا مادة واحدة ، ولكن أثبتت التجارب المختلفة أنه يتركب من عدة مواد أطلق عليها جميعاً اسم فيتامين ب المركب ، أو مجموعة فيتامين ب ، وتتركب هذه المجموعة المعقدة من سبع مواد مختلفة فى تركيبها ، متباينة فى أهميتها وتأثيرها وقد سميت هذه المواد فيتامين ب$_{١}$ وفيتامين ب$_{٢}$ . . إلى فيتامين ب$_{٧}$.

وأول هذه المجموعة هو فيتامين ب$_{١}$ ، أو الفيتامين المضاد لمرض البرى برى ، وهو كثير الانتشار فى الأطعمة الطازجة، وتعتبر

الأعصاب فى الحمام إذا أعطى لها جرعات صغيرة لا تتجاوز العشرين مليجراماً ! . . . . وقد ظن فونك أنه تمكن بذلك من فصل العامل المضاد لمرض البرى برى فصلا تاماً نقياً ، ولكن أثبتت الأبحاث التالية أن المادة التى فصلها فونك وإن تكن غنية بمادتها الفعالة إلا أنها لم تكن كاملة النقاء . وقد استنتج فونك أن مرض البرى برى ليس هو المرض الوحيد الذى يرجع سببه إلى غياب عامل غذائى ضرورى ، ولكن يوجد غيره كثير من الأمراض يرجع حدوثها إلى نقص إحدى المواد الغذائية الضرورية ، وهذه الأمراض مثل البلاجرا والأسقربوط والكساح وغيرها .

وبينما كانت أبحاث فونك تسير سيرها الطبيعى كانت هناك تجارب غذائية هامة تجرى على الفيران .. فقد اكتشف كل من ماكولم وديفيس عام ١٩١٣ أن نخالة الأرز وسكر اللبن الخام يحتويان على مادة تزيد فى سرعة نمو الفيران ، وثبت أيضاً أن هذه المادة كثيرة الانتشار فتوجد فى الألبان والخمائر وأجنة القمح ، وقد أطلقا عليها اسم فتيامين ب . . . . وقد وجد بعد ذلك أن فيتامين النمو والفيتامين المضاد لمرض البرى برى والتهاب

فإنه يستهلك مقداراً كبيراً من سكر الجلوكوز ، وينتج عن ذلك تراكم كميات كبيرة من حامضى اللاكتيك والبيروفيك فى داخل المخ والعضلات بنسبة تفوق مستواهما العادى ، ويلزم استهلاك كمية كبيرة من فيتامين ب١ لكى يتخلص الجسم من هذين الحامضين . فإذا بقى الإنسان يقظاً أو إذا استمر فى القيام بهذه المجهودات فإنه يفقد تدريجياً كمية الفيتامين المختزنة بأكملها . ولكن يتجمع التعب على الجسم وتظهر حاجة الإنسان للنوم باعتبار ذلك عوامل طبيعية تقى الجسم من استهلاك الفيتامين المختزن ، وعند ماترجع نسبة هذين الحامضين إلى مستواهما العادى — أثناء الراحة أو النوم — فإن التعب يزول ويعاود الإنسان شعور اليقظة والنشاط . فالتعب أو الشعور بالنوم هما من المظاهر الفسيولوجية التى تعترى الإنسان بين الفينة والفينة نتيجة نقص فيتامين ب١ نقصاً وقتياً . وليس هناك شك فى أن الإنسان إذا تناول غذاء يحتوى على مقدار كبير من المواد السكرية والنشوية فإن أعراض نقص الفيتامين تظهر عليه أسرع مما لو تناول غذاء يحتوى على مقدار كبير من المواد الدهنية . وأثبتت التجارب أننا إذا أعطينا الحمام طعاماً غنياً بالنشويات والسكريات

— ولا يحتوى على شىء من الدهون — فإن أعراض نقص الفيتامين تظهر عليه بعد تسعة عشر يوماً ، أما إذا أعطيناه غذاء غنياً بالدهون ـ وخاليا من المواد السكرية والنشوية ـ فإن هذه الأعراض تظهر عليه بعد مرور سبعة وعشرين يوما .

ويغلب على الظن أن فيتامين ب١ قد يكون له علاقة ما بنشاط الغدة الدرقية ، إذ لوحظ بعض التغيير فى تركيب هذه الغدة بعد مرور فترة من الزمن لم يتناول المريض خلالها الكمية اللازمة من هذا الفيتامين . . . كما شوهد أن الحمام إذا أطعم أرزاً مقشوراً — وهو خالى من فيتامين ب١ — تظهر عليه عدة أعراض، منها إنخفاض درجة حرارة الجسم و بطء النبض، وهذه الأعراض تظهر غالباً نتيجة لعدم نشاط الغدة الدرقية . الذى يرجع بدوره إلى نقص فيتامين ب١ .. كما وجد أن حقن الخنازير الهندية بهذا الفيتامين يؤدى إلى نشط الغدة الدرقية بدرجة ملحوظة ، وتبين هذا من فحصها مجهريا (ميكروسكوبيا) . وقد وجد أيضاً أن فيتامين ب١ يلعب دوراً هاماً فى تكاثر الفيران ، إذ تتأثر خصوبة هذه الحيوانات بدرجة خطيرة إذا حرمت تناول هذا الفيتامين ، كما أنه يؤدى إلى بعض الاضطرابات الخاصة

بتكوين اللبن في إثداء الإناث منها ، كما أن الفيران تصبح أكثر قابلية للعدوى بالأمراض من الفيران العادية .

وقد قام عدد الباحثين الأمريكيين بإجراء بعض التجارب على الأطفال لمعرفة الأثر الذى يحدثه نقص فيتامين ب ١ فى نموهم ، فأضافوا إلى غذائهم اليومى كمية من هذا الفيتامين النقى وبعض المواد الأخرى المحتوية عليه — مثل بادرة القمح والخميرة وقشور الأرز — فوجدوا أن نمو هؤلاء الأطفال كان أسرع من نمو الأطفال الآخرين ، الذين لم يضف إلى غذائهم مثل هذه المواد . ولا يستطيع الإنسان أن يصنع فيتامين ب١ فى داخل جسمه ، كما أنه غير قادر على القيام باختزانه بكمية كبيرة . وهو يمتصه من الغذاء الذى يتناوله فى داخل الأمعاء الدقيقة ، وقد لا يتم امتصاص هذا الفيتامين — حتى لو أخذ بكميات كبيرة — داخل الأمعاء فى بعض حالات الاضطرابات الهضمية كالقىء والإسهال وغيرهما ، فيخرج الفيتامين من الجسم دون أن يستفيد الإنسان منه .

أما فيتامين ب٢ — ويعرف أيضاً بالريبوفلافين — فتبدأ قصته منذ عام ١٩٣٢ حيث وصف كل من العالمين ور.برج

وكريستيان خميرة جديدة صفراء ، قالا فى وصفها إنها تقوم بدور هام فى عملية التنفس . وقد حصل بعض الباحثين بعد ذلك — عند محاولتهم فصل فيتامين ب $_٢$ من البيض — على مادة صفراء مائلة إلى الخضرة، وقد وجدوا أنها تشبه هذا الفيتامين من حيث قدرتها على تنشيط النمو فى الحيوانات ، كما لاحظوا أن انتشارها فى الأغذية المختلفة مشابه لانتشار فيتامين ب $_٢$ ، وقد وجهوا الأنظار إلى أنه قد يكون هناك علاقة بينها و بين الخميرة الصفراء التى اكتشفها وربرج وكريستيان . وأظهرت الأبحاث بعد ذلك أن هناك تشابهاً كبيراً بين فيتامين ب $_٢$ و بين هذه المادة الصفراء « الريبوفلاڤين » !

وقد فصلت مادة الريبوفلاڤين من عدة أنواع من الأغذية الطبيعية ، فهى توجد فى البيض واللبن والكبد والكلى والبطارخ والأعشاب والشعير والخميرة ، وتعتبر هذه الأغذية من أهم مصادرها للإنسان . . . ومادة الريبوفلاڤين قابلة للذوبان فى الماء بدرجة يسيرة جداً ، ولكنها لا تذوب فى الدهون على الإطلاق ، وهى تتحلل إذا عرضت للضوء أو لفعل الأشعة فوق البنفسجية ، ولذا فإنها تحفظ فى أنابيب مغطاة بالورق الأسود أو يكون لون زجاجها أدكن ، وهى تقاوم التسخين بدرجة كبيرة كما أنها لا تتأثر بفعل

أكسيجين الجو ، ولذلك فإنها لا تتحلل أثناء عمليات الطهو العادية . . . ويساعد فيتامين ب٢ على أكسدة المواد السكرية والنشوية فى داخل الأجسام ، ليمدها باحتياجاتها من الطاقات المختلفة التى تساعدها على الكفاح فى معترك الحياة .

أما الفيتامينات ب٣ وب٤ وب٥ فقد أجريت عدة تجارب تتعلق بها على أنواع مختلفة من الحيوانات كالحمام والدجاج والفيران وغيرها ، وقد وجد أنها ضرورية لنمو هذه الحيوانات ، ولكن لم تعرف فى الوقت الحاضر علاقة هذه الفيتامينات بالإنسان معرفة دقيقة ، كما أن أهميتها فى التغذية لم تتحدد بعد .

وفيتامين ب٦ اكتشفه جيورجى عام ١٩٣٤ ، ووجد أننا إذا أطعمنا الفيران بغذاء لا يحتوى عليه فإنها تصاب بمرض التهاب الجلد ، وتعتبر الخميرة والكبد والحبوب والبقول — كالبسلة والفول والعدس — من أهم مصادر هذا الفيتامين .

وفيتامين ب٧ هو آخر الفيتامينات التى تتألف منها مجموعة فيتامين ب ، ويطلق عليه أيضاً اسم « حامض النيكوتينيك » أو « النياسين » ، كما أنه يعرف بالفيتامين المضاد لمرض البلاجرا . . . ولقد ظلت علاقة فيتامين ب٧ بالتغذية مجهولة عدة سنوات بعد

اكتشافه إلى أن وجه إليه الأنظار عدد من الباحثين ، فقد لوحظ أن له بعض الخواص التى تعمل على تنشيط النمو ، كما وجد أيضاً أنه من العوامل الضرورية لنمو بعض الكائنات الصغيرة . وهو يشبه الفيتامينات الأخرى التى تتكون منها مجموعة فيتامين ب فى أنه كثير الانتشار فى مختلف الأغذية ، وخصوصاً منتجات اللحوم كالكبد والبيض والسلمون ، ويوجد أيضاً فى الحبوب الكاملة . وهو عبارة عن مادة صلبة بلورية بيضاء ، وهو من أشد الفيتامينات مقاومة للحرارة ، فهو لا يتحلل فى عمليات الطهو العادية ، كما لا يتحلل بتعريضه للهواء أو للأشعة الضوئية .

وفيتامين ب٧ يعتبر من أنفع الفيتامينات وأبعدها أثراً فى تجنيب الإنسان ويلات بعض الأمراض المؤذية ، وفى تنظيم بعض العمليات الفسيولوجية الداخلية . وقد استطاع « الفيجيم » ومساعدوه — أثناء دراستهم لمرض البلاجرا الذى يصيب الدجاج — أن يقوموا بفصل هذا الفيتامين من خلاصة الكبد ، عندما لاحظوا أن لتلك الخلاصة أثراً كبيراً فى علاج هذا المرض ، وقد اختبروا بعد ذلك أثر هذا الفيتامين فى علاج الكلاب المصابة بمرض سواد اللسان — وهو مرض يشبه كثيراً

مرض البلاجرا الذى يصيب الإنسان — فوجدوا أنه يعمل على شفائها ، وكان ذلك حافزاً لاختباره فى علاج مرض البلاجرا ، وظهرت بعد ذلك عدة أبحاث متتابعة تؤيد جميعها أن نقص هذا الفيتامين من الغذاء هو أحد العوامل الرئيسية التى تؤدى إلى ظهور هذا المرض . وهناك من الأدلة ما يثبت أن فيتامين ب٧ له علاقة بأكسدة المواد السكرية والنشوية فى الجسم ، كما يعتقد بعض الباحثين أنه يلعب دوراً هاماً فى أكسدة هذه المواد فى داخل المخ ، وقد يكون ذلك تفسيراً لحدوث الاضطرابات العقلية التى تلاحظ على المصابين بمرض البلاجرا . وقد وجد أن إعطاء فيتامين ب٧ للأرانب المصابة بالأنيميا (فقر الدم) يجعل كمية الهيموجلوبين الموجودة فى الدم تعود إلى حالتها الطبيعية ، كما تزداد الكرات الحمر ويصبح عددها طبيعياً أيضاً فى فترة أسرع من تلك التى تستغرقها الأرانب إذا لم تعط هذا الفيتامين ، ولذا فقد أجريت عدة تجارب لاختبار قوة فيتامين ب٧ فى علاج الأنيميا فى الإنسان ، ووجد أن له أثراً فعالا فى علاجها .

ومن الفوائد التى تعود على الإنسان من الحصول على هذا الفيتامين أنه يقوم بتنبيه الإفراز المعدى ، وقد عالج « كراندال » خمسة

وستين مريضاً ببعض الاضطرابات الهضمية بهذا الفيتامين مدداً تختلف بين الشهرين والعامين ، وقد حصل على نتائج باهرة فى كثير من الحالات .

أما فيتامين ج فهو الفيتامين المضاد لمرض الأسقربوط ، وهو يوجد فى كثير من الفواكه والخضراوات النضيرة ، وتعتبر ثمار الورد والزبيب الأحمر والأسود والشليك والكرنب والموالح من أهم مصادر هـذا الفيتامين ، كما يحتوى البطاطس والسبانخ واللفت أيضاً على كميات كبيرة منه ، ولا يوجد هذا الفيتامين فى الفواكه والخضراوات فحسب ولكنه يوجد أيضاً بكميات قليلة فى اللحوم . ويعتبر الورد أغنى مصادر هذا الفيتامين على الإطلاق ، وتختلف كمية الفيتامين الموجودة باختلاف التربة التى تزرع بها هـذه الورود ، وقد نظمت فى انجلترا عام ١٩٤١ حملة كبيرة — قام بها طلبة المدارس وأفراد الكشافة وفرق المرشدات وغيرها — لجمع الورد من جميع أنحاء هـذه البلاد ، وقد استخرج من الكميات الهائلة التى جمعت من تلك الورود عصير استخدم مصدراً لفيتامين ج وخصوصاً للأطفال .

. . . وفيتامين ج عبارة عن مادة بلورية تذوب بسهولة فى

الماء ، و إذا ترك هذا الفيتامين جافا ولم يعرض للضوء فإنه يبقى ذا أثر فعال وقتاً طويلا ، فقد وجد أن بعض أقراص فيتامين ج لم تتحلل بعد بقائها عامين كاملين فى بعض البلاد الحارة ، ولكنه يتحلل بشكل واضح إذا عرض للضوء المرئى أو لفعل الأشعة فوق البنفسجية .

ولقد كان من الشائع حتى وقت قريب أن معظم فيتامين ج الموجود فى الأغذية يتحلل أثناء طهو الطعام ، ولكن ظهر الآن خطأ هذا الرأى ، وذلك لأن الأغذية الطبيعية تحتوى على بعض الأحماض العضوية التى تمنع تحليل هذا الفيتامين أثناء التسخين ، ولذلك فإن مايتحلل منه أثناء طهو الطعام إن هو إلا مقدار قليل ، وكلما كانت عملية الطهو سريعة قل المقدار المتحلل من هـذا الفيتامين . والجزء الأكبر الذى يفقد من فيتامين ج أثناء تلك العملية لايكون ناتجاً عن التسخين ، ولكنه ينتج عن استخلاص هـذا الفيتامين من الخضراوات بواسطة ماء الطهو ، الذى قد يلقى جانباً فلا يستفيد الإنسان من الفيتامين الذائب فيه . . . وقد وجد أن ماتبقى من الفيتامين — أثناء عمل المربيات من الفواكه — يعادل تقريباً ثلث الفيتامين الموجود فى

الفواكه الطازجة . ويقلل وجود السكر من تحليل فيتامين ج — الموجود فى عصير هذه الفواكه — أثناء عملية التسخين ، ولذا كانت إضافة السكر إلى الفواكه قبل طبخها لها أهمية كبيرة فى المحافظة على المحتويات الفيتامينية الموجودة فى الفواكه .

وعندما تجمع الفواكه والخضراوات سرعان ما تتكون بداخلها خميرة خاصة تعمل ببطء على تحليل الفيتامين الموجود فيها ، ولكنها لا تفقد كمية تذكر من هذا الفيتامين إذا حفظت فى داخل الثلاجات . ويؤثر تجفيف المأكولات فى هذا الفيتامين تأثيراً غير مباشر ، وذلك لأنه بالرغم من أن فيتامين ج لا يتحلل بواسطة عملية التجفيف نفسها فإن هذه العملية تؤدى إلى تحليل المواد التى تقى هذا الفيتامين من الفساد ، وتكون النتيجة الطبيعية لذلك أن الفيتامين نفسه يأخذ فى التحلل بعد ذلك . . . ويكون التجفيف بواسطة الشمس أبعد أثراً فى تحليل هذا الفيتامين من التجفيف الصناعى ، ومن ذلك نرى أن المأكولات المجففة لا يمكن الاعتماد عليها فى الحصول على احتياجاتنا من هذا الفيتامين !.

وتقوم كل النباتات الراقية بصنع فيتامين ج ، كما يرجح أن بعض الكائنات البسيطة التركيب كالميكروبات (البكتريا) والفطريات

تقوم بصنعه أيضاً . . . وهناك عدة حيوانات مختلفة تستطيع أن تصنع هـذا الفيتامين فى داخل أجسامها ، أما الإنسان والقردة والخنازير الهندية و بعض الحيوانات الحافرية فلا تستطيع صنع هذا الفيتامين ، بل لابد لها أن تحصل عليه مع المواد الغذائية .

وفيتامين د هو الفيتامين المضاد لمرض الكساح ، ويوجد النوع الطبيعى لهذا الفيتامين فى زيت السمك والزبد ومح البيض (صفاره) ، أما النوع الصناعى فهو الذى يتكون نتيجة تعريض مادة « الأرجسترول » لفعل الأشعة فوق البنفسجية ، و يتشابه هذان النوعان كثيرا فى تأثيرهما وخواصهما . وتحصل الحيوانات المختلفة على هـذا الفيتامين إما مع الغذاء أو بتأثير أشعة الشمس على مادة الأرجسترول الموجودة فى جلودها ! . . . ويظهر أن تحويل مادة الأرجسترول إلى فيتامين د يتم فوق سطح الجلد أكثر مما يتم بداخله ، فقد لوحظ أن الطيور تلتقط بمناقيرها إفراز الغدة الزيتية الموجودة بالقرب من ذيلها ، وتأخذ فى نشرها فوق ريشها ، وعندما تتعرض هذه المادة الزيتية للأشعة الشمسية تتحول بعض عناصرها إلى فيتامين د ، و يمتص هذا الفيتامين بعد ذلك خلال الجلد أو يقوم الطائر بلعقه من

الريش ، وقد أثبتت التجارب أن إزالة الغدة الزيتية فى الطيور يجعلها قابلة للاصابة بمرض الكساح ، كما يجعل الأشعة فوق البنفسجية عاجزة عن شفائها من هذا المرض ، ويظهر أيضا أن فراء الحيوانات المختلفة هى المكان الذى يتكون فيه فيتامين د ، فإذا حرمت الفيران لعق فرائها فلا تنفع أشعة الشمس فى علاجها . . وكثيرا ما تشاهد القطط والأرانب وغيرها من الحيوانات وهى تقوم بلعق فرائها وقتا طويلا ، وما هـذه إلا وسيلة طبيعية للحصول على فيتامين د ، الذى يتكون داخل هذه الفراء بفعل أشعة الشمس على المواد الزيتية التى يفرزها الجلد .

وتتحول المادة الدهنية التى يفرزها جسم الإنسان إلى فيتامين د بفعل أشعة الشمس فوق سطح الجلد ، ولذلك كان من الخطأ أن يذهب الإنسان بعد أخذ حمام شمسى للسباحة مباشرة ، ويرجع سبب ذلك إلى أن الماء يغسل فيتامين د قبل أن يترك للجلد وقتا كافيا لامتصاصه داخل الجسم . ولا تتحول مادة الأرجسترول ـ الموجوة داخل الجلد فى الإنسان ـ إلى فيتامين د إلا بالقرب من سطح الجلد ، وذلك لأن الأشعة فوق البنفسجية لا تخترق الجلد إلا مسافة ضئيلة لا تتجاوز عشر

المليمتر ، وسواء تكون فيتامين د فى الإنسان فوق سطح الجلد أو بداخله فهو يمتص بعد ذلك من الجلد إلى داخل الجسم . أما فيتامين د الذى يتناوله الإنسان مع الطعام فيتم امتصاصه فى الأمعاء دون أن يتغير فى تركيبه بفعل العصارات الهضمية ، ولكن لابد من وجود المرارة أو الصفراء لإتمام عملية الامتصاص.. وقد أجرى «تيلور» و بعض مساعديه عدة تجارب على الكلاب، فوجد أن منع المرارة من الوصول إلى الأمعاء يعوق امتصاص الفيتامين المأخوذ بالفم ، ولكن إذا أعطيت لها كمية من أملاح الصفراء مع الفيتامين أدى ذلك إلى امتصاصه داخل الأمعاء ! وتقوم أعضاء الجسم المختلفة باختزان فيتامين د بداخلها أوقاتا تختلف باختلاف هذه الأعضاء ، فهو يختزن فى داخل المخ لمدة تختلف بين أسبوع وأسبوعين ، وفى داخل الأمعاء الدقيقة من خمسة أسابيع إلى ثمانية ، وفى داخل الرئتين والكليتين من ستة أسابيع إلى تسعة ، وفى داخل الكبد بين شهرين وثلاثة شهور .

أما فيتامين هـ ــ وهو الفيتامين المضاد للعقم ــ فهو كثير الانتشار فى الأوراق الخضر كأوراق الخس وغيرها ، وفى بادرات

الحبوب التى تعتبر أغنى مصادر لهذا الفيتامين . . . وقد قام بعض الباحثين بتقدير كمية الفيتامين الموجود فى بادرة القمح وفى الزيت المستخرج منها فتبين لهم أن هذين المصدرين يحتويان على كميات كبيرة منه ، ولذلك فهما يعتبران إلى الآن أهم الأغذية الغنية بفيتامين هـ ، ووجد أيضا أن الفيتامين الطبيعى الذى يوجد فى زيت بادرة القمح أو فى الأنسجة النباتية والحيوانية يتحمل الحرارة بدرجة كبيرة ، ولذلك كان طهو الأغذية المحتوية على هذا الفيتامين لا يفقدها خصائصها ومزاياها ، بل يظل أثرها بعد هـذه العملية واضحا جليا ، ولكن وجد أن تعريض زيت بادرة القمح أوقاتا طويلة لفعل الأشعة فوق البنفسجية يؤدى إلى تحليل الفيتامين الموجود بداخله تحليلا جزئيا ! . . . وقد وجد أن الحيوانات المختلفة تقوم باختزان هذا الفيتامين فى داخل أجسامها أوقاتا طويلة . . . وتعتبر الدهون الموجودة فى داخل الجسم أهم مكان لاختزانه ، ولا يختزن فيتامين هـ فى داخل الكبد أو القلب أو الكليتين ، كما أنه لا يختزن فى داخل الخصية أو المبيضين ، ولا يزال هناك شىء من الجدل حول الأماكن التى تقوم باختزان هـذا الفيتامين فى داخل الأجسام ، كما أن

طبيعة تأثير هذا الفيتامين لا تزال محاطة بكثير من الإبهام .

أما فيتامين كـ (K) ـ أو الفيتامين المقاوم لنزف الدم ـ فقد عرف منذ عام ١٩٣٥ أن البرسيم الحجازى يحتوى على كمية كبيرة منه . وقد بذلت بعد ذلك عدة محاولات لفصل هذا الفيتامين من البرسيم الحجازى ، وقد استطاع « المكويست » عام ١٩٣٦ الحصول على زيت أصفر له تأثير عظيم ضد نزف الدم ، كما أنه أدعى بعد ذلك أنه تمكن من فصل فيتامين كـ من هذا الزيت على هيئة بلورات لا لون لها وقد تحقق العلماء بعد ذلك من وجود عدد من المركبات الكيميائية الأخرى التى تحاكى فيتامين كـ المستخرج من البرسيم الحجازى ، وهى قريبة الشبه منه فى خصائصها ومميزاتها ، وقد فصلت إحدى هذه المواد من السمك وفصلت مادة أخرى من الميكروبات ، كما أنه من المرجح أن فيتامين كـ إن هو إلا مادة واحدة من عدة مواد توجد فى البرسيم الحجازى ولها جميعا خواص هذا الفيتامين .

وتعتبر النباتات الخضر أغنى مصادر فيتامين كـ ، وأهم النباتات التى تحتوى عليه هى البرسيم الحجازى والسبانخ ،

ويعتبر القرنبيط والكرنب والجزر وفول الصويا من النباتات المحتوية على كميات كبيرة منه ، وهو يوجد أيضاً فى الطماطم والردة وقشور البرتقال ... وتحتوى الأجزاء الخضر من النباتات على كميات أكبر مما تحتويه الفواكه والحبوب والجذور ، وهو يوجد أيضاً بكميات معقولة فى أجسام الحيوانات المختلفة ، فقد فصلت منه كميات كبيرة نسبياً من أجسام أفراخ الدجاج ، ولكن مح البيض (صفاره) لا يحتوى إلا على كميات ضئيلة من هذا الفيتامين ... وفيتامين ك يذوب فى الدهون، وهو يتحلل بفعل الضوء فى بضع ساعات، كما أنه يتحلل بواسطة المواد المؤكسدة والأحماض القوية ، وقد وجد أن الفيتامين — المستخرج من مركزات البرسيم الحجازى — يتحمل التسخين إلى حوالى مائة درجة مئوية مدة أربع وعشرين ساعة . . . ووجود المرارة فى داخل الأمعاء ضرورى لامتصاص هذا الفيتامين فى الجسم ، وهو يختزن بعد امتصاصه فى داخل الكبد ، ولكنه لا يختزن بكميات كبيرة كما هو الحال فى بعض الفيتامينات الأخرى .

أما فيتامين ل (P) فقد فصل فى بادىء الأمر من الفلفل

الأحمر المجرى ، ومن عصير الليمون ، وقد قيل فيه إن له بعض المزايا الهامة فى علاج حالات نفاذ الدم من جدر الشعيرات الدموية ، وقد أجرى « جيورجى » بعض التجارب الخاصة به على الخنازير الهندية فوجد أنه يقلل من نزف الدم ، كما أنه أدعى أن فيتامين ل إن هو إلا خليط من نوعين من المواد المتبلورة ، ولكن لم يتحقق هذا الادعاء بعد ، كما أن التركيب الكيميائى لهذا الفيتامين لا يزال موضع الشك . وقد أجرى بعض الباحثين عدداً من التجارب الخاصة بفيتامين ل على أنواع مختلفة من الحيوانات فلم يستطيعوا تحقيق مشاهدات جيورجي القائلة بأن هذا الفيتامين يقلل من نزف الدم ، كما وجد بعضهم أنه لا يؤثر فى نفاذ الدم من جدر الشعيرات الدموية فى حيوانات التجارب ، ولا تزال الأبحاث الخاصة بهذا الفيتامين تتعثر فى بدايتها .

٥

أمراض نقص الفيتامينات

لقد كانت دراسة الأمراض المختلفة التى تصيب الإنسان من أهم المسائل التى وجه إليها العلماء جهودهم منذ أقدم العصور ، وكانت أبحاثهم موجهة إلى معرفة العوامل التى تنتج عنها هذه الأمراض و إلى استنباط الوسائل المختلفة التى تؤدى إلى القضاء عليها .. وقد كان الإنسان فى بادىء الأمر محاطا بكثير من الألغاز التى لم يستطع لكنهها إدراكا ، فلما أخذت الأبحاث العلمية تجرى مجراها بدأت الحقائق تظهر أمامه فى وضوح وجلاء ، وتراكمت تلك الحقائق والمعلومات تباعا حتى أصبحت ثروة علمية هائلة يتوارثها الإنسان فى عصر بعد عصر ... ولم يرض العلماء والباحثون أن يتركوا هذا الميراث كما قدم لهم ، بل عاهدوا أنفسهم أن يضاعفوه كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولقد كان لما أبدوه من صبر وثبات أثر واضح فى الوصول إلى هذه الغاية ، حتى أن كثيراً من الحقائق المتعلقة بالأمراض أصبحت واضحة

كل الوضوح ... ولقد أدى ذلك إلى ابتكار كثير من الوسائل التى تستخدم بنجاح فى مقاومتها بعد أن كان القدماء ينظرون إليها فى رعب وفزع ، وما اكتشافات باستير المتعلقة بالميكروبات وما أدت إليه من نتائج عظيمة سوى مثل رائع لأفضال الأبحاث العلمية فى سبيل تقدم الإنسانية ورفاهيتها ، فقد قدمت للانسان سلاحا قويا يستخدمه ضد كثير من الأمراض المعدية القاتلة ، كما كانت سبباً فى انقاذ ملايين البشر من الموت والعذاب .

وكانت هناك مجموعة أخرى من الأمراض ليس للميكروبات شأن بها ، وتلك هى الأمراض الناتجة عن نقص الفيتامينات فى الغذاء ، وقد ظلت هذه الأمراض زمناً طويلا مجهولة الأسباب ، ولم يتمكن الإنسان من إدراك حقيقتها إلا بعد مضى بضع سنوات من أوائل القرن العشرين ، وهى تختلف اختلافا بيناً عن الأمراض الميكروبية ، فبينما تنتج الأمراض المعدية عن الميكروبات التى تأتى إلى الإنسان من الخارج ، فإن الأمراض الناتجة عن نقص الفيتامينات فى الغذاء لا تنتج إلا عن التغذية الخاطئة ، ولهذا السبب فان الإنسان فى استطاعته أن يقضى عليها القضاء الأخير إذا عرف الحقائق الخاصة بالتغذية والمواد التى يلزم له الحصول عليها كل يوم ...

وقد كان لمعرفة هذه الأمراض معرفة صحيحة أثر كبير فى إنقاذ كثير من الأرواح البشرية التى كانت تفتك بها فى مختلف البقاع ، ومن الأمراض الناتجة عن نقص الفيتامينات فى الغذاء مرض جفاف العين والعجز عن الإبصار فى الظلام والبرى برى والبلاجرا والاسقربوط والكساح والعقم ونزف الدم ، وسنتكلم عن كل من هذه الأمراض فيما يلى هذا .

وجفاف العين أو جفاف الملتحمة من الأمراض الخطيرة التى يصاب بها الإنسان ، وهو كثيراً ما يؤدى إلى العمى وخصوصا بين الأطفال . . وينتج هذا المرض عن نقص فيتامين ا فى الغذاء ، وقد شاهد « مورى » ما يقرب من الف وخمسمائة حالة من مرض جفاف العين فى الاطفال اليابانيين الذين لا يحصلون على أغذية كافية ، وعالجهم بإعطائهم زيت السمك فشفوا من المرض ، وزيت السمك كما هو الحال فى الدهون الحيوانية الأخرى مصدر هام لهذا الفيتامين . وقد ذكر مورى أيضا أن هذا المرض كثير الانتشار فى جزر الفلبيين ، إذ وجد أن ما يقرب من ثلث الاطفال الذين يذهبون إلى أحد المستشفيات مصابون به ، ومن المرجح أن نقص فيتامين ا فى الغذاء كان من نتائجه أن ما يقرب

من أربعمائة طفل من أطفال جزر الهند الشرقية الهولندية — البالغ عددهم نصف مليون — قد أصيبوا بالعمى ، كما ذكر العلامة « هالدين » أن نصف حالات العمى عند الاطفال فى الهند يرجع سببها إلى نقص هذا الفيتامين فى الغذاء .

ومن أول أعراض هذا المرض تحول الملتحمة إلى مادة قرنية جافة ، والملتحمة هى غشاء رقيق يغطى العين من الخارج وينعكس من أعلى ومن أسفل ليبطن الجفون ، ثم تتأثر القرنية — وهى الطبقة الشفافة التى ينفذ الضوء منها إلى داخل العين — بشكل ملموس ، فتنتفخ وينفذ إلى داخلها بعض الاوعية الدموية ، كما ان الغدد الدمعية — وهى التى تقوم بإفراز الدموع — تتوقف عن أداء وظيفتها ... ويكون تحول الملتحمة إلى مادة قرنية سببا فى عدم تكوين الخلايا المخاطية ، ويؤدى ذلك إلى جفاف العين ... ويزداد هذا الجفاف شدة لعدم افراز الدموع ، وقد كان ذلك سببا فى تسمية هذا المرض بمرض جفاف العين أو جفاف الملتحمة.

وقد يصاب الإنسان بجفاف العين ولا تحدث بعد ذلك تطورات أخرى ، ولكن قد تأخذ العين فى الانهيار بسرعة بعد إصابتها بهذا المرض ، فيشعر المريض فجأة كأن حبة رمل بداخل عينه،

يلى ذلك شعور بالكراهية للضوء وانهمال الدموع والتهاب العين وخروج مادة لزجة منها . وعند ذلك تكون الحالة شديدة الخطر ، إذ أنها قد تؤدى إلى المرض المعروف بلين القرنية ، وأول علامة لهذا المرض هو ظهور بقعة بيضاء معتمة على القرنية ، وقد تأخذ هذه البقعة فى الاتساع بسرعة كبيرة حتى أن المريض يفقد البصر فى بضع ساعات ، وتحدث هذه التطورات الخطيرة الخاطفة فى الأطفال عادة ولكنها قد تحدث أيضاً عند الكبار .

وقد لاحظ « مكسويل » أن بعض الأطفال كانوا مصابين بلين القرنية عند ولادتهم ، وذلك بسبب نقص فيتامين ا عند أمهاتهم ، كما وجد « هيل » أن الخنازير الصغيرة تولد عمياً إذا لم يحتو غذاء الأم على القدر المناسب من فيتامين ا ، وقد فحص عن هذه الخنازير الصغيرة فوجد أن بها بعض التشويهات الخلقية ومنها عدم تكوين مقلة العين ، ويظهر أن هناك من البراهين الكثيرة ما يكفى للتدليل على أن العجول أيضا تولد عُمْياً بسبب نقص فيتامين ا عند أمهاتها .

وقد وجد أن نقص فيتامين ا فى غذاء الإنسان يسبب له العشَا ، أى فقد القدرة على الإبصار فى الظلام . ومع أن معظم

الناس لا يهتمون بذلك فإن هذا العيب يؤدى إلى كثير من المتاعب لأولئك الذين يشتغلون أثناء الليل أو فى الأماكن المظلمة ، وقد ينتج عنه أيضا كثير من الحوادث والأخطار ، فالصيادون الذين يشتغلون أثناء الليل وسائقو السيارات وعمال المناجم وغيرهم قد يعرضون أنفسهم للهلاك إذا كانوا لا يستطيعون الإبصار فى الظلام . ويتمكن الإنسان من مشاهدة الأشياء التى تحيط به بواسطة الشبكية ، وهى طبقة حساسة فى قاع العين وتستقبل الضوء الآتى إليها من الخارج ، فإذا مكث الإنسان بعض الوقت فى ضوء النهار ثم دخل بعد ذلك إلى حجرة مظلمة فإنه لا يرى شيئاً فى بادىء الأمر ، وبعد فترة من الزمن يبدأ فى مشاهدة الأشياء المختلفة التى توجد فى هذه الحجرة ، والسبب فى ذلك أن الشبكية تقضى هذه الفترة فى تكييف نفسها للرؤية فى الظلام ، ويتم هذا التكييف بواسطة تكوين مادة كيميائية تسمى « ارجوانى النظر » ، وهى حساسة للضوء ومعقدة التركيب . وقد وجد العالم الأمريكى « ڤالد » أن فيتامين ا يدخل فى تركيب مادة ارجوانى النظر ، فإذا نقص هذا الفيتامين فى الغذاء نقصا يسيرا فإن الإنسان يمكنه أن يرى فى الظلام ،

ولكن العين تحتاج إلى وقت طويل لكى تتمكن من تكييف نفسها للقيام بهذا العمل . . . أما إذا كان النقص كبيرا فإن الإنسان يفقد القدرة على الإبصار فى الظلام ، لعدم تكوين مادة « ارجوانى النظر » التى يدخل فى تركيبها فيتامين ا . وتتحلل هذه المادة بتأثير الضوء القوى ، فإذا بقى الإنسان وقتا طويلا فى هذا الضوء فإن العين لا تحتوى إلا على القليل منها ، ولذلك يلزم أن تتكون منها كمية أخرى داخل العين قبل أن يتمكن الإنسان من الرؤية فى الظلام . وقد لاحظ بعض الصيادين فى « نيوفوندلاند » أنهم إذا مكثوا فى البحر يوما كاملا — وكانت أشعة الشمس قوية وهاجة — فإنهم يصابون فجأة بفقد القدرة على الإبصار فى الظلام ، فإذا ما أقبل المساء عليهم وذهبوا إلى الشاطىء صاروا لا يرون شيئا مما يحيط بهم . وهناك عدة تقارير طبية تدل على أن بطء تكييف العين للرؤية فى الظلام وفقد القدرة على الإبصار فى الظلام يمكن معالجتها فى بضع ساعات بواسطة فيتامين ا ، على حين تدل بعض التقارير الأخرى أن هذا العلاج قد يستغرق عدة أسابيع أو عدة شهور .

والظاهر أن هذا الفرق الواضح فى مدة العلاج ناتج عن اختلاف الحالات التى عولجت . . .

وهناك مرض آخر من الأمراض الناتجة عن التغذية الخاطئة وهو مرض « البرى برى » ، وهـذا المرض كثير الانتشار فى الممالك التى يتخذ سكانها من الأرز غذاء أساسيا لهم ، فهو يوجد بكثرة فى كل من اليابان والصين والهند وجزر الهند الشرقية والفليبين وشبه جزيرة الملايو . . . وكلمة البرى برى نفسها هى الكلمة التى يستعملها سكان الملايو للدلالة على هذا المرض ، وقد وجد فى إحصاء حديث أن تسعة وثلاثين فى المائة من المرضى فى الجيش اليابانى مصابون بأمراض سوء التغذية وخصوصا مرض البرى برى ، كما وجد أن متوسط عدد الوفيات الناتجة عن هذا المرض فى اليابان قد بلغ سبعة عشر ألف وفاة سنويا فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٩ . . . وقد ذكر « فيهلى » فى تقرير له أن ثمانية عشر فى المائة من الأطفال الذين يذهبون إلى مركز رعاية الطفل فى هونج كونج مصابون بمرض البرى برى . . . ويقول العالمان « بلفور » و « تولبيد » إن كل امرأة حامل فى جنوب الهند تقاسى وطأة هذا المرض الخطير ،

وإن ارتفاع نسبة الوفيات بين هؤلاء السيدات ناتج عن نوع خاص من فقر الدم ، الذى يمكن معالجته بسرعة بإعطائهن غذاء يحتوى على الخميرة وخلاصة الكبد واللحوم ، وتحتوى كلها على كمية وافرة من مجموعة فيتامين ب ، وكثيرا ما يظهر هذا المرض فى السجون والمعتقلات ومعسكرات العمال ، حيث تكون ظروف الحياة قاسية والغذاء رديئاً . . .

وقد كان الاعتقاد الشائع أن مرض البرى برى ناتج عن نقص فيتامين ب١ فى الغذاء ، ولكن يرى بعض الباحثين الآن أنه بالرغم من فقدان هذا الفيتامين فى غذاء المرضى فإن هذا المرض ناتج من نقص مجموعة فيتامين ب بأكملها . . . ويرجع ذلك إلى تقدم الأبحاث الخاصة بهذا الموضوع . فقد استطاع الكيميائيون فى وقتنا هذا أن يقوموا بتحضير فيتامين ب١ تحضيراً نقياً تمام النقاء بواسطة التأليف الكيميائى ، فإذ ما أعطى المريض هذا الفيتامين النقى فإن أعراضاً خاصة لمرض البرى برى تختفى بسرعة فائقة ، على حين تظل بعض الأعراض الأخرى كما هى أو قد تزداد سوءا . كما وجد أن علاج هذا المرض بواسطة فيتامين ب١ مع إعطاء المريض بعضاً من الأغذية الغنية بمجموعة فيتامين ب

كلها يكون أكثر نجاحا من علاجه بواسطة فيتامين ب١ وحده .

وقد أمكن إحداث حالة مشابهة لمرض البرى برى فى القردة وذلك بإعطائها غذاء لايحتوى إلا على مقدار ضئيل من فيتامين ب١ ، وقد عولجت بعد ذلك بواسطة هذا الفيتامين فتحسنت حالتها ولكنها لم تشف تماما ، أما إذا حرمت القردة فيتامين ب١ حرمانا كاملاً فإنها تموت قبل ظهور أية أعراض أكلينيكية عليها ... ولا يعرف على وجه التحديد طول الفترة التى ينبغى انقضاؤها بين البدء فى تناول غذاء لا يحتوى على فيتامين ب وبين ظهور أعراض مرض البرى برى ، ولكنه يقال إن أعراض المرض تبدأ فى الظهور بعد انقضاء مايقرب من ثلاثة أشهر ... وهناك طائفة من العوامل المختلفة التى تلعب دوراً هاماً فى تطور هذا المرض وظهور أعراضه ، ومن بينها الفقر والأعمال العضلية الشاقة والحمى وازدياد إفراز الغدة الدرقية والحمل والرضاع والتعب والاضطرابات الهضمية والأمراض المتعلقة بامتصاص الأغذية . ويقول نكسون إن كثيراً من السيدات الصينيات يظهرن فى أول الحمل وكأنهن فى حالة طبيعية ، ولكن عند نهايته يكون مرض

البرى برى قد جعلهن فى أسوأ الحالات ... ويحدث فى بعض الأحيان ارتباط بين مرض البرى برى والملاريا ، وقد لوحظت هذه العلاقة على وجه الخصوص فى البرازيل ، وفسر « كوجل » هذا الارتباط بأنه ناتج عن أن ازدياد عمليتى الهدم والبناء فى الجسم — المصاب بالملاريا — تزيد من حاجته إلى الفيتامين...

ويصاب الأطفال فى مصر وفى كثير من البلاد الشرقية بنوع من هذا المرض يقال له « برى برى الأطفال » ، ويكون ذلك خلال الثلاثة الأشهر الأولى من بدء حياتهم ... ومن الأعراض التى تظهر عليهم تصلب الجسم وانتفاخ الأطراف وقلة البول والإمساك وتضخم القلب والكبد وانخفاض ضغط الدم . . . وقد تفحص « أهتا » عدداً من الحالات فى اليابان فوجد أن السبب فى إصابة هؤلاء الأطفال يرجع إلى نقص فيتامين ب فى لبن الأمهات ، وكانت الأعراض المبكرة فى أغلب هذه الحالات هى القىء واخضرار البراز وفقد الشهية عند الأطفال المصابين !...

أما مرض البرى برى عند الكبار فله أعراض كثيرة، وهى تختلف باختلاف الحالة ، ولكن أكثرها ظهوراً فى معظم الإصابات هو التهاب الأعصاب .. وأول ما يشكو منه المريض هو الشعور

بالتعب وثقل الجسم وتصلب الأرجل ، ثم تأخذ الأرجل فى الضعف تدريجاً فلا يقوى المريض على المشى إلا مسافة قصيرة، و يزداد هذا الضعف حتى ينتهى بشلل هذه الأعضاء شللاً تاماً ، وذلك لأن العضلات والأعصاب التى توجد بداخلها تضعف تدريجاً ثم تأخذ فى الضمور ، وتظهر بعد ذلك أعراض المرض على الأيدى و يصيبها الشلل أيضاً . . . ولا يقتصر الضمور على الأعصاب وحدها،بل إنه يمتد إلى المخ والنخاع الشوكى ،وهناك الأعراض الخاصة بالقلب والدورة الدموية ، ومنها تمدد القلب وسرعة النبض وضعفه ، و إخفاق الدورة الدموية فى الوصول إلى أعضاء الجسم جمعاء ، كما تتمدد الكبد ولا يتنفس المريض إلا بصعوبة كبيرة ، وقد يصاب المريض بالاستسقاء ، و يبدأ هذا في القدمين ثم يمتد إلى بقية أجزاء الجسم .

وتستمر هذه الأعراض فى الازدياد إذا لم يبادر المريض بتقديم نفسه للعلاج ، كما أن المريض قد يموت موتاً فجائياً نظراً لهبوط القلب ... وتختلف نسبة الوفيات بين خمسة فى المائة وخمسين فى المائة تبعاً لشدة الإصابات وطريقة العلاج ، وتكون النسبة عالية فى الحالات الحادة وخصوصاً إذا ظهرت الاضطرابات القلبية على

المريض ... أما الوقاية من حدوث مرض البرى برى فهى لاتحتاج إلى أكثر من العناية بإعداد طعام متزن . فيجب على القائمين بإطعام الجيوش أو طلاب المعاهد أو العمال — الذين يشتغلون فى معسكرات منعزلة — أن يوجهوا كثيراً من الاهتمام إلى الأغذية الغنية بفيتامين ب$_1$ ومجموعة فيتامين ب ، فيضيفوا بعضاً منها إلى قائمة الطعام .

ومرض البلاجرا من الأمراض الناشئة عن سوء التغذية وعدم استيفائها للمصادر الفيتامينية ، وهو كثير الانتشار فى الممالك التى يعتمد سكانها فى غذائهم على الخبز المصنوع من الذرة . وقد أحصى مايقرب من مائة وعشرين ألف إصابة بهذا المرض فى الجزء الجنوبى للولايات المتحدة عام ١٩٢٧ ، وكانت الحالات التى انتهت بموت المصابين خمسة آلاف حالة ، ومعظم الذين أصيبوا بهذا المرض من الزنوج الأمريكيين . ويوجد هذا المرض أيضاً فى مصر وإيطاليا ورومانيا وغيرها من الممالك والأقطار ، وهو يعتبر من أمراض البلاد الحارة ... وقد وجد بعد دراسة كثير من حالات البلاجرا أن هناك فترة تمهيدية طويلة تسود الصحة خلالها ، وتتقدم الأعراض فى خفاء قبل أن يصبح من المستطاع

معرفتها ، فهناك النقص فى القوة والوزن، وهناك الصداع والدوار والأرق ، وهناك فقد الشهية وعسر الهضم والإسهال ، كل هذه علامات تمهيدية تظهر على المريض دون أن يكون لها سبب ظاهر. كما قد يكون اضطراب الأعصاب وسرعة التهيج وفقد الذاكرة وعدم القدرة على تركيز الفكر من العلامات المبكرة التى تسبق ظهور أعراض البلاجرا .. أما هذه الأعراض فأهمها التهاب الجلد التهاباً شديداً وخصوصاً الأجزاء المعرضة لأشعة الشمس ، والتهاب الأمعاء الذى يكون مصحوباً بألم شديد و إسهال مستمر وخروج بعض الدم والمخاط ، وظهور بعض الاضطرابات العقلية التى قد تؤدى إلى الجنون . . وهناك نوع خاص من البلاجرا يصيب الأطفال فى البلاد الحارة ، ومن مميزاته أنه يكون حاداً عند بدء ظهوره . كما أنه يتقدم فى الجسم بسرعة و يكون فى أغلب الأحوال قتالا ، وهو بذلك يختلف عن البلاجرا المزمن الذى يصيب الكبار ويكون بطىء التقدم .

وقد ظن فى بادىء الأمر أن البلاجرا من الأمراض المعدية ، أى أنه يمكن انتقاله من شخص إلى آخر بالعدوى، شأنه فى ذلك شأن سائر الأمراض البكتيرية . . . ولكن كان هناك من

المشاهدات ما ينفى هذا الاعتقاد ، ومن أمثلة ذلك أن هذا المرض كان كثير الانتشار فى رومانيا ولكن جيش الاحتلال الألمانى — الذى دخل إلى هذه المملكة فى الحرب العالمية الأولى — لم تظهر فيه إصابات بمرض البلاجرا ، على حين ظهرت فيه بعض الإصابات بالملاريا والدوسنطاريا وهما من الأمراض المعدية . . . وقد أثبت « جولدبرجر » فى أمريكا أن البلاجرا ليست من الأمراض المعدية ، وذلك بأن حقن نفسه تحت الجلد بكمية من الدم و بعض السوائل الأخرى المأخوذة من بعض المصابين بهذا المرض ، ولم تظهر عليه أية أعراض على الإطلاق .. كما أثبت أنه يمكن معالجة البلاجرا بواسطة التغذية الصحيحة ، وخصوصاً بإضافة اللحم واللبن والبيض إلى غذاء المريض ، ولكنه لم يتوصل إلى فصل الفيتامين المضاد للبلاجرا . . وقد قيل بعد ذلك أن مادة النياسين (حامض النيكوتينيك) — وهى إحدى المواد التى يتألف منها فيتامين ب المركب — هى العقار الواقى من البلاجرا ولكن لم يدم هذا الرأى طويلا لأنه وجد أن استعمالها يؤدى إلى اختفاء بعض أعراض البلاجرا ولكنها لا تؤثر فى بعض الأعراض الأخرى . ويرجع ذلك إلى أن البلاجرا مرض غذائى مركب

ينتج من عدة عوامل مختلفة ، أحدها نقص مادة النياسين فى الغذاء التى يتناوله الإنسان ، و يرى « سبيز » ومن يشتغلون معه من الباحثين أن البلاجرا تنتج عن نقص النياسين والر يبوفلافين وفيتامين ب ١ ، كما أنهم لاحظوا أيضاً نقص فيتامين ج فى كثير من الحالات التى قاموا بتفحصها .

وتعالج البلاجرا فى الوقت الحاضر بواسطة مادة النياسين التى تعطى بالفم عادة ، أما إذا كان المريض مصابا بالقىء الشديد أو كانت حالته لا تمكنه من ذلك فيكون إعطاؤها بالحقن فى داخل الأوردة .

ومعرفة الكمية التى تعطى يومياً تتوقف على حالة المريض ، ويستمر هذا العلاج عدة أسابيع عادة ، ويعطى المريض عدا النياسين مقداراً خاصاً من فيتامين ب ١ ، كما أن بعض الحالات تستدعى الاستعانة بمادة الريبوفلافين (فيتامين ب ٢) لتساعد على شفاء المريض . . ولما كان هناك من الأدلة ما يثبت أن بعض المواد الأخرى التى تتركب منها مجموعة فيتامين ب ضرورية أيضاً فى علاج البلاجرا ، كان من الضرورى أن يتناول المريض بعضاً من الأغذية التى تحتوى على مقدار كبير من هذا الفيتامين

كالخميرة والكبد وغيرها ، أما الحالات البسيطة لمرض البلاجرا فيمكن علاجها بواسطة الغذاء المناسب فقط .

ومن أمراض نقص الفيتامينات مرض الاسقربوط ، الذى كان كثير الانتشار فى الأزمنة الماضية وخصوصاً بين البحارة . والسبب فى ذلك أنهم كانوا يمكثون على ظهور مراكبهم وقتاً طويلا لا يتناولون فيه شيئاً من الأطعمة الطازجة ، بل يعتمدون فى غذائهم كل اعتماد على الأطعمة المحفوظة ، ولمرض الأسقربوط أعراض كثيرة منها الضعف الشديد وانتفاخ الأطراف وتصلب الأوعية الدموية الصغيرة تصلباً يؤدى إلى انفجارها ، وتكون نتيجة هذا الإنفجار حدوث النزف فى مختلف أجزاء الجسم ، وقد يحدث هذا النزف فى اللثة والكليتين والأمعاء ، كما يحدث أيضاً تحت الجلد مباشرة ، ويؤدى ذلك إلى ظهور بقع حمر أو دكن قد تغطى الجسم كله ، ويحدث النزف أيضاً فى المفاصل وتكون نتيجته آلاما شديدة ، كما يصبح استعمال الأيدى والأرجل أمراً شاقا على المريض وقد يؤدى هذا المرض إلى سقوط الأسنان ، وهو إذا لم يعالج علاجا صحيحاً أورد المريض موارد الردى ! . .

وقد عرف منذ زمن بعيد أن للتغذية علاقة كبيرة بمرض

الأسقر بوط ، وأنه يمكن وقاية الإنسان منه بإعطائه طعاماً يحتوى على بعض الموالح أو الخضراوات النضيرة ، ولكن ما هو نوع هذه العلاقة ؟ بل ما هو السر فى أن الأغذية النضيرة تدفع عن الإنسان غائلة هذا المرض ؟... لقد بقيت الإجابة عن هذا السؤال سراً دفيناً ، ولم يستطع أحد من العلماء أن يقوم بالإجابة عنه إلا منذ عهد قريب . فقد عرف بعد إجراء الكثير من التجارب على بعض الحيوانات أن مرض الأسقر بوط يظهر نتيجة لعدم احتواء الغذاء على فيتامين ج . ولا تصاب معظم الحيوانات بمرض الاسقر بوط مهما كان غذاؤها رديئاً ، وذلك لانها تستطيع أن تصنع بداخل أجسامها ما تحتاج إليه من فيتامين ج ، ولكن القردة والخنازير الهندية فى حاجة إلى أن تحصل على هذا الفيتامين مع الغذاء كما هو الحال فى الإنسان .

وقد استطاع هولست وفروليش فى النرويج عام ١٩٠٧ إحداث مرض الاسقر بوط فى الخنازير الهندية ، وقد تبين لهما أن السبب فى هذا المرض هو حاجة الجسم إلى كميات ضئيلة من مادة معينة ، ولم يعرف أن هذه المادة هى فيتامين ج إلا بعد أن قام فريق من الباحثين بالكشف عنها ، وقد أمكن تحضير هذا

الفيتامين من سكر اللبن بطرق كيميائية معقدة ، ولما كان هذا الفيتامين يتحلل بفعل الحرارة فهو لا يوجد إذن فى معظم المواد المحفوظة فى العلب ، لأن الأغذية التى توجد بداخلها قد فقدت محتوياتها من هذا الفيتامين أثناء صنعها ، وهذا هو السر فى كثرة ظهور المرض بين البحارة لاعتمادهم التام على الأغذية المحفوظة .

ويصاب الأطفال الذين يغذون تغذية صناعية بمرض الأسقربوط ، وذلك لأن الغذاء الذى يتناولونه يفقد محتوياته من فيتامين ج أثناء تعقيمه بواسطة التسخين . فمع أن اللبن الطازج يحتوى على كميات صغيرة من هذا الفيتامين إلا أنها لا تلبث أن تتحلل بفعل الحرارة ، ولذلك يجب إضافة قليل من عصير البرتقال إلى اللبن المعقم قبل إعطائه للطفل الرضيع ، وتختلف كمية الفيتامين التى توجد فى اللبن الطازج تبعاً لنوع الغذاء الذى تتناوله الماشية ، فتكون هذه النسبة كبيرة عند ما تتغذى الماشية بالعلف الأخضر ، ولكنها تقل كثيراً إذا كان العلف الجاف غذاءها . وقد قل انتشار مرض الأسقربوط كثيراً عما كان عليه فى الأزمنة السابقة ، وخصوصا بعد أن عرف السبب الذى يؤدى إليه . . . ولكنه لا يزال منتشراً فى بعض الأقطار كما

هو الحال فى جنوب إفريقية والمناطق القطبية من كندا وغيرها ، وليس علاجه أو الوقاية منه بالأمر العسير ، وذلك لأن إضافة بعض الأغذية التى تحتوى على فيتامين ج بكثرة تؤدى إلى هذا الغرض ، أما إذا أهمل علاجه فإنه يؤدى إلى الموت فى أغلب الحالات .

وهناك مرض الكساح ، وهو ذلك المرض البغيض الذى يصيب الأطفال وهم ما يزالون فى فجر حياتهم ، فيشوه من جمال أجسامهم ، ويتركهم فى صورة لا ترتاح إليها الأنظار . وقد عرف هذا المرض منذ زمن بعيد ، حيث قام بوصفه لأول مرة الطبيب الإنجليزى فرنسيس جليسون عام ١٦٥٠ ، وقد كان المرض فى ذلك الوقت منتشراً انتشاراً كبيراً فى مدينة لندن ، مما استدعى تكوين لجنة من مشاهير الأطباء والعلماء فى هذا العصر لدراسته وتدبير الوسائل اللازمة لعلاجه ، ولكن مضى على هذا التاريخ ما يناهز الثلاثة القرون قبل أن يتمكن الإنسان من معرفة السبب الحقيقى لظهور هذا المرض ، فقد عرف فى عام ١٩١٤ أنه ناتج من نقص فيتامين د فى الغذاء الذى يتناوله الأطفال المصابون . ويؤدى هذا المرض إلى تشويه بعض

أجزاء الهيكل العظمى ، وقد يكون هذا التشويه يسيراً لاتلحظه العين وذلك فى حالات الإصابة الخفيفة ، أما فى الحالات الحادة فإنه يؤدى إلى تقوس الأرجل وانتفاخ المفاصل وتحدب الظهر وبعض التشويهات الأخرى التى تشاهد فى الأطفال ، كما تشاهد فى السيدات الحوامل . وهو يؤدى أيضاً إلى ضيق الحوض عند الفتيات ، وقد لا يكون لذلك أى أثر سىء فى بدء حياتهن ، فإذا ما كبر هؤلاء الفتيات فقد تتعرض حياتهن للخطر أثناء الولادة نظراً لضيق الحوض ، وقد كان ذلك سبباً فى موت بعضهن ، كما أن الأطفال الذين يلدنهم قد يصابون ببعض الجروح فى الرأس أثناء الولادة فيقعون فريسة للشلل . ونقص فيتامين د فى الغذاء يجعل العظام لا تنمو نمواً طبيعياً ، كما أنه يؤثر فى ترسيب فوسفات الجير بداخلها . وفوسفات الجير هى المادة التى تكسب العظام القوة والصلابة ، فإذا لم تترسب هذه المادة بكمية وافرة فى داخل العظام فإنها تصبح لينة إلى درجة كبيرة ، وإذا عرفنا أن وزن الجسم كله واقع على الأرجل أدركنا أهمية العظام فى هذه الأعضاء ، فإذا كانت عظام الأرجل لينة فإنها لا تستطيع أن تتحمل وزن الجسم ، بل تأخذ فى التقوس

تدريجياً لوجودها دائماً تحت هذا العبء الثقيل الذى هو فوق قدرتها .

ولقد كان هناك فى بادىء الأمر نظريتان متعارضتان لتعليل مرض الكساح ، فكان أصحاب النظرية الأولى يعتقدون بأنه ناتج من سوء التغذية ، وكان برهانهم على ذلك أنه يمكن معالجته بإضافة كمية صغيرة من زيت السمك إلى غذاء الطفل المريض . أما أصحاب النظرية الثانية فكانوا يرون أن الظروف الطبيعية للبيئة التى يعيش فيها الطفل هى السبب الرئيسى فى ظهور هذا المرض ، وذلك لأن مرض الكساح يصيب دائماً الأطفال الذين يعيشون فى المدن الصناعية المظلمة ، والبرهان على صحة قولهم هو أن هؤلاء الأطفال يمكن معالجتهم بسرعة إذا عرضت أجسامهم لأشعة الشمس . وقد أمكن بعد ذلك التوفيق بين هاتين النظريتين المتعارضتين ، وذلك لأنه لوحظ أن الكساح ينتج من أحد أمرين ، فهو يظهر على الطفل إذا لم يحتو غذاؤه على فيتامين د أو إذا حرم التعرض لأشعة الشمس. كما وجد أن الجسم يحصل على ما يحتاج إليه من هذا الفيتامين من ، طريقين وهما طريق الفم وطريق الجلد ،

فإذا أخذ الجسم كفايته من هذا الفيتامين مع الغذاء فإن الطفل ينجو من ذلك المرض الوبيل ، وإذا لم يحصل عليه مع الغذاء فإن فى تعريض جسمه لأشعة الشمس تعويضاً لهذا النقص . وذلك لأن الأشعة فوق البنفسجية الآتية من الشمس عندما تقع على الجلد تؤثر تأثيراً خاصاً فى مادة الأرجسترول — وهى مادة دهنية توجد فى الجلد — فتقوم بتحويلها إلى فيتامين د ، وعلى هذا فإننا إذا عرضنا الطفل لأشعة الشمس فإن الجسم نفسه يقوم بصنع ما يحتاج إليه من هذا الفيتامين الذى لم يحصل عليه مع الغذاء .

وقد وجد فى علاقة الضوء بمرض الكساح تفسير مقبول لتلك الظاهرة الغريبة التى شوهدت فى مدينة نيويورك ، وتتلخص هذه الظاهرة فى أنه قد لوحظ أن أطفال الزنوج — الذين يعيشون فى الأحياء الفقيرة المزدحمة بالسكان — أكثر تعرضاً للاصابة بهذا المرض من الأطفال البيض الذين يعيشون معهم فى هذه الأحياء نفسها ، وقد فسرت تلك الظاهرة بأن المادة الملونة التى توجد فى جلد الأطفال السود تمنع الضوء القليل الذى يصل إلى هذه الأحياء من أن ينفذ إلى داخل الجلد بكمية

كافية . ولا تقتصر أهمية الأشعة فوق البنفسجية على أنها تجعل الجلد قادراً على صنع ما يحتاج إليه من فيتامين د، ولكنها تستطيع أيضاً أن تضاعف من فائدة الأغذية المختلفة التى تستخدم فى علاج الكساح ، فإذا ما عرض زيت السمك لفعل هذه الأشعة فانه يصبح أشد قوة وأبعد أثراً فى علاج هذا المرض من زيت السمك العادى ، كما أن الزيوت النباتية التى ليست لها أية فائدة فى علاج الكساح يمكن الانتفاع بها فى علاجه إذا ما عرضت لتأثير هذه الأشعة .

والعلاقة بين الأشعة الضوئية وتكوين فيتامين د من بعض العناصر الغذائية علاقة تجذب النفوس لغرابتها ، وتستهوى الأفئدة لسحر العلوم ومعجزاتها . واكتشاف هذه العلاقة ، مثلها كمثل غيرها من الحقائق العلمية ، يرجع إلى محض المصادفات السعيدة الناجحة . ففى عام ١٩٢٤ قام كل من العالمين الأمريكيين « ستينبوك » و « هيس » بإجراء التجربة الآتية على الفيران . . . فقد أحضرا عدداً منها وقاما بإطعامها بغذاء لا يحتوى على فيتامين د ، وقد أصيبت هذه الفيران بمرض الكساح نتيجة لذلك ، وبدلا من أن يقوما بتعريض هذه

الفيران المريضة لتأثير الأشعة فوق البنفسجية قاما بتعريض الغذاء نفسه لفعل هذه الأشعة السحرية ، وعند ما تناولت الفيران هذا الغذاء شفيت من المرض ! . . وقد كان هذا التوفيق حافزاً لهما على طلب المزيد من الحقائق الخاصة بهذا الموضوع ، فقاما بعد ذلك بفصل المواد المختلفة التى يتركب منها هذا الغذاء ، وعرضا كل منها على حدة لفعل الأشعة فوق البنفسجية ، لمعرفة المادة التى تتحول إلى فيتامين د من بين هذه المواد ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول إلى ذلك . . . وقد استمرت الأبحاث سائرة فى هذا الاتجاه حتى استطاع بعض العلماء الآخرين من الوصول إلى هذه النتيجة ، ففى عام ١٩٢٦ وفق كل من روزنهيم وو بستر فى لندن ووندوس فى ميونيخ إلى معرفة أن المادة التى تتحول إلى فيتامين د بفعل الأشعة فوق البنفسجية هى مادة « الأرجسترول » ، وقد سبق أن عرفنا أن هذه المادة توجد فى الجلد ، وأننا إذا عرضنا الأطفال المصابين بالكساح لتأثير أشعة الشمس فإن أعراض المرض لا تلبث أن تزول نظرا إلى تحول هذه المادة إلى فيتامين د .

وقد كان الكساح كثير الانتشار فى الأجزاء الشمالية من

القارة الأوربية ، ولكنه أصبح الآن أقل انتشاراً فى تلك البقاع نظراً إلى تقدم وسائل العلاج ، وخصوصاً بعد أن درس هذا المرض دراسة وافية . أما فى الممالك الأوربية الجنوبية وفى البلاد الحارة فهو يوجد فى المدن ولكنه نادر الوجود فى الأرياف ، ويرجع سبب ذلك إلى تمتع أهل الريف بقسط وافر من أشعة الشمس . ويجب على كل أم أن ترعى طفلها الرضيع بعناية وحذر حتى لا يقع فريسة لهذا المرض . وينصح الدكتور الأمريكى « كوبيلاند » الأمهات بإعطاء الأطفال زيت السمك ابتداء من الأسبوع الثالث أو الرابع من حياتهم ، والاستمرار على ذلك خلال العام الثانى ، كما ينصح أيضاً بتعريضهم يومياً لأشعة الشمس بضع دقائق فى أول الأمر ، ثم يزداد هذا الوقت تدريجاً حتى يصل إلى نصف ساعة فى اليوم ، وإذا كان الوقت صيفاً فيجب أن يأخذ الطفل هذا الحمام الشمسى فى الصباح قبل اشتداد الحرارة ، أما فى الشتاء فيكون إعطاؤه فى منتصف النهار . فاذا اتبعت هذه الطريقة ، وكان غذاء الطفل كافياً ، فانه يكون فى مأمن من ذلك المرض .

تلك بعض الأمراض التى تصيب الإنسان نتيجة نقص

بعض المصادر الفيتامينية من الطعام ، وقد سبق أن وصفنا أمراض جفاف العين والبرى برى والبلاجرا والاسقربوط والكساح . ولا تقتصر أمراض نقص الفيتامينات على جفاف العيون ونقص إبصارها ، وعلى إضعاف الأجسام وإهلاكها ، بل لها تأثير كبير فى السيطرة على قوة الإخصاب أو فقدانها ، فقد وجد أن ظاهرة العقم ناجمة فى بعض الأحيان عن غياب بعض المصادر الفيتامينية من المواد الغذائية . وظاهرة العقم لا تقتصر أسبابها على نقص بعض الفيتامينات فحسب ، بل قد ترجع إلى عدة عوامل أخرى . ولما كان موضوع العقم من الموضوعات الشائقة ، التى تتوق النفوس لمعرفة أسرارها واجتلاء غوامضها ، فقد رأينا أن نوفيه حقه من الشرح والإيضاح .

٦

العقــــم

ما أعجب الحياة بظواهرها وأسرارها . . . تُبعث الكائنات الآدمية أجنة فى بطون أمهاتها ، فإذا استوفت شهورها انتقلت من ظلمات البطون إلى أنوار الحياة ، ثم تتقدم أعمارها لتقوم بالرسالة نفسها التى قام بها آباؤها من قبل ، فإذا بلغت من الأعمار أرذلها طواها الردى وأصبحت بين طيات الثرى نسياً منسياً ! . . وهكذا يدور الفلك دورته ، وتتعاقب العصور ، بفضل قدرة الإنسان على التناسل . . . وقد تعددت آراء العلماء فى تفسير ماهية رسالة الإنسان فى الحياة ، فنهم المتفائلون ومنهم المتشائمون . وقد لخص « ڤولتير » — خطيب الثورة الفرنسية — تاريخ حياة الإنسان فى ثلاث كلمات إذ قال : « إن الإنسان يولد ويعذب ويموت » ، ولا يستبعد أن تكون صيحات الحزن والبكاء التى يقابل بها المولود دنياه هى أحد مظاهر الآلام التى يستقبل بها الطفل دور العذاب القائم بين مولده وموته . ولكن مهما تضاربت الآراء فى تفسير ماهية الحياة الإنسانية ، فهناك حقيقة

علمية معروفة وهى أن الإنسان لا بد له أن يتناسل ، إما تلبية لنزعة نفسية أو إشباعاً لشهوة جنسية ، وتلك النزعات لا دخل لإرادة الأفراد فيها بل هى متأصلة فى الإنسان منذ بدء الخليقة ، وتخضع فى ظواهرها و بواطنها إلى سيطرة جملة عمليات فسيولوجية خاصة ، خارجية وداخلية . والعقم ، أو فقدان القدرة على التناسل ، هو من المظاهر التى كثيراً ما تضايق بعض الناس ، إذ يعتبرها الرجال وصمة فى جبين رجولتهم ، و يعتبرها النساء نقصاً فى درجــة أنوثتهم ومقدار أمومتهم . . . وسنورد هنا بعض الأسباب الهامة التى تسيطر على ظاهرتى العقم والإخصاب فى الإنسان . . .

إن قوة التناسل هى الظاهرة الحيوية الهامة فى الإنسان التى يستطيع بها الانتقال بذريته من جيل إلى جيل ، حفظاً لجنسه ، واستكمالاً لعمران الحياة واستمرارها . و يتكون الجنين نتيجة امتزاج خلية ذكرية (حيوان منوى) ببييضة أنثوية فى داخل الرحم ، وتنشأ ظاهرة العقم فى مثل هذه الحالات إما من صعوبة آلية فى وصول الحيوانات المنوية إلى البييضات ، و إما من عدم قدرة البييضات على أن تتخذ طريقها إلى الرحم فى الوقت المناسب

لإتمام عمليـة التلقيح . . . وقد تتمكن الحيوانات المنوية والبييضات من اتخاذ سبيلهـا الطبيعى ومع ذلك تستمر ظاهرة العقم فى إبداء مظاهرها . . ومثل هذه الحالات قد يرجع سببها إلى بعض الأمراض الخطيرة كالسل والسيلان ، ويحدث المرض الأخير بسبب نوع من الميكروبات المستديرة التى تتخذ طريقها إلى الخصيتين فى الذكور فتقتل الحيوانات المنوية وتجعلها غير قادرة على تأدية وظيفتها الحيوية فى تلقيح البييضات ، وأما فى النساء فتصل العدوى إلى المبيضين فتصاب بالعقم أيضاً . وقد وجد حديثاً أن بعض المواد الغذائية التى يتناولها الإنسان (الفيتامينات) والإفرازات الداخلية التى تتكون فى داخل الأجسام (الهرمونات) من أهم العوامل التى تسـيطر على ظاهرتى العقم وقوة الإخصاب . . .

وللفيتامينات تأثيران رئيسيان على ظاهرة العقم ، فنقص فيتامين هـ يؤثر فى مقدرة الحيوانات على التناسل ، ونقص بعض الفيتامينات الأخرى يؤثر فى مختلف العمليات الفسيولوجية الأساسية فى الأجسام كإفراز الهرمونات . . . والعلاقة بين إفراز الهرمونات وظاهرتى العقم والإخصاب علاقة وثيقة سنوفيها حقها

من الشرح فيما بعد . . . وقد كان الدكتور « إيفانس » أول من اكتشف أن نقص فيتامين هـ لا يؤثر تأثيراً كبيراً فى نشاط الأجسام ، ولكنه يسبب العقم عند الذكور والإناث على السواء . . . وقد أجرى هذا العالم تجاربه الأولية على الفيران ، فأخذ فى تغذيتها بطعام خال من فيتامين هـ ، ولاحظ أن العقم الناتج فى الذكور يرجع سببه إلى ضمور الخصيتين وعجزهما تبعاً لذلك عن تأدية وظائفهما الطبيعية . أما فى الإناث العقيمة فقد وجد أن المبايض تستمر فى تأدية وظيفتها وفى احتفاظها بحجمها الطبيعى ، إلا أن الأجنة تموت وهى ما زالت فى بداية تكوينها . . . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن الغذاء الذى كانت تتناوله الإناث ، وهو خال من فيتامين هـ ، قد أثر بطريقة ما فى وصول المواد الضرورية اللازمة لاستكمال نمو الأجنة واستمرار حياتها ، وهكذا يطويها الردى وهى ما زالت أسيرة فى أرحام أمهاتها . وتعالج كل هـــذه الظواهر بإضافة أحد مصادر فيتامين هـ إلى غذاء تلك الحيوانات التى تستعيد بعد ذلك قدرتها على التناسل ، ويوصف فى بعض الأحيان زيت بادرة القمح ـ وهو غنى بمحتوياته من فيتامين هـ ـ لمعالجة الأزواج العقماء ،

على فرض أن بعض حالات العقم فى الإنسان قد يكون سببها نقص هذا الفيتامين . . .

ويعتبر ضمور الأعضاء التناسلية من أهم الأسباب فى إحداث حالات العقم أو نقص الإخصاب ، إذ أن هذا الضمور يمنعها من تأديةوظائفها الحيوية، إما لعجزها عن تكوين الخلايا الجنسية أو لإنتاج هذه الخلايا ناقصة البنيان أو ضعيفة النشاط ، وقد سبق أن وصفنا العلاقة بين نقص فيتامين هـ وضمور الخصيتين فى الذكور . . . والأغذية المختلفة ، من دهون وسكريات ونشويات وزلاليات وأملاح وماء وفيتامينات ، يتحول بعضها فى داخل جسم الإنسان إلى مواد كيميائية تعرف بالإفرازات الداخلية أو الهرمونات . . . وهذه الهرمونات لها قدرة غريبة على التحكم التام فى أوجه النشاط المختلفة للانسان ، ويسبب غياب بعضها أو عدم نشاطها ضمور الأعضاء التناسلية وعجزها عن تأدية وظائفها الحيوية ، وقبل أن نصف العلاقة الوثيقة بين مختلف الهرمونات ونمو الأعضاء التناسلية يجدر بنا أن نذكر وصفاً قصيراً لتاريخ اكتشافها ، وللملابسات التى قادت العلماء إلى اجتلاء أسرارها . . .

كان من المعتقدات البدائية أن الإنسان يستطيع أن يكمل قوته ويزيد نشاطه باستعمال بعض الأعضاء البدنية التي يستحوذ عليها من مختلف ضحاياه البشرية والحيوانية . . . فكان المحاربون القدماء إذا صرعوا أعداءهم تناولوا قلوبهم غذاء لهم ، ظناً منهم أن ذلك يزيد من قوتهم ويضاعف من شجاعتهم ! . . . وكان الاعتقاد السائد أن الأمراض على اختلاف أنواعها وتباين أعراضها يرجع سببها إلى نقص بعض مواد مجهولة يفرزها مختلف أعضاء الجسم الداخلية ، وأن هذه الأمراض يمكن معالجتها بإمداد الأجسام بأعضاء خارجية تحتوى على هذه المواد الضرورية . . . فكانت تعالج أمراض الكبد بتناول أكباد الذئاب ، والأمراض العصبية بأمخاخ الأرانب ، وأمراض التنفس برئات الثعالب ، أما الأمراض الخاصة بنقص القدرة التناسلية فكانت تعالج بإمداد الأجسام بالمواد الداخلية التي تحتويها الغدد الجنسية ! . . .

ظلت هذه المعتقدات شائعة الاستعمال تتوارثها الأجيال إلى أن بعث الله للانسانية أحد الباحثين الفرنسيين وهو « براون سيكارد » فأخذ يدرس هذه المعتقدات القديمة على أسس علمية وطيدة ، ليثبت للعالم الطبي مقدار صحتها ، أو لينقذ الناس من

خرافتها ! . . . فقد أصاب سيكارد هزال شديد عند ما تقدمت به السنون ، وانتابه ضعف خطير أوشك أن يورده موارد المنون . وفى أثناء هذا الصراع المرير بين الموت والحياة جاءه إلهام نفسى بأن يحقن نفسه بخلاصة المحتويات الداخلية للغدد التناسلية ! . . . كانت هذه التجربة ذات آثار سحرية ، فبعثت الحياة من جديد فى سيكارد وتقدمت صحته تقدماً مستمراً مطرداً . . . وقد كانت هذه التجربة باكورة التجارب فى هذا الشأن ، ولأهميتها أعلنت نتائجها أمام الجمعية البيولوجية فى باريس فى ٣١ مايو عام ١٨٨٩ ، وقد اعتبر هذا اليوم من الأيام التاريخية المعدودة إذ ولد فيه علم جديد هو علم وظائف الغدد الصم . ومن ثم اتخذ علم الغدد مركزه الممتاز بين مختلف العلوم ، وأثار اهتمام الباحثين فى الأقطار عامة .

وقد كان « ثيو بيل دى بوردى » — وهو أحد الاطباء الملحقين بحاشية لويس الخامس عشر — أول من عمل على دراسة طبيعة الإفرازات الداخلية فى الجسم . . . وأثبت أن كل غدة فيه ، بل كل عضو منه ، هو بمثابة معمل لتحضير مواد خاصة أو إفرازات تتخذ طريقها إلى الدم ، ثم تنتشر منه إلى سائر أجزاء الآلة البشرية ، وأن حيوية الأجسام ودرجة نشاطها

تتوقفان إلى درجة كبيرة على وجود هذه الإفرازات أوغيابها ! ..
وقد كانت استنتاجات « بوردى » من الاهمية بمكان حتى إنها مازالت إلى الآن متناسقة تمام التناسق مع الاستكشافات العلمية الحديثة ، وقد وصف هـذا الطبيب بالتفصيل الصفات الجنسية الثانوية التى تحدث بعد إخصاء « الاغوات » والديوك ، و بعد انتزاع المبايض من إناث الحيوانات ، إلا أن تعليل بوردى لهذه الظواهر جميعها كان تعليلا نظرياً بحتاً ، وكانت طريقته فى ذلك هى الطريقة المعروفة بين غيره من علماء القرن الثامن عشر ! . .

وقد أجرى « بيرثولد » أول التجارب العملية لدراسة وظائف الغدد الصم وطرق تأثيرها ، إذ استأصل الغدد الجنسية من الديوك ووضعها فى مكان آخر من أجسامها ، بحيث يتسنى لها الاتصال الدائم بالأوعية الدموية . وقد وجد أن الصفات التى كانت تظهر على هذه الديوك بعد إخصائها — من حيث كبر حجمها وازدياد وزنها — قد اختفت اختفاء تاماً ، واستمرت الديوك حافظة لصفاتها الذكرية العادية كأن الخصيتين لاتزالان فى مكانهما الطبيعى ! . . . وقد استنتج « بيرثولد » من ذلك أن احتفاظ الديوك بصفاتها الأصلية — بعد إخصائها وانتقال الخصيتين إلى

مكان آخر من جسمها — يرجع إلى أن الأعضاء الذكرية ما زالت توالى الدم بإفرازاتها ، وهذه الإفرازات هى العوامل الرئيسية فى تبلد الأجسام وطريقة نموها ! . . .

تلك نبذة مقتضبة فى المقدمات التاريخية الهامة التى أدت إلى اكتشاف الإفرازات الداخلية أو الهرمونات ، وهذه الإفرازات تستمدها الغدد المولدة لها باعتبارها مواد أولية من الدم ، ثم يجرى تعقيدها بداخلها إلى مواد كيميائية تنفرد فى خواصها وتمتاز فى تأثيرها !... فالغدد مثلها كمثل المعامل الكيميائية فى وظائفها ، فهى تحصل على المواد الخام من الدم ثم تحولها إلى هرمونات فيها سلامة الأجسام وازدهارها ، والعلاقة بين المواد الخام الموجودة فى الدم وبين إفراز الهرمونات هى إحدى العلاقات الأساسية فى علم التغذية ... فقد وجد مثلا أن فيتامين ج يزيد فعل بعض الهرمونات فى الجسم مثل هرمونات الغدة الكظرانية ، كما وجد أيضاً أن نقص المصادر الفيتامينية من الطعام يسبب ضمور الغدة الدرقية ! . . . ويوجد فى الجسم كثير من الغدد التى تقوم بإفراز مختلف الهرمونات مثل الغدة النخامية والدرقية والكظرانية والبنكرياسية والمعدية والمعوية والغدد الجنسية ، وهناك أعضاء

أخرى قد يكون فيها غدد صم مثل الجسم الصنوبرى ولوز الصدر والكبد والقلب والطحال ! . . .

والهرمونات هى مواد تتكون في بعض أجزاء الجسم ، ثم تنتشر انتشاراً سريعاً فى الأوعية الدموية أو الليمفاوية إلى سائر الأعضاء ، وقد تتغير وظيفتها ويختلف تركيبها عند انتقالها من الغدد المولدة لها إلى الأعضاء الأخرى التى تبدى فيها تأثيرها ، وتتكون الهرمونات من مواد معقدة لها قدرة غريبة على التحكم فى وظائف الجسم المتعددة . . . ولفظ هرمون مشتق من الكلمة الإغريقية « هرمو » وتدل على معنى التحريض أو الاستفزاز ، وترجع هذه التسمية إلى القدرة الغريبة التى تظهرها هذه المواد فى العمل على إحداث الزيادة أو النقص فى مختلف أوجه النشاط الإنسانى ! . . وسنقصر دراستنا على بعض الهرمونات التى قد يكون لنشاطها صلة وثيقة بظاهرتى العقم وقوة الإخصاب ! . . .

أثبت العلماء أن حيوية بعض الغدد الصم أو عدم نشاطها من أهم الأسباب فى زيادة قوة الإخصاب أو نقصها ، وعجز هذه الغدد عن إفراز كميات كافية من الهرمونات تسبب حالات العقم بإحدى طريقتين ، فهى إما أن تؤدى إلى ضمور الأعضاء

التناسلية ، وإما أن تؤثر فى حيوية الخلايا الجنسية ! . . . وترجع معظم أسباب حالات العقم إلى عدم نشاط الغدتين النخامية والدرقية ، أما هرمونات الغدد التناسلية نفسها فتأثيرها ضعيف ، وقليلا ما يسبب غيابها حالات العقم ... ولأهمية الغدة النخامية فى ظهور حالات العقم أو قوة الإخصاب سنوفيها حقها من الشرح بإسهاب . . .

تقع الغدة النخامية تحت المخ وفى منتصف الرأس تقريباً ، وهى تتكون من فصين ، فص أمامى وآخر خلفى ، وقد كان كوشنج عام ١٩٠٩ أول من أجرى بعض التجارب على الكلاب لاختبار تأثير هرمونات الغدة النخامية فى نمو الأجسام ونشاطها، فعمل على استئصال الجزء الأمامى من هذه الغدة دون أن يعرض حياة هذه الحيوانات للخطر . . . وقد وجد أن الكلاب — بعد استئصال غدتها النخامية — تزداد أحجامها زيادة كبيرة ، ويتبع ذلك ضمور أعضائها التناسلية وغدتها الدرقية ! . . . وأثبت العلماء الأمريكيون سميث وآلن وآتويل أن استئصال الغدة النخامية من الضفادع يسبب لها نقصاً فى نمو العظام كما يسبب عدم ظهور الأعضاء التناسلية وضمور الغدتين الدرقية والكظرانية ! . .

وقد تأيدت هـذه التجارب عندما قام الأستاذ « فيليب سميث » — الأستاذ بجامعة كاليفورنيا الأمريكية — بإجراء تجاربه على الفيران ، فقد نجح فى وقف نشاط الغدة النخامية فى هذه الحيوانات بواسطة حقنها بمادة حمضية قوية ، وقد نتج عن ذلك ظهور أعراض شاذة فى الفيران ، كقصر قامتها ، وازدياد سمانتها ، وضمور أعضائها التناسلية وغدتيها الدرقية والكظرانية !

أثبتت هذه التجارب العلاقة الوثيقة بين غياب هرمونات الغدة النخامية وضمور الأعضاء التناسلية فى مختلف الحيوانات ، وابتدأت أنظار العلماء تتجه إلى دراسة هذه العلاقة فى الإنسان... وقد تفحّصَ العالم الأسبانى « مارانون » حالة صبى أصيب بالرصاص فى منطقة الغدة النخامية ، ولم تظهر عليه فى أول الأمر أية أعراض غير عادية . ولكن بعد مضى فترة قصيرة من الزمن ، اعترته ظواهر شاذة أهمها السمانة المفرطة والنقص الشديد فى مقدرته الجنسية . . . وهكذا عزز هذا الحادث الطارىء العلاقة القوية بين إفراز الغـدة النخامية والمقدرة الجنسية فى الإنسان ، مثله فى ذلك كمثل غيره من سائر الحيوانات ! . . .

وقد وجد بعد ذلك أن نقص هرمون الغدة النخامية يؤثر تأثيرا

كبيرا فى نمو الإنسان ولا سيما أثناء دور البلوغ ، فتظل الأعضاء التناسلية ضامرة وصغيرة الحجم، وتظهر الصفات الجنسية الثانوية ـ كنمو اللحية فى الرجال وبروز الثدى عند النساء ـ متأخرة عن موعدها وضعيفة فى مظهرها . ولا يظهر الحيض عند الفتيات ـ اللاتى ينقصهن هرمون الغدة النخامية ـ إلا فى سن متأخرة تختلف بين السادسة عشر عاما والعشرين ، وتكون الفترة بين الدورتين طويلة وغيرها منتظمة كما يكون خروج الدم ضئيلا .

وقد كان طبيعيا أن تتجه أنظار العلماء بعد ذلك إلى دراسة تأثير زيادة هرمون الغدة النخامية فى نمو الأعضاء التناسلية ونشاطها . وقد أجريت بعض التجارب التاريخية فى معامل إيفانس الأمريكية ، ووجد أن الحيوانات إذا طعمت بالفص الأمامى للغدة النخامية سبب لها ذلك زيادة كبيرة في نمو أعضائها التناسلية ونشاطها وقوة إخصابها . وهناك حالات كثيرة تدل على وجود مثل هذه الظاهرة فى الإنسان ـ وهى ظاهرة البلوغ المبكر ـ نتيجة لازدياد إفراز بعض الهرمونات . فكثيرمن الأطفال يخشن صوتهم ، وتزداد بنيتهم إزديادا كبيرا كما تتضخم

أعضاؤهم التناسلية تضخما ملحوظا ، وهم لا يزالون يحبون فى دور طفولتهم و بدء حياتهم ! . . . وقد لوحظت حالات شاذة لأطفال ذكور — لم يتموا العام الأول من عمرهم — بلغت أعضاؤهم التناسلية مبلغا كبيرا من النمو والنشاط بحيث يتسنى لها إنتاج الحيوانات المنوية . وقد درس العالم « فالتا » حالة طفل ظهرت على وجهه لحية مسترسلة ، وكسى جسده الشعر الكثيف ، وهو لما يبلغ بعد العام الثامن من العمر ، وعند ما بلغ هذا الطفل العام الثامن كانت أعضاؤه التناسلية فى أوج نشاطها ، وكانت علامة الرجولة فى ذروة عنفوانها . ووصف « رو » حالة طفل آخر لم يبلغ من العمر إلا أربع سنوات ، ولكنه كان يبدو للناظرين كطفل فى العام الثامن من حيث مقدرته البدنية ، وكصبى فى السادسة عشر من حيث ارتقاء أعضائه التناسلية ! .

ويلعب هرمون الغدة النخامية دورا هاما فى نقص قوة الإخصاب فى الإناث أو زيادتها ، إذ وجد أن البييضات تزداد فى عددها بازدياد هذا الهرمون وتقل بنقصه ، فازدياد الإفرازات النخامية يقلل من حالات العقم ، إذ كلما كثرت البييضات داخل الأرحام ازدادت الفرصة أمام الحيوانات المنوية لمقابلتها وتلقيحها!

تلك نبذة قصيرة فى الدور الهام الذى تقوم به الغدة النخامية وهرمونها ، لإحداث زيادة قوة الإخصاب أو نقصانها . ولم تكن زيادة هذه الإفرازات وتأثيرها فى إحداث البلوغ المبكر موضع اهتمام الأطباء وحدهم ، ولكنها كانت من الموضوعات الشائكة التى أعيت علماء النفس فى حلها . . . فإن من أخطر الأدوار فى حياة الإنسان أن يجمع بين سذاجة الطفولة وبراءتها وبين العواطف الجنسية ونزعاتها ، وإن ما يسببه هذا البلوغ المبكر من قوة جسدية ونزعات عاطفية لها ما لها من نزقها وخطرها . إذ كان من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل هذه القوة تنمو تدريجياً كلما تقدمت السنون واكتملت العقول ! . .

وهناك علاقة وثيقة بين نمو الغدة النخامية ونشاط هرمون الغدة الدرقية ، وهذه العلاقة تؤثر تأثيراً غير مباشر فى ضمور الأعضاء التناسلية وإضعاف نشاطها . وقد وجد أن غياب هرمون الغدة الدرقية فى صغار الحيوانات يسبب لها نقصاً ملحوظاً فى نمو أجسامها وفى درجة ذكائها ، وإذا استمرت هذه الإفرازات فى مواصلة نقصها سبب ذلك ضمور الأعضاء التناسلية ، وتفقد هذه الأعضاء — لصغر حجمها وضمورها — مقدرتها الحيوية

على تأدية وظائفها الجنسية ! . . . وقد وصفت بعض حالات لرجال عقماء ، لم تكتمل أعضاؤهم التناسلية فى نموها ، ولم تستطع تأدية وظيفتها ، بسبب استمرار الغدة الدرقية فى احتفاظها بحجمها الصغير الذى وصلت إليه فى دور الطفولة ، وعجزها عن ازدياد حجمها وكمية إفرازاتها لمسايرة نمو الأجسام ومستلزماتها ! . . . وتختلف الغدة الدرقية فى حيويتها ، وفى مقدار ما تفرزه من هرمونها ، باختلاف بعض المؤثرات الخارجية والداخلية ، فقد وجد أن نشاطها يزداد ازدياداً كبيراً أثناء برودة الجو ، وأثناء بعض العمليات الفسيولوجية التى تتطلب من الإنسان مجهوداً جباراً عنيفاً كفترتى البلوغ والحمل ! . . .

وإن دراسة العلاقة بين العواطف الإنسانية وهرمون الغدة الدرقية لتعد من الموضوعات الشائقة ، إذ وجد أن كمية هذه الإفرازات تزداد ازدياداً كبيراً بعد المجهودات العاطفية الشديدة. وعسى أن يوفق العلم قريباً إلى ابتكار أحد الأجهزة الدقيقة التى تستطيع تسجيل تدفق الإفرازات الدرقية أثناء المغازلات العاطفية ، لتكون معياراً صادقاً للتمييز بين العواطف الزائفة والصادقة ! . . .

وظيفة الأعضاء التناسلية نفسها لا تقتصر على إنتاج الحيوانات المنوية فى الذكور والبييضات فى الإناث ، ولكنها تفرز أيضاً هرمونات خاصة لها قدرة غريبة على التحكم فى مختلف العمليات النفسية والفسيولوجية التى تترتب على ظهور الصفات الجنسية ، وتلعب هذه الإفرازات الداخلية دوراً هاماً فى استكمال الوظيفة التناسلية ! . . . وتبتدىء الهرمونات الذكرية فى إظهار تأثيرها أثناء دور المراهقة ، فتظهر تبعاً لذلك الميول الجنسية مصحوبة بأعراض صوتية وجسمانية ، ووجد أن الهرمونات الذكرية تبدأ نشاطها منذ وجود الأجنة فى بطون أمهاتها. ولاحظ هذه الظاهرة الهامة بعض المشتغلين بتربية الأبقار عندما تلد واحدةمنها عجلين توأمين مختلفى الجنسية ، إذ تتدفق الهرمونات التناسلية من ذكرية وأنثوية فى الجنينين . . . وقد وجد أن الهرمونات الذكرية هى التى تتغلب على نظيراتها الأنثوية فى أنثى التوأمين ، فتسرى الهرمونات الذكرية فى دمائها ، وتجعلها كالذكر فى جميع مظاهرها وصفاتها ، فلا تبرز نهودها ، ولا تظهر مبايضها ، وتظل عقيمة طول حياتها. وهكذا كان من نتائج تدفق الهرمونات الذكرية فى دماء أنثى التوأمين استمرار ظاهرة

العقم فيها ، ولا يستبعد حدوث مثل هذه الحالات فى الإنسان .

ولا تقتصر فوائد الهرمونات الذكرية على إظهار الصفات الجنسية ونمو الأعضاء التناسلية فحسب، ولكنها تعمل أيضاً على استكمال بعض التغيرات النفسية والجسدية اللازمة لإبراز مختلف العواطف الإنسانية . وقد أجريت بعض التجارب على رجال كانوا قد فقدوا ميولهم الجنسية — بسبب قصور الهرمونات الذكرية أو غيابها — فطعموا بخلاصات من خصى الذكور . فوصف العالم «ليستر» حالة شاب فى مقتبل العمر استؤصلت إحدى خصيتيه ـ للحد من ميوله الجنسية الشاذة العنيفة ـ وطعم بها رجل يبلغ من العمر خمسين عاماً !.. كان هذا الكهل قبل التطعيم فاقد اللحية ، ناعم الصوت ، ولم يبد فى حياته الطويلة أى ميل جنسى أو نشاط تناسلى . . . فلم تمض على عملية التطعيم ثلاثة أشهر حتى قامت الهرمونات الذكرية بمعجزاتها السحرية ، فبدلت من ضعفه قوة وشباباً ، إذ ظهرت لحيته بعد احتجابها ، وتبدت ميوله الجنسية بعد اندثارها ، وقام برسالته التناسلية أول مرة فى حياته ! . . .

وهناك حالة رجل كان قد اعتلاه الشيب قبل الأوان ، وأخذ شعره يتساقط فى فترات ، ولكن لما طعم هذا الرجل بالغدد

الذكرية عاد الشعر إلى سابق سواده ونما نمواً كثيفاً طبيعياً ... فمثل الهرمونات الذكرية فى عملها كمثل عامل المكياج فى المسارح التمثيلية . كلاهما يعمل مخلصاً لاستكمال المميزات الجسمانية التى تبرز العواطف البشرية وتلهب الميول الجنسية .

والهرمونات الذكرية من أهم العوامل الفسيولوجية التى تتحكم فى حركات الطيور فى إقامتها وحين رحيلها ، وتختلف هذه الإفرازات فى كمياتها باختلاف الفصول وتباين أجوائها . . فعند ما يأتى فصل الشتاء تقل كمية إفراز الهرمونات ، ومن ثم تفترق الذكور عن إناثها ، وتهاجر مع زمرة من رفقائها صوب الجنوب ، طلباً للراحة والقوت . . . وهكذا تستمر الذكور طول فصل الشتاء بعيدة عن أوطانها وإناثها ، فإذا حل فصل الربيع تأخذ الهرمونات الذكرية فى الازدياد تدريجاً وتشتد تبعاً لذلك ميول الذكور العاطفية ، فتقفل بأسرابها إلى الشمال راجعة إلى أوطانها وإناثها ، يزجيها الحنين إلى الوطن وتلهبها الميول الجنسية ! . . ويستطيع الباحث أن يستنتج من ذلك أن نقص الهرمونات الذكرية أو ازديادها فى الطيور من العوامل القوية فى هجرتها أو الرجوع إلى أوطانها . وقد أثبتت التجارب أن استئصال الغدد

التناسلية لطائر ما تفقده قدرته الموسمية على الهجرة ، وقد يحدث هذا فى الطبيعة لمرض يصيب الغدد التناسلية، وشوهدت حالات عدد غير قليل من غربان أمريكا الشمالية لم تذهب مع عشيرتها عند رحيلها ، وعندما تفحصها الباحثون وجدوا أن غددها التناسلية معطلة بسبب مرض أصابها .

وتلعب الهرمونات الأنثوية دوراً مشابهاً لدور زميلاتها الذكرية من حيث إبراز العواطف البشرية واستكمال الميول الجنسية . فالمبايض فى الإناث لا تقتصر وظيفتها على إنتاج البييضات فحسب ولكنها تفرز أيضاً نوعين مختلفين من الهرمونات يسمى أحدهما « سيلين » و الآخر « بروجستين » . أما الهرمون الأول فيستمر فى نشاطه وتأثيره فى الإناث منذ ابتداء ظهور جنينها إلى سن يأسها ، وأما « البروجستين » فيقتصر وجوده ونشاطه على الفترة الخصيبة من أعمارها التى تكون فيها قادرة على تأدية مختلف الوظائف الجنسية . وقد وجد أن استئصال المبايض يحرم الأجسام هرموناتها الأنثوية ، ويسبب لها الاحتفاظ طول حياتها بصفات جسدية وعقلية كتلك التى وصلت اليها قبل بلوغها . فالصفات الجنسية الثانوية ، كبروز النهود وظهور الميول الجنسية

وما شابهها ، تتوقف فى ظهورها واجتلاء تأثيرها على نشاط الغدد التناسلية وهرموناتها . وهرمون « السيلين » يعتبر من أشد المنبهات للميول الجنسية ، ويسبب إزدياده فى إناث الحيوانات حالة الشبق عندها ، فتزداد تبعاً لذلك ميولها الجنسية ازدياداً كبيراً وتبلغ فى ذلك مبلغ الغلمة والشراهة . أما « البروجستين » فيعتبر أحد المنبهات الجنسية الثانوية ، إذ يعمل على إعداد الأرحام لاستقبال البييضات الملقحة ، وينظم مختلف العمليات الفسيولوجية والنفسية التى تحدث أثناء فترتى الحمل والولادة !

وقد كان اكتشاف العلاقة الوثيقة بين أنواع التغذية والفيتامينات وبين الهرمونات من أهم المظاهر الجذابة فى العلم الحديث . فالهرمونات تعتبر مصدر إلهام الميول العاطفية والجنسية فى الإنسان ، تلك الميول التى تجعل الفرد عبداً لأهوائها وفريسة لشهواتها . وقد حان الوقت الذى يجب فيه على زعماء الأخلاق وقادة الفكر والإصلاح أن يستعينوا بعلماء التغذية فى تحقيق أغراضهم النبيلة وأهدافهم السامية . فإن من المحال على فرد قد أصيب مثلا بتضخم الغدة النخامية وازدياد إفرازاتها أن يقاوم عاطفته الجنسية القوية وسوء نتائجها بالإرشادات الكلامية أو

بالخطب التهذيبية ، ولكن الطريق الوحيد لإصلاح اعوجاجه هو بمعالجته المعالجة الغذائية المناسبة التى تحد من نشاط هرمونات بعض الغدد الداخلية . والعلاقة بين أنواع التغذية ونشاط الغدد الجنسية قد تكون فى المستقبل سبيلا ممهداً لإحداث حالات العقم فى البله والمصابين بأمراض عقلية وسرية وراثية ، حتى لا ينتج هؤلاء جيلا سقيما مشوهاً ، وحتى تحتفظ الامة بكفاية أبنائها وبمستوى انتاجها ، والكفاية والقدرة على الإنتاج من أهم العوامل فى نجاح الأفراد وارتقاء الأمم فى هذا المعترك العالمى .

يستطيع المرء أن يستنتج مما تقدم أن طاقة الإخصاب فى الإنسان تتوقف على عدة عوامل خارجية وداخلية ونفسية ، فالغذاء الغنى بمواده الفيتامينية ، وخلو الأجسام من بعض الأمراض المعدية ، وتوفر الهرمونات الضرورية الداخلية ، كل هذه تعمل متآزرة فى سبيل إبراز العواطف الجنسية وازدياد المقدرة التناسلية .. فالآلة البشرية أداة معقدة التركيب ، تجرى فى إدارتها على نظام قويم يكفل لها حسن إنتاجها واستمرار حياتها . . وكلما ازداد الإنسان معرفة بماهية الأجسام الإنسانية وطبيعة إفرازاتها كلما تفتحت أمام أعينه الأبواب لحل ما استعصى من معضلاتها واستجلاء خباياها وأسرارها .

٧

« خاتمـــة »

إن الحياة البشرية ملأى بأنواع الكفاح المتواصل بين الإنسان وما يحيط به من مختلف الأجواء والكائنات ، وقد كان هـذا الكفاح الشديد من أهم الأسباب فى شحذ قرائح العلماء واستنهاض همم الباحثين ، لإيجاد أفضل السبل وأقومها للمحافظة على رفاهية الإنسانية وسعادتها . وقصة الفيتامينات هى إحدى الحقائق الحيوية التى كان لتقدم العلوم فضل كبير فى استجلاء غوامضها ، وتبيان أهميتها . فالحياة الإنسانية ما هى إلا أحد مظاهر صحة الأجسام وقوتها ، وهذه المظاهر تخضع فى استمرارها لمختلف العوامل الغذائية وفيتاميناتها . والأهداف الحاليـة لدراسة التغذية لم تعد مقصورة على سد الاحتياجات الفردية ، بل أصبحت أنبل مقصداً وأبعد أثراً . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أن الأطعمة المختلفة — من ماء ومواد كربوهيدراتية وزلالية ودهنية وفيتامينية وأملاح معدنية — يستعمل بعضها لإنتاج الطاقات

اللازمة لازدهار الحياة واستمرارها ، كالطاقات الآلية والحرارية، ويسرى البعض الآخر إلى الغدد الصم الداخلية ، لتتحول بدورها إلى هرمونات لها السيطرة التامة على مختلف العمليات الفسيولوجية، فمنها ما توجه الميول العاطفية ، ومنها ما تلهب النزعات الجنسية ، ومنها ما تعمل على إستكمال الطاقات العقلية والتناسلية .

والعلاقة بين أنواع المأكولات وفيتاميناتها وبين نشاط الهرمونات وكمياتها قد تكون فى المستقبل وسيلة للتحكم فى ميول الأفراد ونزعاتهم ، وقد ظهرت بشائر هذه الاتجاهات الجديدة فيما توزعه بعض الأمم المحاربة من أقراص غذائية تلهب حماسة جنودها وتزيد شجاعتهم ! . . .

وإذا نظرنا إلى المصادر المختلفة التى نستمد منها احتياجاتنا من الفيتامينات ، نجد أن معظمها موجود فى النباتات ... والتعاون بين الإنسان والنباتات تعاون متبادل جذاب ، فالإنسان يتعهد النباتات برعايته ، يكفل لها احتياجاتها المائية ، ويمدها بمختلف الأسمدة والأملاح المعدنية، فتخرج له أثماراً يانعة وفواكه قطوفها دانية . . . والنباتات بدورها تمتص من التربة المواد العضوية والأملاح المعدنية لتحيلها فى داخل أنسجتها إلى فيتامينات تمد

بها الكائنات الإنسانية والحيوانية ، فتبرئ سقيمها ، وتشفى عليلها !... ذلك هو أحد المظاهر التى تكفلت بها الطبيعة بمعجزاتها ، فمهدت للنباتات سبل نموها وحياتها ، لتضمن للكائنات الحية وسائل أرزاقها وشفائها . فكلما تقدمت العلوم بأبحاثها واكتشفت أسرارها ازداد الانسان إيماناً على إيمان بعظمة من نظم هذه الأكوان ، فأحكم دقائقها وأجاد تنظيمها .

واكتشاف الفيتامينات ، مثله كمثل غيره من الفتوحات العلمية ، ما هو إلا تعليل لجملة مشاهدات ومعتقدات تاريخية ، سبق أن تغلغلت فى النفوس وتوارثتها الأجيال . وقد ظلت هذه المشاهدات مدة طويلة مجهولة الأسباب إلى أن قيض الله لها من كشف أسرارها وعلل أسبابها ، ولما كانت الأمراض من أشد أعداء الإنسانية وأقواها ، كانت قدرة الفيتامينات على شفاء بعضها من أهم عوامل شهرتها واهتمام الناس بها . والعلاقة بين التغذية والأمراض علاقة متشعبة النواحى متصلة الحلقات ، فمقاومة الأجسام ومناعتها لمختلف الأمراض تتوقف على قوتها وحيويتها ، وهذان يتوقفان بدورهما على أنواع التغذية وفيتاميناتها، كما أن هناك أنواعا خاصة من المأكولات تحد من تكاثر

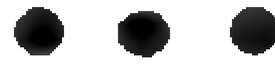
الميكروبات وتعمل على إذابتها . وقد سبق أن رأينا أن نقص بعض الفيتامينات يسبب للانسان أمراضاً خطيرة تعمل على ازدياد آلام الإنسانية وتضاعف من ويلاتها .

والتغذية بفيتاميناتها لا تقتصر أهدافها على تحريك الأجسام ونشاطها ، والمناعة ضد الأمراض وويلاتها ، بل تمتد آثارها إلى التحكم فى تبلد العقول أو صفائها ، وفى قوة التناسل أو ضعفه. فالتغذية تعتبر المعيار الصحيح لقياس درجة ملاءمة الأفراد والأمم للانضواء تحت لواء الحياة أو عدم استعدادها . فإذا تبلدت الأجسام لمقاومة ما يحيط بها من ظروف جوية وميكروبات مؤذية ، وإذا تكيفت العقول للسير بأصحابها إلى أهداف ناجحة سامية ، قدر للانسان أن يتخذ طريقه فى الحياة ناجحاً قوياً .. أما إذا عجزت الأجسام والعقول عن تكييف نفسها لمطالب الحياة ومستلزماتها ، أدركها الإخفاق ، أو طواها الردى ، فأمست نسياً منسياً ! . .

فهـــرس

اقرأ

المؤلفات التى ظهرت فى سنتها الرابعة (١٩٤٦)



يظهر فى أول مايو سنة ١٩٤٦

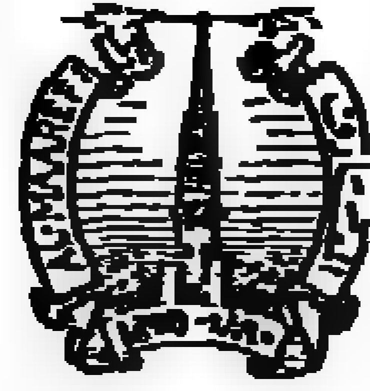
الكتاب رقم ٤٢ وعنوانه

قصة عبقرى

بقلم الأستاذ يوسف العش

مدير المكتبة الظاهرية بدمشق سابقاً

وسكرتير اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية



ظهر أخيراً

ص		
٢٠	محمد عبده	بقلم الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق

تحليل صادق لحياته ومذاهبه فى الإصلاح والتجديد .

ص		
٢٥	الغربال	بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة

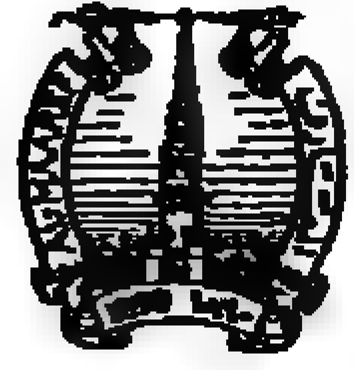
كتاب يطل القارئ من خلاله على كثير من الطرائف والحقائق مع استقامة فى النقد وغيرة على الإصلاح . . .

ص		
٣٠	تغريدات الصباح	نظم الأستاذ محمد الأسمر

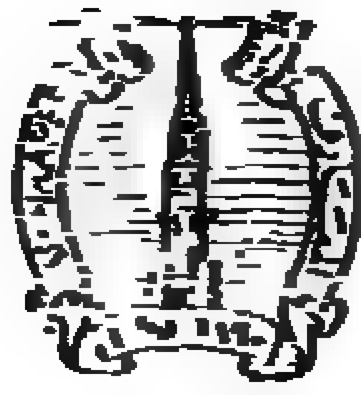
ديوان من الشعر الرصين فيه نسج القديم وطرافة الجديد . . .

ص		
٢٠	سيوة	بقلم البكباشى رفعت الجوهرى

عرض تاريخى ووصف شائق لعادات وأخلاق سكان هذه الواحة التى تعد جنة الصحراء .



مطبوعات حديثة



دار المعارف للطباعة والنشر

أسست فى القاهرة سنة ١٨٩٠

المحل الرئيسى بالقاهرة	: ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية	: ٢ ميدان محمد على
مكتب السودان	: شارع السردار بالخرطوم
مكتب فلسطين وشرق الأردن	: شارع مأمن الله بالقدس
توكيل العراق	: المكتبة العصرية ببغداد
توكيل لبنان وسوريا	: شركة فرج الله وحتى ببيروت
توكيل المملكة العربية السعودية	: مكتبة الثقافة بمكة المكرمة

أقدم دار عربية فى الشرق العربى

صدر العدد الجديد

الكتاب

التي تعد من أرقى المجلات العربية
في الأدب والشعر أبحاث قويمة
ودراسات قصصية وأنباء طريفة
في مختلف أبواب الآداب والعلوم والفنون

تصدرها
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
رئيس تحريرها الأستاذ عادل الغضبان
يشترك في تحريرها أكابر كتاب الشرق العربي

ثمن النسخة

مصر والسودان ١٠ قروش فلسطين وشرق الأردن ١٢٠ مل
لبنان وسوريا ١٢٠ غ.لبن بالعراق ١٢٠ فلسا

اقرأ

يوسف الغشه

قصة عبقري

دار المعارف للطباعة والنشر

قصة عبقري

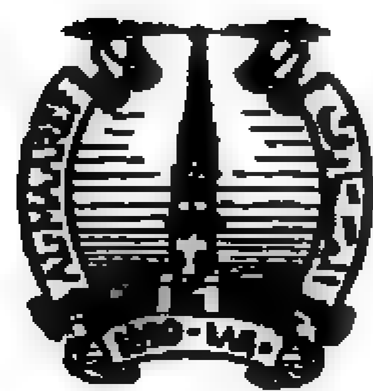
يوسف الغشيم

قصة عبقري

اقرأ ٤٢

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٢ — مايو ١٩٤٦



بسم الله الرحمن الرحيم

(اجتمع أدباء من كل أفق بمكة فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل بن أحمد الفراهيدى فلم يبق أحد إلا قال الخليل أذكى العرب) .

(أبو أحمد التوزى)

وهاك قصة الخليل بجمال نفسه وحسن خُلقه

وقوة عبقريته. وليس المؤلف فيها بعد الاختيار

والحبك إلا تفصيل الحوادث

والشعور بعظمة الرجل

الفصل الأول

انطلق الصبية يلعبون فى أزقة البصرة عام ١١٢ للهجرة ، يتراكضون ويتسابقون ، يجتمعون ويفترقون ، وفيما هم فى لعبهم ضاحكون ، إذا أحدهم يصرخ مشيراً إلى رجل أقبل من بعيد ، وهو على بغلته ، يكاد لا يظهر عليها لقصره ، فاجتمع الصبية متقاربين ، وأخذوا يتأملون فيه ساخرين ، وهو يتقدم نحوهم .

قال أكبرهم : أنظروا إلى شاعر البصرة ، وحامى لواء قبيلة بنى تميم ، أنظروا إلى الفرزدق ، وقولوا : هل رأيتم أقبح من هيئته وأقصر من قامته ؟ فضحك الصبيان ، وتقدم الفرزدق حتى وازاهم وقد شمخ بأنفه ، ونفخ شدقيه ، وبسط ساقيه ليعلو جسمه على ظهر البغلة ، فيخفى شيئاً من قصره ، فما زاده هذا الوضع إلا غرابة وقوى عجب الصبية ، واشتد اهتمامهم ، وكثر تهامسهم ، أما هو فساءه نظرهم وعبس فى وجوههم علهم يرتدون عنه ، ويخشون نظراته ، ولكنهم أبوا الانهزام أمام تلك النظرات ، وسرهم

عبوسه ، وقصدوا الكيد به ، كما اعتادوا أن يكيدوا لبعض المارة . وشعر هو بذلك ، فخشى أن يصبح سخرية لهم ، ورفع عصاه التى يهمز بها بغلته ، ولوح بها أمامهم ، وقال بصوت أجش ثقيل :

نظروا إليـــك بأعين محمرة

نظر التيوس إلى مُدى القصاب

قال ذلك ، وردده مرتين رافعاً صوته عند كلمة المدى ، وكأنه كان يقول : إنكم تيوس تنظرون إلىّ بأعين محمرة خائفين من هذه العصا التى هى المدية حضرتها للبطش بكم ، ثم يردد قوله :

نظروا إليـــك بأعين محمرة

نظر التيوس إلى مُدى القصاب

وكان إنشاده الشعر بصوت قوى . يخرج من الحنجرة متثاقلاً وتهديده بعصاه ، وكان قد عاد من الحرب التى شنتها المهالبة ، كان كل ذلك يوحى الشدة والخوف ، فتراجع الصبية وجلين ، وقد أخافتهم كلمة المدى وتلويح العصا أكثر مما استثارهم تشبيهه لهم بالتيوس. تراجعوا إلا واحداً منهم، أشار إليه الصبية يقولون : ها هو ذا الخليل يقصد أمراً مهيباً . قالوا ذلك ، ووقفوا ليروا ماذا يجرى ، وقلوبهم مضطربة . أما الخليل فتقدم قليلاً إلى الفرزدق

بقدم ثابتة ونفس مطمئنة ، وقال : هل أغضبك نظرنا إليك وتأملنا فيك ، فرحت تهددنا وتشتمنا . إنا نظرنا إليك لأنك مليح كما ينظر إلى القرد لأنه مليح . قال الخليل هذا الكلام رافعاً رأسه غير هياب ولا وجل . وما سمع الصبية كلامه حتى صاحوا مهللين ضاحكين . ولم يكن الفرزدق يتوقع ذلك ، فاتقد غيظاً ، وكاد ينزل عن بغلته لينهال على هذا الصبي المتمرد الشجاع ضرباً بعصاه . ولكنه تذكر جريراً — لحى الله جريراً — إنه إذا بلغه أن صبياً من صبيان البصرة هزىء بشاعر بني تميم ، فوصفه بالملاحة أولاً ثم شبهه بالقرد ثانياً ، إنه حرى بأن يتخذ من هذا موضوع تهكم لاذع . ثم إذا علم جرير — ويح لجرير — أن هذا التشبيه ساءه ، فاعتدى على قائله ، ألا يجعل منه قرداً يتهارش مع الصبيان ؟ ذكر الفرزدق كل ذلك ، فأحجم عن النزول ، وتمسك بزمام البغلة ، وأشار إليها بأن تجد السير . وما كاد ينطلق حتى اجتمع الصبية حول الخليل يهللون معجبين بذكائه وإقدامه .

الفصل الثانى

مر الزمن و إذا الصبي الذكى الشجاع يصبح شاباً . و إذا هو يخرج من غرفته ، وهو يخفى فى طيات ثيابه خنجره ، فتضطرب والدته ، وقد رأته يفعل ذلك ، وتقول : ما بالك ياخليل ، إلى أى أمر مهم تخرج يابنى ؟ إنى خائفة عليك من أصحابك ، وأراهم يدفعونك إلى ما لا تحمد عقباه . فبالله عليك دعهم وشأنهم ، فإنك لم تخلق لما يدعونك إليه . أما رأيت أبا على يتنبأ لك بالعلم الجميل ، و يصفك بحدة الذكاء وقوة القريحة . للعلم خلقت يابنى لا لشىء آخر ، ألا فاعطف على قلب والدة وضعت فيك أملها ، وأحبتك أكثر ما تحب الأم ابنها . فنظر الخليل إلى والدته نظر العطف والمحبة ، وقال : أنا ابنك المطيع يا أماه ، ولكن أتراك نسيت شجاعة بنى أزد وقوة مراس الفراهيد ؛ ألست حفيد تلك القبيلة وابن هذه العشيرة ؟ أو تنجبان الجبناء ، ثم أنى لا أفعل إلا ما يقتضيه فرض الدين علىّ ، فقرى عيناً ولا تحزنى . قال

الشاب ذلك وانطلق يعدو ، وهو يخترق شوارع البصرة لا يلوى على شيء ، وكأنه ذاهب إلى موعد مع حبيب . ويخرج من البلدة ، فيعطف فى منعرجات خفية وشعاب وعيرة تفضى به إلى ما وراء أكمة ، فيجد شيخاً وسيما قد أحدقت به حلقة من شبان أشداء ، ينظرون إليه بإيمان ، ويشير الشيخ إلى الخليل : أن اجلس ، فيقعد القرفصاء ، ويصغى بكليته إلى الشيخ ، وإذا بهذا يقول : لقد كفر بنو أمية وضلوا سواء السبيل ، فلا أمر بالمعروف ، ولا نهى عن المنكر ، ولا اعتصام بحدود الله . يسلمون الناس النفاق ، ويدعون إلى المعصية ، فجزاؤهم وتابعيهم القتل ، وساء سبيلاً . يجتمع إخواننا من الخوارج من كل صقع ليدافعوا عن دين الله ، ويذبوا عن حماه . وسيكمنون لجيش الخليفة الآتى من الشام ، فيبادرونه بالسيف ، ويقتلون أمة الباطل وأعداء الله فهل أنتم على استعداد ؟ فيصيح الحاضرون بصوت واحد : نحن شراة فإلى الجهاد . فيقول الشيخ ستغادرون البصرة صباح الغد إلى حيث تجتمعون بالإخوان ، والأمر فيكم لأبى نجيم ، ولا تنسوا رأى الخليل ، فهو حكيمكم ، وإليه مشورتكم . وسأرسل إليكم النجدة ممن استثيره من أصحابنا الإباضيين .

وينفض المجلس على أن يخرجوا صباح الغد، وينطلق الخليل إلى الجامع ليودع حلقات العلم فيه، فهى التى سيفقدها من البصرة وسيحن إليها، فما أحراه بأن يتزود منها قبل خروجه. ويجوب تلك الحلقات، فتجتذبه حلقة لشيخ كبير، هو أيوب السختيانى وكان يمر بها فلا يقربها، لأن أصحابه كانوا يتقونها عملاً بنصيحة شيوخهم. فقد كان هؤلاء يدّعون أن المتصدر بها يدع الحق للباطل. ويتوق الخليل إلى سماع شيخ السنة هذا الذى اشتهر بالعلم وتربأ به نفسه أن يخرج من البصرة إلى غزو لا يعرف أيان ينتهى دون أن يستمع إلى شيخ تفرد بالمعرفة واشتهر بالعلم.

يقف على تلك الحلقة، فيسمع كلاماً ما سمع ألطف منه، فتؤخذ نفسه به، وينظر إلى الشيخ، فيراه يتفرس فى وجهه وهو يتكلم، فيطرق رأسه، ويجلس بين الناس ليتجنب تلك النظرات، فيسمع الشيخ يقول: حدثونا عن البراء بن عازب أن رسول الله قال: لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق، ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله النار.

كذا يقول رسول الله، وأين هذا مما يدعيه بعض أهل

الأهواء من وجوب قتل كل من لا ينضم إلى حزبهم، و يقول بمذهبهم يدعون أن من سواهم كافرون ، فكأنهم لم يسمعوا حديث رسول الله حيث قال : ما أكفر رجل رجلاً إلا باء أحدهما بها إن كان كافراً ، و إلا كفر بتكفيره .

وطفق الشيخ يورد من ذلك أقوالاً كانت نفس الخليل تضطرب لها ، ومما قال عن عبدالله بن مسعود ، قال قال النبي (ص) : لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : كفر بعد إيمان . وزنى بغير إحصان . وقتل نفس بغير نفس . قال الشيخ ذلك وكأنه قصد إسماع الخليل . ثم أضاف قائلاً : أرأيتم أيها الناس مسلماً يقتل مسلماً ، والروم متحفزون للقضاء علينا جميعاً ، ألا بئس تشتت المسلمين وتصادمهم ، ألا من ادعى حب الإسلام . فليخرج إلى قتال من يحاول طرد المسلمين من بلادهم لا إلى قتال من نصبوا أنفسهم للدفاع عنها .

وتنفض الحلقة ، فيقوم الخليل ، وهو يقول فى نفسه : والله لقد صدق الشيخ ، وما يعلم أحد خطأ معلمه حتى يجالس غيره ، كيف يقتل المسلم المسلم إذا أخطأ برأيه ، وكيف يقوم أمر المسلمين إذا وجب عليهم الخروج على صاحب الأمر فيهم ، كلما ظهر لهم .

منه هفوة أو بدت لهم منه خطيئة .وما أرى أصحابنا إلا استهوتهم شجاعتهم ، واستحكمت منهم صلابة رأيهم ، فقعدوا للمخطئين كل مقعد ، يريدون تقتيلهم وإرجاعهم إلى الحق وهم لمّا يعيدوا إليه إنساناً ، يَقتلون فيُقتلون إلى ما شاء الله . ولا يزال المسلمون فى نقصان إلى أن ينقضى أمرهم ، ألا بئس الرأى ما ارتآه أصحابى.

وتصور نفسه وهو يذبح أخاً له مسلماً من الوريد إلى الوريد فاقشعر بدنه هولا ، وعاد إلى البيت مكفهر الوجه ، واستقبلته أمه فوجدته على غير ما تركته ، فهالها الأمر وصارت تستفهم منه حتى حدثها بما يجول فى خلده ، فقوت عزمه على عدم الخروج فقال لها : لن أخرج لقتال جيش الخليفة . وما كاد ينهى جملته هذه حتى صفقت فرحاً ولكنه قطع بهجتها بقوله : أعدى لى عدتى فسأذهب إلى بلاد الروم مجاهداً . وذهب منذ اليوم الثانى إلى الثغور للدفاع عن الإسلام .

الفصل الثالث

عاد بعد زمن موفقاً مظفراً ، وكان همه بعد عودته أن يستزيد من علم أيوب ، وأن يتفقه بمعرفته ورأيه ، فوجد أستاذاً يعرف حق الطالب المجد ، ويقدر للموهوب ذكاءه ؛ وإذا بالخليل يصبح أخص تلامذته وأقربهم إليه . ولا يمضى القليل من الزمن حتى يعلم الخليل من السنة والحديث أكثر مما يعرفه كل أصحاب الشيخ .

كان الخليل يسمع من شيخه مديحاً كثيراً . ويلقى منه محبة خالصة ، لكن ذلك كان يزيده تواضعاً واحتراماً . كان شأن الخليل شأن معظم العلماء النابغين ، يصرفهم نبوغهم عن الاكتراث بالشهرة وعن الاحتفال الشديد بالنفس ، بل كان محتقراً لنفسه ، لا يقدرها حق قدرها ، يظن فيها السوء ، ويحملها المتاعب .

وكان كثيراً ما يقف على حلقة أصحاب العربية والنحو ،

فيرى الجدال محتدماً بينهم والاختلاف قائماً ، ويستهويه علمهم الذى يطلق المجال للفكر ، ويحسن للقريحة النظر ، فينوى الانتماء إليهم ، فيجلس معهم سنة ، وهو يسمع ولا يتكلم . وكيف يتكلم بما لا يعرف ، وكيف يجادل فى أمر لا بد أن يتقطع فيه . كان يتهيب العلم ، ويخشى الزلل فيه . ولما كانت السنة الثانية من انتمائه إلى حلقة العربية صار ينظر فى المسائل ، ويتأمل صعوبتها ، ويفكر بحلها ، ولكنه ما زال صامتاً لا يتكلم مع أن غيره كان يكثر من القول و يتبسط فى السؤال .

انقضت السنة الثانية ، والخليل لا يثق بعلمه فى النحو ، ولا يقدم على السؤال . فلما كانت السنة الثالثة صار يتدبر العلم الذى يتلقاه وقد انبسط له منهاجه ، واتسع فيه أفق تفكيره ، ولكنه ما برح يربأ بنفسه عن الاشتراك فى الجدال والمناظرة ، يهابهما ويعظم شأنهما . وكان يذاكر رفاقه بعلمه خارج الدرس ، فيلقون منه حذقا ومعرفة ، و يتنبأ النبهاء منهم له بنجاح عظيم . أما غير النبهاء فلا يرون فيه إلا مستمعاً ناصتاً ، وطالباً هـادئاً ، وذكاء متوسطاً .

وتنقضى السنة الثالثة ، وتحل الرابعة ، فإذا الصمت ينكشف

عن علم خزن تحته ، ورأى كنز فيه ، و إذا بالخليل يسأل الأستاذ سؤالا يدهشه به ، فيجيبه عنه ، وهو ينظر إليه معجباً . وتتوالى الأسئلة من الطالب النجيب ، ويكثر كلامه ، فيلتفت الرفاق إليه ، يكبرون علماً قوياً ، ونظراً عميقاً يبدوان من شاب فى مقتبل العمر ، لم تكن دلائل النجابة تبدو عليه ظاهرة فياضة . كان يغوص بسؤالاته فى أصول النحو ، وكأنه يريد تقرير قواعد جديدة فيه ، لمّا يكتشفها أصحاب العربية .

ويقضى السنة الرابعة ، وهذا شأنه يسأل ويستفهم ، و يجوب آفاق النحو ، ويبعث المسائل فيها ، والأستاذ يزداد تعجباً منه وحباً به ، والطلاب يقبلون عليه للاستفادة منه ، والاستقاء من ينبوع علمه ، حتى إذا انقضت تلك السنة صاروا يشيرون إليه بالأصابع .

الفصل الرابع

أقبل رفيقه أبو المعلّى إليه يوماً وقال : يا خليل ! لعلك لم تقدر الشأو الذى أدركته فى علم العربية والغاية التى ستدركها منه . لقد فقت شيخنا وتعديته ، وصار من حقك أن تترأس حلقة فى الجامع ، فتفيد الناس من علمك ، وليس شىء أصلح لذلك من أن تناظر شيخاً فتفحمه وتظهر عليه ، فيعرف الناس فضلك ، ويسير ذكرك ، ويلتئم محبو المعرفة حولك ، وإنى أدرى أنه قبيح بك أن تناظر أستاذك الذى به تخرجت ، أما أن تقوى على شيخ آخر فحق من حقوقك . وهذا أبو عمرو بن العلاء شيخ العربية — الذى قضى خمسين سنة يدرسها — يقيم درساً للنحو فى الغد ، يجتمع إليه فيه الشيوخ والطلاب ! فما عليك إلا أن تضع له أسئلة تنتهى منها إلى مناظرته وإفحامه . وذلك حق لك إن لم تطلبه اليوم ، فستطلبه فى المستقبل ، مهما كان بعيداً .

قال الخليل : لقد سولت لى نفسى أمراً كهذا ، ولكنى أحجمت عنه حتى اليوم لأنى خشيت على نفسى ، إن أنا ظهرت فى المناظرة ، أن يأخذنى من الخيلاء ما يصرفنى عن التعلم . ومن حق نفسى على العلم ومن حقه عليها ألا يصرفنى عنه زهو أو باطل . قال صاحبه : إن خشيتك ضمان لك بما لا أرى خوفاً عليك منه ، فإلى الغد أيها الرفيق النابه .

عقدت حلقة النحو فى غد ذلك اليوم ، واجتمع الناس فيها من علماء ومتعلمين وشيوخ وشبان ، وأقبل أبو عمرو بن العلاء أستاذ العربية — وكان شيخاً جليلا مهيباً قد جاوز الثمانين — فنهض الحاضرون إجلالاً ، فتصدرهم على طنفسة بسطت لأجله . وشرع فى درسه بعد حمد الله . وكان الخليل وصاحبه قد اتخذا من الحلقة مكاناً ظاهراً ، ومع الخليل دفاتره ، وصاحبه يهمس فى أذنه حيناً بعد حين كلمات التشجيع ، يقول له : إن هذا يومك ياخليل ، وسيصغر علم هذا الشيخ المسن أمامك ، وسيتحدث الناس جيلا بعد جيل بغلبتك له . هذا والخليل يبتسم له و يطمئنه وما عتم أبو عمرو أن غاص فى عويص مسائل النحو ، فظهر علم وفضل كبيران ، فالرجل متمكن من النحو ، عارف بخفاياه . على

أن هذا العلم كان حديثاً ، ووجوه التفسير فيه ضيقة ، والقياس فيه قليلاً . وعثر الشيخ بمسألة كان الخليل مجلياً فيها ، فابتهجت أسارير رفيقه ، ومال إليه يقول : لقد أزفت الساعة ، هيا أظهر ما عندك ، واسأل سؤالك ، وسيرتبك الشيخ . قال ذلك ، وتهيأ لسماع المناظرة التي لم يكن يشك في نتيجتها . ولكنه انتظر كثيراً والخليل مطرق لا يتكلم ، والشيخ ماض في بحثه ، وقد انتقل إلى قضية جديدة . وعجب أبو المعلى من وجوم الخليل ولم يجد لذلك تأويلاً إلا أن الخليل لم يشعر بصلاح المسألة التي مرت للجدال ، فصار ينتظر أن يعثر الشيخ مرة أخرى . ولم يطل انتظاره ، فهذا أبو عمرو يطرق بحثاً هو مكان القوة من تتبعات الخليل . فاطمأنت نفسه ، وأشار إلى هذا : أن قد قرب الحين . وأتى الشيخ في بحثه بأقوال قديمة مبعثرة . والتفت أبو المعلّى إلى الخليل وقال : إليك وسمداك . فأطرق الخليل أكثر من ذي قبل ، وازداد عجب صاحبه واضطرابه . وقال له يدفعه : ما دهاك يا صاحبي أنسيت ما أتيت لأجله ؟ أيسرك أن يبقى علمك دفيناً تطوى عليه أضلاعك ؟ فلم ينبس الخليل ببنت شفة ، ولم يعثر الشيخ بعدها ، بل أتى ببحثه من كل جليل ووثيق . ثم ختم دروسه

وقرأ الفاتحة . وأقبل الناس إليه يحيونه ويبجلونه . ونهض الخليل يحمل دفاتره ، وأبو المعلى قلق غضبان . قال : إنك ياصاحبي أحد شخصين إما جبان وإما معتوه ، وأياً كنت ، فقد أضعت فرصة لو نطقت بها لخرجت رئيساً من رؤساء العربية . قال الخليل وهو يبتسم ابتسامة المستهزىء : لست جباناً ولا معتوهاً ، ولـكنى رأيت شيخاً هرماً قد حمل العلم ستين سنة وأفاد الناس وترأسهم خمسين عاماً ، رأيته يخرج علماً من عنده اكتشفه وأذاعه ، فأخذته من شيوخي سهلاً يانعاً ، ثم فتق لى منه عدد من المسائل ما كنت لأجدها لولاه . فوجدت قبيحاً بى أن أسقطه بها — وقد أخرجتها بفضله — فأفضح علمه فى البلد ، وأضيع حقه وحرمته ، لا فعلت ذلك أبداً .

الفصل الخامس

بهذا الخلق انطلق الخليل فى الحياة ، ودخل معتركها ، ونفسه راضية بما أقرها عليه ، مطمئنة إلى أمرها لا تجادل صاحبها ، ولا توردة مورداً غير مورد الكرم والمروءة . كانت تلك النفس تسمو ، وصاحبها يقود زمامها فلا يتعبه الصعود ، والمرء قوى بما عقد الهمة عليه .

وانقطع إلى النحو ، واتصل بأبى عمرو بن العلاء ، و بسط له المسائل التى وجدها ، فأعجب بها ، وشجعه على المضى ؛ وأحدث فى نفسه الثقة بنبوغه ومقدرته . فانطلق إلى التفكير والإبداع ، وكانا أعز سجاياه ، فما كان الناس يرونه إلا مطرقاً يعمل فكره ، وسائراً على غير هدى ؛ وكان لا يشعر بنفسه إلا وهو فى الصحراء ، وقد خرج من المدينة ، فيرتد على عقبيه . وانكشفت له مسائل النحو فصار يبحث عن قواعد عامة يحصرها بها ؛ و يعود إلى التفكير هذه المرة أكثر من ذى قبل ، فالقواعد العامة المنطقية ليست

أمراً سهلاً إيجاده فى لغة كثرت لهجاتها ، وتوزع أهلها فى بلاد واسعة . ولكن الخليل ليس من أولئك الذين توقفهم الصعوبات . كان إذا وجد فى قياسه خللاً ، أحدث قياساً جديداً ، بل قياسات عديدة . ولم يكن يرتضى بالنتيجة التى يصل إليها ، مهما كانت خلابة ، بل كان يأبى أن يخلب بالظواهر الخداعة . وسر الأمر فى ذلك أنه لم يكن يعمل ليرضى من نفسه حباً فى الشهرة ، أو رغبة فى الظهور ، أو ميلاً إلى التبجح . كان يجد لذة فى الفكر ، وسروراً فى التأمل ؛ فلا يثنيه شىء عنهما . حتى إذا كشف عن سر لم يجعل ذلك غاية سروره ، بل عاد إلى التأمل فيه ونقده بل نقضه .

واكتشف فى النحو قواعد وضوابط أدهشت شيوخه ، وأظهرت عبقريته ، فآمن بها أكثر الناس ريباً . وأحدق به العلماء ، يرفعون من شأنه ويمدحونه ، فدخل فى نفسه شىء من الاعتزاز الذى يصيب كل الناس ، وما كان له أن يعتز ، فأرسل إليه من ينقض تشامخه .

هذا رجل يأتى إليه ، ومعه غلام ، فقال له : هذا ابنى وعزيزى ؛ ورغبتى إليك أن تكمل تعليمه ، وتحسن إرشاده .

فقال الخليل للغلام : اقترب يا بنى ، ودعنى أسألك أسئلة أدرك بها درجة معرفتك . فقال الغلام بجرأة : سل ما تشاء . قال : يا بنى ! أرأيت هذه النخلة ؟ قال : نعم . قال : فصفها لى . قال : إن لوصفها وجهين ، فإما أن يوصف ما حسن منها ، فتبدو صالحة ، وإما أن توصف مساوئها ، فتبدو سيئة . أفبمدح أم بذم تريد أن أصفها ؟ قال : أحسنت يا بنى بهذا التفصيل ، و إنى أفضل أن تمدح نخلتى ، فتحببها إلىّ . قال : إنها حلو مجتناها ، باسق منتهاها ، ناضر أعلاها . قال الخليل : حسن يا بنى ، وعساها أن تكون كما قلت ؛ فذمها لى حتى أعرف سوءها . قال : إنها صعبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، محفوفة بالأذى . فنظر الخليل إلى الغلام مشدوهاً مدهوشاً : غلام لمّا يبلغ الحلم يحسن من الكلام والأدب ما لعل العلماء يعجزون عنه . تخيل نفسه بهذه السن ، فتذكر أنه لم يكن يتصور الأشياء كما يتصورها هذا الغلام ، ولا يحسن من الفكر ما يحسنه ، و بدا له أن الغلام إذا بلغ من العمر سنه كان بحراً فى العلم يغترف منه ؛ فصغرت نفسه عنده ، وسقط اعتزازه بها . والتفت إلى الغلام وقال : يا بنى نحن إلى التعلم أحوج منك .

لم يكن هذا الغلام إلا النظّام ؛ ذلك الرجل الذى ترأس المعتزلة يوماً ، والمعتزلة أئمة البيان ، وأسياد القول ، بل وصفوا بالكلام ، ونسبوا إليه ، فسماهم الناس متكلمين ، على كره منهم بهذا اللقب . ولعله خفى على الخليل أن ذكاءه غير ذكاء الغلام ؛ رزق هو من التفكير والنظر العميق ما لم يرزق النظام ، واتصف هذا ببيان و بلاغة وانطلاق لسان لم يؤتها هو . وكذلك عد نفسه مقصراً أمامه ، وكذلك أراد الله له الخير ، فأبعد الخيلاء القتّال عنه .

الفصل السادس

انقطع إلى التعليم ، يجد فيه تسلية ، وضرباً من اختبار آرائه ، وتوطيد علمه . وقد يجد فيه الفكاهة الكثيرة .

وقف حمار على باب الخليل ، ونزل منه رجل عليه علائم السفر ، ثم أنزل ابنه ، وطرق على الباب طرقاً مستمراً ؛ فأقبل الخليل يستجلى الخبر ، فوجد الرجل وابنه ، فحياهما ودعاهما للدخول ، فدخل الرجل ، وهو يظهر الرغبة فى السرعة ؛ وعرف الخليل ذلك منه ، فأراد أن يرضى رغبته ، فعجل إليه بالسؤال عن بغيته ؛ فشمر الرجل عن ساعديه ، وقال يتعمد البلاغة : نبئت بنبوغك ، وأسمعت الشىء الكثير عن ذلك فعوّلت على أن أجمع ابنى بك ، فيتعلم منك ، فجئتك به من سفر بعيد تحملت مشقته ؛ ولا إخالك إلا رأيت الحمار الذى حملنا . قال الخليل ، وهو ينتظر ختام القصة : نعم رأيته ، وإنه لجميل . قال الرجل : أريدك على أن تؤدب ابنى شيئاً من علم النجوم ،

وأن تعلمه ما يكفيه من النحو ، وأن تلقنه ما يحتاج إليه من الطب ، وأن تفهمه فرائض الفقه ؛ ثم نظر الرجل إلى الباب ، وأشار إليه وقال : إن الحمار على الباب ينتظر فراغك من ذلك لنعود عليه ... ضحك الخليل فى نفسه ضحكاً كثيراً أخرجه عن اعتداله وجده ، فقال : إلىّ يا بنى لأعلمك ما يرغب والدك من هذه العلوم . اعلم يا بنى أن الثريا فى وسط السماء ، وكفاك بذلك معرفة من النجوم ؛ وأعرف أن الفاعل مرفوع ، وبتلك المعرفة بدىء النحو ، ولعله بها يختم ؛ ولتدرك أن الهليلج الكابلى دافع للصفراء ، وهذا من الطب فى مكان عظيم . واعلم أنه إن مات أحد وترك ابنين ، فماله وثروته وممتلكاته وأمتعته تقسم بينهما سواء بسواء ، وذلك أصل علم الفرائض . إنك يا بنى إن عرفت ذلك ، أدركت من العلوم التى ذكرها والدك ما يليق بك — وأنت ابنه — أن تعرف منها . فشكر الرجل الخليل وقال : قم يا بنى ، ولا تنس ما قال الشيخ لك ؛ وفتح الباب ، فوجد الحمار ينتظر عودتهما ليحملهما والعلم الذى أصاباه .

الفصل السابع

انقطع الخليل أمداً طويلاً عن الناس ، وصار أصدقاؤه يبحثون عنه ، فلا يرونه . ومنهم أبو المعلى بحث عنه كثيراً فلم يجده ، وسأل عنه فى بيته ، فقيل له : إنه يخرج فى الصباح الباكر ، فلا يعود إلا فى الأمسيات المتأخرة . وترصده صباح ذات يوم ، فرآه يسير فى غير التفات ، فتبعه فألفاه يخرج من المدينة ، فعجب من أمره وظل يتبعه ، فوجده يسير على غير هدى ، فتقدم إليه وحاذاه ، فلم ينتبه الخليل ، فجذبه من ساعده ، فاضطرب ونظر إليه وقال : هذا أنت يا أبا المعلى ، ما الذى أتى بك ، قال : لعلى عاشق ولهان مثلك ، أهيم فى الصحراء ، أتصور خيال عشيقتى فى رمالها . قال الخليل : دع عنك هذا ولا تهزل فما نحن فى الهزل قال : ففيم إذن نحن ، أوليس العشق هزلاً وعبثاً ؟ آه عفواً ، فالمغرمون لا يبيحون للناس أن يسخروا من حبهم ، فلن أهزل بل أجد ، قل لى : من هى ليلاك ؟ قال الخليل : لا ليلى عندى

ياهذا. قال : لعلك تريد أنك لما تجن كمجنون بنى عامر، فستجن أو لعلك جننت وأنت لا تدرى ، قل لى : من هى حبيبتك ؟ فنظر إليه الخليل نظر الدهشة وقال : ألم أقل لك لست عاشقاً ؟ قال : إن كنت غير عاشق ، فذلك أعجب ، ما كنت أقدر أن المرء يؤثر الصحراء على المدينة ، فيهجر الناس حتى يخالوه مفقوداً، فقل لى ما بك حتى أطمئن . قال : إن ما بى لا يهمك . قال : لقد زدتنى حيرة ، أذكره فيستثير كل نفسى . قال : أفتخفيه إذا ذكرته ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ أخرج الخليل من كمه صحيفة ، وقال : اقرأ . فتأمل أبو المعلى فى الصحيفة ، فوجد كتابة عليها النقاط من فوقها وتحتها ووسطها حتى أضاعت هيئة الكلمات . فقال : ما هذا ؟ أتلغز إلى شىء أم أنت فى هذر ؟ قال : لا هذا ولا ذاك . ولكنك تعلم أن الحروف التى تتشابه صورتها نميز بعضها عن بعض فى الكتابة بنقاط ، كالجيم تميز عن الخاء بنقطة فى أسفلها . قال : نعم ، إن هذا أمر بديهى . قال : وأنت تعرف أيضاً أن أبا الأسود الدؤلى رحمه الله ضبط حركات الحرف من فتح وضم وكسر وسكون بالنقاط أيضا ، توضع بأعلى الحرف أو أسفل منه أو بيمينه أو بشماله ، وأنت

تعرف أنا نستعمل ذلك إلى يومنا . وهكذا تختلط النقاط المميزة للحروف بالنقاط المميزة للحركات ، كما ترى فى هذا الرسم.

قال أبو المعلى : يا للعجب . من ذا الذى يخطر له ببال أن يفعل فعلتك ، و ينسى أن لا مجال لاختلاط النقاط ، إذا كتب كل نوع منها بحبر خاص . فالنقاط المميزة للحروف تكتب بالأسود والضابطة للحركات بالأحمر . قال : إن ما يشغلنى و يبعدنى عن الناس هو تسهيل الأمر على المتعلمين والكاتبين والقارئين ، أريد أن أجد ما يكتب الناس به دون تغيير الحبر ، وأود ألا يضطرب أمر المتعلمين من كثرة النقاط واشتباكها .قال أبو المعلى: أنت تقصد البدعة والخروج على ما ألفه الناس، ووضعه الصحابة ورضوه ، وكتبوا به المصاحف ، وصار رسماً على المسلمين . فوالله لا يعرف الناس منك هذا حتى يتهموك بالشىء الكثير . دع عنك هذا الهذر ، وعد إلى رشدك . قال الخليل : ألم أقل لك إن الأمر لن يستهويك ، ولن يهمك . قال : ولكنك تفكر فيما لا فائدة منه ، ولا أجر لك فيه . ثم ماذا لعلك تجد غير ما اعتمده أبو الأسود الدؤلى ، وأقرته النحاة والكتاب ؟ فابتسم الخليل

وقال : ذلك سؤال محبب إلى ، وهو الذى استهوانى ، ومنعنى عن الناس ، فان أخفيته حتى آذن لك ، بسطته أمامك .

قال أبو المعلى متشوقاً ، أنا سامع لك ما تريد . فقال الخليل: الأمر الذى خطر على بالى هو على غاية من البساطة ، وذلك أن يرسم فوق كل حرف محرك صورة حرف المد الذى يقابل حركته فان كانت حركته الفتح وضعنا عليه ألفاً صغيرة ، وإن كانت الضم وضعنا عليه واواً صغيرة ، وإن كان الكسر وضعنا ياء صغيرة. قال: ما أعجب ماتقول، إنك تشوه الخط ياصاحبي، وتزيده ارتباكا . قال : لا يا هذا ، أنظر الجمل المحررة فى الصحيفة التى لم تستطع قراءتها أنظرها هنا ، أليست مقروءة ؟ فنظر أبو المعلى، فوجد خطاً قد علته حروف عديدة من الألفات والواوات والياءات ، فلم يستحسنه وقال: لقد شوهت الخط وأسأت إليه ، فعد عن غيك. قال : لن أعود وسأدعو الناس اليه ، حين أتم تصحيح بعض نواقصه، فهز أبو المعلّى كتفه ، وانطلق يتحدث بحديث آخر . أما الخليل فما اتبع نصيحة صاحبه ، بل أذاع طريقته بعد تحسينها ، فاستقبلها الناس بالهزؤ ، وقليل منهم بالاستحسان. فما زال يدافع عن أسلوبه حتى أقنع كثيراً من مخالفيه ، وبقى قوم متعصبون للقديم

لم يقنعوا ، وخافوا على نص القرآن أن يتغير بهذه البدعة ، فأذعن لهم الخليل ، وأوجب على طريقته أن لاتتخذ فى القرآن. وتوفى ، وفى بلاد الإسلام من لم يرض بها ، وهم أهل الأندلس تعصباً أو لغير ذلك ، ثم أذعنوا لحسنها ، بل أذعن علماء القراءات لها ، فأدخلوها فى القرآن ، وذلك بعد وفاة الخليل بدهر .

الفصل الثامن

كان مقام الخليل يعلو بين الناس ، ونظرتهم إليه تزداد إجلالاً وإكباراً ، وكان هو يزداد تواضعاً وحسن أخلاق ؛ وأهم من ذلك أن علمه كان يربأ به عن أن يهتم بكيد الناس ، وأن يعبأ بأذاهم . كان يصنفهم طبقات ، فيرى أن لكل طبقة منهم حقاً يوجب عليه ألا يضمر لها الشر ، مهما كان اعتداؤها عليه شديداً . كان ينظر إلى الناس نظراً عميقاً ، ويجعل موقفه منهم تبعاً لصنفهم ؛ فالمعتدى عليه لا يمكن إلا أن يكون واحداً من ثلاثة : أعلى منه مقاماً ، أو مساوياً له فى الرتبة ، أو دونه . وكل من هؤلاء يستحق أن يسكت عن هفوته . اسمع قوله فى ذلك حيث قال :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه على الجرائم
وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف فضله ... واتبع فيه الحق والحق لازم
وأما الذى مثلى فإن ذل أو هفا ... تفضلت إن الفضل بالعز حاكم
وأما الذى دونى فإن قال صنت عن ... إجابته عرضى وإن لام لائم

ما هذه النفس ، وما أصفى جوهرها ، وأكثر رشدها ، وأحسن حكمتها . لا ريب أن سفيان الثورى لم يكن مغالياً حين

كان يقول : « من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك ، فلينظر إلى الخليل بن أحمد ». لقد كان مسكا وذهباً، بل لو كان خير من صفات المسك والذهب فى الجوهر ، لكان له . لم يكن سفيان مغالياً ؛ فهذا أبو حاتم يؤيد قوله وينشد فى الخليل :

قد صاغه الله من تبر ومن ذهب   وصاغ راحته من عارض هطل

لم يكن فى ذهن الخليل من الفراغ ما يشغله بالخصام مع الناس ، والتصدى لمعاداتهم ؛ بل كان يضن بنبوغه وبوقته أن ينفقه فيما لا يُرجى خير منه . ثم إن التشفى ضعف يصيب الإنسان فإن كان عاقلاً منع نفسه منه ، وعوضها عن لذته بلذة العلو والتسامى عن سفاسف الأمور .

بهذا العقل وذلك الخلق كان يتهيأ للخليل من الوقت والفراغ وصفاء الذهن ما يسعفه بالإبداع والخلق . كان يطلق فكره للأشياء المحيطة به ، يحاول استخراج كنهها ، والوصول إلى حقيقتها ، لا يرى ظواهرها فقط ، بل يحاول أن يستخرج منها أصولاً تجمع فى قانون موحد، تلك الظواهر المختلفة المتضاربة المتشعبة . وذلك شأن المبدعين .

الفصل التاسع

خرج يوماً وأبو المعلى يسيران فى شوارع البصرة وأسواقها ، يتحدثان حيناً ويصمتان حيناً آخر ؛ وكان أبو المعلى أكثر قولاً من صاحبه ، وأشد تمسكا بالحديث . وما زالا يسيران حتى دخلا سوق الصفارين — وهى كسوق النحاسين اليوم ، تعمل فيها الأوانى النحاسية وتصفر — ويسرع أبو المعلى فى مشيته لينجو من أصوات النحاس وطرقه ، وكانت تبلغ أذنه فتدوى فيها ، وتثقل عليها ؛ ولكنه يرى الخليل متباطئاً واقفاً حيناً بعد حين ؛ فيقول له رافعاً صوته ليسمعه : هل يلذ لك هذا الصوت المزعج ، فتسير الهوينا ، وكأنه الموسيقى التى تسمعها فتستحسنها ، ولا تريد الابتعاد عنها ؟ لمعت عينا الخليل عند سماعه كلمة الموسيقى ، وربت على ظهر أبى المعلى وقال : أحسنت وجزاك الله خيراً ، لقد عبرت عما فى نفسى ؛ نعم ، هى تشابه الموسيقى . قال الآخر هازئاً : نماك يا صاحبى ، أراك تحسن

الفهم ، لقد أصبحت قعقعة أوانى النحاس عندك موسيقى جميلة تأنس لها . قال الخليل ، لا تهزأ يا هذا ، ما قلت إنها موسيقى جميلة ، إنما قلت إنها تشابه الموسيقى ؛ وحقاً ما الفرق بين هذه الآنية من النحاس يقرع عليها بالمطارق ، و بين الطبول والدفوف يقرع عليها بالعصى و بالأيدى ؟ كل الفرق هو أن هذه تحدث دوياً قوياً ، لا تقوى عليه الأذن ، وتلك تقع من الأذن موقعاً حسناً . قال أبو المعلى : هلم يا صاحبى نخرج من هنا قبل أن تصم آذاننا ، أو بالأحرى قبل أن تستوى عندك الأرض والسماء .

خرجا من سوق الصفارين ، والخليل يردد فى ذهنه فكرة التشابه بين طرق النحاس وقرع الطبول ؛ وما ذهبا بعيداً حتى دوى فى أذنهما صوت هو صوت سوق القصّارين . والقصارون أناس ينظفون الأثواب و يغسلونها، يستعملون لذلك أدوات تسمى الكُذِينَق ، وهى مطارق من الجلد ، يطرقون بها الثوب المغسول طرقاً مستمراً ؛ ومن الكذينق ما يحمل قطعة من الجلد ، يضرب به الثوب ؛ ومنه ما يحمل قطعتين ؛ ومنه ما يحمل ثلاث قطع حتى إذا ضربت بها الأثواب المغسولة ، أحدثت قرعاً مختلفة أوزانه وضرباته باختلاف عدد قطع الجلد .

سمع الخليل هذا الطرق ، فاتجه نحوه ، واضطر أبو المعلى إلى أن يتبعه على كره منه . ووقف الخليل يستمع إلى قرع الجلود على الأثواب ، وكأن هذه الجلود كانت تسر إليه بحديث لا يفهمه إلا ه. والتجأ إلى حائط أسند إليه ظهره ، وأخرج لوحه ، وصار يكتب عليه خطوطاً غريبة ، ولم يعد ينتبه إلى أبى المعلى الذى وقف بقربه مشدوهاً ، وإلى المارين ينظرون إليه ، فيهز بعضهم منكبيهم سخرية منه ثم يسيرون ، ويقف بعضهم حوله يتأملون عمله ، ويضحكون منه . وهو مأخوذ بسماع الدق ، يحرك فكيه ولسانه ، ويكتب على لوحه . وكان أبو المعلى يعرف فى صاحبه حبه بألا يقاطع حين ينطلق إلى التفكير أو العمل ؛ ولكنه هذه المرة فرغ صبره ، فقال له : لعلك تجد يا خليل مكاناً أليق من هذا بالبحث والتفكير ، لقد جمعت الناس حولك ، وأخشى أن يحضر الصبيان ، فيرموك بالحجارة ظناً منهم أنك معتوه يجوز لهم تعذيبه . قال الخليل : وقد انتبه من ذهوله ، وشاهد الناس حوله : لقد نبهتنى فى حين بلغت فيه نتيجة أراها حسنة ؛ فهلم بنا نبتعد عن هؤلاء الناس الذين لا يفرقون بين الجد والعبث . تعال معى إلى هذا المكان الضيق المنفرد ، واسمع

ضرب الكذينقات . قال أبو المعلى : أراك تهزل اليوم يا خليل ، بدأت بالنحاس ، وعطفت على الجلود ، ما شأنك بذلك، وأنت النحوى اللغوى ؟ إذا لم تعجبك كلمة الكذينق ، فاختر لفظاً آخر ، وأشعه بين الناس ، فذلك اختصاصك ، ولكن بالله عليك لا تسمع هذا الصوت المنكر ، وتسمعنى إياه . قال الخليل : إنك يا هـذا تقطع علىّ تفكيرى بهذرك ، فليس يهمنى اليوم كلمة الكذينق ، ولست أستمع إلى هـذا الصوت حباً به ، ولـكنى أقصد أمراً آخر سوف تتبينه من سماع الكذينقات . اسمع هذه الدقات ، ألا تشابه دقات الصفارين ، ولـكنها جامدة بسيطة لا رنة فيها ؟ أنظر إلى هذا القصار، واسمع دقة كذينقه ذات الجلد الواحد . كان القصار الذى أشار إليه الخليل يقرع الثوب ، بجلد يحدث صوتاً شبيهاً بالصوت الذى يحصل من كلمة (تن) ولكن القصار كان كسولا أو ملولا ، فكان بين القرعة والقرعة فاصل من الزمن يطول أمده ؛ فكان يحدث صوتاً هو (تن تن تن) ولـكن النون منه طويل . قال أبو المعلى : ما أطرب هذا الصوت، وقشر معبد، ومرحى لنا ؛ انتقلنا من البحث فى صوت الإنسان ولغته إلى البحث فى أصوات الجلود والنحاس

ماذا بعد هذا الصوت الشجى يا صاحبي ؟ قال الخليل : استمع إلى هذا القصار الذى يضرب بكذينق ذات جلدتين . ففتح أبو المعلى أذنيه ، وأضاف إلى صماخهما يديه ، فسمع صوتاً متكرراً (تتن تتن تتن) فقال مازحاً : أنى أفضل صوت القصار الكسول على هذا ، فهو أقل ضجة وأكثر رنيناً . قال الخليل : ولكنك تفضل سماع الاثنين معاً ، فانتظر قليلا حتى يختلط الصوتان . قال أبو المعلى ، وقد ازداد تأففه : لعلك تريد أن تصم أذنى ، فحسبي ما سمعت ، وقل لى الآن ماذا استنتجت من هـذه الأصوات المزعجة ؟ قال الخليل : لن يكون ذلك إلا بعد أن يزداد صبرك ، ويشتد اهتمامك ، وتصغى إلى تداخل الأصوات . قال : أمرى إلى الله ، إن الله مع الصابرين . وما انتهى إلى هذا القول حتى تداخل صوت قرع القصار الملول بالآخر فسمعا (تن تتن ، تن تتن ، تن تتن) ووقف القصار الملول قليلاً ثم عاد فسمعا (تتن تن ، تتن تن ، تتن تن) وتوقف القصار الآخر قليلاً ، ثم عاد متباطئاً ، فسمعا (تن تن تتن ، تن تن تتن ، تن تن تتن ، تن تن تتن) قال أبو المعلى : أحسبني فى شهر رمضان ، وقد حضر المسحر ، يقرع على طبله ليفيق النائمين .

قال الخليل: نعم التشبيه هذا، ها قد بدأت تفهم. إنك أذكى مما كنت أظن. قال أبو المعلى: لا تنخدع يا أخى، فلم أفهم شيئاً، ولا أخالنى أفهم أبداً. وما ذكائى بفهم هذه الأصوات إلا كذكاء الطفل بفهم حروف التشبيه وأسماء التفضيل. قال الخليل: عجباً لك ولأمثالك! ترون الأشياء ولا تبصرونها، وتسمعون الأصوات ولا تميزونها. وتحفظون المعانى ولا تدركونها ها أنت ذا شبهت هذه الأصوات بقرع الطبول فى ليالى رمضان ولو طلب إليك طالب أن تذكر له وجه التمييز بين قرعها فى تلك الليالى و بين قرعها على أبواب الأعراس لما عرفت. قال أبو المعلى: أنى لى أن أعرف ذلك، وأنا لا علاقة لى بالموسيقى، ولا شأن لى معها، فاذا كنت قد وجدت شيئاً فاذكره حتى أتعلمه. قال الخليل: ستسمع ما يشابه قرع طبول الأعراس فتستنتج ما استنتجتُ، فانتظر قليلا. فانتظر أبو المعلى صابراً راضياً، وانتظر طويلا، وإذا بقصار ثالث يبدأ قرعه بكذنيق ذات ثلاثة جلود، فيختلط صوت قرعه بصوت قرع الاثنين الأولين فيخرج الصوت الآتى (تن تتن تن تنتن، تن تتن تن تنتن).

قال أبو المعلى: إن بين هذا الصوت وقرع الطبول ليلة الأعراس

بعض الشبه ، فقل لى الآن ـ قبل أن يفرغ صبرى — ماذا استنتجت من كل ذلك ؟

قال الخليل : الأمر على غاية من البساطة ، فهنالك ثلاث نقرات مختلفة . الأولى دقة وسكون (تن) الثانية دقتان وسكون (تتن) الثالثة ثلاث دقات وسكون (تتتن) هذه النقرات إذا تتابعت أو تداخلت كونت الموسيقى . واختلاف تداخلها وتتابعها هو الذى يولد اختلاف النغمات ، فالتمييز بين النغمات يكون بمعرفة وجه اجتماع النقرات بعضها مع بعض ، بل من الممكن حصر الوجوه التى تتداخل بها النقرات وإذا حُصرت حُصرت بها أنواع النغمات وسجلت وسميت ، وأصبحت الموسيقى علماً ، له تعاريفه وضوابطه .

كان أبو المعلى ينظر إلى الخليل ، وهو يشرح اكتشافه بحرارة و إيمان ، فيدخل كلامه فى أعماق نفسه ؛ و يشعر بصحته ، حتى إذا انتهى الخليل من شرحه ، نظر اليه نظراً طويلاً ساكناً اجتمعت فيه عواطف نفسه ، فلم يتمالك أن تقدم إليه وقبله ؛ ثم لم يجد كلمة يعبر بها عن إعجابه ، فصار الدمع ينهمر من عينيه ، فعاد إلى صديقه يضمه إليه ليخفى تلك العاطفة التى جاشت فى

صدره وانتقلت إلى عينيه ؛ وأخذ يضرب بيده على ظهر الخليل ، ويقول بصوت خفيف متقطع . لله أنت : لله أنت !

أما الخليل فلم يكن يتوقع هذا النصر على معارضه الهازل الضاحك الذى انقلب إلى معجب يجيش بالدموع ، فأحس فى أعماق نفسه بنشوة من السرور كادت تسيل دموعه ، لولا أن ضبط نفسه ، وملك عواطفه ؛ وعاد إلى الحديث عن اكتشافه، فقال بمرارة : لا تظن أن الأمر بلغ حده يا صاحبى ، أو أنه شىء جديد لا يعرفه غيرى وغيرك ، والذى يخيل إلى أن الموسيقيين العارفين قد قطعوا هذا الشوط من النظر ، بل لعلهم يهزأون بى عندما أحدثهم عما وجدت ، وقد يقول قائلهم ساخراً : إن ما تذكر أبسط شىء فى فننا ، يتعلمه صغارنا ، ويترفع عن ذكره كبارنا . قال أبو المعلى ، وقد أخذ الجد يلازمه : لنذهب الساعة إلى أبى رافع ، فنتبين الأمر . فقال الخليل : ومن هذا أبو رافع؟ قال أبو المعلى . هو شيخ المغنين وأستاذهم ، يعلمهم الغناء وفنون الإيقاع على الآلات قال. الخليل : هلم بنا إليه ، فسارا إلى بيته ، ووجداه بين طائفة من أهل الغناء ، يتعلمون عنده . ولما فرغ من درسه أقبل عليهما يسألهما عن حاجتهما ، فقال الخليل : أتيناك نسألك

عن وجه التمييز بين النغمات المختلفة ؟ فنظر إليه أبو رافع نظر المتعجب وقال : أنت تريد أن تتعلم التوقيع على العود ، أم الغناء أم العزف على الدف ؟ قال الخليل : ما أريد أن أتعلم شيئاً من هذا ، إنما قصدتك لأعرف قواعد علم الموسيقى . قال أبو رافع : ما أفهم ما تقول ، وأى شىء تكون قواعد الموسيقى ، هل ظننت الموسيقى نحواً له قواعده وأصوله ؟ أنت تقصد أمراً لا وجود له . فنظر أبو المعلى إلى الخليل نظر المبتهج . وأضاف أبو رافع يقول : بل هو أمر لا يمكن أن يكون . قال الخليل : إسمع ما أقول اذن، وأنبئنى بعدها برأيك . قال أبو رافع : لا تتعب نفسك بالمحال يا هذا ، ومن تكون أنت حتى تجد ما لا يمكن وجوده . قال أبو المعلى : ألا تعرف الخليل بن أحمد سيد النحاة واللغويين بالبصرة ؟ قال أبو رافع : بلغنى بعض الحديث عنه ؛ ولكنى أراه اليوم قد ضل سبيله ، فليرجع إلى نحوه ولغته . قال الخليل : دعنا من كل هذا يا شيخ واسمع ما أقول . ثم شرح له ما وجد فصار المغنى يهز رأسه ، ويرفع منكبيه ، ويحملق فيه ؛ ولما فرغ الخليل استوى أبو المعلى فى جلسته ، وانتظر امتداح المغنى لصاحبه وإعجابه وإطنابه وإذا هذا يقول : لعل فيما ذكرت شيئاً من

الصحة والاكتشاف ، ولكن ماذا يستفيد المغنون والعازفون من ذلك ، أتزداد يدهم مهارة فى التوقيع ، أم صوتهم جودة فى الغناء ؟ احتفظ بهذا لنفسك ، ولا تتعب فى إذاعته .

ما سمع أبو المعلى هذا القول حتى كاد يرتمى على رقبة أبى رافع فيدقها ، أو إلى وجهه فيوسعه لطما ، ولكنه نظر إلى الخليل فوجده يبتسم هزؤاً ، ويشير إليه بأن يقوم معه ، فخرجا .

قال أبو المعلى : لاتحزن ياصاحبى ، فهذا رجل لا عقل عنده ولاشعور ، وافرح بما أوتيت ، فقد اكتشفت ما لا يعرفه أصحاب الصنعة ، وهذا عطاء من الله لم يمنحه غيرك .

عاد الخليل إلى بيته ، وهو لا يدرى أمسرور هو أم حزين. لقد اكتشف سر الموسيقى وأصلها ، وليس من الصعب عليه أن يصنف فيها كتاباً يضبط أنواعها ، ويميز أصنافها . ولكنه حزين لأن اكتشافه لم يلق تشجيعاً من أصحاب الفن ، وهو إنما ينفع هؤلاء .

ما مضى عليه طويل زمن حتى أخرج كتاباً فى الموسيقى أسماه تراكيب الأصوات واتصل بالمغنين ، وصار يعلمهم أصول موسيقاهم وتفرعاتها ، ويهديهم سبيل إيجاد نغمات جديدة ، ويتعلم

منهم فنهم ، ويتتبع صناعتهم ، حتى لها بذلك عن النحو واللغة . وكان يستصحب أبا المعلى إلى هذه المجالس ، فيضحك أبو المعلى ويصفق ويطرب . أما الخليل فكان يكثر التأمل و يردد اللحن و ينشد الأناشيد ، ويقطّعها .

ومضى عليه زمان ، وهو يستصحب لوحه إلى مجالس المغنين فيرسم عليه رموزاً لا يفهمها أبو المعلى ، و يسأله عنها فلا يجيبه . وتغير بعض الشيء طبعه ، فصارت تصدر عنه أصوات غريبة ، وأناشيد عجيبة ، يديرها على لسانه المرة بعد المرة ، فيفرح لها حيناً ، ويغتم لها تارة أخرى ، وأبو المعلى مستغرب طَلِعَة متشوق إلى معرفة أمره حتى كانت ليلة انطلق فيها المغنون إلى الشعر الجاهلي والأهازيج القديمة يغنونها طربين. والخليل عاكف على لوحه ، يرسم عليه ، ثم ينطلق إلى الغناء معهم ، ثم التصفيق ثم الضرب بقدمه على الأرض ، ثم يعود إلى لوحه ، فيسوّده برموزه؛ وقد استوى أبو المعلى فى جلسته ، وصار يراقب حركاته. فيزداد عجبه ، ويقول فى نفسه إن الرجل قد أصبح مغنياً ، بعد أن كان لغوياً ، وهاهو ذا الآن ينطلق فى هذا الفن، ولا بد أنه أخرج فيه جديداً وفيما هو يفكر هذا الفكر ، وجد الخليل يقف

ويصرخ قائلا : الله أكبر ! الله أكبر ! السكون فى الشعر هو كالسكون فى الموسيقى . ثم أقبل على أبى المعلى ، ومسكه من كتفيه وهزهما وقال : إسمع يا أبا المعلى ! السكون فى الشعر هو كالسكون فى الموسيقى . وكان المغنون قد بلغوا آخر نشيد لهم فصار الخليل يردد معهم وينشد ، ثم يعود إلى أبى المعلى فيقول السكون فى الشعر كالسكون فى الموسيقى ، فيضحك أبو المعلى كالأبله ، وينشد معه ، ولكنه لا يفقه ما يقول ، حتى أتم المغنون إنشادهم ؛ فقاد الخليل إلى مكان منعزل وقال : أفهمنى ما معنى قولك: «السكون فى الشعر كالسكون فى الموسيقى» قال: إن لهذا حديثاً طويلاً . قال أبو المعلى : حدثنى به ، فقد شوقتنى إلى معرفته .

قال الخليل : ألا تذكر ليلة من ليالى شتاء السنة الماضية حين اجتمعنا بطائفة من الأعاجم ، نتباحث أمر الشعر العربى وغيره من الأشعار ، فقال الأعاجم : إن الشعر العربى لا ضابط له ولا أصل ، مع أن شعر اللغات الأخرى بخلاف ذلك ، قد اتضحت أصوله ، وعرفت مقاييسه ، فلا سبيل إلى الخروج عليه . فرد عليه أحد الحاضرين من أبناء العرب قائلاً : إن

الشعر العربي أصله الطبع ، ومقياسه الأذن . فقال الأعجمي : ما قولك إذا فسد الطبع ، واختل مقياس الأذن ، ماذا يحصل بالشعر يومئذ ؟ فأجابه العربي بما لم يقنع المخالف .

قال أبو المعلى : أنا أذكر ذلك ، وأذكر أنك كنت صامتاً لا تتكلم . قال : نعم كنت أزن القولين ، فأجد الأعجمي مصيباً فيما يقول ، كنت أقيس أمر الشعر إلى أمر اللغة والنحو فأقول : سوف يكون من أمر الشعر العربي في يد الأعاجم ما كان من اللغة العربية عندهم ، فقد أخطأوا فيها ولحنوا ، واضطربت على ألسنتهم ، حتى تصدى لها النحاة ، فوضعوا قواعد للأعاجم وضبطوا بها خطأهم . وهذا الشعر أصبح اليوم أداة يستعملونها ، فيخطئون في أوزانه ، ويضطربون في تعديله ؛ وما يدرينا لعل من العرب من يفسد طبعهم ، فلا يستطيعون التمييز بين شعر وشعر ، وقد يضيع عليهم الأمر فلا يهتدون إلى الحق . كذلك لبثت صامتاً . ومنذ يومئذ وأنا لا أفتأ أفكر في هذا الأمر . ولما فتح الله عليّ بحصر أصول الأنغام والتواقيع ، شعرت بأن وضع مقاييس للشعر أصبح أمراً ممكناً . فالشعر ينشد مع الموسيقى ويرافقها ، فيجب أن يكون له مقاطع كمقاطعها ، لتتحد المقاطع

حين الإنشاد ، فتصح المراقبة ؟ و إذن فمن الممكن إيجاد مقاطع للشعر ، حتى إذا وجدت عُرفت المقاييس الشعرية ، ووضع ضابط الشعر . منذ ذلك الحين كنت ترانى أسير إلى المغنين ، وأنشد معهم ، وأقابل تقاطيع الموسيقى بألفاظ الشعر ؛ بل كنت أذهب الحين بعد الحين إلى سوق القصارين ، وأزن نقراتهم ببعض الأناشيد ، وأنشد الشعر على تلك النقرات . وكان أعظم شىء يلفت نظرى هو نهاية المقطع الموسيقى ، أى السكون ، وهو ما يقابل النون فى (تن) و (تتن) و (تتتن) حتى تجلى لى هذه الليلة أن ما يقابل ذلك أحد شيئين فى الشعر ، إما الحرف الساكن ، وإما حرف المد . وحرف المد فى النحو — كما تعرف — يستبدل بالحرف الساكن ، والحرف الساكن به ، فهما سواء . فالسكون فى الشعر هو السكون فى الموسيقى . والشعر كالموسيقى حركة وسكون ، وبالحرف المحرك والحرف الساكن ينتظم وزن الشعر ويضبط . ولم يعد لدى الآن إلا أن أرجع إلى أشعار العرب ، فأقطعها معتبراً الحرف الساكن آخر المقطع ، وأماثل بين المقاطع ، فيكون من نتيجة ذلك ضابط للشعر العربى . قال الخليل ذلك ، وأمعن النظر فى أبى المعلى ليرى أثر هذا الكلام فيه ، فوجده

سا كناً صامتاً . فقال له : مالك لا تنبس ببنت شفة ؟ قال : إن ما تذكره بعيد عن فهمى ، عظيم على ذكائى ، ولا أدرى ما تقول ؛ على أنى واثق من أنك وجدت أمراً لو نجح لأتيت بما يفوق قواعد النحو وأصول اللغة . فهل أنت على ثقة من حسن النتيجة ؟ قال الخليل : الحق إنى كمن وجد مفتاح دار لا يعرف ما فيها ، وقد يجد فيها ما يطلبه . وقد لا يجد ؛ وقلبي يحدثنى بأن فيها ما أطلب .

انكب الخليل على عد مقاطع الشعر وحصرها ، وهو أمر صعب مشتت طويل ، ولكنه لم يكن على ذكائه بعسير . وجده بعد إعمال الفكر ، فتم له كشف ميزان الشعر .

الفصل العاشر

ماذا حدث بعد ذلك . ياللمصيبة ! هذا عبد الرحمن ابنه يخرج من الدار ، وهو يلطم خديه ، ويركض على غير هدى ، ويصيح بكلام غير مفهوم، فيستوقفه الجيران ، ويهدئون روعه، ويسألونه عما به . فيقول وهو يبكى ، ويجهش بالبكاء : جن أبى ، جن أبى . ثم يعود إلى بكاء أمر يفتت الأكباد : لقد جن أبى ، قد ضاع عقله . يا للهول يا للمصيبة ! ويصرخ أحد الجيران: وا أسفاه عليك ياخليل . إن كثرة الذكاء تقرب المرء من خلل العقل ؛ ماذا تنفعك اليوم تلك النباهة وذلك الذهن الوقاد ؟ ويصيح الغلام : وا أبتاه ! وامصيبتاه ! . وتتفطر نفوس الحاضرين أسى وحزناً . ويقول بعضهم : كفى بنا اضطراباً ، هلموا ننظر فى الوجه الذى نسعفه به . هلموا ادخلوا الدار . ويدخلون الدار ، فلا يرون من الخليل إلا قامته ؛ أما رأسه فقد أخفاه فى فوهة بئر عنده . ويسمعونه يصرخ أقوالاً لا معنى لها ، وهو يكررها ، ويقتربون

منه فيرون رأسه وقد تدلى فى البئر منفوش الشعر . ولا يحس الخليل بوجودهم بالرغم من ضجتهم وكثرتهم . فيتقدم إليه أحدهم ويقول : يا أبا عبد الرحمن إصح إلى نفسك ، وأخرج رأسك من البئر ، فليس ذلك بنافعك شيئاً . فيرفع الخليل رأسه ، وينظر إليهم نظرة المتعجب المحتار . ثم يقول وقد ساءه التفافهم حوله وتكاثرهم عليه : « ما لكم يا هؤلاء ، وأى خطب جلل جمعكم ؟ » فيقولون : هدىء بالك يا أبا عبد الرحمن ، ولا تسوءك رؤيتنا . فيهدئ نفسه ، ويقول بلطف : هل دهاكم أمر أستطيع دفعه عنكم . فيقولون : لا ! لكنا نريدك على أن تهدئ أعصابك ، وتريح نفسك . فيقول : ولكنى بأهدأ حال وأحسن راحة ؛ فأخبرونى بأمركم ، فيتشجع أحدهم ويقول : إن ابنك ظن أنك جننت ، فخرج يصيح ويستغيث ، فجئنا لنطمئن عليك . فيعض الخليل على نواجذه ، ويحار كيف يفسر لهم الأمر . ثم يحول أن يكشف اختراعه ، فقد آل إلى نتيجته التامة التى كان يتوقعها . فيقول ببساطة مزجت بشىء من البهجة : كثر ما خشيت على الشعر العربى ، فقد وجدت الأعاجم يقدحون عليه ، ورأيت من الشعراء المولدين من يدعو إلى الخروج على

منهاجه ، فعرفت أنهم سينتهون إلى وزنه فينتقدونه ، ويطلبون تعديله ، ويدعون أنه لا يقوم على أصل ، ولا يرجع إلى ميزان ، وقد يقولون إنه رغبة قوم بدو لا أذن موسيقية لهم . خشيت ذلك ، وكنت مؤمناً بأن الشعر العربى كالنحو ، له قواعده وضوابطه ، بل لعـــله أقوى فى ذلك من النحو . فصرت أعمل الفكر لإيجادها ، وعكفت على ذلك حيناً طويلا حتى وفقنى الله وما كنت عليه الساعة هو اختبار صحتها ، كنت أقابل قواعدى على مقاطع الشعر ومقاطع الشعر تظهر واضحة فى الصدى الذى تحدثه البئر . يقول ذلك ويحيلهم إلى يوم معهود ، يكشف فيه عن تلك الأصول بالمسجد الجامع بملأ من الناس ، فيعجب الجيران ويسر ذوو العلم منهم . وينظر الخليل إلى ابنه نظر الآسف الحزين ، يأسف على أنه منى بولد لا عقل له ولا فهم عنده ، ويحزن على ذلك الولد الذى أضاع خير ما فى الحياة بضياع عقله ، ثم يقول بلهجة الحزين الآسف يخاطبه :

لو كنتَ تعلم ما أقول عذرتنى   أو كنت تعلم ما تقول عذلتُكا
لكن جهلتَ مقالتى فعذلتنى   وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

هرع العالمون والمتعلمون إلى المسجد الجامع لسماع شرح ذلك

العلم الجديد الذى أبدعته قريحة الخليل ، وكانوا بين مصدق ومرتاب . أيقنوا أن الخليل لايدعى هراء ، فليس أصدق منه بالبصرة ، ولم يعهد عليه الكذب قط . وعجبوا من الشعر العربى يضبط بعلم وقواعد ، فتى كان الشعر – وهو يخرج من الشعور ، ويمت إلى الذوق – ينطوى على ميزان واضح وأصول ثابتة ، وظن أكثرهم أن الخليل واهم ، وأنهم سوف ينقضون أقواله ويُفَنِّدون حججه . ولما التأم المجلس افتتحه الخليل باسم الله ، ثم صار يحمد الله على أن وفقه بهذا العلم الجديد الذى دعاه بالعروض ، لأنه يُعرض الشعر عليه ، فإن كان صحيحاً تبينت صحته وإن كان مكسوراً ظهرت علته . ثم قال :

لقد كشفت عن سر الشعر العربى وضبطه ، فلن يقع فيه خلل بعد اليوم ، وهؤلاء المولدون الذين أطلقوا أنفسهم لقول الشعر ، وليس عندهم من الطبع العربى والأذن العربية مايخولهم الصحة ، لن يستطيعوا بعد اليوم أن ينقضوا ميزان الشعر العربى ، وأن يدعوا أنه ليس له ضابط ، وأن من حقهم ألا يتقيدوا بأقوال رواة الشعر وحفاظه ، أولئك الذين ينسبونهم إلى الخروج عن ميزان الشعر ، دون أن يفسروا لهم سبب خروجهم . أيها

الناس ! لن يستطيع إنسان بعد اليوم أن يقول غير الشعر فيدعى أنه شعر ، لأن سبيل اقناعه بخطئه أصبح بسيطاً غاية البساطة .
أيها الناس ! لقد برهنت أن العرب الذين ينسب الشعوبيون إليهم الجهل والخلل يتكلمون عن سجية لها أصولها المضبوطة ، لا يخرجون عنها ولا يحيدون . ألا أيها العرب اعتزوا بشعركم ، وفاخروا الأمم بموسيقاه وحسن ضبطه .

قال ذلك وأخذ يشرح مادته بأسلوب سهل وطريقة واضحة . وكان يعرف أن المجتمعين لن يفهموا من شرحه إلا قليلا ، فكان لا يطيل عليهم وكان يؤكد لهم أن تفريعاته وضبطه تسرى على كل الشعر العربى جاهليه وإسلاميه ، والناس ينظرون إليه مفتونين محتارين . إنه كلام حسن صحيح ، ولكن الدعوى كبيرة . وما كاد أبو عبد الرحمن ينتهى من شرحه ، حتى قام من الحاضرين رجل فقال : إن كان كلامك حقاً ضبطت لنا بميزانك معلقة امرىء القيس ، فبادر الخليل إلى وزنها و إخراجها وضبطها ، فصاح الحاضرون : الله أكبر . وأسرع أحدهم فأعطاه بيتاً من الشعر يطلب حصره ، فحصره له الخليل ، ثم انهالت عليه الأشعار وهو يحصرها . وتكاثر الناس وتوسعت

الحلقة ، وكانت صيحات الاعجاب تتعالى ، ولا يتمالك المجتمعون من تكبير الله على ما رزق البصرة من هذا العلم العجيب بهذا الرجل الفريد . وبعد اختبار واسع لهذا العلم ، انفضت الحلقة ، والتف الناس حول الخليل يهنئونه بعلمه وإبداعه . وخرج عالمان من الجامع ، وهما يتحدثان بهذا الاختراع . قال أحدهما : « هل صدقت ما سمعت أذناك ، ووعت عيناك ؟ » فأجاب : « إنى من أمرى لفى عجب وحيرة . الحق أن ما أتانا به أبو عبد الرحمن توفيق من الله عز وجل ما بعده توفيق . إنى رأيت المتكلمين حين يضعون قياساً ما ، يطيرون فرحاً به ، ويصفونه بالتوفيق والالهام ، ووجدت النحاة إذا اكتشفوا قاعدة نحوية ، ظنوا أنهم بلغوا ذروة العلم ، فصفقوا وطربوا ، وألفيت أصحاب الرأى والفقه ، إن صدق قياسهم ، شادوا به وأذاعوه وصفقوا له ، وشاهدت أصحاب كل علم يسعون وراء اكتشاف بسيط يفتخرون به . أما صاحبنا أبو عبد الرحمن ، فهو يضع علماً كاملاً مستوفياً ، ثم يقف بين الناس على غاية من التواضع ، فيشرح لهم علمه ، فلا تخرج منه كلمة فخر أو أعجاب ؛ وكأنه يشرح أقوال غيره ، حتى إذا اعترض معترض ، لم تأخذه الحمية ، ولم يلهبه التحمس ، بل

أجاب ببساطة ودعة ، فمنع الاعتراض . يا أخى إن هذا الرجل فوق الرجال ، ولم ير الراءون مثله » . قال الآخر : « إنى بحثت قبل موعدنا اليوم فى أقوال الاخباريين والرواة عما يصح أن يتخذ مشرعا يشرع منه الخليل ، فوجدتهم يذكرون بعض صفات القافية ، ويسمون نوعاً أو نوعين من البحور ، دون أن يذكروا شيئاً عن أوزانهما . وذلك كل ما قالوا عن ضوابط الشعر ، وإذا بالخليل يبدع مادة واسعة متسقة ناضجة كاملة لعلم يرفع به العرب رؤوسهم. لقدسمعت بعلم ليونان يدعونه بالمنطق ، يعرفون به صحيح الكلام من باطله ، وقوى الرأى من ضعيفه . وضع هـذا العلم أرسطاطاليس ، وتوالى تلاميذه على تكميله وتوسيعه . غير أن صاحب العقل السليم يدرك ضوابط هذا العلم من نفسه ، ويعرفها بالقريحة ، ويقر بها دون جدل . وأرى صاحبنا أبا عبد الرحمن قد فاق أصحاب المنطق وبذهم ، فلم يكن العقل يهدى إلى خطأ الشعر ، ولم يكن أحد يستطيع البرهان على صحة وزن بيت أو خلاف صحته . يجتمع الرواة فيقولون إنه صحيح ، فلا نستطيع أن نفهم منهم لماذا ، ويأتى الخليل ، فيضع لك قواعد تامة يجريها أمامك ، فتقتنع بها عقلا وتذوقاً . ألا إن

الخليل وحيد الدهر وغاية العلماء » قال الآخر : « حكى لى رجل تزوج إلى جيران الخليل ، فأقام عندهم ، قال : سمعت الخليل يقرأ القرآن شطراً كبيراً من الليل ، فسألت عن ذلك أهل زوجتى ، فقالوا ما عرفناه إلا كذلك ، وإنه ليغيب فى حج أو غزو فنستوحش له . كذا ذكر لى ، وإنى لأرى أن الله أنعم عليه من العقل والتقى والصدق مالم ينعم به على أحد ، اللهم إلا على أنبيائه المخلصين .

أتت الأيام التالية ، والطلبات تنهال على الخليل فى تعليم علم العروض . ولم يمتنع الخليل عن الإجابة . وقف نفسه حيناً طويلا من الدهر على تعليم علمه وإفهامه للناس . وكان ممن تردد إليه ، يتلقى العروض الأصمعى الراوية المشهور ، فشرع الخليل يشرحه له ، والأصمعى لا يفهم ما يقول . وأعاد الخليل الكرة ، فامتنع الفهم أيضاً على الأصمعى ، فلم ييأس الخليل ، وعاوده فى الأيام التالية ، ولكن الفهم استعصى عليه ، حتى يئس الخليل ، وتأذى بتعبه الذى يلقاه من التعليم ، دون أن يكافأ بفهم الطالب ، وكان يعز عليه أن يبعده عنه ، ويقطع تلقينه إياه بقول لعل الأصمعى يتألم منه . ولا ريب أن غير الخليل كان يصعب عليه

إيجاد وجه أديب فى التوقف عن التلقين ، أما هذا العبقرى فما أسهل ما يجد طريقه إلى ذلك : قال له : يا أبا سعيد ! كيف تقطع قول الشاعر :

اذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فأنشأ الأصمعى يقطع هذا البيت دون جدوى ، حتى إذا أتى به الخليل على آخره ، استأذن وخرج ، ولم يعد بعدها إلى العروض . ما ألطف هذه الإشارة وأرقها ، وما أسرع فهم الأصمعى بالإشارات وأثقله بالعروض .

لم يقف الخليل عند اختراع هذا الفن ، بل بادر إلى جعله سبيلا لإبداع أنواع من البحور والشعر لم يعهدها العرب . لقد امتلك مفتاح الشعر العربى بعروضه ، فصار حرياً به أن يفتتح به آفاقاً من الشعر مجهولة . استخدم العرب من التفاعيل الثمان خمسة عشر بحراً ، مع أنها تعطى أكثر من ذلك بكثير حين تجمع وتركب . وكذلك صار الخليل يركب منها بحوراً جديدة ، ويخرج بها شعراً من وزن جديد . أخرج قصيدة على فَعِلُنْ أربع مرات ، فقال :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبئس لعمرك ما فعلوا

أبكيت على طلل طرباً | فشجاك وأحزنك الطلل
وعمل قصيدة على فَعْلُنْ أربع مرات فقال :

هذا عمــرو يستعفى من | زيد عند الفضل القاضى
فانهوا عمراً إنى أخشى | صول الليث العادى الماضى
ليس المرؤ الجانى أنفاً | مثل المرء الضيم الراضى

فاستخرج المحدثون من هذين البيتين وزناً سموه المخلع ، وخلطوا فيه من أجزاء هـذه وأجزاء هذه . وما أحدث الاندلسيون من الموشحات ، وما يحدث فى المستقبل من أوزان جديدة ، تلاءُم روح العصر ، وتدرج مع موسيقى الجيل ، يرجع فضله إلى الخليل ، فقد اكتشف مفاتيح الشعر ، وأطلق للشعراء استخدامها بما يقتضيه ذوقهم وتخرجه قريحتهم . والعروض فى ذلك كالنحو ، ألا ترى أن علم النحو والصرف أخرج كلمات وألفاظاً وجموعا لم تنقل عن العرب ، ولم تسمع منهم ، كذلك العروض أخرج وسيخرج أوزاناً تتفق مع الذوق العربى ، وتجرى على أصوله ، وتنبثق من تفاعيله .

الفصل الحادى عشر

هذا الرجل كان يقاسى مضضاً شديداً ، وضيقاً قوياً . خلف أبوه عليه بستاناً ، فصار يعيش بغلته ؛ ولكنه كان كريماً ، فسرعان ما تتبدد الغلة ، ويضرب الفقر غائلته ، فتصبح زوجه طالبة الإنفاق عليها ؛ ويصبح ابنه متوجعاً ؛ وكانت الزوج والولد يحمّلان الأب مالا طاقة له به من الاعنات والإرهاق ؛ وهو صبور حمول ، حتى كان يغلق عليه بابه ، ولا يستقبل أحداً خشية إطلاع الناس على همومه ؛ وقد ذكر ذلك لتلميذه النضر بن شميل فقال : إنى لأغلق علىّ بابى ، فما يجاوزه همى .

وأصبحت البصرة ذات يوم ، وإذا بخيول مطهمة تجتاز شوارع البلدة ، فخمة تلفت النظر ، وعليها فرسان أنيقون ، يرتدون ألبسة فارسية زاهية . ويتسارع الناس إلى رؤيتهم ، ويتساءلون عن أمرهم ، فيقول قائلهم : « إنهم من الأهواز وأيم الله ، فقد

رأيت أصحاب الأميرهناك ،وهم يرتدون هذا الضرب من اللباس .
ولا جرم أنهم أتوا يحملون هدية إلى أميرنا » .

وتسير الفرسان وراء دليل يشق الطريق أمامهم ، ولا يلبثون أن ينحرفوا عن قصر الأمير ، ويتجهوا وجهة أخرى ، حتى يدخلوا حي الخليل بن أحمد ، ويقتربوا من بيته . فينزل الدليل مسرعاً ، ويبادر إلى باب الخليل ، يطرقه طرقاً مستعجلاً ، يشير به إلى عظم ما أتى به . فيخرج ابن الخليل عبد الرحمن ، ويتأمل الدليل والفرسان والخيول ، فيصيبه الوجوم ؛ فهو لم يكن يرى بين زائرى والده إلا متعممين ومتطيلسين . ويعجل الدليل، فيقول له : « هيا أخبر والدك أن أمير الأهواز بعث إليه رسولاً من كبار أصحابه » . فيدخل عبد الرحمن على والده ، وكان يلقى درساً على طلابه ، ويقول له مسروراً مستعجلاً مرتبكاً : « قم يا أبتى ، فقد أتانا الخير ، وذهب الفقر . هذا رسول أمير فارس يأتى بأبهة عظيمة إليك موفداً . وقد رأيت من خيوله وتابعيه ما لم تر عينى قبل اليوم » . قال الفتى ذلك متوقعاً لقوله أثراً عظيماً عند والده . غير أن هذا لم يبد كبير اهتمام ، ولم ينهض ، بل قال : « دعه يا بنى يدخل إلينا » . فنظر عبد الرحمن إلى

والده بدهشة عظيمة وخيبة أكبر ؛ ثم لم ير بداً من تنفيذ أمر والده ، فخرج يقول للدليل ومن معه : أهلاً بكم ، أدخلوا بترحاب ؛ فينزل الرسول متثاقلاً ، وقد خاب ظنه بحسن اللقاء ومزيد الحفاوة ، ويدخل داراً بسيطة متواضعة ، فيزداد عجباً ؛ وقد كان يعتقد أن من أرسل إليه رئيس من رؤساء المدينة كبير . وينتهى إلى مجلس الخليل ، فيتلقاه هذا بالبشاشة والترحاب ، ويدعوه إلى الجلوس وأصحابه ؛ ثم يعود إلى درسه ليتمه ، فيرى له الرسول من هيبة العلم ووقار المجلس ما يدفعه إلى أن يطرق الرأس باحترام ، حتى ينتهى الدرس .

أما عبد الرحمن ، فيقف إلى الباب ، وقد شده بصره ، وهو يتنقل بين ملابس الفرسان المزركشة وسيوفهم اللامعة ؛ ولا يمتد نظره بعيداً ، حتى يرى أحد الفرسان ، وقد ألقى بين يديه بصندوق مرصع ، فيتساءل عما فى هذا الصندوق ، وينطلق به الفكر إلى سوق البزازين حيث رأى لباساً شدّ ما أطال النظر إليه ، وتمنى أن يكون لوالده من المال ما يسعف بشراء ذلك الثوب .

يفرغ الخليل من الدرس ، فيلتفت مرحباً بضيفه مرة أخرى ،

يؤانسه ويسأله عن حال صاحبه ، فيقول الرسول : «إن مولاى الأمير سليمان بن حبيب المهلبي — أعزه الله — الذى تجمعك بالقرابة به قبيلة بنى أزد ، قد أقر على فارس والأهواز ؛ تلك الأصقاع الكبيرة ذات الخيرات العظيمة التى فيها كانت خزانة كسرى وعاصمة ملكه ؛ وقد أقام مولاى الأمير فى قصر عظيم فخم ، وحفت به الأمراء والقواد والفرسان ؛ واجتمع إليه العلماء ، وجلس على بابه الشعراء . وقد بحث عن أديب يلازم مجلسه وينادمه ، ويؤدب أولاده ويعلمهم ، فلم ير أليق بذلك منك . وقد أرسلنى لأحملك إليه مكرماً معززاً ؛ ولم ير مولاى الأمير — أعزه الله — أن يوفدنى وهؤلاء الفرسان دون هدية ؛ فأنعامه غزيرة ، وخيراته عميمة ؛ ويلتفت إلى الفارس الموكل بالصندوق ويقول : اقترب بما معك ، فيرفع هذا صندوقه ، ويضعه أمام الخليل ويفتحه ، فيقول الرسول : هذه مائة ألف درهم ، أرسلها إليك مولاى الأمير على سبيل الهدية المستحبة ، وقليلها كاف لتجهيزك إلى حضرته على خير مثال » .

نظر عبد الرحمن إلى الدراهم ، وهى بيضاء ناصعة تلمع أمامه ، فسال لعابه ، وانفجرت عيناه ؛ وبهر بها تلامذة الخليل ،

وعلت بعضهم ابتسامة الفرح بما الخليل حرى بأن يبهم منها ، وهو الذى يشاطرهم ماله مهما قل .

أما الخليل فينهض متئداً ، ويذهب إلى خزانة فى البيت ، ويخرج منها شيئاً صغيراً يحمله فى يده ، ويعود به إلى مجلسه ، ولا يستوى قاعداً حتى يقول: «أرأيت هذه الكسرة من الخبز ، إنها زادى الوحيد ، ولكنها كافية لسد رمقى ، وما دام عندى منها ، فلست بحاجة إلى سليمان . أما هذه الدراهم الكثيرة ، فعند الأمير من الشعراء من هم بحاجة إليها ، فليردها عليهم » . ما سمع عبد الرحمن ذلك ، حتى اضطرب واكفهر ؛ وأراد أن يتكلم ، ولكن الكلام وقف فى حلقه ، فصار يتأتى بما لا يفهم. أما الرسول فما صدق ما سمع ، وعاد إلى الخليل يستفهم منه ، فقال له : لقد كفانى الله بهذا الخبز عن الرحلة إلى أميرك ، وهذا جوابى . وكان ذلك كلاماً لا التباس فيه . فاحمر وجه الرسول ، وأدرك أنه أخفق فى مهمته إخفاقاً مريعاً ما كان يتوقعه ، فحاول أن يقنع الخليل ، فصار يصف له قصور فارس وجمال بنيانها وحسن طبيعتها وكثرة خيراتها ولطف الأمير وظرف حاشيته ، دون أن يثنى الخليل عن عزمه ، حتى عرف الرسول

أن لا أمل بإقناعه، فأمر الفارس الموكل بالمال أن يرفعه ؛ فأغلق هذا الصندوق ، وانقطعت الفضة عن اللمعان ، فكادت عين عبد الرحمن تخرج من صدغيه معها . وحُمل المال وأُخرج من البيت ، والخليل لا يعير ذلك التفاتاً . ثم إن الرسول تقدم إليه ، وقال له : بماذا أجيب مولاى الأمير ، وماذا أقول له نقلاً عن لسانك ؛ فقال :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة وفى غنى غير أنى لست ذا مال
سخّا بنفسى أنى لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال

هذا ما تنقله إليه بالحرف الواحد . فاستأذن الرسول ، وهو يتعثر بخيبة أمله ، وخرج يقول : ما هذا إنسان كما رأيت .

نظر طلاب الخليل إلى أستاذهم نظرة حيرة ، فيها العجب والإجلال والأسف والحسرة . إن شيخهم لأعظم الناس وأحراهم بالإجلال ، وما فعل أمامهم أكبر من أن يصدق . وأطرقوا الرأس بين يديه ، وانتظروا أن يأذن لهم بالخروج ليذهبوا ، فيتحدثوا بالبصرة عن أعجب ما رأوا وسمعوا ، وعن أجل الناس وأرفعهم .

أما عبد الرحمن ، فانطلق إلى أمه يخبرها بما وقع ، وهو لا يستطيع كتمان بكائه . فما سمعت كلامه ، حتى أقبلت على زوجها مكفهرة الوجه مشجبة الأعصاب ، وقالت ، والكلام يتعلثم فى فيها : ماذا أصابك يا صاحبى ، حتى رفضت مالاً أتاك يسعى إليك . أجننت أم صرت تفضل الموت على الحياة . أنسيت أنك أب وزوج ، وأننا لا نجد من الطعام إلا ما لا يسد حاجة . أنسيت ثيابك المرقعة التى تصغر بها منزلتك فى أعين الناس . هذا ولدك يبكى كل يوم على كسوة يطلبها ونعل يبغيه ، وأنت تعد وتؤجل، وتنتظر الفرج وتؤمل، حتى إذا جاءك الفرج، ضربته برجلك ، ودفعته بيدك . ثم طفقت تبكى وتشهق ، وجلس ابنها إلى جانبها يعلو عويله عويلها . ونظر الخليل إليهما نظر المشفق الحزين ، فسالت دمعة من عينه أسفاً على نفسه منهما ، وعليهما من عدم فهمهما لقصده .

وخرج إلى شأنه ، وما ذهب بعيداً حتى ألفى صديقه أبا المعلى ، فحياه تحية من يريد أن ينسى ما حدث . ومشى معه إلى حيث يجلسان عند قصر أويس ، ينعمان النظر بجمال الطبيعة وما استقر بهما المجلس ، حتى قال أبو المعلى : لقد دوت البلدة

بخبر الرسول الذى أتاك من عامل الأهواز ليحملك إلى فارس ، ومعه مائة ألف درهم . وقد ذكر الناس بالدهشة ردك الدراهم ورفضك الرحلة ، فهل صحيح ما يدعون ؟ قال : نعم ، كان ذلك. فقال أبو المعلى : فعلت ذلك يا أبا عبد الرحمن ، وأنت أحوج الناس إلى المال ، وأحقهم به ؛ فما معنى فعلك ، وهل يأمرك زهدك أن تدع أهلك يرتعون فى الفقر ؟ قال الخليل : « كفاك يا أبا المعلى . هذا كلام من لا يفقه ما يقول . أتعذلنى على أنى رفضت مالاً لم أفعل شيئاً أستحقه به ، أو تلومنى لأنى أربأ بنفسى أن أكون عبداً لأمير ، يظن العظمة فى الحكم والعز للمال والقوة لصاحب الجند . أترانى عائشاً فى القصور ، منقطعاً إلى تعليم غلام أو غلامين للأمير ، رهن الإشارة ، عبد الأمر . أترى هذا العلم الذى أحمله يصير ملكاً لأمير ، يأخذ منه ما يشاء ويدفع منه ما يريد ، يجعله سبيلاً إلى التفكه ، وواسطة للتسلية يحصره لديه ، ويضن به على غيره . يا صاحبى ! لست أزهد فى المال لأنى أكره النعمة ، ولكنى أريده خالصاً من العبودية ، صافياً من دنس التحكم ، حقاً لا مماراة فيه ، وأجراً لا بد منه . ياصاحبى ! لن أبيع علمى وعزتى وعقلى بالمال مهما كثر ، ولن

أكون عبداً إلا لخالقي» . قال أبو المعلى : «يدهشنى أن يكون فى الناس من ينظر إلى الحياة نظرتك» . قال : بل أحق بك أن تعجب من أنهم لا يسيرون فى الدنيا سيرتى . قال أبو المعلى : إن الذى يؤسفنى أنك قلت شعراً للأمير تقطع فيه عليه سبل استمراره على إرسال الراتب الذى خصك به منذ زمان مكافأة لك على علمك . قال : إنه إن منعه لم يمنع عزيزاً .

مضت الأيام ، والخليل يزداد فقراً إلى فقر ، حتى أتى الحين الذى يصل فيه راتب سليمان ، فبُلِّغ الخليل أن الأمير ساءه جوابه ، فأمر بقطع الراتب عنه وسار الخبر فى المدينة ، فصار الناس يستفسرون من الخليل عن جلية الأمر ، فيخبرهم بحقيقة ما حصل ، وينشد لهم شعراً يخاطب به سليمان قائلاً :

إن الذى شق فمى ضامن　　لى الرزق حتى يتوفانى
حرمتنى مالاً قليلاً فما　　زادك فى مالك حرمانى

وسارت الرواة تحمل هذا الشعر وتنشده ، حتى بلغ الأهواز ، وطرق سمع الأمير ، فأقامه وأقعده ، وخاف على شهرته من رجل يحترمه الناس ويبجلونه . ويرفعون قدره ويصدقونه ، فكتب إليه يعتذر ، وأمر بأن يضعف راتبه ؛ فلم يزد الخليل هذا العمل

احتراماً لسليمان ، وعرف قصده فقال :

وزلة يُكثر الشيطان إن ذكرت
منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده
فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

فوبخه أبو المعلى على قوله هذا ، وقال له : لقد استغفر سليمان لذنبه ، فما بالك تقسو عليه . فقال يعنى نفسه :

صلبُ الهجاء على امرىء من قومنا
إذ حار عن سنن السبيل وحادا
أعطى قليلاً ثم أقلع نادماً
ولربما غلط البخيـــــــل فجادا

فقال أبو المعلى : وإن تعف وتصفح هو أقرب للتقوى . قال الخليل نعم القول الذى تعظنى به ، وسكت عنه .

الفصل الثانى عشر

سما مقام الخليل بين الناس فى البصرة وغير البصرة ؛ وصار الناس يقصدونه من القريب والبعيد ، يستفيدون من علمه ، ويخبرون ذكاءه ؛ وهو لا يمتنع على إنسان ، بل يبش فى كل الوجوه ، ويتواضع مع الكبير والصغير . وكان أهل البصرة يتخذونه صاحباً وأباً وراشداً ودليلاً ، وكان هو يهتم لهمهم ويفرح لفرحهم.

حدث أن مات كحال كان يعمل للناس دواء ينفعهم لغشاوة البصر ، وتضرر الذين كانوا يستعملون هذا الدواء ، وصاروا يطلبونه ، فلا يعرفون له اسماً ، ولا يدرون تركيبه . ولما كثر تشكيهم من ذلك ، اجتمعوا يتداولون أمرهم ، فقال قائل منهم : لم يعد لنا إلا أن نلجأ إلى أبى عبد الرحمن الخليل ، فهو بذكائه وعلمه قد يجد لنا هذا الدواء ، مهما كانت أخلاطه كثيرة فهلموا بنا إليه لنقص عليه قصتنا. وأجمعوا أمرهم ، وذهبوا إليه ،

فشكوا ما يجدون ، فساءه حالهم ، ولم يكن كحالاً ليصف لهم دواء غيره ، فماذا يفعل ؟ قال: هل كان للدواء نسخة ذُكر بها أخلاطه ؟ قالوا : لا . إنما كان يحضره لنا بنفسه . قال : وهل تعرفون الآنية التى كان يجمع فيها الأخلاط ؟ قالوا : نعم ، وأحضروها له . قال راوى القصة محمد بن الفضل — وهو من أعيان الناس — : جعل الخليل يشم الإناء ويخرج نوعاً نوعاً ، حتى عرف خمسة عشر نوعاً . وسواء أصدقنا أنه وجد هذه الأنواع بهذا الأسلوب أم لم نصدق ، فقد وجدها بهذا أو بغيره ، مما يكفله ذكاؤه وجده ؛ ثم سأل العطارين أن يصنعوا دواء يجمع هذه الأخلاط فصنعوه . فإذا هو الدواء المطلوب ، فسر المحتاجون إليه ، وصاروا ينتفعون به كما كانوا يفعلون قبل وفاة الرجل . ثم وجدت نسخة فى طيات كتاب من كتبه ، ووجد فيها ستة عشر خليطاً ، ووجد أن الخليل أغفل منها خليطاً واحداً . .

استعظم الناس هذا الأمر ، وتحدثوا به زمناً طويلاً ، وسارت الركبان بأخباره ، ولعلهم زادوا فيه شيئاً أو أشياء . وصار

الرجل يشار إليه بالبنان فى كل حضر أو سفر ، فيقال : هذا الخليل ، أذكى الناس وأصفاهم ذهناً وأحسنهم قريحة .

أما هو فكان يعانى من ولده الأمرين ؛ كان ولده أحمق متخلفاً لا يفهم ، وعنيداً لا يستكين .

جاء شاعر يزور الخليل وجلس عنده ، وكان عبد الرحمن حاضراً ، وعرضت حاجة للخليل فقال لابنه : قم وأحضرها . فقال ابنه : لا أقوم . فقال : إذا لم تقم فاقعد . قال : لا أقعد . قال : فأى شىء تصنع ؟ قال فأى شىء أصنع . وضحك الشاعر ، وقال : إن لك أن تتعزى فابنك ليس وحيداً فى ذلك . إن لى امرأة تشابهه ، وقد قلت فيها شعراً ، ثم أنشده :

سكتُ فقالت لِمْ سكتَّ عن الحق
وقلتُ فقالت من دعاكَ إلى النطق
فأومأتُ هل من حالة بين ذا وذا
فقالت : وذا الإيماء أيضاً من الحمق
فلم أر لى إذ حلت الغرب راحة
من الشر إلا بالهروب إلى الشرق

فلما أتيت الشرق ألفيتها به

وقد قعدت لى منه فى أضيق الطرق

فضحك الاثنان ، وضم عبد الرحمن شفته السفلى إلى العليا وأبرزهما إلى الأمام احتجاجاً وأنفة .

الفصل الثالث عشر

سار ذكر الخليل فى العالم ، وتفاخر العرب به على العجم وبلغت أخبار ذكائه بلاد الروم ، وتحدث بهذا عربى فى مجلس ملكها؛ فقال له الملك ، لن أصدق ما ذكرت حتى أمتحنه،وفكر رويّاً فى الأمر ثم قال : أكتبْ إليه كتاباً بلغتكم ، وضع فيه ما تشاء ، وسأرسله إليه لأرى هل يفهم مافيه ، وقد غيرت بعض شكله . فكتب إليه العربى كتاباً ، وأعطاه الملك إلى رجل ينقله بنصه العربى فى الحروف اليونانية القديمة التى لا يعرفها إلا القليل من المتبحرين فى اليونانية ، فنقل إليها ، ثم أرسله الملك إلى الخليل ، ووافى رسول الملك أبا عبد الرحمن وقال له : هذا كتاب بالعربية من فلان العربى إليك ، فاقرأه ، وإنى بانتظار الجواب لأرحل به . فأخذ الخليل الكتاب ، وأعطاه إلى أحد الحاضرين ليفضه ويقرأه ، فأخذه هذا ، وظل يمعن فيه وهو يقول : إن هذا الكتاب ليس بالعربية أبداً ؛ فيقول الرسول : بلى إنه بالعربية . ويتناول الخليل الكتاب ، فيدرك

أن فى الأمر امتحاناً له ، فيقول للرسول : انتظرنى حتى أكتب الجواب ، ويخلو بنفسه مدة ، ويخرج وقد نقل الكتاب إلى الحروف العربيـة ، ويقرأه على أصحابه ، ثم يريهم جوابه بالحروف اليونانية القديمة ، ويقرأه عليهم بها ، فيبهتون ويبهت الرسول ، ويقولون : متى كنت تعرف اليونانية ياأبا عبدالرحمن ؟ فيقول لم أكن أعرفها ، وإنى لا أعرفها حتى الساعة ، فيزدادون تعجباً وحيرة ، ويقسمون عليه إلا فسر لهم الأمر ، فيقول : لقد خلوت بنفسى ، وفكرت فى أمر الكتاب ، وقلت لقد زلق الرسول ، وادعى أنه بالعربية ، وكان حقاً عليه ألا يقول ذلك لأن معرفتى بأنه بالعربية مفتاح السر ، إذ لا يبقى على إلا أن استخرج لبعض الحروف اليونانية منه ما يقابلها بالعربيـة فينكشف الكتاب . قال كيسان ، وهو أحد تلامذته المخالفين : أو تعد استخراج مقابل بعض الحروف اليونانية بالعربية أمراً هيناً ، وأنت لا تدرى من هذه الحروف شيئاً ؟ قال الخليل : ويحك يا كيسان ! ولماذا أعطانا الله العقل والفكر ؟ أليس لنستفيد منهما ، فنخرج بهما من المآزق التى لا ينكشف أمرها بدونهما . قالوا : فماذا فعلت ؟ قال : قلت بنفسى إن صاحبنا

العربي فى بلاد الروم قد كتب ولا ريب كتاباً على عادتنا وشرعنا، فبدأه بكلمة نبدأ بها كل كتاب وهى « بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذت أول الكتاب ، وصرت أقابل حروفه بحروف « بسم الله الرحمن الرحيم » حتى استخرجتها ، فعرفت من الحروف اليونانية عشرة حروف مما يقابل حروفنا ، فصرت أتتبع الحروف التي عرفتها فى الكتاب ، فأعثر على كلمة أكثر حروفها مما أعرف ، فاستنتج بالفكر بقية حروف الكلمة ، وقد عرفت أكثرها ، فيزداد عدد الحروف التى أعرفها . وكذلك استخرجت كل الحروف ، وكشفت الكتاب ، ونقلته إلى الحروف العربية ، وليس ما فعلته بالأمر العجاب .

ويذهب رسول الروم إلى مولاه بجواب الخليل ، فيستحضر الملك الكاتب بالحروف القديمة ، فيحل له الجواب ، فيجده موافقاً للكتاب ، فيعلوا الرجل فى عينه . ويستفيد الخليل من هذه التجربة ، فينقطع زمناً لوضع كتاب فى الاشياء المعماة والرموز التى يصح أن تتخذ سبيلا إلى تقوية الذكاء والاستنتاج فيضع كتاب المعمى ، وينتشر بين الناس ، ويستفيد منه كيسان ، ويبرع فى حل الألغاز .

الفصل الرابع عشر

كان الإبداع عند الخليل عملا لا بد له منه ، يقضى فيه أوقات فراغه . ويتحدث به إلى نفسه ، ويطلق لفكره العنان، وكأنه كان عنده راحة من مضض الحياة ، وسلوة يجلو بها النفس ، وأ كاد أقول ألهية يلهى بها حدة ذكائه ، ويظهر منه. فائض نبوغه . كان يسعى وراء الأمور التى لابد فيها من عبقرية ومزيد فطنة ، فينكب عليها شغوفاً بها ، يستطلع منها آفاقا جديدة لذكائه المفرط .

ها هو ذا يجلس إلى رجلين عكفا على رقعة أمامهما ، ينقّلان قطعاً خشبية عليها ، فيتأمل هذه الرقعة ، ويسألها إيضاح أمرها ، فيعجبان منه كيف لم يعرف أنها الشطرنج ، أجمل ألهية يلعب بها ، وأحسنها تمريناً للذكاء ، وأصدقها اختباراً له ، فيقول إنه سمع عنها الشىء الكثير ، وأعجب بمخترعها الفارسى الذى أبدع شيئاً عظيما من العدم ، ولكنه لم يتسن له أن يطلع عليها . فيشرع

الرجلان يتسابقان فى تفسير حركه قطعها ، فيسر سروراً عظيما ، ويقول : ما أحسن ترتيبها ، وأعجب سيرها ، وأدهش حيلها . لكن ما لهذه اللعبة حوت حيوانات القتال جميعاً ، ونسيت أصبرها على العطش وأقواها على السير وأمدها للمقاتل : نسيت الجمل الذى هو رفيق المحارب العربى وخادمه . قالا إن مخترعها لم يفكر فيه ، وأياً كان ، فهى كاملة تامة بترتيبها ، والعبرة بالجوهر لا بكيفية الوصول إليه . قال : إنى إن لعبت بها يوماً فلن ألعبها خالية من الجمل ، فهو عندى أليق بها من كثير من تماثيلها . قال ذلك ، ثم انطلق ذاهباً . ولعله كان يقول هذا على سبيل الفكاهة والتمثيل ، غير أنه ما تجاوز بعيداً ، حتى انطلق فكره فى ميدان الشطرنج وفى حركة أبطاله ، وامتد به التفكير ، فإذا به ينطلق خارج البصرة ، فلا يشعر بنفسه إلا وهو فى الصحراء ، ولم يردها . وكان لا يزال فكره مشغولا بالشطرنج ، فيقعد على رمال الصحراء ، ويخط عليها مربعاته ، ويتناول أحجاراً يمثل بها الفئتين المتصادمتين ، ويوجههما للقتال ، ثم يتخيل الجمل بينها يعمل عمله ، ويؤدى مهمته . ولا يزال منطلقاً فى بحر فكره حتى يأتى المساء ، ويسود الصحراء بعض العتمة ، فيخف عائداً

إلى بلده ، وهو لا يدرى أنه ابتعد عنها كثيراً . ولا يزال سائراً حتى يلقى الظلام ثوبه المعتم على البرية ، ويكون الخليل قد وافي ضواحى البصرة ، لكن أمامه درباً طويلا عليه أن يقطعه حتى يدخلها . ويخشى أن يلتقى فى طريقه سبعاً من سباع البرية ، فلا يقوى عليه ، وهو أعزل حتى من العصا . ويذكر أن فى أحد جانبي الطريق صومعة لراهب انقطع فيها للعبادة ، فيجد أن خير ما يفعل الالتجاء إلى ذلك الراهب أثناء الليل ، ويكشف عن طريق الصومعة فيجده غير بعيد، فيتجه فيه ، حتى يبلغها بعد أن يتسلق سلماً إليها ، يبعده من خطر الطريق ، فيطرق بابها ، فتفتح كوة من أعلاها ، ويظهر رأس الراهب منها ، وهو يقول : من أنت ياهذا ، وماذا تريد ؟ فيقول : أنا الخليل بن احمد الفراهيدى ، وأمنيتى إليك السماح لى بقضاء الليل عندك ، فقد وافانى ظلامه ، وأنا فى طريقى إلى بيتى . وينظر الراهب إليه فاحصاً ، فيجد رجلا شعث الرأس ، مرقع الثوب ، فيقول : أنى لك يا هذا أن تكون الخليل بن احمد ، والناس يزعمون أنه واحد فى العلم ، وليس فى العرب مثله . قال : إن الناس يزعمون ذلك ، وهم مغالون . ولكن ما الذى يدعوك إلى أن تتهم صدقى فى أنى

الخليل ؟ قال إن سيماءك الفقر والتقشف ، ولا أرى الخليل — وهو من يدعون — يتزيا بزيك . قال الخليل : عجيب من راهب مثلك ، يلبس المسوح ، ويرى الزهد والامتهان لأمور الدنيا ، أن يستكثر على الخليل — وهو يظن فيه الخير — احتقار الظواهر وامتهان التجمل . عجيب منك أن تريده كالطاوس ، يزهو بريشه وألوانه . قال الراهب : لن يخدعنى كلامك الجميل البليغ هذا ، فأصدق أنك الخليل . لأنى عرفت فى العرب طلاقة لسان وحسن بيان ، يتفق بهما العالم والأمى منهم ، وما أصدق أنك الخليل إلا بعد امتحانك . إنى سائلك عن أمر أستدل به عليك ، قال الخليل : سل وعجل . قال : ألسنا نستدل على الغائب بالشاهد ، فلا نحكم بوجود الغائب ، إلا إذا كان حاضر يشهد به قال الخليل : أجل ، فالإنسان لا يعرف الخفى إلا بأثر شاهد يدل عليه . قال الراهب : أحسنت ، الخليل يقول إن الله تعالى ليس بجسم ولا عرض ، فهل ترى شيئاً بهذه الصفة ، حتى تدعى هذه الدعوى : إنك لم تر قط ، أجبنى عن ذلك جواباً مقنعاً ، حتى أصدق بأنك الخليل . قال : لك ذلك ، أنى استدللت على الله تعالى بأفعاله الدالة عليه ، ولا مثل له ، وفى المشاهد

المعروف ، المعترف به ، المسلم بأمره ما يؤكد ذلك ، تعالى الله عن المشابهة . ما قولك فى الروح التى فيك وفى كل حيوان ، ألا تحس بها ، وترى أثرها ، وتقر بوجودها ، وتدعوها باسمها ، وتحاول تهذيبها ، ويبكى الناس لخروجها من عزيز عندهم ، ويخشون زوالها عنهم . أتدرى أين مستقرها ، وكيف هى هيأتها وصفتها، وماهو جوهرها. هل تشعر بشىء يخرج من الإنسان الذى يموت ، وأنت تقول إنها تفارقه حين يفقد الحياة ؟ إنك لاتدرى ولا تحس بشىء من ذلك ، ثم تؤمن بوجودها ، وتدعى أنها ليست جسما كالذى تشاهده . و بعد ، فهذا شاهد تسلم به ، واستشهد به فى دعواى ، فافتح لى الباب لأدخل . قال الراهب ذلك أول سؤال عرفت به شيئاً من حالك ، وعندى سؤال آخر ، ينبئنى بالكثير عنك ، وإنه لتابع للأول : ألست تزعم أن الناس فى الجنة يأكلون ويشربون ولا يتغوطون ؟ قال : نعم ، قال : متى وأين رأيت أناساً بهذه الصفة ، وأى شاهد لك على هذا الزعم ؟ قال الراهب ذلك ، وابتسم ابتسامة الواثق من أنه أوقع خصمه بما لا قدرة عليه . فأطرق الخليل هنيهة ، ثم رفع رأسه ، وقال : الشاهد فى ذلك قريب عجيب ، وهو أنت وأنا وكل

الناس . قال الراهب : ياللعجب ! أتهذر أم عجزت ؟ قال : كلا ، وما أقول إلا حقاً ، فأنت وأنا وكل إنسان مر علينا قريب من حول أكلنا فيه وشربنا ولم نتغوط . قال الراهب : متى وأين ، قل ولا تعقد . قال الخليل : إن الإنسان قبل أن يرى هذا العالم يبقى تسعة أشهر فى بطن أمه ، وهو يتغذى منها دون أن يتغوط ، وقد مررتُ بهذا الدور . ومررتَ ، ومر كل الناس . أفبعد هذا الشاهد من بيان ؟ . قال الراهب : أحسنت أحسنت يا خليل ، صدق من قال إنك أذكى العرب وأوحدهم . قال الخليل : هل آن لك أن تفتح الباب يا هذا ، فقد أظلم الليل ، وتعبت قدماى . قال الراهب : لن أدعك تدخل حتى تبين لى الشاهد فى أن نعيم الجنة لا ينقضى مع أن أوله موجود ، فإنى ما أحسب أنى رأيت أمراً له أول ، إلا وهو ينقضى ويزول . قال الخليل : لن أذكر لك شاهد هذا الأمر ، إلا إذا وعدتنى بفتح الباب فوراً بعد الجواب ، فقد أطلت . قال : لك ذلك ، أى وربى . قال : هل تعلمت الحساب ؟ قال : نعم ، قال : عد لى . قال : ما شأن ما نحن فيه والعد ؟ قال : لن ترى الجواب إلا به . قال : واحد اثنين ، ثلاثة ، ومضى فى العدد . قال الخليل : هل تستطيع أن

تقف على عدد ليس بعده آخر ؟ قال : إنى مهما عددت فهناك رقم أعلا منه . قال : كذلك نعيم أهل الجنة ، له أول وليس له آخر . فبادر الراهب إلى الباب وفتحه ، واستقبل الخليل بين ذراعيه ، وقال له ، إنك لأوحد الدهر حقاً ، فادخل ولك عندى خير ضيافة .

لم يقطع الخليل ما حصل معه هذه الليلة عن إكمال الفكر بالشطرنج ، فما هو بالرجل الذى يكل ويمل فى عمل قصده . وكان على من يقصد الاختراع فى الشطرنج أن يلازم لاعبيه ، ويشاهد لعبهم ليستخرج من المشاهدة غايته . ولكن الخليل رجل فكر أكثر منه رجل مشاهدة وتمرين ، فسبيل المشاهدة والتمرين لا يقود بعيداً إلا بالصدفة ، أما العقل ، فسبيله أقرب ، وخياله أوسع ، ومادته أغزر . وبه وجد الخليل مكاناً لجملين من طرفى الرقعة يلعب بهما ، واستحسن الناس ما وجدوه ، فلعبوا بالجملين حيناً من الزمن طويلا ، ثم تركوهما فى حين لعل القريحة خفت فيه ، والفكر مل التأمل .

الفصل الخامس عشر

ما زال الخليل منقطعاً إلى العلم وتعليمه ، ولم يكن يكتفى بأن يعلّم المعارف والعلوم ، بل كان يريد فى الوقت نفسه أن يعلم الأخلاق الحسنة والطباع الجيدة .

دخل أبو محمد اليزيدى على الخليل، فوجد مجلسه منعقداً حافلا، والخليل جالس على طنفسة صغيرة فى صدر المجلس ، والمهابة ناطقة على وجهه ، والناس بين يديه فى حياء منه وإجلال له . فصار أبو محمد يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، يبحث عن مكان يجلس فيه . فالتفت الخليل فرآه على هذه الحال، فقال : إلىّ يا أبا محمد ، فنظر أبو محمد ، فما وجد مكاناً فارغاً بقربه ، فأشار إليه بطرف خفى : ليس لى مكان عندك ، وسأجد فراغاً أجلس فيه . ولكن الخليل عاد يقول : ههنا عندى يا أبا محمد . فقال هذا وقد ضاقت حيلته: أخاف أن أضيق عليك فقال الخليل : هلم ، فاقترب منه ، وهو منقبض ، فأخذ الخليل بعضده ، وقربه منه ، وأجلسه بحذائه ، وقد وسع له، ثم قال: « إن الدنيا بحذافيرها تضيق عن متباغضين، وإن شبراً فى شبر

لا تضيق عن متحابين » ، فجلس أبو محمد ، وقد سره وصف الخليل له بالصداقة والحب . وجرى هذا الكلام مجرى المثل . وانطلق الخليل يتكلم عن العلم والعلماء وفضلهم . فقال أحد طلابه : أليس المال أفضل من العلم ، إذ يجلبه ويسببه ؟ قال : كلا ، ما هو أفضل منه ، والعلم هو الذى يجلب المال ، ولا شىء يعدل العلم ويفضله . فقال : ولا الملوك والأمراء ؟ قال الخليل : لا الملوك ولا الأمراء ولا غيرهم يفضلون العلماء . قال : فما بال العلماء يزدحمون على أبواب الملوك ، ألا يعنى ذلك أنهم يلجأون إليهم ، ويعتقدون فضلهم وتقدمهم ، ثم ما بال الملوك لا يزدحمون على أبواب العلماء بل يدعونهم إليهم بإشارة منهم لهم ، قال الطالب ذلك ، وقد شعر بأن حجته أقوى من حجة أستاذه ، وصار ينتظر ما الخليل قائل ، وإذا بهذا يقول : لقد عرف العلماء حق الملوك وواجبهم نحوهم فى نصحهم وهدايتهم ، فسعوا إليهم ليرشدوهم ويعلموهم ، وجهل الملوك حاجتهم إلى العلماء وحقهم ، وظنوا أنهم خير منهم ، فلم يسعوا إليهم ، فكان من ذلك خراب لأمر كثيرين منهم ، لم يسألوا أهل العلم فيما لا يعلمون . فأطرق الطالب واقتطع ، وكتب الطلاب على ألواحهم هذه المحاورة ، ثم انفض المجلس بهذا أو بمثله.

الفصل السادس عشر

لم يكن للخليل هوى غير هوى العلم ، اللهم إلا تعلقه ببازى كان ينفق عليه ما يفضل عن قوته ، وكان كثيراً ما يخرج فيصطاد به ، ويقوى بدنه وينشط فكره ، وقد يمتد به الصيد برفقته ، فيقضى أياماً وهو بعيد عن منزله .

عاد مرة من صيد استغرق معه أمدا ، فوجد الناس يتراكضون إليه ويخبرونه أن الشعراء بثوا عليه العيون والأرصاد ليعثروا عليه ، وهم ما يزالون يبحثون عنه . وكان الخليل حكمهم ورئيسهم ، فما استحسنه من أقوالهم اشتهر وحاز القبول ، وما لم يستحسنه سقط . فعجب الخليل لأمرهم ، وظن أنه وقعت بينهم منافرة يريدون رأيه السريع فيها . وما وافى البيت حتى رآهم ينتظرونه ، فحياهم فاستقبلوه بلهفة ، فسألهم عن أمرهم ، فقالوا مدحنا الأمير جعفر بن سليمان بن علي العباسى بالقصائد التى كنا أعددناها قبل مسيرك ، ووافقت عليها ، فسمعها ولم يتقدم إلينا بالجائزة ، بل ماطلنا بها ، فضاق الأمر بنا ، وحاجتنا

إلى المال ما تعرف . فقال الخليل : أعطونى رقعة أكتب لكم كتاباً عليها إليه . فأعطوه ما كتب عليه كتابه ، ولم يقرئهم تلك الرقعة ، بل ختمها ووجههم بها ، فأوصلوها إلى الأمير ، فما أنهى قراءتها حتى أمر لهم بجوائز حسنة ، وزاد فى إكرامهم . وتشوقوا إلى معرفة ما بالرقعة ، فألفوها بالديوان ، وإذا فيها .

لا تقبلن الشعر ثم تعقه وتنام والشعراء غير نيام
واعلم بأنهم إذا لم ينصفوا حكموا لأنفسهم على الحكام
وجناية الجانى عليهم تنقضى وحكومهم تبقى على الأيام

فعرفوا بذلك من الخليل حسن رأيه فيهم ، وقوة تسلطه على الأمراء .

الفصل السابع عشر

اكتسب الخليل الرياسة بين العلماء والشعراء بحق ، وكان من رضى عنه حاز المنزلة العليا عند الملوك ، وأصاب الغنى . أما هو نفسه ، فما برح فقيراً . كان تلاميذه يعيشون فى القصور ، ويمرحون بالخز والديباج وهو فى بيت من خشب ، وثوب مرقع ليس فى طياته فلسان . وكان مظهره ولين طباعه وتواضعه تخدع ذوى النظر القصير، فيستطيلون عليه بما لا يصح أن يجرى أمامه وإذا هو يعيدهم إلى حظيرتهم الدنيا بكلام يجرى مجرى المثل . ها هو ذا فى مجلس ملتئم تطرح فيه عليه الأسئلة ، فيفيد بأجوبته ، وهذا هو رجل من فزارة جاهل أحمق غبى يدخل فيأخذ مكانه من المجلس ، وكان قد سمع كثيراً عن الخليل وعن ذكائه ، فيرى شيئاً لا عهد له به ، فيجلس منصتاً . وإذا برجل يتقدم إلى الخليل بسؤال ويقول : سيدى الشيخ ! ما معنى قوله تبارك وتعالى : رب ارجعون . فيطرق الخليل ، ويبحث عن

الجواب فلا يجده ، فيقول : سألتموني عن شيء لا أحسنه ، ولا أعرف معناه . فاستحسن الناس منه تلك الصراحة ، ولكن الفزاري يستقبح هذا الجواب ، وتبدو على وجهه دلائل امتهان المجلس ، وينتبه الخليل إلى ذلك فيسأله على عادته مع الحاضرين مسألة ليصرفه بها عن موقفه ؛ فيبطىء بالجواب محاكاة بالخليل فيعيد هذا السؤال عليه ، فيتضاحك الفزاري ، فينتظر الخليل انقطاع ضحكه ، ثم يقول لجلسائه : الرجال أربعة ، فرجل يدري ويدري أنه يدري ، فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري ، فذلك غافل فأيقظوه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ، فذلك مائق جد أحمق فارفضوه . ثم يلتفت إلى الفزاري ويقول :

ومن أعجب الأشياء أنك مائق وانك لا تدري بأنك لا تدري

وينظر أهل المجلس إلى الفزاري ، وقد تصبب العرق من جبينه فشرع يبحث عن الانصراف وهو يتعثر بأثواب خجله .

وجاء رجل آخر يمتحن الخليل بمسألة ، فجعل الخليل يفكر وأطال التفكير ، وأبطأ في الجواب ، فأعجب الرجل بنفسه ، وقال للخليل

متفاخراً متباهياً : لم تُكثر الفكر والتأمل ؟ فليس في هذه المسألة من الصعوبة ما يستدعي إطالة النظر ، فقال الخليل : قد عرفت مسألتك وجوابها ، وإنما فكرت في جواب أسرع لفهمك ، فأتعبت نفسي بما قصدت إراحتك به . فخجل الرجل وانصرف .

عرف معظم الناس جليل قدر الخليل وحسن رأيه وقوة بصيرته ، فاعتمدوا عليه بما يخرج عن حد علمه وأبواب اختصاصه ؛ فكان بذكائه وقريحته يفيدهم بأكثر مما يستفيدون به من أهل الاختصاص . من ذلك أن الأمير عباد المهلبي اتخذ أرضاً أراها للخليل ، واستشاره بغرسها ، فأمعن الخليل نظره فيها وقال أغرسها وستنبت بمشيئة الله كل شيء بهيج . فعمل بمشورته وغرسها ؛ ورأى أصحابه — ممن كانوا يعرفون الفلاحة — هذه الأرض، فلاموه على غرسها ، وخوفوه من الخسارة ، فصار ينتظر نتيجة أمرها ، وإذا هي تأتي بكل شيء حسن ، فحمل إليها الخليل ، وهو مبتهج بها ، فسر الخليل بما فيها ، وقال شعراً فيها من أجود ما قيل في البساتين ومواضع الأشجار ، وأشار إلى لوم اللائمين فيها فقال :

٩٠

ترفعت عن يد الأعماق وانخفضت
عن المعاطش واستغنت بسقياها
فالتف بالزهر والريحان أسفلها
ومال بالنخل والرمان أعلاها
وصار يحسده فيها أصادقه
ولائم لام فيها قد تمناها

الفصل الثامن عشر

كان الخليل يحب النصح والرشد ، ويدعو إليهما ، وينحو نحوهما ، وآل به الأمر فى ذلك أن عقد مجلساً فى المسجد الجامع، يعظ فيه الناس ويهديهم سواء السبيل . وكان يكثر فى مواعظه من عدم الاحتفال بالدنيا وزخارفها ، ويدل على حقيقتها وصواب أمرها ، فيقول من ذلك الحكمة التى تسجل، والرأى الذى يبجل. كان ذات يوم قد جلس مجلس الواعظ ، والتف الناس حوله ، واكتظ المجلس، والسكوت سائد، وصوت الخليل يخرج مستقيما متئداً ، ليس فيه تدليل بفخر القائل واعتزازه بنفسه ،ولا استكانة المتصوف الغارق فى بحر التذوق . كان يقول: ما أغرب أمر الدنيا وأعجب شأنها ؟ الدنيا أشياء مختلفات ائتلفت وتقاربت وتجاذبت، الدنيا أشياء مؤتلفات اختلفت وتباعدت وتضاربت ، الدنيا أضداد متجاورة ، وأشباه متباينة ، وأقارب متباعدة ، وأباعد متقاربة . ألا من أراد أن يكون فيها سعيداً ، وبها رشيداً ،

فليعتبر ذلك فى نفسه ، وليعمل على أن تكون منزلته عند ربه منزلة أفاضل عباده ، وأن يكون رأى الناس فيه وسطاً لا سوءاً ولا جمالا كثيراً ، وأن يكون رأيه فى نفسه سيئا بحيث يحسب نفسه شر النفوس . بهذا تتم له الراحة فيرضى الله عنه ، ولا يسوؤه من الناس تقبيح أمره ، ولا يخدعه منهم مديح وثناء ينفخان شدقيه ويوردانه مورد العطب ، ثم يعرف نقصان نفسه فيعمل على تحسينها ، ويدرك قبيح أمره فيجهد نفسه فى تجميله ، فيبقى لنفسه مصلحاً ، ونحو العلى جاداً .

أيها الناس ! ألا بحسب امرىء من الشر أن يرى فى نفسه فساداً لا يصلحه ولا يقومه ، ألا إن هذا لشر عظيم ، ألا إن العاقل غير ذلك ، فانه إذا علم بفساد نفسه علم بصلاحها. أيها الناس ، أقبح التحول أن يتحول المرء من ذنب لم يتب منه إلى ذنب يشرع فيه ، فيكون قد عانى من أمره السوء تلو السوء.

قال رجل فى المجلس : لقد زهدتنا وأحسنت تزهيدنا ، فهل لك أن تدلنا على معنى الزهد بأقصر عبارة نحفظها عنك ونتداولها نقلا منك ؟ قال الخليل : الزهد ، هو أن لا تطلب الشىء المفقود حتى تفقد الشىء الموجود . وسأزيدكم رغبة فيه : انظروا لمن يجمع

المرء المال ولمن يخلفه ، إنما يجمعه لأحد ثلاثة ، كلهم أعداؤه ، إما لامرأته التي توشك أن تتزوج فور وفاته ، فتلقى بأمواله بين يدى زوجها الجديد ، و إما لزوج ابنته الذى ينتظر موته اللحظة بعد اللحظة ، و إما لزوج ابنه التى تتحرق أسى على انتقال ماله إلى زوجها لتستبد فيه . فماذا يكون أمر العاقل الناصح لنفسه من هذا أيؤثر هؤلاء على نفسه ، فيخلف لهم ماله ، أم يوزعه على الفقراء والمساكين ، ويجعل توزيعه زاداً لآخرته ؟ .

بينما كان الخليل يتحدث إلى الناس بذلك ، وهم آذان واعية وعيون دامعة، إذا بشاب قد أخذ الجهل من نعومة وجهه،ولعب الشقاء فى ثو به ، فبرمه وفتله على غير المألوف ، يقف على الحلقة متبرما متجاهلا . وما ينتهى الخليل من كلامه إلى الحد الذى سمعناه ، حتى يوقفه هذا الشاب الجاهل ببيت من الشعر ينشده رافعاً صوته مشيراً بيده يقول :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى
طبيب يداوى والطبيب مريب

ولم يدر هذا الجاهل المتعنت قدر الخليل ، ولا عرف أنه يفعل أكثر مما يقول ، فأراد أن يعكر عليه صفاء وعظه ، فنسبه إلى

القول بخلاف ما يفعل . والتفت الناس متعجبين مستهجنين ، وحصل لغط فى الحلقة ، وكاد بعض المتحمسين للخليل ينهضون إلى هذا السفيه ليؤدبوه ، ولـكن الخليل أشار إليهم بألا يفعلوا . وقال : إسمع قولى يابنى واحفظه ، و اليك هو :

اعمل بعلمى ولا تنظر إلى عملى
ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى

فسكت الشاب ، وعاد الخليل الى موعظتـه ، وقد أعطى الحاضرين درساً فى الأناة والحلم والعقل ، لا يعادله تعليم بالـكلام ولا وعظ بالحسنى .

الفصل التاسع عشر

أقام الخليل بالبصرة، فكان لا يخرج منها إلا لحج أو غزو. على أن كبار الأمراء والولاة مازالوا يدعونه، ويلتمسون حضوره إليهم؛ وهو يأبى ذلك عليهم، ولا يرغب فيهم. وكانت حاله تزداد سوءاً؛ فقد مرت أيام على البصرة سوداء، قل فيها التمر والمحصول، وضاقت الحال بالخليل بما لا يحتمل! ولكنه صبر صبر الكرام، يتعزى بعلمه، ويتسلى ببازيه وصيده. وأقبل يوم، وإذا بشائعة تسرى فى مدينة البصرة، يتناقلها الناس، ويضجون لها. قال قائل: لقد عزم الخليل أن يدع البصرة، ويرحل إلى خراسان؛ قال آخر: هذا ما لا أصدقه، فكيف يترك الخليل البصرة فى شيخوخته، وقد أبى أن يغادرها فى شبابه وكهولته. وإلى من يسير فى خراسان، وقد رفض كل تقدمة من أمير وسلطان. قال الآخر: يقولون إنه راحل إلى الليث بن المظفر ابن نصر بن سيار؛ وانقطع الكلام، فما كان أحد يعرف من

هو الليث هذا وما شأنه مع الخليل . وما مضت أيام حتى أذاع الخليل خبر سفره ، وذكر اليوم الذى سيخرج فيه . وحل اليوم الموعود ، واجتمع الناس لتشييع ابن البصرة وصاحب علمها ورئيس شعرائها ورافع اسمها . وكان عدد المشيعين ثلاثة آلاف رجل ما فيهم إلا محدث أو نحوى أو لغوى أو إخبارى . وسار الناس مع الخليل فى ركبه ، حتى بلغوا المربد ، فأوقفهم وخطب فيهم يقول : ياأهل البصرة ! يعز على والله فراقكم ، فأنتم أهلى وأصحابى وعشيرتى ، فيكم نشأت ، ومن لبانكم تغذيت ، أحببتكم قبل أن تحبونى ، ثم أحببتمونى فازددت بكم حباً ، دعيت لفراقكم المرة بعد المرة ، فلم أعر الدعوة التفاتاً ، ومكثت بينكم أزداد حباً فى بلدكم وارتباطاً بها ، وكانت هذه أيام سدّ فيها باب المعاش علىّ ، وتضرر الأهل والولد ، وكثر اللوم ، فلم يثننى عن عزمى إلا دعوة من رجل صالح عالم ، قصد أن يوفر لى الراحة فى الشيخوخة بأجر أتقاضاه على علمى ، فيسهل العيش على الأهل . والله يا أهل البصرة ، لو وجدت عندكم كل يوم كبلجة باقلاء ، ما فارقتكم ، فوداعاً أيها الأصحاب ، ودعاء لى . فضج الحاضرون بالدعاء له ، وبكى كثيرون على فراق هذا الرجل الذى ما رأوا

منه إلا الخير ، والذى أنس إليه الكبير والصغير ، وأحبه البؤساء والمساكين . وبكى صغار الطلاب أكثر من غيرهم ، فلن يجدوا فى البصرة من يعلمهم مثله ، ومن يؤدبهم بأخلاقه ، ومن يعظهم موعظته ، ثم سار ركب الخليل ، والناس يحيونه ويقولون : فى ذمة الله أبا عبد الرحمن سر مجدوداً ، وليحفظك الله أنى حللت ، وحيث رحلت ، فلن تلد الأمهات مثلك . فسار حتى غاب ركبه عن الأبصار .

وعاد أهل البصرة إلى ديارهم متثاقلين وقد فقدوا عزيزاً ، وودعوا غالياً ، وحرموا أنساً شديداً ومجالس عامرة . أما الخليل فكان يسير مبتعداً عن البصرة ، وعيناه مغرورقتان بالدمع ، يودع صروحاً كانت له مرتعاً ، ولعلمه منشأ ؛ فيها أبدع ما أبدع ووضع من العلوم والمسائل ما وضع . وكان يتساءل : أيان تكون العودة إليها وهل يتهيأ له بسفره الراحة التى ينشدها ، ثم إذا تهيأت له ، فهل يتهيأ لفكره القريحة التى أعطيها فى البصرة . هل أغلق باب تتبعاته فلن يخلق جديداً ؟ وكانت هذه الفكرة الأخيرة أبعث الأشياء لخفقان قلبه وترقرق دموعه ! فهو لا يستطيع أن يحيا بدون الإبداع . فإذا كانت غير أرض البصرة لا تصلح لإمداد قريحته بزاد الفكر

والإبداع ، فلن يسعد بل يشقى . دارت هذه الأفكار فى مخيلته ، فاضطرب باله ، وصار يبحث عن دافع يدفعها به ، ويقصيها عنه ، فلم يجد إلا الفكر بابداع جديد يشرع فيه . وكأنه لم يشأ أن يترك البصرة إلا والأمل فى الإبداع رفيقه ، فانطلق بالفكر، وهو يقول : لقد حصرت الأنغام ومقاديرها وأنواعها ، فضممت كلاً إلى نوعه ، ثم حصرت أوزان الشعر العربى بتوفيق الله ، فمالى لا أفكر فى حصر ألفاظ اللغة العربية ، بشكل علمى تام كامل ، لا يغادَر منها فيه لفظ ؛ وما بدت هذه الفكرة له حتى طرب لها ، وامتلأت نفسه بهجة ، وفارقه اضطراب نفسه . وما فتىء طول الطريق يعمل فكره فى هذا الاختراع العظيم ، حتى وافى خراسان ، وفى ذهنه منه بعض الخطوط .

تلقاه الليث بن المظفر بترحاب عظيم . وكان الليث من أحفاد نصر بن سيار ، ذلك الأمير الذى تنبأ بمصير الدولة الأموية فقال :

أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النـــار بالعودين تزكى وإن الحرب مبـــدؤها كلام

وكان الليث كاتباً بارعاً وأديباً حسناً ، ورث البلاغة والشرف من أهله ، وكان تقياً صالحاً حسن الطوية بارع الأخلاق ؛ أحبه

الخليل لما عرف عنه ، فرضى بصحبته ، ورحل إليها ، فوجد رجلاً يعد رفقته له شرفاً كبيراً وخيراً عميماً . وانقطعت عن الخليل همومه فى المعيشة ، وألفى رزقاً كبيراً فى خراسان ، وانطلق للفكر فى مشروعه الجديد ، فوجد من حق صاحبه عليه أن يفاتحه به ويسره إليه ؛ وكان يعلم أن ذلك يفرحه ، فقال له يوماً : إنى ما فتئت منذ خروجى من البصرة أفكر فى أسلوب أحصر به كلام العرب جميعاً ، فلا تشذ كلمة عنه ، فقال الليث : إن هذا والله لعمل عظيم مفيد ؛ ولكن كيف يتهيأ لك حصر كل الألفاظ وهى مشتتة فى معان مختلفة ، لا يجمعها جامع ، وهبك حصرت كل ما قالته العرب من ألفاظ فى أسماء الشعر وأوصافه ، فمن أين لك أن تحصر الأدوات التى تستعمل له ، والأدوية التى تنفعه ، والأمراض التى تعلق به . قال الخليل : لا ، ليست تلك الطريق التى تحصر الألفاظ ، فإن ذهن الإنسان بل الناس جميعاً لا تطيق حصر الألفاظ التى استعملها العرب فى مادة من المواد . وكل من عمل كتاباً فى الشجر أو النبات أو الخمر أو السباع ، لم يأت إلا ببعض المسميات ، وغاب عنه منها عدد كبير . كلا ، لن يكون هذا الطريق صالحاً ، انما أفكر بحصر تام كامل لكل ما يمكن أن

يتركب من ألفاظ العرب . فنظر الليث إليه متعجباً ، وهو على ثقة من أنه مقدم على إبداع لم يسبقه إليه أحد . وإذا بالخليل يوضح له فكره فيقول : مِمَّ تتألف الكلمة ؟ أليس من الحروف ، ثم أليس عدد الحروف محدوداً ؟ إنها فى اللغة العربية تسعة وعشرون حرفاً ، إذا اجتمعت كونت الكلمة . ومن هنا يخطر على البال خاطر ، وهو ألا يمكن أن يعرف تراكيب كل حرف من الحروف مع الأخرى ، فالألف إذا اجتمعت مع الباء كونت أب ، وإذا اجتمعت مع التاء كونت أت ، ثم إذا ضربت هكذا ببقية الحروف أخرجت ألفاظاً عددها ثمان وعشرون لفظاً ، وكل لفظ من هذه يضرب بدوره مع حروف العربية ، فيخرج أبت ، ابث ، أبج وهلم جرا ، أفلا ترى أننا نستطيع أن نحصر الألفاظ التى أولها الألف بهذه الطريقة السهلة . ونعمل الأمر نفسه ببقية الحروف . لم يستطع الليث أن يفهم هذا الكلام على حقيقته ، فقد كان جديداً كل الجدة بالنسبة إلى ذلك العصر . على أن الخليل لم يقف عند هـذا الإيضاح ، بل قال : ولكني أبحث عن وجه أسهل من هذه الطريقة ، فأنا أرى بعد الحساب أنه يجب أن أكوّن على هذا الأسلوب (١٢٣٠٥٤١٢) لفظاً ، وهذا عمل

لا يحصره دفتر ولا كتاب ؛ وذلك ما يوقفني ويؤسفني . وأدرك الليث أن المشروع من الضخامة بحيث لا يقدم عليه امرؤ . ولكنه بعد الفكر ، وجده جليلا مفيداً ، يجب أن لا توقف عن القيام به صعوبة ، فاللغة العربية تظل بدونه عرضة للتشويه ، بحيث لا يعرف الأعاجم : أنطق العرب بلفظ مطلوب أم لم ينطقوا به . وإذا ادعى منهم مدع أنه مستعمل ، ولم يكن من كتاب يحصر الألفاظ المستعملة ، كان سبيل إقناعه صعباً . ثم من أين يتأتى للغة العرب رجل كالخليل يفكر بضبط ألفاظها وحصرها ؟ بقي الليث يناجي نفسه بتلك الأفكار ، فيزداد شغفاً بهذا العمل ، وأصبح فأسرع إلى الخليل ليستزيده من المشروع ، ولكن ماذا ألفى ؟ وجد الخليل مستلقياً على الفراش ، والحمى تسري في عروقه وهو يتقلب من الألم . فاضطرب الليث ، وبوغت بما لم يكن يتوقع . كانت الحمى آنذاك شديدة الوطأة ، لا سيما على شيخ كالخليل ، ليس له من الشباب ما يدفعها به . وفتح الخليل عينيه وقال : لقد أصبت بما ترى ، فما عدت أستطيع أن أفكر بإكمال العمل ، وقد تشتت فكري ، واضطربت أعصابي ، وسأجمع شتات مخيلتي ، فأشرح لك الأمر شرحاً ثانياً حتى تستوعبه

فتقوم به عنى ، إذا أنا مت . قال الليث : كلا ، لن تموت يا عزيزى ، ولن تصاب العربية بك ، فتفقدك فإنها أحوج ما تكون إليك الساعة . قال الخليل : اسمع وقيد فى دفترك . لن يحصر من ألفاظ العربية إلا مصادرها . أما ما تبقى فيخرج من المصدر ، ويعول عليه فيه . والمصادر لا يمكن أن تتكون من أكثر من خمسة حروف ، فالحروف لن يضرب بعضها ببعض أكثر من خمس مرات ، وفى هذا العدد تخفيف للعمل عظيم . قال ذلك ثم أطبق عينيه ، وأصابته رجفة ، فصار الليث يسعفه بما يستطيع ، واستدعى الأطباء وتلهف لمعرفة نتيجة فحصهم له ، فأخبروه أنهم لا يستطيعون معه شيئاً ، وأنه يجب أن يوكل إلى العناية الربانية . وكان الليث متهيئاً منذ أمد بعيد للحج فى هذه السنة ، وقد أعد العدة لذلك ، وحل ميعاد السفر ، فصار يتلظى حسرة على ما هو واقع بالخليل ، يدعو الله آناء الليل وأطراف النهار أن ينقذه . ولم يستطع أن يؤخر فريضته ، وقد عزم أمرها ، فوكل بالخليل الأطباء ، وسار فى طريق مكة ، ونفسه قلقة مضطربة . وطال به السفر كثيراً ، وما رجع إلى خراسان إلا بعد زمن طويل ؛ فما كاد يشاهد من أهلها أولهم ،

حتى سأله عن الخليل وعن صحته ، فأخبره بانقضاء الحمى وشفاء المريض ، ففرح الليث فرحاً شديداً ، وأمر بتفريق مال عظيم شكراً لله . وما وافى أبواب خراسان ، حتى ألفى الخليل بوجهه الوضاء ولحيته البيضاء وسيمائه الذكية ، فخف إليه يعانقه ، فألفاه منشرح الصدر مبتهجاً . وما عتّما أن وصلا إلى الدار ، وأقبلت الوفود تحيي الليث ، وهو منتظر فراغها ليستفهم من الخليل عن مشروعه . ولما انفرد به طفق الخليل يقص عليه سير عمله ويقول : عاجلني الله بالشفاء ، فشكراً له وحمداً على آلائه ، ثم حباني بما أحمده عليه أكثر من حمده على الصحة ، لقد فتح لي باب إنجاز الفكر في الأمر الذي تحدثت إليك به قبل سفرك إلى الحج ، فوجدت أن ترتيب الحروف على طريقتنا التي ألفناها (ا ب ت ث) يجعل المشروع صعباً غاية الصعوبة ، وهداني الله إلى طريقة في النطق أرتب بها الحروف بحيث إذا ضرب بعضها ببعض ظهرت الألفاظ المستعملة جنباً إلى جنب ، واجتمعت الألفاظ المهملة بمكان متقارب . فأنت تعلم أن لكل حرف مكاناً في الفم يحدث منه . فالعين والحاء والهاء والخاء والغين تخرج من الحلق ، وتحدث فيه ؛ والقاف والكاف تحدث في اللهة ، والفاء والباء

والميم تحدث فى الشفة ، وهلم جرا . ولمكان حدوث الحروف أثر فى إمكان تأليف لفظ مستعمل منها ، أو عدم إمكان ذلك . فأكثر الألفاظ المهملة ، إنما تتكون من حروف تحدث من مكان متقارب ، أو من الكلمات التى لا تدخلها الحروف الزولقية التى تحدث من الأسنان . فترتيب الحروف على سياق نطقها يقرب معرفة المهمل من المستعمل وفصلهما بعضهما عن بعض . ووجدت بهدى من الله أن هذه النتيجة تستدعى أن تؤخذ تراكيب الحروف لا بضرب كل حرف بالتتالى مع الحروف الأخرى ، بل بأخذ تراكيبه مع بقية الحروف دفعة واحدة ، فإذا جمعت مضاريب القاف مع العين استخرجنا منها قع وعق وهكذا . وسأشرع بالعمل عما قريب ، وأرانى أصبت النهج الصالح ، وسأدعو الكتاب كتاب العين . قال الليث وهو طروب : إنك لأعجوبة الدهر ، فكيف تكتشف هذه الأفكار ، وهى مخبأة ؛ وما عهدنا بالمبدعين والمخترعين إلا مبتدئون يوحون الفكرة ، حتى يحين الزمن ، فيأتى غيرهم فيتمها . أما أنت أيها الشيخ الجليل، فقد حباك الله بما لم يرزق به غيرك ، حباك ببعد نظر وتتبع للمسائل وتدقيق لأصولها واستخراج لكنهها ، فكأن الأشياء

تنطق لك ، وتهديك إلى سرها ، فمدك الله بالعمر ، وجزاك الجزاء الأوفى على خدمتك للغته الشريفة . وعكف الخليل على اختراعه ، واستخرج تراكيب الحروف على الوجه السابق ، وميز المهمل من المستعمل منها ، ووضع مقدمة كتاب العين . وكان يشرك الليث معه فى عمله . ثم بدا له أن يجعل الكتاب تاماً ، بحيث لا يقتصر فيه على حصر مفردات اللغة وتمييز مهملها من مستعملها ؛ بل يتعداه إلى وضع معنى كل لفظ ومشتقات كل مصدر . وسر الليث بهذا الرأى سروراً عظيماً وقال : إن فى هذا الغاية . وما شىء يعادل تحديد معانى الألفاظ حتى لا يخرج عنها . فقال الخليل : هو كما تقول ، وأرى رغبتك فيه وحسن ذوقك كفيلين بإتمامه وتحقيقه ؛ فإليك كتاب العين ، فاشرع فيه منذ اليوم . قال الليث : كيف أجرؤ على ذلك بوجودك ، وأى حق لى بأن أعمل فيه ، وأضيف من رأيى ، وأنت صاحبه . كلا ، إن ذلك خروج على نصاب الحق ، وعدول عن نهج الصواب . قال الخليل : إنى شخت يابنى ، ولم يعد عندى من الحيل والقوة ما يدفعنى إلى عمل يقتضى عدداً كبيراً من السنين ، على أنى مستعد لقراءة ما تحرر ، والجواب عن كل سؤال يجول فى خاطرك .

أما حتى فى الكتاب ، أفترى أن يكون سبباً لمنع إتمامه ، وقد ذكرت لك تقصيرى فى ذلك . قال الليث : سأشرع فى إتمام الكتاب على نهجك الذى رسمته لى ، وستكون صاحبه أولاً وآخراً ، وسأقحم فيه أقوالك وتقييداتك فى اللغة التى جمعتها فى دفاترك ، فهل تسمح لى بهذه الدفاتر ؟ قال : هى لك ، ولا تهيب السؤال منى ومن غيرى ، فالعلم ياصاحبى ليس ملكاً لأحد ، ولا وقفاً على إنسان . وستجد عند فلان وفلان كثيراً من الأشـياء التى أجهلها . فهيا ياصاح إلى عملك وفقك الله . انقطع الليث إلى هذا العمل ؛ وكان يقرأ ما يخرج منه على الخليل ، فيقره عليه ، وينبهه إلى ما يقتضى إصلاحه ، حتى مضى فى الكتاب شوطاً .

قال الخليل لليث يوماً : لقد أوليتنى يابنى من العناية وحسن الصحبة ما أنا شاكره لك وحافظه فى طيات قلبى . قال الليث عفواً ياسيدى الشيخ : فإنك صاحب الفضل والإنعام ؛ فقد أجبتنى إلى أمر لم تجب إليه من هم أكبر منى شأناً ، وأعظم جاهاً وأوسع سلطاناً ، ولست إلا تلميذاً لك يرى من حقك عليه ومن كامل سروره أن يوفر لك الراحة ما استطاع . ولـكنى أراك تريد أن تنتهى من هذا الكلام إلى شىء آخر . قال

الخليل : أجل ، لقد قرب موعد خروج الحاج . وقد اشتقت إلى مناجاة الله عند كعبته ، ورجائى إليك أن تأمر أصحابك ليهيئوا لى سبيل الخروج مع من يخرج . نظر الليث إليه نظر المغتم الحزين، فقد كان يحب أستاذه أكبر حب ، وقد تعشق منه أخلاقه الفاضلة ونفسه الطيبة ، ووجد عنده من الفوائد ما لم يلقه عند إنسان ، فقال وقد اضطرب صوته : لن أستطيع إلا أن أذعن لرغبتك ، لا سيما وقد قصدت أمراً مهيباً صالحاً . ولكن عدنى بأن تعود إلى خراسان بعد قضاء الحج . قال الخليل : سأمكث فى البصرة قليلا ، حتى إذا أسعفنى الله بقوة على العودة عدت إليك ، ورأيت ما تم بكتاب العين ، و إن لم يكن ففى ذمة الله . وخرج الخليل بعد أيام و بلغ مكة ، فحج وعاد إلى البصرة فكان له أحسن استقبال ، وأجمل زينة ، وخطب الخطباء والشعراء فى استقباله ، وحضوا أهل البصرة على ألا يمكنوه من الخروج من البصرة ، فهو سيدها وشيخها ، ولا يجوز للسيد أن يغادر ملكه و يترك رعيته . والتأمت الحلقة فى اليوم الثانى ، واجتمع الطلاب ، وعاد الخليل إلى سابق عهده ، وهو أنيس بهذه البلدة التى هى سيدة الأدب بين البلاد .

الفصل العشرون

لفت نظر الخليل فى حلقته شاب جميل نظيف أنيق ، كثر تردداه إليها ، وصمته فيها ، وملازمته لها فى أقرب مجلس منه ؛ فصار الخليل يمعن النظر فيه حيناً بعد حين ، فيراه منكباً على تقييد أقواله ، وكأنه يريد أن يلتهم علمه التهاماً ، فيسره ما يرى منه ، وينتظر انتهاء الدرس ، فيراه وقد حمل ألواحه ، وتنحى جانباً يدارسها ويقلبها ؛ فيقعد الخليل قريباً منه ، ويراقبه دون أن يشعره بوجوده ؛ على أن هذا كان مطرقاً لا يلوى على شىء إلا تلك الأوراق . نهض الخليل من مكانه ، واتجه إليه فجلس بحذائه ، فالتفت هذا ، فوجد شيخه ، وقد قعد نحوه ؛ فاضطرب بعض الشىء ، وغير من جلسته احتراماً للأستاذ ، فأومأ إليه هذا بألا يفعل ، وقال له : لقد استحسنت عكوفك على الكتابة فى حلقتى ، وسرنى منك حسن انتباهك إلى ما أقول ، وأراك تختلف عن غيرك من الطلاب ، وأقدر أنك ناجح فيما قصدته ،

فمن أى قوم أنت؟ قال: من بنى الحارث بن كعب ومولاهم، ويلقبنى الناس بسيبويه قال: فما أقدمك بلدتنا؟ قال: حبى للعلم ورغبتى فى التحصيل قال: كم لك من الزمن فى البصرة؟ قال: عدة أشهر. قال: وما الذى رغبك فى العربية؟ قال: إن لذلك قصة، وهو أنى شرعت فى طلب الحديث تبركا، فحصل لى منه بعض العلم، ولما قدمت البصرة، أدخلت على حماد بن سلمة بن دينار، وهو كما تعلم من شيوخ الحديث عندكم، فأحسن لقائى، واختبر علمى، وأراد تشجيعى، فعهد إلى بمرافقته إلى الدرس وبالاستملاء عليه؛ فصرت أرافقه، وأقف بين يديه أستمع إلى الأحاديث التى يذكرها فأعيدها على الحاضرين، بصوت عال يسمعونه، فأستفيد معرفة من قربى إلى الشيخ، وإلقائى بين يديه، وأفيد المستمعين بابلاغ كلامه إليهم. قال الخليل: وزبدة القول أنك أصبحت مستمليه، وهذا يدل على حسن ثقته بك وحسن عنايته بأمرك، فماذا حصل بعدها؟ قال: كنت ألقى بين يديه يوماً، وإذا به يروى الحديث الآتى: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أحد من أصحابى إلا من لو شئت لأخذت عنه علماً، ليس أبا الدرداء، فأعدت هذا الحديث على الحاضرين، ولكنى

رفعت لفظ أب من قـوله ليس أبا الدرداء ، فقلت ليس أبو الدرداء ، فاستوقفني الشيخ . وقال : لحنت ياسيبويه ، فأصابني من الخجل الشيء الكثير ، وانصب العرق من جبيني ، وكبر عليّ أن أغلط بمحضر الشيوخ والفقهاء وطلاب العلم ، وأقررت بغلطي فقلت : لاجرم أني غلطت ، ثم أنشأت أقول : ولكني لن ألحن بعدها أبداً ، وسأطلب ذلك العلم الذي يعصمني من اللحن ، ولن أعود إلى هذا المجلس إلا وقد أتقنته ، ثم استأذنت الشيخ ، وأعددت العدة لحضور دروسك ، فأنا منكب عليها مستفيد منها . قال الخليل : حللت أهلا ووطئت سهلا يابني، وإنك لتراني جد مسرور بك ، ولك إذا شئت أن تحضر إلى داري ، فإني أعقد فيها دروساً للخاصة ومجالس للاخوان ، و إنك لمنهم . فأقبل سيبويه على يدي الخليل يقبلهما ويشكره .

كثر تردد سيبويه إلى مجلس الخليل ، وكان كلما قدم عليه ، قال له مالم يقله لغيره فقال : « مرحباً بزائر لا يمل » و بش له وقال : هات ما عندك ، فينطلق سيبويه في السؤال يتلو السؤال ، والخليل يبتسم لذلك ، ويجيب مسروراً ضاحكا ، وسيبويه يكتب على ألواحه وقد وجد ضالته . كانت هذه المجالس محببة إلى

الخليل ، فقد كان يجد فيها خزائن علمه وهى تفتح فيُستفاد منها ؛ وكان يجد شخصاً عارفاً قد عمد إلى أثمن مافيها ، يستعرضه ويعجب به ويجتليه ؛ وهذا مالم يصح له مع تلاميذه الآخرين . وكان بعضهم يستمع إلى الخليل وسيبويه يتكلمان ، فلا يفهمون قولهما لبعده ، بل كان الأخفش يستوقف سيبويه فى الطريق بعد خروجه من لدن الخليل ، فيستفهمه عما استعصى عليه فهمه فى حديثهما . كان الخليل مبتهجاً بتلميذه ؛ وكان أكثر فرحاً من أستاذه ، يأخذ الجواب وكأنه ألقى إليه كنز ، وكان يذهب إلى يونس ـ ثانى الخليل فى البصرة ـ فيستعيذ هذا بالله منه حين يراه خوفاً من مسائله ، ويترقبها وجلاً ، فيلقيها سيبويه معتزاً ، فيتلعثم يونس بالجواب ، ولا يكاد ينتهى منه حتى يقول : ما قال صاحبك فيــه ؟ يعنى الخليل ، فيذكر له سيبويه جوابه ، فيستحسنه ويغتم لأنه لا يصل إلى درجته .

كان الأستاذ والتلميذ مبتهجين من صحبتهما ، معجبين كل منهما بصاحبه ، ينطلقان فى ميدان المعرفة ، وقد فتح لهما بابه . أما يونس فــكان مغتما ، وأما تلاميذ الخليل الآخرون فــكانوا غيورين منكدين . وصح لهم جميعاً سبيل إلى بعض التشفى ،

فانطلقوا الى إراقة دم غيظهم ، وذلك أن يونس جمع أعظم فكره وأكبر عقله ، فوضع مسألة بسيطة فى ظاهرها عويصة فى طياتها ، وألقاها إلى أصحابه فى حلقته ، وفند لهم أمرها ، وأشار إلى وجه الصعوبة فيها ، فنقلها منهم إنسان ، وذهب بها إلى حلقة الخليل ، وقال متواضعاً متظاهراً بحب اكتشاف المعرفة : ما قول سيدى الشيخ بكذا ؟ قال ذلك ، ثم جلس على ركبتيه علامة الاحترام ؛ فأطرق الخليل يفكر ، وتلاميذه متململون ، يريد أحدهم لو فسح له الأستاذ السبيل إلى الجواب . أما الخليل فما زال مطرقاً ، وصاحب يونس ينتظر سريع جوابه ووقوعه بالخطأ ، وكان يغير من جلسته المرة بعد المرة ، مشيراً إلى طول إطراق الخليل ، وحاثاً له على السرعة فى الجواب . ولما وجد أن الخليل استباح لنفسه من الوقت ما يكفى لحل المسألة ، خشى أن يكون حلها ، فأظهر كثرة انشغاله وفراغ وقته ؛ واستأذن وانسحب موهماً أنه أحرز النصر . وما انطلق بعيداً ، حتى انفجر تلاميذ الخليل يقولون : إن ما سألك ليس مما يحتاج إلى فكر ، ولو أشرت إلى أحدنا بالجواب لأسرع إليه . قال : فما الجواب عندكم ؟ قالوا : كذا ، قال ، لو قلتم ذلك لزاد عليكم بسؤاله كذا فماذا يكون جوابكم ؟

قالوا ، كذا ، قال : فإنه يضيف أمراً جديداً لم تنتبهوا إليه فيقوله فما يكون جوابكم ؟ قالوا : نقول كذا ، قال : فإن قال لكم كذا فبم تجيبون ؟ فنظروا فى ذلك ، فوجدوا أنهم ضلوا السبيل بأجوبتهم ، فسكتوا وانقطعوا ، فقال : لقد لمتمونى على تأخرى فى الجواب ، ولكنى ما أجبت بجواب قط إلا وأنا أعرف آخر ما على فيه من الاعتراضات والمؤاخذات ، وقبيح بالمجيب إذا ابتدأ بالجواب أن يفكر بعد ذلك ، وليس معيباً فى حقه أن يؤخر الجواب ، فليست كل أمور العلم تحل فى ساعتها ، وما العيب إلا أن يسرع العالم في العلم ، ثم يتبين له خطأه فيه . ألا إنه إن اخطأ ، ظهر خطأه ، وأضاع مكانته ، فزلته يضرب لها الناس بالطبل ، كما يضربون بالطبل لأكبر الحوادث .

ذلك كان شأنه فى النظر فى علم النحو وغيره ، وكذلك وصل فيه إلى أبعد غاية ، واستخرج منه قواعد أصبحت أسساً له منذ ذلك الحين . ولئن سبقه علماء عديدون فى ضبط النحو ، فهو الذى حرر ما جمعوا ، وألف بين أشتات ذلك ، وأعطى النحو صيغته النهائية . وكان أصحابه يرغبون إليه فى أن يخرج لهم كتاباً يجمع أصول النحو وقواعده فلا يفعل ؛ ولو فعل لما

ترك لغيره سبيلاً إلى الزيادة . وحق أن فى أمره عجباً ، فقد كان يحب فائدة المتأدبين ، ولم يكن يبخل عليهم بشيء فما سر بخله عليهم بكتاب يوفى لهم بالمطلوب ، وهم فى أشد الحاجة إليه ؟ لعل السبب أن عبقريته كانت تأبى عليه أن يضع كتاباً لابد أن يحوى أصولاً ليست من وضعه ، وتحليلاً هو لغيره ، وقياساً لا يد له فيه ؛ فلئن أخرج فى النحو الشيء الكثير ، فهو إنما كان يكمل بيتاً مرفوعا ، وليس فى طبعه أن يؤلف من عمل غيره كتاباً يضيف إليه شيئاً من عمله ؛ وما هذا تكبر وخيلاء ، فما كان فى نفس الخليل ذلك ولكنه طبع قاهر . ولو أذعن لطلبات الطالبين فوضع ذلك الكتاب ، لجمح به قلمه ، فلم يرتض بأن ينسب الكتاب إلى نفسه ترفعاً عن قول مالا إبداع فيه . كذلك كان الخليل وكذلك شأن العباقرة .

ولما كثرت مسائل سيبويه — وكانت تأتى مرتبة متقنة متصلة بما قبلها — شعر الخليل أن تلميذه قد اجتاز الشوط الأول من النحو ، فلم يعد متعلماً ، بل أصبح عالماً ينظر إلى الجوهر ويجتليه ، ثم بدا للخليل اليوم بعد اليوم أن سيبويه قد اجتاز مرحلة النظر فى العلم إلى الوضع فيه والتأليف بين أشتاته ،

فقال له : لعلك ياعمرو تقصد إلى وضع كتاب فى النحو ، فنعم الرأى رأيك ؛ إنك يا بنى خير من يتصدى لذلك . قال سيبويه إنك بهذا تستحثنى على عمل قد أقف لجلالته وعظمه . قال : كلا ، لن تقف وأنا بذلك ضمين ، فأرنى يابنى ما تفعل ، وخذ منى ما أحببت ، وإنك بذلك لتلقى عن كتفى عبئاً ثقيلا ؛ فقد كنت شفوقاً على المتعلمين الذين لا يجدون كتاباً يوفيهم حقهم من الطلب .

انكب سيبويه على كتابه ، فجمع أقوال أستاذه فى النحو ، وأضاف إليها أقوال غيره ، ونظمها بعقد معرفته ، وأخرج مصنفاً دعاه هو بقرآن النحو ، ولكن الناس أبوا إلا أن يطلقوا عليه لفظ « الكتاب » خالصاً من الإضافة ، وكأنهم عنوا بذلك أنه الكتاب الذى ليس بعده كتاب . بلغ سيبويه بكتابه إلى ما كان يقصد الخليل منه ، بلغ إلى الإتقان أو الكمال ، لو أن الكمال يصح لإنسان ؛ وما كان ليبلغ كل ذلك لولا عون الخليل وأقواله ، ولولا روح الإتقان التى تعلمها منه . وهكذا أخرج الخليل بجمع سيبويه وصنعه كتاباً للنحو ، كما أخرج بجمع الليث معجماً للغة العربية ، وكان نصيب الابداع فى المعجم

أوفرمنه فى كتاب النحو ، فلم ير الليث غضاضة فى نسبته إليه ، ولو أن بعض العلماء أبوا أن يصدقوا ذلك لأغلاط وردت فى المعجم رأوا الخليل أجل من أن يزل فيها . وكان فكر سيبويه أكثر ظهوراً فى كتاب النحو من فكر الليث فى المعجم ، ونسبة كتاب النحو إلى الخليل أقل من أن توازى إبداع الخليل ، فلم ينسبه إليه ، ولكنه ذكر فضله فيه .

الفصل الحادى والعشرون

دخل الخليل الأسواق على مجرى عادته ، والعام هو الخامس والسبعون بعد المائة من الهجرة ، فوجد جارية تتخاصم مع بقال وهى تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها بحساب بينهما ، لم تستطع التحقق منه إلا حين عادت إلى البيت ، وأخبرها سيدها بخطئه وتمالجا كثيراً ، والبقال يدعى أنه أعطاها كل الحساب ، وأنها تجنى عليه بتهمتها الكاذبة . فأقبل الناس عليهما ليوفقوا بينهما . أما الخليل ، فانطلق به الفكر ، وشرد به الخيال ، وراح يبحث عن نوع من الحساب سهل قريب سريع كان بإمكان هذه الجارية أن تعمد إليه ، فلا تقع فى الإشكال الذى وقعت فيه .
وقرب وقت الصلاة ، فاتجه الخليل إلى الجامع ، وهو لا يزال يفكر ، فدخله ورفع نعليه ، وتقدم فى الحرم إلى البقعة التى اعتاد أن يصلى عندها . وكان يستعرض بباله جدول الضرب ، وعليه

يرتكز حساب البيع والشراء ، وما كان بالرجل الذى يصعب عليه إيجاد حل لما فكر فيه . ولكنه ما سار بعيداً ، وما أكمل فكره ، حتى اتجهت قدماه ، وهو غير شاعر ، الى سارية (عمود) كبيرة من سوارى المسجد ، قدت من الصوان القوى ، وما زال سائراً وهو غافل عنها ، وقد أخذ منه الفكر ، حتى اصطدمت رجلاه ببيوت من الخشب أحاطت بالسارية ، يستعملها الناس لوضع نعالهم ، فاختل توازنه ، واندفع أعلاه إلى الأمام متجها إلى السارية ، فاصطدم بها وأول ما اصطدم منه رأسه ، ذلك الرأس الذى كان يشع بالذكاء والإبداع . فوقع عليها وأحدث صوتاً شديداً ، فانقلب على ظهره ، وتدحرج على الأرض مضرجاً بالدماء ، فتراكض الناس اليه ، فألفوه مبتسما ، وقد عرف أن فى هذا خاتمته ، فنقلوه إلى بيته ، فبكى أهله وأصدقاؤه عليه ، فقال لهم : « لا تبكوا ! فوالله ما فعلت فعلاً أخاف على نفسى منه وما كان لى فضل فكر صرفته إلى جهة وددت بعد ذلك أنى كنت صرفته إلى غيرها ، وما علمت أنى كذبت متعمداً قط ،

وأرجو أن يغفر الله لى التأول » . قال ذلك واستكان قليلا ثم إذا هو يصرخ من شدة الألم الذى أصابه . كان منبع هذا الألم رأسه ، ذلك الرأس الذى حوى عقلاً لامثيل له ، ذلك الرأس الذى ضم نبوغاً عربياً فائقاً ، ذلك الرأس الذى اكتشف علوماً ومعارف أبت أن تظهر لغيره ، أو يظهر بعضها لسواه . تلقى الخليل الضربة القاضية فى أعز قطعة من جسمه ، وكان قد بسط عقله وأعمل ذكاءه . كان قد استخرج مواهبه من مكامنها وأطلق سراحها لتبحث له عما يريح الانسان المسكين الغافل ، وإذا بها تصطدم بالصخر ، فتتنادى إلى مكمنها ، وترتد إلى عقالها فتجده مكسراً دامياً ، فتتخبط فيه تخبط الأعشى فى الليل وتسيل عنده دماء حارة ، وهى تصرخ مفجوعة : إنها لاتريد أن تفارق هذا الرأس العزيز ، وقد أحبته خير الحب . إنها لا ترضى بتركه ، وقد استخدمها لأحسن غاية . إنها تأبى أن تدعه ، وقد جال بها فى خفايا الأشياء . إنها لا تقوى أن تبتعد عنه وقد كان خير ملجأ لها . يا للصخر ! إنه لا يفهم ، ولو فهم لما قبل

فى حال أن يضرب هذه الرأس النابغة . يا للصخر ! إنه لا يعقل ولو عقل لأبى أن يلمس إلا فى رفق ودعة تلك الرأس التى ما كانت تفكر إلا بخير الناس . الا فما أحق أن يكتب على هذه السارية :

هنا أصيب العقل وتضرج الفكر ورقد الابداع .

اقرأ

أول سلسلة من الكتب الشهرية
تبث رسالة الفكر بين الجمهور
وتشجعه على المطالعة المهذبة المفيدة

احرصوا على الاحتفاظ بهذه المجموعة كاملة فهى ذخر ثقافى قليل النفقة كبير الفائدة وقد تكون فى كل منزل نواة لإنشاء مكتبة يستفيد منها الشيوخ والشباب .

آراء بعض كبار الأدباء :

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة » . . .
- « زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة » . . .
- « هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » . . .

مؤلفات السنة الأولى (١٩٤٣)

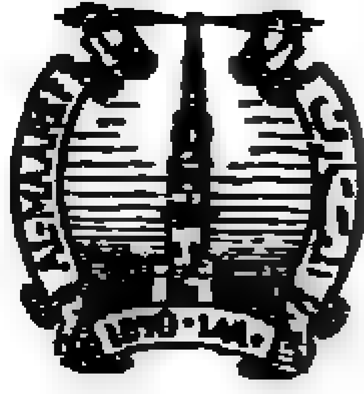
١	أحلام شهرزاد	(قصة)	طه حسين
٢	شاعر الغزل	(أدب)	عباس محمود العقاد
٣	مذبح المريخ	(سياسة)	فؤاد صروف
٤	عود على بدء	(قصة)	إبراهيم عبد القادر المازني
٥	دستويفسكي	(ترجمة)	حسن محمود
٦	شاعر ملك	(قصة)	على الجارم
٧	الشاعر الرجيم	(ترجمة)	عبد الرحمن صدقي
٨	مذكرات دجاجة	(اجتماع)	إسحق موسى الحسيني
٩	المذاهب السياسية المعاصرة	(سياسة)	على أدهم
١٠	شفاء النفس	(اجتماع)	يوسف مراد
١١	الكون العجيب	(علوم)	قدري حافظ طوقان
١٢	سنوحي	(قصة)	محمد عوض محمد

مؤلفات السنة الثانية (١٩٤٤)

١٣	جميل بثينة	(أدب)	عباس محمود العقاد
١٤	من يوميات فتاة عصرية	(قصة)	حسين شوقي
١٥	بايرون	(ترجمة)	أمينة السعيد
١٦	دمشق	(تاريخ)	محمد كرد علي
١٧	شكسبير	(أدب)	محمد فريد أبو حديد زكي نجيب محمود ، احمد خاكى
١٨	قنديل أم هاشم	(قصة)	يحيي حقي
١٩	سيدة القصور	(«)	علي الجارم بك
٢٠	الملك فاروق	(اجتماع)	كريم ثابت
٢١	أبو نواس	(ترجمة)	عبد الحليم عباس
٢٢	جحا في جانبولاد	(قصة)	محمد فريد أبو حديد
٢٣	صوت أبي العلاء	(أدب)	طه حسين بك
٢٤	لافوازييه	(ترجمة)	عبد الحميد يونس عبد العزيز أمين
٢٥	قصة البنسلين	(علوم)	مصطفى عبد العزيز

مؤلفات السنة الثالثة (١٩٤٥)

٢٦	العشاق الثلاثة	(أدب)	زكى مبارك
٢٧	بغـداد	(تاريخ)	طه الراوى
٢٨	بوشكين	(ترجمة)	نجاتى صدقى
٢٩	النـار والنور	(علوم)	أمين ابراهيم كحيل
٣٠	قطر الندى	(قصة)	محمد سعيد العريان
٣١	الغزالى	(ترجمة)	طه عبد الباقى سرور
٣٢	الشيخ قرير العين	(قصة)	كرم ملحم كرم
٣٣	فى بيتى	(أدب)	عباس محمود العقاد
٣٤	فارس بنى حمدان	(قصة)	على الجـارم بك
٣٥	جوته	(ترجمة)	صديق شيبوب
٣٦	مع الحيات	(علوم)	حسين فرج زين الدين
٣٧	العناصر النفسية فى سياسة العرب	(اجتماع)	شفيق جبرى



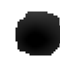
مطبوعات حديثة

٢٠ ص	محمد عبده	بقلم الشيخ الأكبر مصطفى عبد الرازق
٥٠	على هامش الطب	بقلم معالى الدكتور سليمان عزمى باشا
٢٥	الغربال	بقلم الأستاذ ميخائيل نعيمة
٣٠	تغريدات الصباح	نظم الأستاذ محمد الأسمر
٢٠	سيوة	بقلم البكباشى رفعت الجوهرى
٥٠	القاهرة جزء ثالث	بقلم المهندس فؤاد فرج
٢٠	عودة الروح - أول	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم
٤٠	مبادىء علم الأجنة	بقلم الدكتور يوسف الأعسر

مكتبة الأطفال

بقلم الأستاذ كامل كيلانى

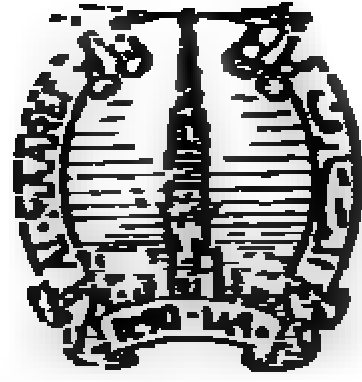
مجموعة نفيسة نادرة تحتوى على أكثر من أربعين كتاباً مصوراً ، مطبوعة طبعاً أنيقاً ، شهد لها رجال التربية والتعليم بأنها « تحبب القراءة إلى كل ناشئ » .



ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف

بمصر



اقرأ

محمد فريد أبو حديد

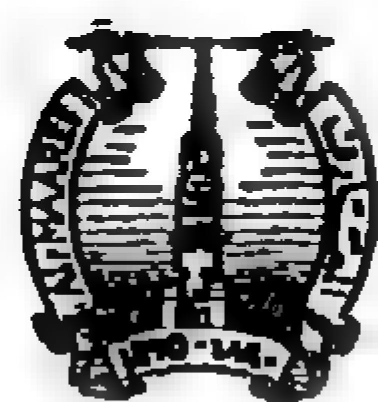
عنترة بن شداد

عنترة بن شداد

محمد فريد أبو حديد

عنترة بن شداد

اقرأ ٤٣
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



١

كان قوامها مثل الغصن الرطيب إذا اهتز فى مطالع الربيع ، وكان لونها مثل لون الخمر إذا أضاءت فى كأس من البلور ، وعيناها السوداوان تضيئان فى حلاوة وأنفها الجميل ينحدر إلى فم وديع . وكان فى أذنيها قرطان من الذهب تتدلى منهما حبات من لؤلؤ البحرين أهداهما إليها أبوها مالك من غنيمة غنمها من قافلة كانت تهبط إلى أرض الحجاز . تلك هى عبلة ابنة الفارس العبسى مالك بن قراد وكانت عائدة من عرس ابن خالتها فى هوازن ، تلبس ثوباً معصفراً من الكتان يلمع فى ضوء الشمس فاقعاً ، وتضع حول رأسها خماراً من الحرير المصرى من صناعة (دبيق) يتغير لونه فى شعاع الضوء ويأتلق فوق وجهها الوضىء .

وكان يأخذ بزمام بعيرها وهى فى هودجها شاب أسمر اللون يشبه قوامه الرمح الذى فى يمينه ، قامة عالية ورأس مرفوع وصدر فسيح ، وقد شمر عن ذراعين مفتولتين قويتين . وكانت عيناه

تبصان فى لمح خاطف ، وأنفه الأقنى ينحدر إلى فم قوى فيه شىء من الغلظ . وكان يحدو بأراجيز يتغنى بها يمزج فيها بين أنغام الحرب وأنغام النسيب . وكانت عبلة تسمع حداءه وهى مطمئنة إلى أنها فى حماية الفارس الذى لا يجرؤ الأعداء على الاقتراب من ركبه عنترة عبد شداد .

وسارت الإبل فى قطار طويل يتبع أحدها الآخر تخطو خطواً وئيداً لا تعبأ بشىء مما حولها ولا يستحثها شىء من أمامها ولا من خلفها . وجاء فى آخر الركب جمع من الأتباع والعبيد يسيرون مشاة يسوقون الرواحل التى تحمل الزاد والماء و يدفعون فى أعجازها بعصيهم الغليظة حتى لا تنقطع عن القافلة .

و بلغ الركب موزد الماء وكانت تلك آخر مرحلة فى السير قبل العودة إلى منازل عبس فى أرض الشَّرَبَّة والعلم السعدى. فأوقف عنترة بعيره الأول ووقف القطار كله لوقوفه، وأسرع العبيد والأتباع إلى ما اعتادوه عند النزول فأناخوا الإبل وجعلوها صفوفاً فى ناحية من الوادى ، وأناخ عنترة بعير عبلة وأزاح الستار عن هودجها ونظر إليها باسماً ومد إليها يديه ليساعدها على النزول فردت عليه بابتسامة شكر وقالت وهى تقفز خفيفة :

— لقد أجهدك السير يا عنترة وأنت تأبى الركوب .

فأسرع عنترة قائلا وهو يسندها :

— وكيف يصيبنى الجهد وأنا أحدو بعيرك يا سيدتى ؟

وسارت عبلة إلى ظل شجرة قريبة وقالت وهى تميل إلى الرمل لتمهد لها مجلساً :

— لم أسمع شيئاً يشبه حداءك يا عنترة . لقد أحسست البعير ينشط لانشادك .

فأجاب عنترة مسرعاً :

— وكيف لا يطرب به إنشادى وهو فى وصفك ؟

فضحكت عبلة ضحكة تشبه غناء الطير ومالت لتجلس ، فأسرع عنترة فرمى شملته على الرمل ومدها لتجلس عليها ثم نظر إليها نظرة سريعة شملت كل صورتها وأسرع وهو خفيف الحركة يثب فى خطواته لكى يرى سائر من فى القافلة من بنات عبس ونسائها و يساعد من تحتاج منهن إلى مساعدة .

ولما فرغ من ذلك نادى العبيد وأمر بعضهم أن يذهبوا إلى الماء ليملأوا الحوض لسقاية الإبل ، وأمر آخرين منهم أن يضربوا أخبية النساء عند فم شعب قريب من الماء ، وأمر غير هؤلاء أن

يوقدوا النيران لإعداد الطعام، ثم ذهب إلى ناقة بيضاء فحلب منها في إناء حتى ملأه ووضعه في الظل فوق صخرة عالية ليبرد في الهواء . ومضى بعد ذلك إلى البئر فسقى جواده ثم ركبه ودار حول الماء ليرى هل هناك قوم ينزلون عنده ، حتى إذا اطمأن إلى انه في مأمن وأن ليس هناك ما يخشاه أوغل بين الكثبان وجعل يجوس خلالها ويتأمل ما على رمالها من آثار الأقدام ، وأخفاف الإبل ومخالب الحيوان . ثم عاد يسير سيراً وئيداً وهو يغني ويتنقل طرفه في جوانب الأفق حتى اقترب من الماء ، فوثب عن فرسه وألقى زمامه على ظهره ومسح بكفه على ظهره ، وبعثه بيده إلى ناحية من الوادي . وأدرك الجواد مايقصده صاحبه فحمحم وهز رأسه ووثب كالغزال وانطلق الى جانب الوادي فجعل يقطف من أطراف الأعشاب البضة التي خرجت مع أول الربيع .

واتجه عنترة بعد ذلك إلى الماء وهو لايزال يغني، فوجد العبيد قد فرغوا من سقايتهم ، وسمع صوت ضحكات الفتيات ترن في أقصى الشعب ، فأطل من وراء صخرة فرآهن يتواثبن ويعبث بعضهن بالماء ويتقاذفن به .

ورأى عبلة وهي تلهو بينهن وتجاوبهن، فوقف في ظل الصخرة

يتأمل وجهها ويستمع إلى صوتها وهى تكركر فى ضحكها ، وعاودته ذكريات أحلامه التى كان يكتمها فى طيات صدره ولا يجرؤ على أن يصارح بها نفسه ، وأحس قبضة حزن أليم إذ تذكر أنه لا يزيد على أن يكون عبد عمها شداد وأنه لن يستطيع أن يفوز منها بأكثر من أن يدعوها قائلا « سيدتى » ، وأن يملأ لها إناء اللبن لكى تشرب منه وأن يخدمها فى رحلاتها ويمد إليها يديه ليسندها اذا نزلت من هودجها . بل إنه لم يكن ليجرؤ على أن يتنفس باسمها أمام أحد من عبس خوف أن يتحدث الناس بأنه يتطلع إليها فيحرمه أبوها مالك من رؤيتها ، فما كان مالك ليرضى أن يتطلع عبد مثله الى ابنته الجميلة التى يتنافس على التقرب اليها سادة الشبان من كرام الأنساب .

وفيما هو فى خيالاته رأى عبلة قد أقبلت حتى وقفت عند الحوض فمالت عليه لترى صورتها ، وجعلت تصلح من شعرها ومن وضع وشاحها الذى اضطرب فى أثناء جريها ولعبها ، فلم يملك نفسه واندفع من مكانه مسرعاً نحوها وقال لها بصوت رفيق .

— عرارة يانعة من عرار الربيع وحق مناة !

فجفلت عبلة وصرخت عند ما سمعت صوته، ثم اطمأنت عند ما رأته وقالت ضاحكة :

— لك الويل ياعنترة !

فمضى عنترة قائلا :

— واقحوانه باسمة سقاها الندى !

وأقبل الفتيات من آخر الشعب عند ما سمعن صوت عبلة فى صراخها ، فلما رأين عنترة وهو يحدثها انفجرت منهن ضحكة مرحة وأسرعن اليه يصحن به حتى أحطن به وجعلن يعبثن به من كل جانب، و يتواثبن حوله ويجذبن أطراف ثو به و كل منهن تتجه اليه بكلمة من فكاهة أو سباب مزاح ، إذ تعودن منه وداعة العبد الذى لا يغضب .

وقالت احداهن وهى مروة ابنة شداد وكانت أجرأهن عليه :

— إنه جاء يتجسس علينا أيتها الفتيات !

فمد يديه نحوها وقال :

— وهل كنت لأحرم نفسى من النظر الى ظباء غريرة تمرح فى خلاء ؟

فصاحت مروة ضاحكة :

— والظباء لا تدرى أن الأسد يتربص قريباً منها .

فضحكن وأقبلن عليه وكل منهن تقذفه بكلمة ، وهو ينقل نظره بينهن ضاحكا حينا أو متظاهراً بالغيظ حيناً ، وهن يزدن منه ضحكا و يمضين فى العبث به .

واقتربت منه فتاة فصاحت .

— وحق مناة لا ندعك حتى تنشد لنا من شعرك !

فصاح الفتيات جميعاً :

— نعم انشدنا يا عنترة .

وقالت مروة ابنة شداد :

— والا قطعناك حتي لا ندع منك الا أسنانك البيضاء .

فالتفت عنترة حوله حتى وقعت عينه على عبلة فقال :

— لن أقول شيئاً حتى تأذن لى سيدتى .

فصاحت الفتيات بعبلة : مرى عبدك أن ينشدنا . مرى عبدك يا عبلة أن ينشدنا والا أحطنا بك أنت .

فقالت عبلة ضاحكة :

— حسبكن أيتها الفتيات خبثاً !

فصاحت بها مروة :

— مريه يا عبلة . مرى هذا العبد الذى لا يأتمر إلا بأمرك .

فقالت عبلة وهى تظهر بالغيظ :

— ما أخبثك يا عنترة إذ تحرض علىّ هؤلاء !

فقال عنترة : وماذا يغضبك ياسيدتى ؟ إننى لن أطيق أن أكون عبد واحدة منهن . لست أرضى الا أن تكونى أنت سيدتى .

فزاد ضحك الفتيات وأقبلت عليهن عبلة تدفعهن فى صدورهن فى رفق وصاحت متظاهرة بالغضب :

— قل شعرك يا عنترة حتى تكمد صدورهن . فوحق مناة أن الغيرة لتأكل قلوبهن كلما سمعن إنك تنشد شعرك لى .

فوثب عنترة فى مرح وجعل ينشد متغنيا بقطع من شعره ، والفتيات يضربن بأكفهن على وقع إنشاده وعبلة تنظر إلى وجهه الأسمر الحسن القسمات، وتتأمل حركته الرشيقة وهو يمثل مواقفه فى القتال حيناوطعناته للعدو حينا،أو يصف عدو الخيل واضطراب الحرب،حتى انتهى إلى النسيب فجعل يصف محاسن فتاته ونبل شيمها وعلو حسبها، وتغير مظهره عند ذلك فاعترته هزة وارتجفت نبرات صوته واتجه إلى عبلة كأنه يخاطبها . وهدأت حركته بعد

عنفها ولانت نظراته بعد أن كانت تخطف كالبرق، وفتح الفتيات أعينهن مأخوذات بما كان ينبعث فى ثنايا شعره من حرارة، حتى انتهى من الإنشاد وهو يلهث و ينظر إلى عبلة فى وجد غامر . وهدأت الأصوات لحظة وعبلة تنظر إليه فى دهشة، ثم انفجرت صيحة من الفتيات واندفعن نحو عنترة يستعدن إنشاده. فانفلت مسرعا من بينهن وذهب إلى فم الشعب حيث ترك فرسه، ودار حول الماء حينا ينظر إلى العبيد وهم فى شغل من إعداد الخيام وانضاج الطعام ، ثم مضى إلى الكثبان يجوس خلالها وهو غائب فى مناجاة شجونه الثائرة .

وذهب الفتيات إلى حيث ضربت الخيام . وأقبلن على من هناك من النساء فحدثنهن بما كان ، وكل منهن ترسل فى حديثها كلمة تصور بها ما أحست من الغيرة من اتجاه شاعر عبس عبد شداد إلى عبلة ابنة مالك وهو ينشد أشعاره كأنه لا يقصد غيرها بالنسيب . وكانت أشدهن خبثاً وعنفا مروة ابنة شداد، فأرادت أن تغيظ عبلة ابنة عمها مالك فجمعت الفتيات وأخذت تنشد وهن يرددن النشيد مصفقات فقالت :

أما رأيتم عنترة   يسير سير القسورة

في حلة مُعصفرة ولمة مضفَّرة
وعمة مكورة
أما سمعتم قوله أما عرفتم فعله
ويل له يا ويله ينشد منذ الليلة
عنتر عبد عبلة

وتعالى ضحكهن بعد ذلك وجعلن يرددن النشيد ويعبثن بعبلة حتى غضبت وذهبت إلى خبائها ، فسرن وراءها وجعلن يجذبنها وهي تدافعهن . وفيما هن في ذلك أقبل عنترة عائدا يحمل قعب اللبن، فلما رأينه أقبلن عليه وأحطن به وجعلن يرددن نشيد مروة . ولكنه مضى هادئا بالقعب حتى قرب من عبلة فقال :

— لا عليك يا سيدتي من هؤلاء .

فقالت عبلة غاضبة :

— حسبك يا عنترة فقد جرأتهن علي .

فمد يده بالقعب نحوها باسما وقال :

— لا عليك يا سيدتي . انهن كما تعرفين حمقاوات عبس .

فعلا ضحك الفتيات وصاحت به مروة :

— امسك أيها العبد و إلا . . .

ووثب الفتيات إلى الإناء فأخذنه وجعلن يشربن منه وعنترة واقف ينظر إلى عبلة إذ تسير مغضبة إلى خبائها .

وسار وقلبه واجف فانتحى مكانا على كثيب فى طرف الخيام وجعل ينظر إلى الفضاء الذى حوله وهو ثائر الأشجان . وكانت ضحكات الفتيات ترن فى أذنيه من بعيد كأنها أصوات عاصفة ثائرة . فما كان عنترة عندهن إلا عبداً ، وما كانت عبلة لترضى أن يعرف صاحباتها أن عنترة يتجه بانشاده إليها .

٢

قضى عنترة ساعات يناجى نفسه فى الليل الساجى وكان مستغرقا فى هواجسه عند ما سمع صوتا من ورائه يناديه :

— أما إنك لحارس غافل .

فالتفت إلى ورائه مجفلا فلما رأى ذلك الذى يناديه تبسم وقال :

— لم يكن غيرك ليفعل ذلك أيها الخبيث .

وكان هذا أخاه من أمه شيبوب الذى لم يكن يفارقه فى رحلاته ويرعاه بعينه أينما كان .

فقال شيبوب : بئس حارس القوم أنت ! تبعد عن منازل

الحرم وتخلو على مثل هذا الكثيب البعيد ؟ فهل تأمن أن يكون الذى أتى من ظهرك عدواً ؟

فقال عنترة : صدقت يا شيبوب . ولكن عدوى لايجرؤ على أن يقرب منى .

فقال شيبوب : وإنك لتناجى النجوم كأنها تحدثك . لقد يخيل إلى أحيانا أنك تخلو إلى شيطانك .

فقال عنترة : نعم هى النجوم التى أناجيها كما تقول . إنى أنظر إليها فيخيل إلى أنها تحدثنى ، فأحيانا تضحك وأحيانا تبكى وأحيانا تسخر .

فقال شيبوب : وأحيانا تصيح غاضبة بغير شك .

فقال عنترة . نعم تصيح ولكنك لا تستطيع أن تسمعها .

فقال شيبوب : وماذا كانت تقول لك الساعة ؟

فقال عنترة فى حزن : كانت تصيح بى « أيها العبد لم جئت إلى هذه الأرض » ؟

فقهقه شيبوب وقال : انها إذا لحمقاء . لقد أتيت إلى الأرض كما يأتى هذا الناس جميعا . تقذف بهم أمهاتهم إليها .

فقال عنترة : صدقت ياشيبوب إنها أمى التى قذفت بى . إنها

هى التى جاءت بى إلى هذه الأرض لأرعى إبل شداد أو لأقضى نهارى فى نضال أو قتال وكلما مر بى رجل نظر إلى بمؤخر عينيه قائلا « هذا عبد شداد » . فإذا جاء الليل أويت إلى مضجعى فلا أكاد أستقر عليه حتى تساورنى الهموم وتلهب قلبى الأحقاد فأثب خارجا من ظل بيتى لكى استروح من أنفاس الليل الباردة لعلها تذهب عنى حر قلبى .

فقال شيبوب فى خفة : أهذا ما جاء بك إلى هنا .

فقال عنترة فى حزن : نعم هذا ما جاء بى إلى هنا ؟

فقال شيبوب : حسبت أنك تنتظر موعداً من أحداهن . إن النساء يعجبن بك يا عنترة ، ولو كنت أفوز منهن بعشر أعجابهن بك لما قضيت ليلة إلا على موعد .

فضحك عنترة فى فتور وقال : هو طبعك الذى أعرفه . ولست أحب أن أسبك بمثل ما يسبنى الناس به فأقول لك « أيها العبد » ، ولكنى كلما رأيت خصالك لم أملك إلا أن أراك عبداً . إنها شيمة العبيد التى فطرت عليها فلا تعرف من المرأة إلا جسدها .

فضحك شيبوب ضحكة طويلة وقال :

— وماذا تجد أنت فيها غير جسدها ؟ بل ماذا تجد من الرجال ألا أجسادهم ؟ إنني لا أرى منك إلا هذا الجلد الأسود الذى يشبه جلدى ، وخير لك أن تستمع إلى نصحى وتغتنم فرص أيامك فمن يدرى؟ من يدرى ماذا يحمل لك الغد يا عنتره؟ أف لك أيها الرجل ! أتراهن يتواثبن حولك ويجذبنك من أطراف ثوبك ثم لا تجيب هذه بقبلة وهذه بموعد ؟

فقال عنتره فى عبسة :

— لقد علمت يا شيبوب أننى لا أحب أن أعبث بالخزى . ولست أرضى أن أختلس اللذة اختلاساً . والخير عندى أن أقتحم بيت الرجل فأنتزع امرأته من بين يديه قسراً أو اختطف ابنته عنوة وأدعوه إلى نزالى حتى أقتله وأمضى بالمرأة سبية ، هذا خير عندى من أن اختلس قبلة من امرأة أو أخرج فى الليل أتلصص كما يدب الذئب إلى الشاة . لست فى شىء من ذلك يا شيبوب وما هو إلا طبع العبد يوحى إليك بما أنت أهله .

فقهقه شيبوب قائلا :

— طبع العبد الذى فىّ أنا ؟ أتسبنى بذلك يا عنترة ؟ كأنى بك أحد هؤلاء الذين يجرون أذيالهم كبرا عند نادى عبس .

فقال عنتره بعد لحظة صمت : صدقت يا شيبوب ولا تؤاخذنى، فقد دفعنى الغيظ إلى العنف فى قولى .

ومد يده إلى رأس شيبوب وجعل يمسحه مداعباً ، ثم استمر قائلا : لا تؤاخذنى بما قلت فإنى أحبك يا ابن أمى ، وأرى أنك الرجل الذى تحبنى أشد الحب وأخلصه . وإنك عندى لأكرم من هؤلاء السادة الذين يشمخون بأنوفهم كبراً . إنك لتطلق ساقيك فتجرى أسرع من الظليم ، وما أحلى منخريك إذا هما انفتحا كما ينفتح منخرا الفرس الأصيل وهو يعدو . وانك شجاع القلب طيب النفس لولا هذا الرعب الذى يعتريك من منظر الدماء . ولكنك مع ذلك كله تخالفنى فى رأيك . ولا بأس عليك إذا كنت تخالفنى ، ولكن تعلم أنك تخالفنى .

فتخلص منه شيبوب برفق ونظر نحوه باسما حتى لمعت أسنانه البيضاء فى ضوء القمر وقال له :

— وإنى والله لأحبك وأرثى لك من هذه الوساوس التى تؤرقك . دعنى أيها المسكين أمضى لحاجتى فإننى تركت ورائى ثريداً وخمراً وقمت أبحث عنك خوفاً من أن يكون قد أصابك

شر . وأحمد مناة إذ لم يصبك شيء إلا مناجاة النجوم .

فتبسم عنترة وقال : عد إلى خمرك وثريدك فانعم بهما .

فقال شيبوب : ألا تحب أن تذوق معى شيئاً ؟ لقد علمت أنك لم تطعم شيئاً منذ الليلة . كل واشرب فوحق مناة ما يخرج المرء من هذه الحياة إلا بهذين : الطعام والشراب .

فقال عنترة باسما : والمرأة أنسيتها ؟

فقال شيبوب ضاحكا : أما المرأة فلا يخرج المرء بها . ومن ذا الذى ينوح عليه إذا قتل ؟ ولقد ذكرتنى بالمرأة ياعنترة . فانك لتهجس بها وتخفى فى قلبك ما يأبى إلا أن يذيع .

فالتفت عنترة إليه فى اهتمام وقال :

ـ وماذا تعني ؟

فقال شيبوب : لست أعنى إلا ما قلت .

فقال عنترة : دع الخبث وقل لى ما فى نفسك .

فقال شيبوب : دعنى أذهب إلى ثريدى وخمرى .

فنظر إليه عنترة فى هدوء وقال : اجلس ياشيبوب وحدثنى

فانى أحب أن أحس وجودك معى . إننى أحس فى جوارك شيئاً يشبه ما يحسه الطفل إلى جوار أمه .

فضحك شيبوب وقال : ليت زبيبة أمك تسمع قولك هذا . إنها تقتل نفسها هما من أجلك وتقطع قلبها من جفائك .

فتمتم عنترة كأنه يحدث نفسه :

— ليتها لم تكن أمى . ألا بلغها إذا رأيتها أننى أمقتها . قل لها إنها أشأم أم وهبت الحياة لوليدها . ثم اسألها عن أبيك وعن أبى إذا عرفتهما . أتعرف زبيبة ذلك القرد الذى انحدرت أنت من صلبه ؟ سلها إذا استطاعت أن تجيبك . لقد طالما سألتها عن أبى وتأبى إلا أن تقول لى إنه شداد ، ولكنى أراه ينكرنى ولا يرضى أن يهب لى اسمه .

فضحك شيبوب وقال: أما أنا فقد كان أبى من صميم جلدتى ، وإذا كان قرداً فانى به راض ياعنترة . ولقد كنت يوماً من الأيام أعيش حراً فى بلادى قبل أن أحمل إلى هذه الصحراء المقفرة ، ولا أزال أتذكر أبى وهو عائد بجلد النمر من صيده . كنت أنعم كما ينعم القردة بحريتهم لأننى لم أولد عبداً . ولست أحب أن يكون لى أب سوى القرد الذى جاء بى . وأما أنت فاطلب من

شئت من الآباء ودعنى وشأنى.

وهم أن يمضى فى سبيله ولـكن عنترة جذبه إليه فأجلسه فصاح شيبوب قائلا :

ـ أما إنك لفظ عنيف إذ تجذبنى هكذا فتكاد تدق عظامى . ثم لا تزال تحمل عَلىَّ وتعنفنى .

فقال عنترة باسما :

ـ صدقت ياشيبوب فى قولك فانى الليلة سيىء النفس وقلبى ممتلىء حقداً . ولـكنى لا أجد فى هذا الناس كله من ينفس عنى سواك. إنك الرجل الذى أثق فى عطفه اذا تحدثت اليه، وآمن جانبه اذا انصرف عنى ، وأطمع فى عفوه إذا أخطأت . أنت شريكى فى غزواتى وربيئتى فى منزلى ، وبك أشد ظهرى وبعينك الحادة أبصر ما خنى على . فحدثنى واصدقنى فنحن فى هذا الحى وحيدان لا يعرف أحدنا إلا أخاه . ولست تجد يا شيبوب فى هذه الأرض من هو أحنى عليك منى ولا من يعرف قدرك مثلما أعرف لك قدرك .

فوقعت هذه الـكلمات موقعها من شيبوب فعدل عن عبثه وصمت حيناً ثم قال :

— لست أود أن أبعث إلى نفسك ما لا تحب يا عنترة . فوحق الآلهة جميعاً إن ما يرضيك أحب الى مما يرضينى . وقد كنت لا أعرف لى صاحباً حتى ولدت يا عنترة فوجدت فيك رفيق لعبى ، ثم كبرت فوجدت فيك أملا جديداً ، ولما بلغت مبلغ الرجال وصرت فارس عبس أصبحت عدتى وملاذى . فأنا بك مباه معجب أحس أن ما تبنى من المجد هو مجدى وأن ما تنال من السعد هو سعدى . ولست أبالى أنك ابن أمى فإننى معك كما يسير اثنان فى مفازة لا نجاة لهما إلا بأن يبقيا معاً . ولهذا كنت فى نصحى لك ألتمس أخف الأقوال عليك فلا أظهر لك رأيا إلا فى قول عابث لعله يقع من نفسك وقعاً ليناً . ولكنى أظن أن أمرك قد صار الى عقدة لا ينبغى لك ولا لى أن نغفل عن حلها .

وعند ذلك سمع صوت غناء ينبعث من ناحية الخيام يحمله النسيم متدفقاً متموجا كأنه صوت عرائس الماء وهى تسبح فوق بحر مضطرب :

فقال عنترة يقطع حديث أخيه :

— أما تسمع هذا الصوت يا شيبوب ؟

فقال شيبوب : ليس لهؤلاء إلا الغناء أو البكاء .

فقال عنترة فى حزن : إنه صوتها . هو صوت عبلة . وأحس أنه يقع فى أبعد شعاب قلبى . إن لكل نغمة منه وقعاً يسرى أثره فى عروق ، لا بل إنى أجد فيه حساً لا أستطيع أن أصفه بهذا اللفظ الذى اعتدنا أن نصف به الحسيس من حسنا .

فضحك شيبوب قائلا : إنك تأبى إلا أن تقول الشعر فى كل ما تنطق به عنها . إننى أرحمك ولا أملك أحياناً إلا أن أعجب منك .

قال عنترة : وأنى لك أن تدرك ما أحسه وأنت لم تقاس مثل حبى ؟

فقال شيبوب : ومالى والحب يا عنترة ؟ إن النساء بعضهن من بعض . فما الذى يحملنى على أن أرى فى واحدة ما لا أراه فى سواها ؟ كلهن يرقص ويغنى ويضحك ويثرثر ويأكل ويشرب . ولا فرق بين واحدة وأخرى إلا أن يكون أنفها أطول أو أقصر أو أن يكون فمها أوسع أو أضيق أو أن تكون إحداهن وطفاء الأهداب والأخرى عمشاء .

وسكت الغناء عند ذلك ، فقال عنترة ضاحكا :

— امض ياشيبوب إذا شئت فى حديثك . إنه يقع على سمعى وقوع الندى على العشب الأخضر و إن كنت فيه خبيثاً . تكلم وحدثنى عن نفسك وعن نفسى . ماذا كنت تقول لى آنفاً ؟ أكنت تقول : إن أمرى قد آل الى عقدة لا بد أن نحتال فى حلها ؟ فما تلك العقدة التى تتحدث عنها ؟

فقال شيبوب جاداً :

— أنت تعذب نفسك بهذا الوهم الذى يملكها . إنك ترى عبلة بعين غطى الحب عليها وأخشى عليك عاقبه هذا الوهم .

فقال عنترة ساخراً : وما تخشى على ؟

فقال شيبوب : أخشى عليك غضب أهلها . أخشى عليك أباها مالكا وأخاها عمراً فهما لا يضمران لك حباً . عرفت ذلك ولمسته وسمعته، ولست أكذبك اننى أحياناً أتدسس بين البيوت لكى أتسمع الأحاديث عنك .

لقد تحدث الناس عن حبك لعبلة وأنت تحسب أنك تخفيه . وما اجتمع قوم فى ناد إلا ذكروك وذكروها فى همس ، وقالوا إنك لا تقول الشعر إلا فيها . ولم أكن هازلا منذ الليلة وأنا أقول لك إن سرك يأبى إلا أن يذيع . إنهم يتحدثون

عن أشمارك حتى بلغت مالكا وعمراً . ولست أنكر عليك أنك مغرور فى تلك البسمات التى تراها من عبلة إذا حدثتها . فهى لا ترى فيك الا عبداً مطرباً .

فتحرك عنترة فى غيظ وقال فى صوت أجش :

بل تكذب يا شيبوب ويكذب من قالها .

فقال شيبوب متردداً :

وانهم ليقولون ما هو أقذع من ذلك فى أمك .

فقال عنترة فى صيحة مكتومة :

لا يخفى على ذلك وقد سمعته بأذنى . ولست أنكر أن هذا هو الذى يدعونى إلى أن أقسو على هذه الأم المسكينة وأسبها كما فعلت الليلة . فكلما ضاق صدرى لم أجد متنفساً من ضيقى إلا بأن أقسو عليها .

فقال شيبوب هادئاً :

— وليس هذا كل ما أخشى . إننى أشفق عليك من عبلة يا عنترة .

فصاح عنترة : حسبك . فإنك تكذب أو لقد خدعك رأيك.

فقال شيبوب فى عناد :

— لا بل أنت الذى يخدعه رأيه ، فلا رأى لمن أحب يا عنتره . إنك تحبها وهذا يحملك على خداع نفسك ورؤية غير ما تبصر . لن تكون عبلة زوجة لك ، وما هى بالتى ينبغى لك أن تمنى نفسك بزواجها .

وكاد شيبوب يمضى فى حديثه لولا أن سمع أخاه يغمغم بلفظ لم يتبينه فسكت حيناً ثم اتجه إليه سائلا : أقلت شيئاً يا عنتره ؟

فلم يجب عنترة بل مضى فى غمغمته حيناً ثم نطق ببعض أبيات من الشعر جعل يمد بها صوته فى رفق ورقة حتى انتهى من إنشادها واتجه إلى أخيه وقال وهو يتنفس كأنه قد أزاح عن صدره ثقلا :

— إننى أعذرك يا شيبوب فلست تقدر على أن تنظر بعينى ولا أن تحس بقلبى . وقد تكون أسعد حظاً منى ولكنى لا أرضى أن أستبدل قلبك بقلبى .

إننى ساخط على هؤلاء جميعاً ولست أخشى أن يكونوا كلهم على غضابا . ولست أبالى إذا هم علموا حبى فلقد كنت أكتمه خوفاً على عبلة أن تحجب عنى . ولكني لا أجد فى الحياة أملا إلا أن أحبها ، ولولا هذا الأمل ما بقيت يوماً فى حياتى . لست

أملك قلبي حتى أصرفه عنها ، فإنى إذا رأيتها أضاءت لى الآفاق وإن كانت مظلمة ، وإذا تنسمت ريحها أحسست دبيب السعادة وإن كان الشقاء يكتنفنى . وإذا حدثتها عرفت البهجة وإن كنت غارقاً فى همومى . وإذا سمعت صوتها وقع عندى موقع البلسم على القرحة الدامية . وإنى لأرق للنساء من أجلها ، وأخوض الحروب لأننى أحمى قومها ، وأطلب الغزو لا أطلب منه إلا أن أفوز ببسمة من رضائها ، وأبذل ما يحرص عليه الرجال لأننى لا أعرف شيئاً أحرص عليه غير محبتها . فهى عندى غاية حياتى .

وعند ذلك عاد صوت الغناء فجأة وحمله النسيم كما كان يحمله من قبل متموجاً متدفقاً فقال عنترة :

— اسمع يا شيبوب فإنها تغنى .

وأصاخ بسمعه لحظات ثم قام خفيفاً وقال مبتهجاً :

— ألا تحب أن تقرب من مكانها لنسمع ؟

ثم جذب أخاه من يده واتجها نحو الخيام فلما اقتربا حتى استطاعا تبين اللفظ وقف عنترة فجأة وقال في صيحة مكتومة :

ـ أما تسمع يا شيبوب ؟ إنها تغنى بشعرى . إنها تغنى بشعرى .

ثم اندفع نحو الخيام وكان الفتيات والنساء وسطها يجلسن فى حلقة حول النار فوقف فى الظلام يسمع وذهب شيبوب نحو خيمته وفى قلبه قبضة يأس من ضلال أخيه .

٣

كان الصباح يضىء بأنوار الشمس الباسمة فى ذلك الربيع ، وكانت السحب تزين السماء بقطع بيضاء كأنها قطيع من وعول نجد العصماء ، وكانت الأرض لا تزال رطبة من أثر المطر ، والعرار يبسم بنوره الأبيض بين حشائش المرج الأخضر ، وقطعان الابل تسرح هادئة تحت نظر رعاتها ، والنسيم الوديع يهب على وجه عنترة وهو واقف على ظهر فرسه الذى يعدو تحته بغير رسن . وكان مقيما فى ذلك المرج مع سرح سيده شداد متنهزاً تلك الأيام ليمتع نفسه بالانطلاق فى صفاء البادية الباسمة قبل أن يقبل الصيف بقيظه ويصوح العشب ويذبل الزهر . وطالت غيبته عن الحى وكان يمنى نفسه أن يعود إليه بعد حين فيرى عبلة و ينعم بحديثها ويتنفس من النسيم الذى تتنفس منه قبل أن يخرج إلى منتجعات الكلأ إذا حمى حر الصيف .

ولـكن زائراً أتى إليه فى ذلك اليوم فقطع عليه متعته ، فما علت الشمس حتى رأى فارساً يسرع مقبلا نحوه ، وتبينه بعد قليل فإذا هو أخوه شيبوب . وكان عنترة لا يتوقع مجيئه فأسرع ليلقاه وهو واقف على ظهر فرسه كما كان يحب دائماً أن يركب إذ يرعى الإبل فى البر الفسيح .

ولما صار قريباً منه ناداه فى لهفة :

— مرحباً بك يا شيبوب !

ثم وثب عن ظهر الفرس قائلا :

— خيراً ما جاء بك !

فقال شيبوب ضاحكا :

— إنما جئت لأراك .

فنظر إليه عنترة فى شك وقال :

— إن وراءك لأمراً .

فقال شيبوب باسماً .

— انك لتحس ما فى نفسى قبل أن أنطق . صدقت فقد جئت إليك بحديث .

فانتظره عنترة أن يبدأ ومضى شيبوب قائلا :

— كان الحى بالأمس يموج بفرسان عبس .

فقال عنترة فى صيحة مكتومة :

— وماذا دهى الحى ؟

فقال شيبوب مبادراً :

— لم يكن شىء سوى وليمة . وليمة مالك لعمارة بن زياد .

فصاح عنترة فى صوت مخنوق :

— وما بال عمارة ويلك !

فقال شيبوب فى هدوء : إنه خطب عبلة !

وكأن شيبوب ألقم أخاه حجراً بهذه الكلمة فلم ينطق بجواب بل أطرق ساهما وجعل يخرق الأرض برمحه . فقال له شيبوب :

— كنت من قبل أحدثك فى خفة وفكاهة لأننى أعرف كبرياءك ولا أحب أن أثيرها . ولكنى اليوم لا أرى مجالا لخفة ولا فكاهة . وأحب أن أحدثك حديثاً يقطر جداً .

فنظر إليه عنترة وهو يكظم حنقه واستمر شيبوب فقال :

— هذا مالك بن قراد يختار زوجاً لابنته ، وهو من هؤلاء العرب الذين لا مفر لهم من أن ينظروا إلى الناس بأعينهم . وقد

أردت أن أسعى إليك بهذا النبأ قبل غيرى حتى لا تركب الشطط لو بلغك من سواى .

فصاح عنترة :

— وأى شطط تعنى ؟

فقال شيبوب : لقد عرفت أنك سوف تكره هذا النبأ وأنك سوف تحقد وسوف تثور . ولـكنى أعيد عليك انك تخدع نفسك ياابن امى . فهل لك أن تفكر فى أمرك وتحكم عقلك ؟

فأطرق عنترة حيناً وهو حزين ثم قال :

— أنت تريدأن أحكم عقلى وأن أفكر فى أمرى . تريدأن أعرف اننى عنترة العبد الذى لا يليق به ان يتطلع إلى عبلة .

فقال شيبوب فى عطف : إنك بغيرشك فارس عبس ، وأنت جدير بأن تكون من خير سادتها . ولكن قضاءك قد ظلمك ولست بأول رجل ظلمته الحياة .

فانتفض عنترة وقال :

— وما لى أرضى بظلم الحياة يا شيبوب ؟ وما الذى يقيدنى حتى أقيم على الخسف وأرضى بأن أبقى عبداً فى عبس ؟ ما الذى يحملنى على أن أحكم عقلك أنت فى أمرى ؟ ليس هذا حكم عقلى

أنا يا شيبوب ، بل هو حكمك . أما أنا فانى لا أرضى لنفسى أن أكون هناك .

فقال شيبوب هادئاً :

— وماذا تملك يا أخى ؟ هل تملك أن تحجر على مالك حتى لا يزوج ابنته بمن شاء ؟

فصاح عنترة :

— لست أريد ذلك ياشيبوب، ولكنى أحب عبلة ولا أستطيع أن أراها زوجاً لغيرى .

فقال شيبوب : إذن فحدثنى ماذا أنت فاعل وقد علمت نبأ خطبتها .

فقال عنترة فى حرارة : لست أدرى بم أحدثك يا شيبوب . فأنت تذكرنى بكل آلامى وكل شقائى. أعلم أننى فى نظر هؤلاء لا أزيد على أن أكون عبداً، ولا أستطيع أن أمحو صورتى التى تقع فى عيونهم وفى قلوبهم . ولكنى أملك شيئاً واحداً . أملك نفسى التى لا ترضى . وسأكون فى المكان الذى أرضاه و إن كان ذلك قسراً . إنك تحدثنى عن مالك. فلم لا تحدثنى عن عبلة ياشيبوب ؟ إنك لم تسمع نجواها كما سمعتها ، ولم تعرف حقيقة نفسها كما

عرفتها. فلا تواجهنى بهؤلاء فلست أعرف منهم أحداً وإنما أحب عبلة وأعرفها .

فقال شيبوب فى عناد :

— أتحسب مالكا يزوج ابنته لك ويدع عمارة بن زيادة ؟ ولو كان أبو عبلة غير مالك أتحسب أنه يفعل مثل هذا ؟ إنك لن تجد غيرى يحدثك بمثل قولى ولكنى لا أحب أن أكتم عنك نأمه من نفسى .

وكان عنترة يحاول أن يمسك غضبه . ولمح شيبوب علامات ذلك الصراع بينه وبين نفسه فقال له فى عطف :

— لا تحنق على لما أقول يا أخى . فوحق مناة أننى أشد حرصاً عليك منى على نفسى . ولو كان الأمر لى لعرفت أن أقدرك قدرك فأنت أكرم من كل هؤلاء وأشهم نفساً . وإنك لحامى حماهم وسيد فرسانهم وأنت أجل عندى من أحسنهم .

فقال عنترة وقد ألانه عطف أخيه :

— لست أشك فى مودتك وحرصك على خيرى . ولقد صدقت إذ قلت إن مالكا لا يلام على رضاه بعمارة ، ولو كنت مكانه لمـا رضيت إلا بما يرضى . ولكن ما بال قلبى وعبلة ؟

إننى أحبها ، ولا أقدر أن أحيا لغيرها . ولو ذهبت لغيرى لكان فى ذلك قتلى . فليس لى إلا أن أركب الوعر وأن أقدم على كل خطر ، فليس فى كل ذلك إلا الموت وهو ما ينتظرنى .

وصمت لحظة ثم قال :

— وما بال شداد يأبى علىّ كرامتى ؟ لقد علمت أنه أبى . قالت زبيبة ذلك وهى صادقة لم أعتد منها كذبا . فوحق مناة لأعودن إليها فأسألها . فاذا قالت ذلك فانى عائد إليه لأنتصف منه وإن كان فى ذلك هلاكى .

فصمت شيبوب لحظة ثم قال :

— أو تحسب أنه ينصفك ؟

فصاح عنترة :

— لئن لم ينصفنى وأنا ولده لكان لى ظالماً .

ثم أخذ ينكت الرمل برمحه فى حنق .

فقال شيبوب : أراك لا تدع هذا الوهم وإن كلفك ركوب كل وعر .

فقال عنترة فى قسوة : إذا كنت بين قوم لا ينظر كل منهم إلا إلى نفسه فلا حرج على أن أنظر إلى نفسى .

إن وهؤلاء جميعاً يدعونني إذا اشتدت حولهم الكروب ، ويلقون إلىّ بالسيف لأذب به عنهم وأحمي حرمهم . فلأحار بنهم بهذا السيف انتصافا لنفسي . لأحاربن شداداً إذا ضن على باسمي ، ولأحاربن مالكا إذا وقف بيني وبين حبي ، ولأحاربن عمارة إذا تجرأ على أن يسلبني حياتي . لأحاربن لأحاربن لأحاربن ! وإلا كنت في الحق جديراً بأن أكون عبداً .

هلم يا شيبوب إلى الحي فاني لا أطيق المقام هنا .

ووثب على ظهر فرسه ولم يستطع شيبوب أن يرده عن عزمه فقد انطلق به جواده الأبجر وأثار الغبار وراءه فلم يجد شيبوب بدأ من أن يركب ويلحق به عائداً إلى منازل عبس .

٤

دخل عنترة إلى بيت أمه أول شيء بعد عودته إلى الحلة ، وكانت زبيبة منصرفة إلى غزلها وهي ساهمة . فلما رأت عنترة داخلا وثبت قائمة وقالت له وهي تفتح له ذراعيها :

— مرحباً بك يا ولدي . متى جئت ؟

فلم يجب عنترة بل ذهب إلى جانب من الخباء فرمى رمحه

وسيفه وجلس على فروة والحزن يبدو فى معالم وجهه .

فقالت له زبيبة :

— إنك حزين ياولدى ، ولعلى أعرف سبب حزنك . بل لعلى قد عرفت سبب عودتك التى لم أكن أتوقعها .

فنظر عنترة إليها فاتراً فى حنق وقال :

— وماذا يجدينى أن أحزن أو أن تعرفى سبب حزنى . لقد كان أولى بك لو عرفت أنك أنت السبب فى شقائى .

فتحرك وجه الأم وفارت الدموع فى عينيها وقالت :

— أى ولدى الحبيب فداك نفسى . ولو استطعت أن أذهب عنك الحزن بفقد عينى لكان أحب شىء لدى أن أفقد عينى . ولو قدرت على أبذل حياتى لكى أهب لك السعادة لبذلتها راضية .

فخضع عنترة وأطرق حينا ثم قال لها :

لن يجدينى ذلك شيئا أيتها الأم التى جنت على . ولقد جئت إليك لكى أسألك مرة أخرى أن تصدقينى حديثك .

فقالت زبيبة :

— سلنى ما بدا لك يا ولدى فأنا لا أحب أن أكذبك .

فقال عنترة فى مرارة :

— لست أحتمل بعد اليوم أن أعيش فى دنيا تحيط بى فيها هذه الأكاذيب ولا أفرقها عنى . إذن فتعسا لهذا السيف الذى أحارب به أعداء عبس لأنه يكون سيفاً أجيراً .

فقالت زبيبة هادئة :

لقد عرفت يا عنترة أنى لا أكذب ، ولو أردت أن أكذب على الناس ما كذبت على ولدى . أتحسب أننى أعرف أمراً أخفيه عنك ؟ لقد طالما أخبرتك بما سمعت من عبلة ومن أمها وما سمعت من نساء عبس ومن امرأة أبيك سمية .

فصاح بها عنترة فى وحشية :

— تقولين امرأة أبى ؟ أما هى امرأة شداد ؟

فقالت زبيبة : هى سمية امرأة أبيك شداد .

فصاح عنترة :

إنك تكذبين يا مرأة .

ففزعت زبيبة من قول ابنها ورمت بالمغزل من يدها فى غضبة مكتومة ، وبسطت يديها نحوه وعيناها معلقتان فى وجهه وقالت :

— أى عنترة ولدى ! إنى لا أزال أذكرك طفلا وأنت تحبو مرحاً ضاحكا تعبث بالكلاب والحملان . وأذكرك صبياً تجبذ فصيل الناقة كأنك قط تداعب فأراً . وأذكرك فتى تهز الحربة كما كان خالك وجدك يهزانها . نعم خالك وجدك أخى وأبى . هؤلاء الذين عرفونى وعرفتهم ولم يقولوا لى يوماً كما تقول لى « يا مرأة » . فاذا ما كبرت يا ولدى وصرت شاباً فارساً أراك تبعد عنى وتطرحنى وتخاطبنى هكذا « يا مرأة » .

ثم وضعت رأسها بين كفيها وأخذت تبكى .

فلان عنترة وقال يستعطفها :

— إن قلبى يتمزق والغيظ ينفجر منى .

فقالت زبيبة :

— إنك يا عنترة تدمى قلبى إذ أراك تنظر إلىّ كما ينظر هؤلاء ، كما ينظر أبوك وأعمامك وأبناء أعمامك إذ يقولون لى « قومى يا زبيبة إلى هذا القعب فاملأيه لبناً أو قومى إلى هذه الشاة فاحلبيها . » وما كان ينبغى لك أن تكون مثلهم فاست زبيبة الأمة أمام نفسى . إننى أنا الحرة الحبشية (تانا) ابنة (ميجو) ولن أكون سوى الحرة (تانا) ابنة ميجو .

وكان عنترة يسمع قولها مضطرباً ويزأر زئيراً مكتوماً، ثم قال في شبه صيحة :

— ألست أنت التي أتيت بي إلى الحياة لكي يصفعني كل من يلقاني بقوله « يابن الزنا ؟ » وحق مناة لو كنت حرة . . . .

وما كاد يتم قوله حتى صاحت زبيبة في حنق :

— ويلك ياعنترة ! لا تنطق بهذا القول أمامي . إنني أمقت قومك وما يقولون وأمقت آلهتهم التي يقسمون بها . لا تنطق بهذا القسم أمامي فإني عرفت ديناً غير هذا الدين ، واسماً أحب إليّ من هذا الإسم ، ولو خيرت بين الحياة والمسيح ما أحببت الحياة .

ففتح عنترة عينيه في دهشة ثم صاح :

— وما هذا المسيح الذي تهرفين به ؟ أما منعك من أن تأتي بالولد لتقذفي به في المهانة بين هؤلاء الذين تقولين أنك تمقتينهم ؟ إنني أطعن أعداءهم وأعف عن حرمهم وأتكبر أن أخاصم أحداً في اقتسام غنائمهم، وهم يتقاتلون عليها، ومع ذلك فأنا عندهم العبد ابن زبيبة .

ثم اتقد غضبه وانفلت لسانه من زمامه فقال في وحشية :

— أمسكى أيتها المرأة دموعك التى تسحر قلبي . ودعيني وما أريد فأجيبي سؤالى . أأنا ابن شداد حقاً ؟

وإنى أعيد قسمى بعناه لكى املأ قلبك غيظاً وحقداً وغماً كما أتيت بى إلى حياة لا أجد فيها إلا غيظاً وحقداً وغماً .

أقسم بعناة لكى أجرعك الغصص لئن لم تصدقيني لأضعن هذا السيف فى قلبك ثم أديره بعد ذلك إلى قلبي . أأنا ابن شداد حقاً ؟

وكانت زبيبة تسمع قوله وهى مكبة على يديها تبكى، ثم قالت وهى تنشج :

أما قلت لك إنك ابنه ؟ أما قلت لك أنت ابن شداد ؟ أما أقسمت لك بالمسيح يوماً أنك من صلبه . انك ابن شداد ويكذب من يقول غيرها .

فصاح عنترة مزمجراً :

— ألا كفى عن ذكر اسمه فانه أشد الأسماء كراهة عندى . كفى عنه فانك كلما ذكرت اسمه أحسست مثل وقع السياط على ظهرى . وأقسم بعناة لئن كان أبى لأحملنه على أن ينسبنى إلى نفسه، وإلا كان لى معه شأن تتحدث به قبائل العرب فى نواديها .

وسأضرب فى الأرض حيث تقذف بي ، وسأصارع الأسود

وأنتزع منها فرائسها ، وسأقطع السبيل على كل عابر وأسلب الأموال من كل مالك ، ولن أستقر حتى ألقى منيتى كما يلقاها الكلب العقور أو النمر الثائر .

فتخاذلت زبيبة ومدت يديها فى تضرع وقالت:

— إنه أبوك يا ولدى ، وقد طالما حدثتك بقصته وأنت تنكر ولا تصدق . إننى أذكر يوم رأيته كأنه كان بالأمس القريب فاسمع حديثى وصدقنى : كنت مع الركب أنا ومن معى من نساء وأطفال لا نكاد نرى ما أمامنا من البكاء . فقد جئنا إلى هذه الأرض مع قوم خطفونا كما تخطف الأنعام . وكانوا يلقون إلينا فى الطريق بقطع من العظام وفضلات من الطعام فلا نجد لها شهوة والجوع يقرض أحشاءنا ، حتى كاد الموت يأتى علينا . وكانت جثث الموتى تلقى على جانب الطريق كما تلقى جيف الكلاب ولا نجد لأنفسنا حيلة إلا البكاء .

وكان أخوك شيبوب لا يزال طفلا ، وكان جرير ابنى لا يزيد على عشر سنوات . أواه ! إننى لا أملك نفسى كلما تذكرت كيف كانت رجلاه الصغيرتان تدميان من السير فوق الحجارة ونحن نسير فى تلك الصحراء المهلكة لا نعرف لها سبيلا.

وأخيراً هبط علينا أبوك شداد فى جماعة من عبس جاءوا ليسلبوا ركب الطغاة الأنذال الذين جاءوا بنا. وكنا نحن الركب والغنيمة. ولكن شداداً كان بنا براً كريماً وكان بى حفياً و بطفلى رحيما. فاختارنى فكنت له أمة وكان ابناى له عبدين . ولست ألومه على ذلك فتلك عادة هؤلاء العرب قومك يا عنترة .

فنظر إليها عنترة وقد هدأت ثائرته وقال ساخراً :

— أهم حقاً قومى ؟

فقالت زبيبة : — هم قومك ياولدى ولا أكذبك شيئاً .

إنى أرضى بالرق لأننى لا أرى لى فى الحياة أرباً سوى أن أراكم أمامى .

وسمع عنترة قولها شاخصاً ببصره إليها حتى إذا مافرغت مدت يديها واقتربت منه فوضعت يمينها على رأسه تمسحه فى عطف وتهانفت بالبكاء . فخضع عنترة لها ووثبت من عينه دمعة بادر إليها فمسحها ثم تخلص منها برفق وقال بصوت ضعيف :

— لا عليك يا أماه فإنى قسوت عليك . ولقد عطفت قلبى على هذا الرجل بعد وصفك فإنى أحس له رقه . وسأمضى إليه

لأحدثه فى أمرى وأمرك . فلست أرضى أن أكون من صلبه ثم أبقى فى بنى عبس رقيقاً .

ثم وثب واقفاً ووقفت أمه تتعلق به ، وقالت :

— لا تفعل ياولدى ، لا تفعل ذلك أبداً . إنه لن يجيبك إلا بما يجيب به العربى عبده . إنك عبده لأنك منى . تريث فى الأمر حتى يقضى الله قضاءه ولا تيأس من رحمته . فإنى أحس أنك مدرك ما تبغى .

فقال عنترة فى صرامة :

— ذرينى أذهب إليه فإنى لن أثير قلبه. سوف أخضع له فى الحديث لعل قلبه يلين لى. ولست آيساً منه فإنى ألمح فيه أحياناً رقة ومحبة .

فتعلقت به زبيبه مرة أخرى وقالت :

— إنه لن يرضى خوفاً من قومك أن يعيروه بك .

فقال عنترة فى عناد :

— لن أقعد عن ذلك وإن كلفنى حياتى . فإما ان أكون بنه وإما أن أهيم على وجهى فى الأرض الواسعة ابتغاء حريتى.

فقالت زبيبه : تريث ياولدى بحق .... بماذا أقسم عليك حتى تطيعنى ؟

فنظر عنترة إلى وجه أمه جامداً وقال :

— لن أنفك أطلب حقى حتى أبلغه يا أمى . ولن أتحمل هذه الحياة و إن كان فى ذلك تحطيم قلبك وقلبى .

ثم تخاذل وجلس على حجر عند مدخل البيت ووضع رأسه بين كفيه وغاب فى صمته حيناً . وكان يردد فى إطراقه أنغاماً خافتة ويهتز فى أثناء ذلك اهتزازاً شديداً .

فاقتربت أمه منـه وجعلت تمسح رأسه بيدها وهى صامتة حزينة ، حتى مضت ساعة ثم رفع رأسه وجعل يتغنى بأهازيج من شعره وأمه تنظر إليه فى رقة وتستمع إلى غنائه حتى انتهى من إنشاده فقالت له :

— إذن فأنت مقيم هاهنا . أتحتمل الحياة فى أرض لا تقيم عبلة فيها ؟

فصاح عنترة : بل لا أتردد فى تحطم هذا القلب الذى يتعلق بها وأى جدوى فى بقائى هنا ولست إلا عبداً ؟ اننى عند ذلك

لا أزيد على أن أكون مثل الـكلب الذى يتطلع إلى النجم وينبحه وهو أذل الأحياء .

فقالت زبيبة ضارعة :

— أما تترفق بنفسك يا ولدى ؟

فنظر إليها عنترة نظرة سريعة ثم ذهب عنها مسرعاً يدمدم فى وحشية :

— سوف أذهب لأنزع عن نفسى عارها .

ولم يلبث أن غاب بين البيوت وأهوت زبيبة على الأرض متهالـكة تنظر فى أعقابه والدمع يملأ عينيها .

٥

كان شداد بن قراد فى خيمته يتنفى أغفاءته بعد الغداء عند ما ذهب عنترة يطلب أن يراه . وكانت امرأته سمية جالسة مع مروة ابنة شداد تتحدثان وهما تغزلان الصوف بعد أن فرغتا من خدمة الشيخ الصارم . فلما أقبل عنترة نظرت إليه سمية وقالت فى دهشة :

— هذا عنترة هنا ؟

فنظرت إليه مروة وقالت هامسة :

— لقد طالت غيبته عن عبلة فحركه شوقه .

فقالت سمية عابسة :

— صه يا مروة ! أما تدعين عنتك عليه ؟ أما رأيت كيف قسا عليه أبوك من أجل مثل هذه الكلمة ؟

واقترب عنترة منهما وجلس وهو صامت فقالت له سمية :

— مرحبا بك يا عنترة ! لقد طالت غيبتك .

فقال عنترة فى هدوء : جئت لأرى سيدى . أهو هنا ؟

فقالت سمية ناظرة إلى الخيمة .

— إنه هناك على عادته فى مثل هذه الساعة . فهل تنتظره ؟

فقالت مروة فى خبث وهى مستمرة فى غزلها :

ـ لقد سهر بالأمس فى دار عمى مالك وأظنه لا يصحو اليوم إلا مساء .

فقال عنترة ناظراً إليها : وأنت أما كنت فى دار عمك ؟ أما كنتم جميعاً فى دار مالك ؟ أما كنتم جميعاً تحيون آل زياد ؟

فقالت مروة : ولو كنت هنا لما فاتك أن تـكون معنا .

فنظرت اليها سمية خفية فى شىء من الحنق وأجابها عنترة :

— لقد تعودت يا مروة أن أذهب حيث تذهبين أنت وسيدتى هذه سمية . أليس هذا واجب عبد شداد ؟

فضحكت مروة وقالت ممعنة فى خبثها :

— كما تعودت أن تحمل اللبن إلى عبلة كل صباح لتشرب منه أول الناس .

فصاحت بها سمية قائلة :

— أما تمسكين عن هذرك أيتها الحمقاء ؟

فقال عنترة هادئاً :

— لست أحمل اللبن لعبلة وحدها . إنما أنا عبدكم يا مروة فأنا لا أصنع إلا ما يجب على العبد أن يصنع .

فلم تبال مروة غضب سمية وقالت ضاحكة :

— أما قلت لنا عند الماء إنك عبد عبلة ؟ انما انت عبد عبلة.

فقال عنترة : اذكر ذلك يا مروة فهل أغضبك قولى ؟ إنك ابنة شداد ولا حاجة بى أن أقول للناس إنك سيدتى ، فهم يعرفون اننى عبد شداد .

فقالت سمية فى غضب : الا حسبك يا مروة . إنك تعرفين

أن عنترة فارسنا وحامينا ، وهو ابن زبيبة التى تحبك وتحنو عليك .

فقال عنترة باسماً : ذريها تعبث بى يا سيدتى . إنها تعرف مودتى لها وحرصى على رضائها ، وان أقسى كلماتها عندى أحب من حديث سواها .

فقالت مروة فى عناد . لو سمعتك عبلة لأغضبها ذلك . وأنت لا تجرؤ على مثل هذا القول لو كانت عبلة تسمع . ألا تذكر الشعر الذى أنشدته ؟

فقال عنترة فى شىء من الارتباك :

ـ إننى أتغنى به صباحاً ومساء .

فبادرت مروة ضاحكة وقالت :

ـ ولكنك لا تنشد إلا إذا كانت عبلة حاضرة .

فنظر اليها عنترة وقال فى شىء من الحنق :

ـ لعلك تريدين أن تقولى اننى أحبها . ألا فاعلمى يا مروة أننى أحبها . واننى أقول شعرى لها . ولقد كنت أكفكف من شجونى وا كتم ثائرة وجدى حذراً أن يتحدث أهل الفضول عنها . ولكنى اليوم لا أبالى . فها هو ذا عمارة يخطبها وأنتم

جميعاً تذهبون إلى وليمته لتخدموا أهله ، وأنا أرعى إبل شداد في البر وحدى . فلتتحدثى ولتتحدث فتيات عبس جميعا انى أحبها ، وليعرف عمارة بن زياد أن عبلة عندى فى مكان الروح وانى سأقضى سائر حياتى أتغنى بحبها .

وكان صوت عنترة قد علا فقالت سمية تحاول تهدئته :

— لا تغضبك هذه الحمقاء يا عنترة فما هى الا الغيرة تدفعها .

فصاحت مروة : — أتدفعنى الغيرة من عبلة ؟ وهل هى خير منى ؟

فقال عنترة وقد عاد الى هدوئه :

ليس يسرنى وحق مناة أن تكون مروة زوجة لعمارة ابن زياد . ذلك الفتى المعجب بنفسه الذى ينظر الى صورة وجهه في زير الماء كما يفعل النساء .

فقالت مروة فى غضب وعتب .

— ومن قال لك اننى أرضى زواجه ؟

وعند ذلك أطل شداد من خيمته ونظر حوله وهو يتمطى قائلا : ما هذا الصراخ يا هؤلاء ؟

ثم وقع نظره على عنترة فقال فى تودد :

— أهذا انت يا عنترة ؟

واتجه اليه عنترة قائلا :

— كنت انتظرك يا سيدى فهل لى ان أحدثك حديثاً ؟

فقال شداد وهو يسير خارجا :

— واننى كذلك أحب أن أحدثك . وقد كنت على عزم أن أبحث فى طلبك .

وسارا معاً الى جانب من الشعب فانتحيا فيه جانباً عند مهبط السيل، وجلس شداد على قطعة صخر ملساء وجلس عنترة عند قدميه ووضع رمحه تحت رجليه .

وقال شداد : لعلك سمعت بما اعتزمت عليه عبس من غزوه طيىء .

فقال عنترة مطرقاً : كنت فى مراعى ابلك ولم أسمع إلا بوليمة أخيك مالك .

ففطن شداد إلى ما تحت كلمته، وقال متحاشياً الخوض فى ذلك الحديث : أكنت تحب أن تفضى إلى بقول ؟ ابدأ أنت بحديثك يا عنترة .

فقال عنترة وهو يغالب ما يثور فى نفسه :

— انني لا أستطيع يا سيدى أن أنكر فضلك على . أنت فارس عبس وشيخها وأنت ملاذ الخائف ومطعم الجائع ومكرم الضيف. وقد حدثتني أمي عنك أحاديث طويلة منذ كنت طفلا.

فقال شداد عابساً :

— قل ما تريد فاني سامع .

فقال عنترة فى حرارة :

حدثتني أمي عن رحمتك بها وبرك بأبنائها ولكنها تقول لى قولا لم أسمعه منك أنت يا سيدى .

فقال شداد فى صرامه : قالت لك إنك ولدى ؟

فقال عنترة ثابتاً :— قالت لى ذلك منذ كنت طفلا .

كنت إذا لعبت مع أطفال الحى وغاضبتهم سبونى بأمى وقالوا لى أقوالا لم أفهمها ، فكنت أنتقم لنفسى وأضربهم فلا يزيدون الا جرأة على ويجتمعون فى حلقة يعيروننى ويسخرون منى . فاذا ضقت بذلك ذهبت الى أمى فشكوت لها وسألتها عن أبى لكى أفاخرهم به كما يفاخروننى بآبائهم ولكنها كانت لا تزيد على أن تبكى ثم قالت لى يوماً انني ابنك ، فأحسست الكبرياء تملأ قلبى.ولكن وا أسفاه ! كنت أذهب

اليك ولا اجرؤ على سؤالك ، ولم أسمعك يوما تناديني قائلا « يا ولدى »

فقال شداد فى جمود : وما ذا تريد بقولك هذا ؟

فأجاب عنترة : لست اريد الا ما يريده المرء من ابيه إذا كان اباه حقاً .

فقال شداد : الست اكرم مكانك ياعنترة ؟ ألست ادخلك على اهلى ؟ ألست أركبك معى إذا سرت الى الغزاة ؟ ألست أناجيك كلما اعتزمت مع قومى أمراً ؟ اننى ادعوك الى حماية الحمى اذا طرق الطارق ؟ ألست تأكل معى وتجلس حيث أجلس مع سادة عبس وتتحدث فى مجلسى وأنصرك اذا ظَلمت وأدفع عنك اذا ظُلمت ؟ فماذا تبتغى منى بعد ذلك اذا كنت أباك حقاً ؟

فقال عنترة فى رقة : لست أنكر فضلك فانى اذن لجحود . إنك لتكرمنى ولا تجعلنى فى مكان هؤلاء العبيد الذين يرعون إبلك معى . وقد كنت تملك أن تردنى اليهم إذا شئت ، وتذل تلك النفس التى تقول أمى إننى ورثتها منك . ألا تقول لى اننى ورثت هذه النفس منك ؟ قل لى هذه الكلمة يا أبى ، بحق سيفك ورمحك حتى أسمعها من بين شفتيك أنت .

فقال شداد متبرماً : إنك تلج لجاجة لا أحمدها .

فنظر اليه عنترة في حيرة ، وقال : لست أحب اللجاجة يا سيدى . ولكنى لا أحب لك إذا كنت أبى أن تنكرني . إنك إذن رجل تسرف فى نفسك وفى تلك البضع التى تخرج من صلبك .

فقال شداد مغضباً : حسبك أيها العبد أمسك لسانك .

فقام عنترة ومد يديه نحوه ضارعا ثم قال :

أيها البطل لست أحب أن أغضبك . ولكنى لست أرضى لك أن تقذف بى بعيداً عنك إذا كنت من دمك . ان لى فى الحياة حقاً ، ولكنى أجد الحياة تتنكر لى . كيف بى أن أعيش فى قيد الرق وما الحياة لتستحق أن أحياها إذا هى خلت من الحرية . إننى أحب الحرية لأننى أحب الحياة . وأحب أن أعيش كالناس أقول «نعم» حيناً وأقول «لا» حيناً إذا بدا لى أن أقول «نعم» أو «لا» . أحب أن أكون مثلهم فى ميزان الأحرار وأعاشرهم وأعاملهم على أننى أحد بنى عبس . أترضى لنفسك أيها البطل أن تعيش عبداً ؟ أما كنت تؤثر أن تجاهد فى سبيل حريتك حتى تفوز بها أو تخر صريعاً فى جهادك لها ؟

ولقد كنت أرضى أن أكون عبداً لو كانت لى النفس التى ترضى بذلك ؛ فاذا كنت أبى فان دمك الحر هو الذى يثور فى قلبى .

فلان شداد بعض اللين وقال :

— إنك تجرعنى الغيظ بما تلقيه علىّ من هذا القول الذى ينطلق إلى أذنى كأنه جمر الغضا .

فقال عنترة فى رقة :

— قلت لك إنى لا أحب أن أغضبك فلا تغضب علىّ إذا دفعنى يأسى إلى مواجهتك . لست أكره أن توقع بى فتذهب عنى تلك الشجون التى تؤرقنى فى ليلى وتذلنى فى نهارى وتجعل حياتى بغيضة إلى نفسى . لست أكره أن أفارق هذه الحياة على يديك فأخلص من هذه السبة التى يرددها الناس كلما وقفت بينهم عند أول غضبة يغضبونها . فهم إذا عجزوا عن مفاخرتى بأنفسهم فخروا علىّ بآبائهم وقالوا لى يا ابن الزنا . ولو عرفت أبى لفاخرتهم به وأسندت إليه ظهرى . حتى أنت يا شداد تقذفنى بحممك إذا غضبت وتدعونى عبداً كما فعلت الآن معى . بل إنك لتسب أمى وتطعن فى عرضها ولقد كنت جديراً بأن تكون

أبعد الناس عن إذلالى إذا كنت أبى . فهل تـكذب أمى إذ تقول لى إننى منك ؟ أم هى تعلم أنها كانت فى كنفك ثم اختانتك فى ولادتى ؟

فصاح شداد فى غيظ : أما قلت لك أمسك ؟

فمضى عنترة فى عناد :

لك أن تنكر أنك أبى إذا كنت تعلم أننى لست لك ولداً . ولو فعلت ذلك لوجدت عنك مندوحة ياسيدى . فإنى أقدر على أن أضع ذباب السيف فى صدرى حتى يخرج من ظهرى وأخلص من هذه الحياة عامداً ، فلا تنالنى تلك الوصمات التى يلطخ بها جبينى . ولـكنى لا أقدر على أن أدعك وأنت لاتنكر أبوتى . فلا بد لك من إحدى خصلتين : إما أن تقرّ بأبوتى وإما أن تنكرها .

وكان شداد مطرقاً فى أثناء هـذا الحديث متردداً فنظر إليه عنترة وزاد طمعه فى لينه ومضى قائلاً :

— وإنى فوق ذلك أقدر على أن أذهب عن هذه الأرض فلا أقيم في ديار لا أعرف فيها إلا بأنتى العبد المسخر الذى يقاتل

من أجل سادته ، ويغنم لهم الغنائم ، ويؤجر على حمايتهم بالطعام والشراب والجلوس فى مجالسهم .

لست أرضى لنفسى أن أكون عبداً لك تملكنى كما تملك هذه الإبل وهذه الخيل . وإننى قادر على أن أمنع نفسى وأفوز بحريتى لأننى قادر على أن أمنع حرمكم وأذود عن حريتكم . هذا سيفى يحارب فى سبيل مجدكم ، وإنه لسيف عاق إذا كان يخدمكم ويتخلى عنى .

فرفع شداد رأسه بغتة وقال :

— أتمنُّ علينا بحمايتك أيها الشقى ؟

فنظر إليه عنترة ثابتاً وقال :

— لست أمن عليك ولا على أحد بحمايتى . ولكنى أقول الحق الذى لا تستطيع أنت أن تنكره . إننى أغزو وأتقدم الصفوف لأقتحم العدو فى صدرها . وأجرؤ على لقاء الموت إذا نكص كل فارس عن لقائه . وأغنم الغنائم لكى تقسموها فيما بينكم فإذا منتم علىّ بنصف سهم رأيتم أن هذا إيثار لى واعتراف بحقى . وإنى لأبذل ما فى يدي تكبراً عن المال، وأعف عن الحرم تسامياً عن الدنايا . ولست أريد بهذا القول إلا الحق، فإذا كان

هذا يغضبك مني فلست بعد هذا أذكره . وحسبي أن أباعد بيني و بينكم فلا أكلفكم من أمرى مشقة . ولكنى أحب منك خصلة لا أعدوها حتى تنكر أبوتى. فإذا كنت أبى فألحقنى بنسبك كى أعرف نفسى و يعرف الناس حقيقتى . و إذا كنت تعلم غير ذلك فاصرفنى بكلمة فلا أعود إلى خطابك ولا أصدع أذنيك بكلمة منى . ولـكنك قد زعمت للناس يوماً أنك أبى . ألا تذكر يوم اختلف قومك علىّ منـذ كنت طفلا وأبيت إلا أن تحوزنى ؟ ألم تقل لهم عند ذلك إنك أبى ؟ أما كدت تقاتل أبناء عمك من بنى عبس عند ما أرادوا أن يجعلونى فى بعض نصيبهم من الغنيمة ؟ لقد قالت لى زبيبة هذه القصة ، فـكذبها إذا شئت ، بل كذب نفسك إذا استطعت أن تقول كذباً .

وما كاد شداد يسمع هذا حتى بلغ به الغيظ مبلغه ، فلمس مقبض سيفه وقال فى صيحة عنيفة وهو يثب قائماً :

— وحق مناة واللات والعزى ماصبرت على أحد صبرى عليك أيها العبد الشقى . ولست أدرى ما الذى يمنعنى من سفك دمك أيها العاق الجاحد وأنت تقرعنى منذ اليوم بقولك وتجبهنى بسبابك؟

إنها لنقيصة أحسها فى نفسى أن أرق لك كلما هممت بأن أغمد هذا السيف فى أحشائك .

فنزع عنترة سيفه من حمائله ورماه بعيداً ثم وقف وفتح صدره الواسع وقال بصوت أجش :

— أظهر ما يثور فى قلبك ولا تكتم غضبك ، فإنك إن فعلت خففت عنى ثقل ما أحمل من حياتى . إننى أحرضك على قتلى فلست أريد أن أحيا تلك الحياة التى تريدنى عليها . اقتلنى وأنت هادىء مطمئن النفس لأنك تريحنى من شقائى .

فأدار شداد عينيه وعاد إلى الصخرة فجلس عليها صامتاً وهو يلهث مما فى صدره ثم قال بصوت فيه رنة العتاب :

— أنت تعلم أن هذا الأمر لا أملكه وحدى .

فصاح عنترة كمن أحس بالنجاة :

— إذن فأنت تعترف بى

فقال شداد فى حزن :

— لست أنكر أنك ابنى . ولقد علمت أننى آثرتك منذ كنت طفلا وحنوت عليك وأمنت إليك . ولكن لك أعماماً وأخوة و بنى عمومة ، ولى أصهار وأخوال وكلهم يملكون من هذا

الأمر ما أملك ، فلا أقدر أن أصرفهم عنه . إنهم يملكون أن يغضبوا على وعليك إذا ألحقت بهم المعرة بانتسابك .

وأطرق الشيخ واجماً ووضع رأسه بين كفيه . فقال عنترة في ضراعة :

أتكون معرتك أن تنسب إليهم عنترة ؟

فرفع شداد رأسه متردداً وقال :

— أمهلني ياعنترة ، ولا تقس على . إنني لا أقدر على أن أفرط في مثلك فقد عجز الأحرار عن ولادة قرينك .

فقال عنترة في نغمة يأس :

— فأنا إذن عنترة العبد حتى يرضى كل هؤلاء ؟

فقال شداد في تردد :

— تريث بي حتى أحملهم على رأيي . تريث ياعنترة ولا تعد إلى حديثك هذا . وتعال أحدثك الساعة عما كنت أود أن أبدأ به حديثي .

فقال عنترة في حنق :

— أتريد أن تحدثني في غزو طيء ؟

فقال شداد : تعال أحدثك ولن تجد مني إلا ما ترضى .

فصاح عنترة :

— فأنا العبد حقاً إذا رضيت أو سمعت منك. أما وقد أبيت يا سيدى ألا أن أبقى عبداً فلن أكون لك إلا عبداً حتى يرضى كل هؤلاء فيهبونني حريتى .

سأعتزل هذا الحى وسأقنع منك بما تعطى . أنا أعرف الآن أنك أبى لأنك قلتها بلسانك، فليس لى أن أتهم زبيبة منذ يومى. وسأرضى عن الحياة ولن أطمن قلبى بيدى . سأبقى حياً فإن لى أملاً لا يزال يحملنى على الحياة ، ولن أحس بعد اليوم فى قرارة نفسى عاراً .

ولكنى لن أبقى هاهنا . سأذهب إلى مراعيك لأكون هناك مع العبيد أمثالى . أما الحرب فحدث عنها سواى .

ومال يأخذ رمحه وسيفه فقال شداد فى دهشة :

— أذلك عنترة الذى أسمعه ؟

فصاح عنترة : نعم هذا عنترة العبد . هذا عبدك يا شداد بن قراد . سأذهب إلى البر لأرعى إبلك وأحلب نياقك وأدفع الذئب عن غنمك . وسأجعل رمحى وسيفى لمصارعة الوحش ، إذ لا شأن لمثلى بالغزو والحرب . ولن ينبغى لى أن أقف دون

الحرم يوم يدعو الفزع لأن أبى لا يرضى لى ألا أن أكون عبداً .

وإذا بدا لك يوماً أن تنادى عنترة فلا تدعه إلا لكى يحمل لك قعباً من اللبن، أو لكى ينحر لضيفك جزوراً، وستجدنى لك كما شئت . ولن أملك قلبى هذا من محبتك لأنه لا ينكر أبوتك . سوف أكون عبدك أخفى عنك طربى وغضبى . وسوف أدير عينى إذا نظرت إلىّ حتى لا تلمح وميض غيظى ، وسوف لا أجهر بذات نفسى تحت سمعك، ولا أتحدث عنك إلا من خلف ظهرك ، فإذا قربت منى فلن تسمع منى إلا ألفاظ الوفاء والولاء . هذه شيم العبيد فلا تنتظر منى سوى شيم العبيد يا بطل عبس وكريمها . يا سيدى شداد . هأنذا أخضع لك وأدعو مناة أن تحفظك من سيوف الأعداء . وهانذا أقبل قدميك تذللاً .

ولما قال عنترة هذا أهوى إلى قدمى أبيه فجأة وقبلهما ، ثم نهض مسرعاً وذهب كأنه يهرب من عدو ، حتى اختفى وراء ثنية الوادى وخرج إلى الصحراء .

٦

كان عنترة واقفاً على ربوة ينظر إلى الحى المضطرب تحت عينيه ، وكانت خيل طيء تحيط بالبيوت من كل جانب وفرسان طيء يضطربون فى أنحاء السهل يحاولون أن يدفعوا العدو فلا يملكون معه شيئاً لأنه غمرهم بالعدد ، وكان أكثر فرسان عبس قد خرجوا مع الملك زهير بن جذيمة العبسى فى غزوة إلى بلاد طيء ، ولم يتركوا فى الحى إلا عدداً قليلاً مع شداد وأخيه مالك وجماعة ضئيلة من شيوخ عبس . وما هى إلا ساعة حتى دخل العدو فى أزقة الحى الضيقة بين البيوت ، وجعلوا يقطعون الحبال بسيوفهم ويقوضون الدعائم وينزعون الأوتاد ويدوسون من يلقاهم من أطفال ونسوة . وانفرط عقد العبسيين فصاروا يتدافعون ويتزاحمون فى ذعر وكلما اتجهوا وجهة وجدوا العدو يسد سبيلهم فيرتدون خفافاً ، وهم لا يبصرون ما دونهم إلا بعد أن يصطدموا به ، وتفلت الأمر من أيديهم حتى صارت رحى المعركة تدور بين حطام البيوت المقوضة ، فكان فرسان عبس يخبطون نساءهم وأطفالهم فى عماية المعمعة . وكان عنترة ينظر إلى

العجاج الثائر وقلبه يثب في صدره ، حتى لقد هم بالنزول عن الربوة ليشارك قومه في القتال، ولكنه كان كلما هم بذلك عاودته ذكرى حنقه على قومه فيردد في صدره أنة تشبه الزمجرة ويحمل نفسه على البقاء في مكانه قسراً .

ومرت بخاطره صورة ذلك اليوم الذي أقبل فيه العدو إلى ديار عبس وهو معتزل في ذلك المكان يرعى إبل شداد ، فخرج إليه جمع من الفتيات يدعونه لنجدة قومه ، فلم يستطع أن يمتنع عن النجدة ، ونزل إلى العدو فقاتل في صدر الفرسان حتى هزم العدو واستنقذ منه ما كان حازه من الغنائم ، وفك أسر من كان أسر . فما هو إلا أن فر العدو حتى أقبل قومه فاقتسموا الفيء الذي غنمه هو من العدو ولم يدعوا له إلا نصف سهم قائلين له إنه عبد شداد ، ولا ينبغي له أن يفوز بسهم فارس كامل . مرت بخاطره صورة ذلك اليوم وصور أخرى مثلها وتذكر كلمات أبيه إذ قال له إنه لا يستطيع أن يلحق المعرة بقومه بأن ينسبه إليهم فامتلأ قلبه حقداً وشماتة ، وأحس مرارة ما تجرع من الغصص طول حياته كلها في تلك الساعات التي وقف فيها يتأمل المنظر المؤلم .

ولكن خاطر آخر خطر له جعل المعركة الدائرة فى نفسه أشد هولاً من المعركة الدامية التى كانت تدور بين حطام البيوت . فإن صورة عبلة لاحت له وخيل إليه أنه يراها تحت سنابك الخيل ، أو أن فارساً من طيئ قد عدا عليها فأخذها أسيرة لكى يتخذها أمة له كما أخذ أبوه شداد زبيبة أمة من قبل . وأحس دافعاً قويا يدفعه إلى النزول فانحدر عن الربوة حتى بلغ مكان فرسه الأبجر ووثب عليه وهمزه متجهاً نحو ميدان المعركة ، ولكنه لم يسر إلا قليلاً حتى لوى عنان الفرس وعاد إلى الربوة وجاس فوقها ينظر إلى السهل كأنه يمتع عينيه من طحن قومه فى القتال . وأخذ يكابر نفسه ويراجعها بأنه لا يزيد على أن يكون عبداً يرعى الإبل ويمن عليه شداد بأنه يركبه معه ويجلسه فى مجالس الأحرار من قومه . وما كان له أن يتطوع بالقتال عن سادته الذين لا يعرفون له بينهم مكاناً . وماذا كان يجديه من عبلة ابنة مالك إذا هو أنجاها من العدو المنتصر ؟ أليس أبوها هو الذى أولم وليمته لعمارة ابن زياد وقد جاء يخطبها ؟ فهل كان ليقاتل حتى يخلصها من فرسان طيئ حتى لا تكون أسيرة عندهم ولا يملكها فتى منهم ،

ثم تكون بعد ذلك عند عمارة بن زياد ويعود هو إلى إبل شداد ليرعاها ؟

بقى عنترة يعانى هذه المعركة الثائرة فى نفسه حيناً غير منتبه إلى ما حوله حتى سمع صوتاً من أسفل الربوة يناديه فى فزع ، فنظر تحته فإذا أبوه شداد يصيح به قائلاً :

— أما تسمع يا عنترة ندائى ؟ أما ترى قومك يصرعون تحت عينيك .

فنظر عنترة إليه ورفع قامته فى هياج وركز رمحه فى الأرض فى عنف . وصاح فى ضحكة وحشية :

— وما شأن عنترة بالقتال أيها الشيخ ؟ وما قومى الذين تدعونى إلى نصرتهم ؟ ليس لعنترة قوم . لقد علمت أن ليس لعنترة قوم . فاذهب عنى .

فصاح شداد :

— وحق مناة لقد أصابك الخبل أيها العاق .

فصاح به عنترة فى سخرية :

— لا تؤاخذنى يا مولاى فإنى نسيت الأدب فى خطابك . ولكنى عبد وما شأن العبيد بالقتال ؟

ثم عاد فضحك ضحكته الأولى .

فقال شداد :

— دع هذا المراء وأسرع إلىّ .

فقال عنترة متحدياً :

— إنى تركت الركوب والقتال فليس لى قوم أقاتل عنهم . إننى لا أحسن إلا أن أحلب النياق وأن أحفظ سخال الأغنام وفصائل الإبل من عدوان الذئاب .

هذا رمحى أستعمله هراوة فى يدى أهش به على غنمك يا شداد بن قراد ، وهذا سيفى فى غمده أضرب به أعجاز الفحول المتمردة عند موارد الماء . هذا يا سيدى ما أحسن من بلاء الحياة ، فلا ينبغى لى أن أشارك السادة فى الدفاع .

إنما الحر هو الذى يسند الأحرار ، فاذهب إلى هؤلاء الذين يحق لهم القتال . إذهب إلى أصهارك وأخوالك وإلى عمارة بن زياد فادعهم إلى نصرتك . إذهب إلى بنى قراد فهؤلاء هم الأحرار . أين مالك أخوك وأين عمرو ابنه ؟ وأين زخمة الجواد وأين أبناؤه ؟ أين هؤلاء جميعاً فإنهم فى غنى عن العبد ابن زبيبة .

وعاد إلى الضحك كأنه قد اختبل عقله .

فصاح شداد وهو ينفجر غيظاً :

— انزل ثكلتك أمك قبل أن أصعد إليك فانكل بوجهك الأسود .

فصاح عنتره فى جنون :

— إذهب أيها الشيخ عنى ، فإنك تسخر من نفسك . اذهب عنى فوحق مناة وكل آلهة عبس الجوفاء إننى لا أعرف القتال . ولن تجدنى إلا كما أردت ، عبداً يشمت كلما رأى ذل كبريائك . اذهب فقل لقومك هذا مصرع البغى ، وما اتخذ قوم بعضهم عبيداً إلا كان بعضهم فيهم عدوا . أنا عبد عبس ولست من عبس . سأنظر إليكم وأرى طحنكم وأمتع نفسى بقهركم وذلكم ، وماذا يضر العبد عنترة إذا نكل العدو بكم ؟ أنا اليوم عبد عبس وسأكون غداً عبد طيْ ، و إذا رعيت إبلك اليوم فى عبس فسأرعى إبل سيدى فى طيْ غدا . هذا ما تعلمته فيكم من الكرامة فاذهب عنى لا أبالك يا شداد بن قراد .

وكان الشيخ يسمع قوله وهو لا يصدق أذنيه فقال والغيظ يخنقه :

— لقد هممت أيها الشقى أن آتى إليك فأضع سيفى فى صدرك. أهذا عنترة الذى يخاطبنى ؟

فصاح عنترة : تعال أيها الشيخ فضع سيفك حيث أحببت . أتعجب من قولى وتسأل أهذا عنترة الذى يخاطبك ؟ بل أنا الذى أسأل أهذا هو شيخى وسيدى الذى يخاطبنى . ألا تذكر يوم تركتنى أذهب مع العبيد أمثالى لأرعى إبلك ثم نسيتنى ؟ أوجدت القتال أحر مما يقوى عليه فتيانكم ؟ أما تدعنى أيها الشيخ أحلب وأصرق وأتذلل فى الخطاب ؟ أما كان ينبغى لك ألا تجىء ها هنا حتى أجعل حقدى عليك من وراء ظهرك كما ينبغى لعبد مثلى ؟

فتوقل شداد فى الربوة صاعداً والغيظ يدفعه حتى اقترب من عنترة وأمسك بكتفه فهزه فى عنف وقال له :

— أنك تضيع الفرصة فى حديث باطل . هلم فانزل معى لا أم لك !

فارتمى عنترة عند قدميه وقبلهما ثم وقف أمامه متحدياً وقال :

— ها أنذا قبلت قدميك كما فعلت مرة من قبل ... علىّ أن أمسح نعليك وأن أحمل لك إداوتك وكنانة سهامك ، وأن آتى

لضيفك بالطعام والشراب، واقف بين يديك صاغراً ، مرهفاً أذنى لهمسات أمرك فاتحاً عينى لكل إشارة منك . اذهب يا سيدى فأنا عبدك الذى ينتظر خدمتك . فإذا وضعت الحرب أوزارها وجدتنى عند قدميك جاثياً . وأما القتال فقد قلت لك أنه ليس من شأنى . اذهب أنت لا أم لك سيدى . فلست أحسن إلا الحلب والصر ولا شأن لى بالضرب والكر .

وكان شداد يسمع هذه الكلمات وهو يتحرك فى قلق وينظر إلى عنترة فيفتح فمه ويهم بأن يصيح به صاخباً ، فلا يدع له عنترة فرصة للقول بل يتدفق فى قوله الحانق تدفقاً متصلا . وكان بين حين وحين يلتفت إلى ميدان المعركة فيرى الفرسان لا يزالون يتجاولون ويتبارزون وهم يتنقلون بين البيوت التى دكت دكاً . ورأى النساء والأطفال يسوقهم العدو مع أسلاب الإبل والأغنام إلى ناحية فى انتظار القضاء على بقية المقاومة ، فلما فرغ عنترة من قوله صاح شداد فى ضراعة :

— أهكذا تتخلى عن قومك ؟ أما ترى العدو وقد حطمهم وكسر بيوتهم وأخذ نساءهم وأطفالهم سبايا ؟ أنظر يا عنترة إلى فم الشعب هناك حيث منازل أبيك وأعمامك ؟ ألا ترى العدو

يسوق نساءك وبنات أعمامك ؟ إنك تشمت والحر يشتري نفسه في مثل هذا اليوم . فإذا أردت أن تكون ابن شداد حقاً فلست أبد الدهر بأبيك إذا أنت قعدت عن قومك . إن الحرية تشترى وليست توهب يا عنترة، والعبد هو الذي يتمنى وهو قاعد، فهو عبد إذا وهبت له الحرية عطاء . انها تكون كقطعة من العظام تلقى إلى كلب جائع ينتظرها صاغراً . قم يا عنترة وأزل عنا معرة هذا اليوم .

فانتفض عنترة وصاح بأبيه :

— وماذا يكون اسمي منذ اليوم يا سيدي ؟

فصاح شداد في حنق :

— حسبك أيها الأحمق لا أم لك . ماذا يغني الاسم عن الرجل إذا كان في حقيقته عبداً . هلم يا عنترة فاسرع من ورائي.

فصاح عنترة :

— قل لي يا ابن شداد ولو مرة . قل ذلك يا أبي حتى أسمعك تدعوني ابنك .

فصاح شداد وهو يثب إلى أسفل الربوة :

— أسرع ورائى يا عنترة بن شداد . إنما العبد من يقول لك منذ اليوم غير ابن شداد .

فاندفع عنترة فى أثره حتى بلغ مكان الأبجر فوثب عليه وسبق أباه قائلا :

— الحق بى يا أبي وقاتل إلى جانبي . فسأنادى اليوم فى قتالى : أننى بن شداد .

٧

قضت عبس أياماً بعد انتصارها على طيئ فى عيد متصل ، إذ كانت نجاتها إحدى العجائب التى جرت المقادير بتدبيرها . فقد بغتتها طيىء بفرسانها على حين كان العبسيون مع ملكهم زهير بن جذيمة بعيدين عن الحى يطلبون ديار طيىء . ولم يبق فى الحلة إلا الفئة القليلة التى عجزت فى دفاعها حتى اجتاح المغيرون كل ما وقف فى سبيلهم ، وأحس القوم أن أمرهم قد انتهى إلى الدمار . ثم أقبل عنترة على غير انتظار فأحال الهزيمة الطاحنة إلى نصر باهر عجيب ، فهرب فرسان طيىء لا يلوون على شىء وتركوا ما أخذوا وما كان معهم سوى الخيل التى نجوا عليها سراعاً .

وعاد زهير بن جذيمة عند ما سمع أنباء الغزوة وما أصاب قومه فيها ، ولكنه وجد الحلة فى عيد صاخب ، ورأى عنترة فيه واسطة العقد فى الأسمار والولائم . فلم يدع وسيلة يعبر بها عن شكره وشكر قومه إلا توسل بها . وكانت الكؤوس إذا دارت فى مجلسه كان عنترة أول الشاربين ، وإذا أنشدت الأشعار فى حلقات الندى كان شعر عنترة على كل لسان ، وإذا أقبل الفتيات فى حلقات الرقص كان هتافهن باسم عنترة ، وما كان أحب اليه أن يسمع اسمه الجديد من أفواههن وهن ينادين عنترة بن شداد .

وسار عنترة ليلة من تلك الليالى مع عبلة وهو مخمور بخمرين : من الكؤوس العدة التى دارت عليه فى مجلس الملك زهير ومن حديث ابنة عمه التى كانت تهمس به اليه فى تهاتف من ضحكها وأنغام من صوتها الرخيم . وكان أحياناً يصف لها بعض ما كان بينه وبين فرسان طيىء من مواقف فى يوم المعركة ، وأحياناً يعيد عليها ذكر بعض مخاطراته فى سير الصحراء فى الليالى المظلمة ، والغول تلوح له ، والجن تتراقص أمام عينيه ، وأحياناً ينشدها من شعره ويحدثها بنجوى قلبه . ثم خطرت له ذكرى ما كان القوم يتحدثون به عن خطبة عمارة بن زياد لها فقال فجأة :

— أحقاً ما يقولون يا عبلة ؟

فقالت له باسمة : وما يقولون يا ابن عم ؟

فقال وقد أطربه نداؤها : إنك تسألينني كأنك لا تعرفين ما أقصد ياعبلة . لقد عهدتك تدركين ما وراء اللفظ قبل أن أنطق به .

فضحكت عبلة وقالت : أحقاً ذلك ياعنترة ؟

فقال عنترة : ألا تذكرين إذ كنت تسألينني عن أمر فأقول (لا) فتضحكين مني ، فإذا سألتك عن ضحكك قلت انني ما قصدت ان أقول لا . انك تحسين بالالهام مالم يقع بعد في سمعك . فما الذي جعلك تسألين عما يقولون ؟

فقالت عبلة ضاحكة : لقد كنت أنت الذي لا تدرك إلا ما وراء اللفظ يا عنترة ، فأنت ترى دائماً من ثنايا حديثي ما لم أقل لك . وانك لتزعم انك تعرف من معاني قولي أكثر مما أعرف . ألا تذكر أنت إذ سألتني بالأمس عن عمارة فلما أجبتك لم يعجبك جوابي وأبيت إلا أن تزعم انني أراوغك . إلا أنك أنت الذي تراوغني اليوم .

فقال عنترة : لقد فهمت قصدي بالمامك فقد ذكرت عمارة .

فقالت عبلة ضاحكة : أف لك ولمارة ياعنترة ! إن الناس يتحدثون فى شأنه وليت شعرى أى أحاديث الناس تقصد . فليس لهم من هم فى ليل أو نهار إلا أن يتحدثوا . إنهم يتحدثون إذا أكلوا ، و يتحدثون إذا شربوا ، وهم أكثر حديثاً مثلك الآن اذا حميت سورة الخمر فى رؤوسهم . هم يتحدثون إذا صحوا و إذا ناموا فأى هذه الأحاديث تقصد ياعنترة ؟

فقال عنترة : لست أبالى ما يقولون فى ليلهم أو نهارهم إلا إذا كان عنك أنت .

فقالت عبلة : وماذا يهمك من هذه الأحاديث ، وقد طالما سمعتك تقول إنك لا تبالى ثرثرتهم ؟

فقال عنترة فى نغمة عتاب : أنت ياعبلة تعبثين بى كعادتك ، وأنا بين يديك أضعف من فرخ اليمام وأخف من ريشة فى الهواء . ذرينى ياعبلة أعرف مافى قلبك .

فقالت فى دلال : وأين ادعاؤك أن شيطانك يلهمك ؟

فقال عنترة : إن هذا الشيطان لم يستطع يوماً أن يسبر غور قلبك . إنه لا يسبر إلا غورى ولا يكشف إلا قلبى . أما أنت فانى أجلس معك وأسير إلى جانبك ، وأعرج فى السماء إلى حيث

أحيا فى عوالم سحرية من السعادة تلهينى عن كل هذه الأرض ، ثم أنصرف وقلبي فى حيرة بين الأمل الذى يلوح لى والقلق الذى يساورنى . فأنظر حيناً إلى الأرض فأراها جنات فيحاء تحيط بها الأنهار وتتفجر فيها العيون و يبتسم فيها الزهر و يغنى الطير ، ثم لا ألبث أن أحس الشجون تثور بى فلا أعرف أأنا أطأ الأرض بقدمى أم أنا فوق لجة تضطرب بى . ومع ذلك فإن شيطانى فى شغل عنك بى .

فقالت عبلة فى مرح :

— هذا هو شعرك دائماً ياعنترة . تحدّث وأطل فى الحديث فإنه ينزل على سمعى كما يقع الندى على أوراق الشجر .

فقال عنترة فى شىء من الألم :

— إنه حديثى . و إنه شعرى . نعم فأنا أحدثك وأصف لك حروبى وأطرب كما سمعتك تستزيدين من وصفى . ولكنه دائماً قولى وشعرى ووصفى . وأما أنت فلا تزالين دونى مثل النجم أبعد ما يكون إذا بدا قريباً . و إنه ليحزننى ألا أسمع منك إلا ذلك الإعجاب بما أقول و بما أصف .

فقالت عبلة فى شىء من الضيق : وماذا يرضيك أن أقول؟

فقال عنترة فى صوت متهدج :

— لقد خدمتك أخلص ما تكون خدمة العبد ، ولم أستشعر معك كبراً . وكم جثوت تحت قدميك وأنا أقدم لك قعب اللبن لتشربى منه ، وكنت أقول لك من أعماق قلبى (هنيئاً) . أنت أبداً علالتى فى الحياة وكنت أطمع أن أكون عندك شيئاً . كنت أطمع أن أسمع قلبك ينبض مرة من المرات مستجيباً لخفقان قلبى .

فضحكت عبلة ضحكة بعثت رعدة إلى قلب عنترة ، ثم قالت :

— ألا تمسك يا عنترة عن وصف نفسك هذا الوصف الذى لا أحب أن أسمعه منك ؟ إنك ابن عمى عنترة وأنت تعلم أنى ما نظرت إليك يوماً إلا نظرتى إلى ابن عم لى .

فقال عنترة فى شىء من الحنق :

— إنها كلمات جوفاء لا تحمل إلى معنى .

فاستمرت عبلة فى ضحكها وقالت :

— ألست عجيباً يا عنترة ؟ ليتنى أعرف السبيل إلى كلمة ترضيك فأسرع إليها .

فقال عنترة فى حرارة :

— أنت لا تعرفين الكلمة لأن قلبك لا ينطوى عليها . وما طلبى ولجاجتى إذا كان ما أطلب مستعصياً ؟ قولى لى قولاً صريحاً يا عبلة ولا تتجملى . قولى إنك ترحمينى أوأنك تعطفين على أو أنك تشعرين السرور من قصصى وحديثى وشعرى . قولى ذلك ولا يأس عليك فإنى أعرف كيف يبدو لك وجهى . لقد طالما وقفت أمام الغدران أنظر إلى صورتى فلم أر فيها غير لونى الأسود وعينى المتقدتين يطير منهما شعاع مخيف . فلا بأس عليك إذا أنت لم يطر بك منى سوى حديثى وشعرى .

فقالت عبلة فى بعض ضجر :

— إنك تذهلنى بسيل حديثك الخانق ، حتى لقد ارتج على القول فلا أجد لك جواباً .

فقال عنترة فى غضب :

— ما أحمقنى إذ أحاول أن أنتزع القول منك قسراً .

فقالت عبلة وقد ذهب عنها مرحها :

— يخيل إلىّ أن قولك هذا يحمل من الجد فوق ما كنت أحسب . ماذا فعلت يا عنترة حتى استحق منك هذا العتاب .

لقد بعدت فى القول عما بدأت فيه . ألا تقول لى ماذا تعنى ؟

فقال عنترة في حرارة :

— إننى أسألك عن نفسك أنت . قولى لى الحق ولا تترفقى بشقائى . قولى لى انك فوق نظراتى وفوق عبادتى .

فقالت عبلة فى تبرم :

— قول عجيب وحق مناة . ألاح لك منى ما ينم عن شىء تكرهه ؟

فقال عنترة فى صوت متهدج :

— أنت تتجاهلين ما تعرفين . وتتجاهلين ما يتحدث به الناس جميعاً فى نواديهم وفى بيوتهم . ألم يخطبك عمارة بن زياد وأنت تحجبين ذلك النبأ عنى ؟ ألم يولم له أبوك وليمة كأنه ملك؟ أما كنت تخدمينه وتسعين فى البيت تستحثين الإماء لكى يبالغوا فى إكرامه ؟ هذا أنت منذ الليلة تروغين ولا تريدين أن تتحدثى بكل هذا الذى تعرفين .

فقالت عبلة واجمة :

— عجباً منك يا عنترة أهذا هو ما تعنى ؟

فقال عنترة مندفعاً فى غضبه :

— إنك تتخذينني لعبة ولا تريدين أن تكشفي لي عن حقيقة نفسك . الويل لعمارة والويل ثم الويل لك إذا اتجهت منك لفتة إلى عمارة .

فقالت عبلة غاضبة :

— إنك ترميني بسهام في هذه الدفعات الحانقة . ثم أنت هذا تجبهني وتطعن قلبي وتناديني بالويل .

ودمعت عيناها عند ذلك واندفعت تسير عنه غاضبة .

فقال عنترة مترفقاً وهو يسرع وراءها :

— عفواً يا عبلة فإن شقائي هو الذي حرك لساني .

أأقول لك الويل وإن دمعة من عينيك أفتديها إذا استطعت بحياتي ؟ ويلي أنا وتعساً لي ! وحاشاك أن يحل الويل ساحتك يا عبلة !

ولكن عبلة سارت في طريقها صامتة ومسحت دمعها بطرف كمها .

واستمر عنترة قائلاً :

— ألا تقولين لي إنك عفوت ؟ أحقاً أنت رضيت بابن زياد زوجاً ؟

فقالت عبلة غاضبة :

— وما شأنى فى زياد وابن زياد ؟

فقال عنترة مترفقاً : قولى كلمة يستقر لها قلبى . إنهم يتحدثون ويملأون صدرى شقاء . فهل رضيت به حقاً ؟

فقالت عبلة فى حنق :

— وما أنا وذلك ولست إلا فتاة ، جاء ضيف إلى أبى فسميت مع أهل بيتى فى خدمته ؟

فقال عنترة فى لهفة :

— ورضاؤك ؟

فقالت فى شبه سخرية :

— رضائى ؟

فقال عنترة ضارعاً :

— نعم رضاؤك يا عبلة . أترضين به زوجاً ؟

فقالت عبلة فى تحد :

— وما رضائى أنا يا عنترة ؟ فهل أنا إلا فتاة فى بيت أبى ؟

فقال عنترة مندفعاً :

— ستذهبين إذاً إلى بيت ابن زياد إذا رضى أبوك .

ستكونين إذاً له زوجة إذا قبل مالك بن قراد . ستذهبين إذن كما تذهب الأمة مع سيدها .

فقالت عبلة غاضبة فى كبرياء :

— كف لسانك يا عنترة لست أمة ، وما ينبغى لى أن أكون أمة . إنما الأمة غيرى .

فصاح عنترة فى حنق :

— نعم الأمة غيرك يا عبلة . إنها زبيبة أمى .

فقالت عبلة فى جفاء : قل ما بدا لك فلن أجيبك .

فقال عنترة فى صوت أجش :

— الآن قد برح الخفاء يا عبلة وانجلى الظلام الذى كان يحجب الحقيقة عنى . الآن عرفت ما كنت أبغى أن أعرف . ما كان أحمقنى إذ كنت أسعى إلى أن أعرف هذا الذى عندك فأرتد شقياً بعد أن كنت أمرح فى جهالتى سعيداً . إذن فهو زوجك ابن زياد الذى يرضاه أبوك وترضينه يا عبلة .

وأما أنا فلست إلا ابن زبيبة الذى يحدثك ويزجى لك وقت فراغك .

ثم ثار وقال فى وحشية :

— إننى ابن زبيبة ، ولن يذهب هذا العار عنى. فلأذهبن إذن مع سيول من الدماء وعواصف من اللهيب ، فإن دون ابن زياد لمهالك تنقطع دونها همته . ألا فاعلمى يا عبلة أن ابن زياد لن يقرب منك ، فأنت لى أنا . أنا الذى أحببتك وعبدتك ولا أستطيع أن أحيا إلا بك . أنا ابن زبيبة الذى اشتريت حريتى بسيفى من أجلك .

نعم من أجلك أنت يا عبلة . ألا فاذكرى يا عبلة قولى .سوف أبعث إليك ليلة زفافك برأس هذا الفتى الوسيم لتكون هدية عرسك ، ولن تزال العرب تتحدث بذكرها أبد الدهر .

تذكرى هذه الهدية التى سأهديها . فإذا ما حانت ليلة زفافك إلى عمارة فاذكرينى واذكرى هديتى .

وكانا قد قربا من بيت عبلة ، فوقف عنترة يعترض سبيلها ليتم لها فيض حنقه . ولكنها لم تنظر إليه ، ومضت مسرعة نحو بيتها . ووقف عنترة حيناً ينظر فى أعقابها وكأن ناراً تلتهم قلبه ، ثم دار فجأة على عقبيه واتجه نحو الصحراء ، وذهب يخبط الأرض برمحه وهو لا يدرى إلى أين يتجه .

٨

خلا شعب الجواء من منازل مالك بن قراد منذ نزح بأهله إلى أرض شيبان ، وقد ضاقت به الحياة فى قومه منذ جهر عنترة بما ينطوى عليه قلبه من حب عبلة والتعلق بها ، وما اعتزمه من عداوة كل من يجرؤ على طلب زواجها . وكان مالك يضمر فى قرارة نفسه إحساساً بالمعرة من أن يعطى ابنته لعنترة وإن كان فارس قومه وحاميهم ، وما كان مثله ليصهر إلى رجل ولدته زبيبة الأمة، فيمزج دماءه بدماء عبد وإن كان ذلك عنترة الفارس وابن أخيه . وكان عمرو بن مالك أشد من أبيه أنفة وكبراً ، فهو يؤثر صديقه عمارة بن زياد السيد الوهاب المنحدر من سلسلة الأمجاد من الآباء والحرائر من الأمهات والجدات . ولم تكن عبلة بأقل ضيقاً وألماً من أبيها ، فقد وجدت نفسها قطب الأحاديث فى نوادى قومها وهدف الحسد من صاحباتها ، لا يخلو يوم من نفرة فى الحى من أجلها ، حتى كاد القتال يدور بين طوائف متنازعة فى قبيلتها ، فمنهم من يهتف بعنترة ومنهم من يتحيز لعمارة ، وهم فى كل يوم وفى كل ليلة يتصادمون ويتنازعون

حول اسمها . فانطوت على نفسها كئيبة لا ترضى بأن تزور ولا بأن تخرج للقاء من يأتى اليها فى زياره . وكان صاحباتها كلما جئن اليها لا يجدنها على عادتها مرحة مستبشرة تملأ المجالس بهجة وتبعث فيها روحاً من صوتها العذب الضاحك .

وكان ألمها يزداد كلما تذكرت ما كان بينها و بين عنترة فى تلك الليلة، إذ سار إلى جانبها وقال لها إنها ستذهب إلى بيت عمارة كأنها الأمة الأسيرة ، ولم يتردد فى غضبه أن ناداها بالويل وأغلظ فى حديثها ولم يرض منها بما كانت تهدهد به نفسه من مواساتها واعتذارها . بل إنه هددها بهديته الدموية إذ قال إنه سوف يرسل إليها رأس عمارة ليلة زفافها .

وكانت فى اعتكافها ساكنة تقضى أكثر الوقت فى فراشها، وتبكى أحيانا ولا تدرى ما الذى أبكاها ، حتى حال لونها وذبلت نضرتها وامتلأ صدرها كآبة .

وضاق المقام بأبيها مالك وحار فى أمره كيف يطيق الحياة وهو يسمع الناس ينشدون شعر عنترة فى ابنته و يستعيدونه فى مجالسهم . وكانت أنفته تثور ولكنه كان لا يستطيع أن يقاتل الناس كل يوم وهم لا يفعلون إلا ما تفعل العرب فى إنشاد

أشعار شعرائها . ولـكن ولده عمرو كان لايمسك نفسه ، فكان لا يمر بقوم يتغنون بذلك الشعر إلا بادرهم باللفظ الخانق وهمّ بقتالهم . فأشفق مالك من ذلك كله ولم يجد له مخرجا الا أن يغادر أرضه و يرحل إلى أصهاره فى بنى شيبان .

ولم يطق عنترة كذلك البقـاء فى قومه ، فهام على وجهه فى الصحراء ، فكان لايلم بالحى إلا بين حين وحين. وكانت زيارته لا تزيد على أن تكون الماما بشعب الجواء فيقضى منه أر به من تنسم نسيمه وانشاد بعض الشعر عنده ، ثم يعود إلى صحرائه ليضرب فى شعابها ، حتى تغيز وأصبح لا يكاد يرى مجامع الناس .

وعاد يوماً إلى طلل دار عبلة وهو أشعث أغبر ، قد برزت وجنتاه وغارت عيناه واصفر لونه الأسمر ، ولم يبق منه سوى عينين تأتلقان ، كأن شعاعهما بريق السيف فى ضوء القمر .

وجاء إلى طلل الدار فجال بين مواضع نيرانه وآثار أوتاده ، و بقايا النؤى التى كانت تحيط بخيامه ، ثم وقف مبهوتا يمسك أعلى رمحه المركوز فى الرمل بيديه مستندا بذقنه عليه ، كأنما هو تمثال فى خرائب معبد مندثر .

وقضى ساعة وهو يتأمل ما تحت عينيه ، فهناك كان خباء

عبلة ، وهناك كانت تقبل عليه باسمه تتناول منه قعب اللبن في الصباح ، وهناك كانت تضحك مكركرة إذا سمعته يهمس لها بكلمة حب، وهناك كانت تقف ناظرة اليه في عطف وهو يصف لها آخر مغازيه ، حتى إذا ما انتهى أرهف أذنيه ليسمع منها كلمتها التي كان يكتفي بها لشفاء غلته .

ثم تذكر كيف أتى اليها عند ما سمع بمرضها فلم يأذن له أبوها برؤيتها ، فلما أرسل اليها أمه لم تجد منها سوى البكاء ، ولم تسمع منها إلا كلمات يبدو فيها الخنق والحزن . ونظر إلى بيوت الحي المنثورة في أنحاء السهل ، فأحس من نفسه دفعة إلى أن يمضي اليها فيطعن من فيها برمحه ويضرب فيهم بسيفه حتى لا يبقى أحداً بعدها في تلك الديار التي كانت هي صاحبتها وهي النازلة فيها . فما هذه البيوت بعد أن خلت منها ؟ وما تلك القبيلة كلها بعد أن رحلت عبلة عنها ؟

ثم جعل يتغنى ببعض شعره وهو متكيء بذقنه على يديه مستنداً على رمحه لا يحس شيئاً مما حوله ، حتى أقبل أخوه شيبوب من ورائه فسمعه وهو يقول :

خليلي أمسى حب عبلة قاتلي   وبأسي شديد والحسام مهند

حرام على النوم يا ابنة مالك ... ومن فرشه جمر الغضا كيف يرقد
سأندب حتى يعلم الطير أننى ... حزين ويرثى لى الحمام المغرد
وألثم أرضاً كنت فيها مقيمة ... لعل لهيبي من ثرى الأرض يبرد
رحلت وقلبي يا ابنة العم تائه ... على أثر الأظعان للركب ينشد
لئن يشمت الأعداء يابنت مالك ... فان ودادى مثلما كان يعهد

فناداه شيبوب من ورائه قائلا :

— ها هى ذى ركائبك يا عنتره حاضرة .

ونظر إليه عنترة فى فتور ، ثم نزع الرمح من الرمل وسار يجرر رجليه وهو صامت ، حتى ركب فرسه ، وسار أخوه يسوق الإبل المحملة من ورائه . وبقى عنترة على إنشاده كأنه يهمس به إلى نفسه حتى بعد عن الحى وأوغل فى الصحراء .

وأقبل الليل فتقدم إليه أخوه شيبوب وسأله النزول فقال عنترة واجماً :

— لوددت أن أسير ليلى ونهارى ، فانى لا أطيق أن استقر يا شيبوب .

فقال شيبوب عاطفاً :

— ولكنى لست مثلك ياعنترة ، ولا بد لى من أن أذوق من

الطعام والخمر بعد كل يوم . ثم مضى ليوقد النار ويعد الطعام .
وجلس عنترة وحده يناجى شجونه حتى عاد إليه شيبوب يحمل الطعام ، ولم يستطع أن يقاومه فذاق معه شيئاً، ثم أخذ منه كأساً بعد كأس وهو يغمغم بين حين وحين فى نفسه ببعض الشعر ، ثم اتجه بعد حين إلى شيبوب وقد حركته الخمر فقال :

— هذا الفضاء الفسيح يشملنا وحدنا ، فكل ما فيه من وديان وتلال وأغوار لنا وحدنا . ولو كان فى هذه الوديان أموال لم يمتنع علينا شىء منها . فأنا ملك هذه الأرض يا شيبوب .

ثم تردد حيناً وقال فى حزن :

— ولكنى لا أطلب من هذه الحياة شيئاً . وما أصنع بالمال وقد فقدت عبلة ؟ إننى لا أعبأ بهذه الإبل ، فمسحل بن طراق الكندى يملك منها آلافاً ويسوقها صداقاً لعبلة ، وفى بنى شيبان يملك مثلها قيس بن مسعود لكى يهبها مهراً لعبلة عن ابنه بسطام، ويملك عمارة مثلها وهو يتقدم بها إلى مالك ليزوجه بعبلة . كل هؤلاء يملكون الإبل فتعساً لها وبعداً لمن ملكها !

وكان شيبوب قد أفرغ كأسه وقال فى مرح :

— لو كنت عنترة لقصدت إلى شيبان فنزعت عبلة من بين

ظهرانيهم وخرجت بها إلى البر كما يخرج الأسد بفريسته .

فقال عنترة : ويلك يا شيبوب ! بل أذهب إليها لكى أذرف دمعى وأدفق ما فى قلبى حتى ترضى عنى .

ولاحت عند ذلك سحابة من الطير تضىء بشعاع القمر تيمم نحو الغرب ، فقال عنترة وهو ينظر إليها :

— ليت لى جناح هذا الطير فاذهب حيث شئت وأنتقل مع سرعة خاطرى إلى حيث تتوق نفسى .

بل ليت لى مثل جناحها فأحلق فوق هذه الأرض وأقذف عليها من السماء حمما حتى لا يبقى عليها غير عبلة يا شيبوب .

إنهم لا يزالون ينظرون إلىّ كما ينظرون إليك . إننى ابن زبيبة وإن نسبنى شداد اليه .

فقال شيبوب ضاحكاً :

— لست أبالى كيف ينظرون إلى .

فقال عنترة : لقد كدت أحسدك على نفسك يا شيبوب ، فانى ما زلت حيث كنت بعيداً عن سعادتى ، ألمحها أمامى وهى تهرب منى كما يهرب الجبان الذى يركب مهراً سريعاً .

لم يكن الرق هو الذى يحول بينى وبينها ، بل هو لفظ يسترون

به ما فى نفوسهم من الكبرياء الضعيفة . ليس الرق سوى وهم يرضى به الضعفاء ضعفهم ، فهم لا يجدون ما يميزون به أنفسهم إلا أن يهبطوا بمثلى إلى ما دونهم ، حتى يلوحوا فى الأعين أعظم من عنترة .

فقال شيبوب وهو يملأ كأساً :

— أنت تحس الذل لأنك تحتاج إليهم . إن هذا الغل الذى تضعه حول عنقك هو الذى يذلك وليس ما تحسبه من كبريائهم . إن هذا الذى تسميه الحب أسميه أنا الرق والذل . فعجبا منك إذ تقوى على هذه الدماء تسفكها ولا تقوى على قيدك الذى تقيدك به فتاة .

فقال عنترة وهو يجرع كأسه :

— لست ألومك يا شيبوب لأنك لا تحمل نفسى . ولو كان لك قلب لما تحرك إلا كما يتحرك قلبى . أنت تخادع نفسك حتى ترضى بما أنت فيه .

فقال شيبوب : إنما العبد من يستمد من الناس حريته . إننى أعيش لنفسى ، وإذا نظرت إلى هذا الناس لا أكاد أرى منهم أحداً سواك أنت وأمى وإخوتى . أما سائر الأحياء فإنى

أمقتهم وأخدعهم وأخونهم ، ولو استطعت أن أفتك بهم لما ترددت لحظة . إننى أسرق أحياناً وما بى من حاجة إلى الذى أسرقه، وأكذب وليس ما يدعو إلى الكذب . وما ذلك إلا لأنى أمتع نفسى بأن أوقع بهم الغيظ وأسخر منهم . ولست أجد عفة عن نسائهم ولا غضباً لأعراضهم، ولولاك لكنت أطعن فى الحرب فى ظهورهم . أما قلت لك إنك لن تجد منهم غير ما أجد أنا ؟ فما الذى يجشمك هذه المتاعب فى طلب ما لا يجديك معهم نفعاً .

فقال عنترة : هذا قضائى وليكن لك ما ترى . سأذهب إليها لعلى أنظر إلى وجهها ، ولعلى أجد الدمع قد جف من مقلتيها . ثم لن أزال بهذا الرجل حتى أعلق كبرياءه ، ولن أزال بابنه الأحمق حتى أهدهد غروره . سوف أتذلل وسوف أبكى وسوف أقتحم اللجج والنيران . سوف أخدم شيبان وأرعى لها إبلها كما كنت أرعى إبل شداد لكى يرضوا بمقامى قريباً منها .

فقام شيبوب وأخذ كأسه فى يده ورفعها قائلا :

— أحمق ورب الكعبة ! أنهم لا يريدون وحق مناة إلا أن يرموا بك فى المهالك ولا يروا لك وجهاً .

وأما أنا فانى لن أعدل بهذه الكاس شيئاً . وهى عندى خير من عبلة وكل قومها . أنا أعرف كيف أحيا وكيف أنعم بطعامى وشرابى ، وكيف أصل النساء ، وكيف أقتنص الوحش. فلا أظنك تحرص إلا على الوهم الذى يصوره لك الخيال . اذهب كما شئت والتمس ما شئت . فانا أحب أن أكون معك ولن أتخلى عن صحبتك . أنك تحبها لأنك تطلب علالة لحياتك ، وأنت تجد لذتك فيما تأمل . وأما أنا فانى أجد لذتى فيما أذوق وأقارف . أنت تسعى وتتألم وأنا أحيا وأتنعم .

ثم شرب كأسه وقال وهو يرقص :

هات اسقنى من خمرة بالكاس أو بالجرة
شقراء مثل الدرة عاطرة كالزهرة
بنت كريم حرة أودع فيها سره
والليل يجلو بدره والنجم يرعى فجره
لكل ليل بُكره لكل حى حفرة
ما العيش إلا مرة

وكان عنترة ينظر إليه باسماً حتى إذا ما انتهى من إنشاده قال له : لقد كدت يا شيبوب تفتننى .

٩

قضى عنترة ليالى فى سجنه يتوجع ، ولم تكن الجراح التي أصابته هى التى توجعه ، لأن جرح قلبه كان أشد ألمًا . فقد أتى إلى العراق يطلب المهر الذى طلبه أبو عبلة من النوق العصافير ، التى كان الملك النعمان يملكها ، ولم تكن فى قبائل العرب قبيلة تعرفها .

كانت بيضاء كأنها وعول الجبال ، خفيفة كأنها الغزلان ، طيبة الألبان كالبقر ، حلوة المنظر كالمها ، طيبة اللحم كأنها الحملان . وأبى مالك إلا أن يكون مهر عبلة من هذه النوق التى يحميها النعمان فى مراعى الحيرة ، ولا يجرؤ على الاقتراب من حماها إلا مستيئس من الحياة .

وأتى عنترة يضرب فى الصحارى نحو العراق وصورة عبلة ماثلة أمام عينيه عند كل ثنية وعند كل مرقب . وما كان أحب إليه من تلك المخاطرة الجريئة التى اعتزم أن يخاطر بها ، لأنه كان يجد فيها مجالا لمجد جديد يسمو به إلى الحبيبة التى كان لا يرى فى الحياة شيئًا يستحق أن يحرص عليه إلا حبها . وكان فى أثناء سيره فى

تلك الصحارى الجاهمة يردد كلمات عبلة التى قالتها له وهى تودعه أمام بيت أبيها فى بنى شيبان إذ قالت له : « سوف أنتظرك حتى تعود وإن طالت غيبتك » . وكان يستعيد حديثها فى ليلة الوداع وهى راضية باسمة تقول له « هكذا أراد أبى ، ولو كان لى الاختيار لما اخترت إلا ابن عمى » . كانت كلماتها كلها مسطورة على قلبه يدخرها كأثمن الكنوز ، كما يدخر المقطوع فى الصحراء الماء فى الأحواض البراقة الملساء فى بطون الجبال ليطفىء به حرور الهجير . وكانت نظراتها العاطفة إليه وهو يثب على فرسه (الأبجر) لاتزال تطلع عليه كالقمر فى الليلة الظلماء إذا أطل فى مهمه القفر على السائح الذى ضل السبيل فيه . كانت بسماتها ونظراتها تتردد فى قلبه كأنها الأغانى التى تحدو سيره فى ذلك الطريق الوعر الطويل ، يقوى بها نفسه إذا أجهده الحر ، ويغذى بها روحه إذا أمضه الجوع ، ويجعلها سمره إذا شرب الخمر ، وحديثه إذا جلس إليه أخوه وصاحبه شيبوب .

ولكنه ذهب إلى العراق يطلب مطلباً عسيراً ، لأنه أقدم على مراعى النعمان وأراد أن يستاق منها ما شاء من الإبل العصافير . فما هو إلا أن أحس الرعيان به حتى أرسلوا النذر إلى الملك

العظيم فى الحيرة . وفيما هو يضرب فى اعجاز الإبل مسرعا نحو الصحراء أدركه الملك فى كتيبة من الفرسان فأحاطوا به و بالنوق التى استاقها. وكانت معركة بين فارس ثائر مستيئس وجيش لجب من الشجعان. فلم يستطع إلا أن يقاتل مابقى فى يده سيف أو رمح، ثم أثخنته الجراح وخرصريعاً ، وحمل إلى الحيرة بين الموت والحياة .

ورآه شيبوب يقاتل فى وسط الحلقة المخيفة فلم يستطع أن يخلص إليه ، فقد كان الموت يحول بينهما . ورأى السيوف تلمع والرماح تتقصف فى معركة هائلة ، فلم يجد خيراً له من أن يندس بين الصخور يرقب القتال ، حتى إذا ما رأى عنترة يخر عن جواده زحف متواريا بين الحجارة ، حتى جعل التلال وراءه ثم قام وأطلق ساقيه للريح .

وقضى عنترة فى السجن ليالى ما كان أطولها ، وكان أشد ما أصابه فى كل ما وقع به أنه خاب فى أن يحوز مهر عبلة ، وأنه قد حيل بينه و بينها فى ذلك السجن القاتم الذى كان النور يدخل إليه متردداً من فرجات ضيقة بين قضبان الحديد .

فكان ينظر إلى النجوم اللامعة يناجيها ، و يرى صورة عبلة فيها ، و يستعيد نظراتها و بسماتها فى لألائها و يسمع أصداء صوت

عبلة العذب فى نجواها ، ويرسل على شعاعها تحيات يائس من الحياة . ثم طلبه النعمان بعد أن التأمت جروحه لكى يرى الرجل الذى جاء إليه وحده غازيا ، وحمله النحس على أن يطلب المحال ويجرؤ على استباحة حماه . وأدخل عنترة عليه مقيداً فى سلاسله ، وقد جلس حول الإيوان شيوخ من تغلب وشيبان ينظرون إليه ويعجبون .

وكان الملك غاضباً يحاول أن يمسك نفسه حتى يسمع قوله قبل أن يوقع به العقاب ، فانه لم ير مثل هذا الأسود رجلا .

وتأمله النعمان ساعة وهو صامت ثم قال له :

— من أنت أيها البائس ؟

فقال عنترة ناظراً إليه هادئاً :

— أنت ترانى أمام عينيك .

فسرت همهمة فى الجلوس وصاح الملك :

— أسألك عن نفسك . أسألك عن قومك إن كان لك قوم . وما أحسبك إلا عبداً آبقاً .

فقاطعه عنترة قائلا :

— العبد غيرى !

فقال الملك وهو يحاول أن يمسك غضبه :

— أما تعرف ما فعلت ؟

فقال عنترة : جئت الى حمى النعمان لاستاق نوقه العصافير .

فقال النعمان فى دهشة :

— إنك امرؤ بين الحمق والجنون .

فقال عنترة ثابتاً : أتسمع منى هذرا ؟

فقال النعمان حانقاً :

— بل أرى أعجب من الحمق والجنون . إنك رجل واحد تأتى من أقصى الأرض لكى تسوق إبلى . أكنت تحسب أن لن يرد كيدك أحد ؟ لأقطعن أعضاءك ولأقذفن بك إلى حيث ينبغى لمثلك أن يلقى .

فقال عنترة مبادراً :

— كفكف أيها الملك غضبك ، فلست تأمن مثلى أن يرد عليك قولا بمثله . لست أخشى وعيدك وأنا فى يدك . و إنه ليحق لى أن أعجب منك إذ ترانى فى يدك ثم تهددنى . ولو شئت أن أرد عليك لكان مجال القول متسعاً . فما كان ينبغى لمثلك أن تأتى بى إلى مجلسك وتجمع هؤلاء الشيوخ حولك لكى تهددنى

بتقطيع أوصالى والمثلة بجسمى . وليس ما يمنعنى من أن أركب معك أوعر الوعر فى الخطاب .

فاربدّ وجه الملك وقال :

— لص جرىء :

فقال عنترة فى دفعة : بل مغير أتى يطلب الغنيمة .

فقال النعمان :

— ألك ثأر عندى ؟

فقال عنترة : بل جئت أطلب نوقك العصافير كما يطلب الأسد صيداً ، أو كما يطلب بعض هؤلاء العرب إبل بعض فى الغزوات . فما أنا أيها الملك وما أنت وما هؤلاء جميعاً سوى عرب يترددون بين وديان نجد وتهامة وهضاب الدهناء واليمامة وكلهم يسلب ويغزو . لست بالسارق أيها الملك إذا لم تكن أنت سارقا و إذا لم يكن هؤلاء جميعاً لصوصاً .

فسرت غمغمة عاليـة حول الإيوان وقال الملك فى غضب مكتوم :

— أقصر عن ذلك لا أم لك ، وحدثنى إذا لم تكن لصاً . أبعثك أحد على عينا ؟ أم استأجرك بعض أعدائى ليتحدث

الناس بجرأتك فيغض من قدري . قل واصدقني ولك مني حياتك.
فقال عنترة ساخراً :

— بل جئت إليك لأستاق إبلك لنفسي . وما كنت لأحارب لأحد غيري . وما كان مثلي ليدب إليك جاسوساً .

فصاح النعمان ساخراً .

— مثلك ؟ ومن أنت إذا لم تكن أحد هؤلاء الصعاليك الذين لاينتمون إلى قبيلة ؟ أو لعلك من هؤلاء الذين لفظتهم أقوامهم ليبرأوا من معرة جرائرهم فلم تجد سبيلا إلا اقتحام المهالك. وإن في وجهك الأسود لدلالة على صحة رأيي . من أنت أيها الأسود الكريه ؟

فقال عنترة هادئاً :

— أما وقد ذكرت سوادي فاعلم أيها الملك ما يملؤك فزعا . ثم تضاءل في نفسك واشكر مناة على أنك نجوت من قتالي . أنا عنترة بن شداد .

فسرت ضجة في الجميع وقال النعمان في دفعة :

— عنترة ؟

فقال عنترة : نعم أنا عنترة الذي تعرف . أنت تعرف من

أنا وتسمع الـكثير من خيرى . أنا عنترة فاملأ قلبك غيظاً إن شئت .

فمال النعمان إلى ظهر كرسيه وقال باسماً فى سخرية :

— لو صدقت لسرنى أن أراك فى القيود أمامى . إنك كنت تفزع الضعفاء وتقطع السبيل، وكانت القبائل تضج من اعتدائك . نعم لو صدقت لسرنى أن أراك مقيداً أمامى ، فقد دفعك الغرور إلى أن هممت باستباحة حمى ملك العرب . وحق مناة لو كنت عنترة لقد سعيت إلى هنا لتلقى عقوبتك .

فقال عنترة ضاحكا :

— وهل على أمرىء من عار إذا أخذ أسيراً ؟ هل علىّ من عار إذا أحاط بى جيشك وقادنى إليك بعد أن جدلت من أبطالك من جدلت وشردت من شردت وطاعنت حتى لم يبق فى يدى سنان ولا تحتى فرس ؟

فقال النعمان فى حنق :

— إنك تزعم أنك عنترة ومن لى أن أصدقك . إنك لا تقول هذا إلا كذبا لأجعل لك عندى قدراً .

فقال عنترة ضاحكا :

— وما الذى يحملنى على الكذب واتخاذ اسم عنترة شعاراً ؟ إنما أعرف أن هذا الاسم لا يحمل لى إلا عداوتك وكراهتك . لقد كنت أطمع فى عفوك لو كنت بعض صعاليك العرب بعد أن شهدت ما شهدت من بلائى فى حربك ، فقد كان ذلك يطمعنى فى عفوك لعلك تتخذنى سائر الحيـــاة من أعوانك . ولكنك تعلم أن عنترة لا يهب سيفه إلا لعبس ، ولست أطمع فى النجاة وأنا اجبهك بقولى فى إيوانك وبين شيوخ قومك .

ثم اندفع كأنه ينشد قصيدا فرفع رأسه ورفع يديه مباهيا فقال:

لكم كان لقومى من ثارات عندك وعند حلفائك ! ولكم وطئنا بلاد طىء ! وكم أخذنا من غنائم البحرين والعراق! وكم أغرنا على قوافلك فى الحجيج ! وقد كنت أنا فى صدر الكتائب أحوز الغنائم وأشتت الجموع .

فقال الملك غاضبا وسط صخب الغيظ من حوله :

— أتفخر على وتباهى بقتالى ؟ لقد كنت أطلبك أيها الشقى لأوقع بك عقابى . أتفخر على أيها الشقى فى مجلسى ؟

فقال عنترة : اننى أذكر الحق منذ سألتنى . ولست أخشى أن أقتل ، فكم قتلت من الشجعان ولم أشعر بخلجة ألم أو رحمة

فى فؤادى . لست أطمع فى الحياة وأنا الذى يعرف هوانها .

فقال الملك وهو يمسك نفسه :

— لم أكن لأطيل معك الحديث لولا أننى عجبت منك واردت أن أطلع على خبيئة أمرك . أليست عبس اليوم من حلفائى ؟ فما مجيئك إذا لم يكن طلباً للفخر، حتى تملأ فمك بأنك غزوت النعمان ؟

فقال عنترة فى هدوء :

— لا أيها الملك لم أرد بذلك فخرا .

فقال النعمان :

— انك فتى خدعك الناس منذ أشادوا بك وتحدثوا عنك ورددوا شعرك . فحملك زهوك على أن تسعى الى الأسد فى عرينه .

فضحك عنترة وأجاب :

— لكم سعيت إلى الأسود فى عرائنها . ولكنى أيها الملك لا أطمح الى حديث الناس عنى فانه لم يجدنى شيئاً .

فقال النعمان فى مرارة :

— ألم يجدك حديث الناس شيئا ؟ ألم يلحقك أبوك بعبس

بفضل هذه الأحاديث ؟ ألم تكن لولا تلك الأحاديث عبد شداد وابن زبيبة ؟

فقال عنترة فى دفعة :

— إن من يذكر أمى لا يأمن أن أذكر أمه .

فعادت الغمغمة الحانقــة إلى الجمع حتى رفع النعمان يده عابساً يهدئ الناس ثم قال :

— لا بأس عليك ياعنترة فإنها فلتة منى . وما كان ينبغى لى أن أقولهـا وحياتك فى يدى .

وصمت حيناً ثم قال فى لين :

— قل لى يا عنترة فيم أتيت إلى إذا لم ترد فخراً ؟ فهل بيّت قومك عداوتى فبعثوك لتثيرها ؟

فقال عنترة : لا أيها الملك إن قومى لا يعرفون أين مكانى وليس بهم حرص إلا على مودتك .

فقال النعمان : إنك تحيّرنى . فهل أنت مخبرى عن أمرك ؟ أم هو سر لا ينبغى لأحد أن يطلع عليه ؟

فقال عنترة متردداً : أما وقد أبيت إلا أن تعرف الحق فإنى لا أضن عليك به . أيها الملك . فما أتيت إلا لأطلب مهراً لابنة عمى .

فقال النعمان فى اهتمام : عبلة ؟

فقال عنترة : نعم عبلة أيها الملك .

فقال النعمان باسما : ولم تجد مهرها إلا من إبلى ؟

فقال عنترة هادئا : وانى لى أن أجد العصافير إلا فى مسارحك ؟

فقال النعمان : وعلى رغم أنفى ؟

فقال عنترة : لم اعتد سؤالا .

فقال النعمان ساخرا : ولو طعنك أحد هؤلاء طعنة نفذت من ظهرك ودقت عظام صلبك ؟

فقال عنترة هادئا : ما كنت اذن سوى أحد من يقتلون فى الحروب .

فقال النعمان فى سخرية : اما تخشى حزن عبلة ؟

فقال عنترة فى غضب : لو غيرك قالها ؟

فقال النعمان : اجب ولا تحجب شيئا . لقد قلت فى خطابى مالم يجرؤ احد على قوله، فما حرصك على رضائى ؟ قل ولا تحجب شيئا .

فقال عنترة : لست اطلب سخطك و إن كنت لا اباليه .

فقال النعمان : إنما أردت ان اعرف مقدار حبك لها . لقد تحدث الناس عنك وعنها حتى احببت ان اسمع منك حديثها .

فأطرق عنترة حينا ثم قال : أما إذ اردت ايها الملك ان احدثك عن عبلة فلست اضن به عليك . ان اسمها ليحلو لى اذا سمعته حتى لأحدث نفسى به لأسمعه خاليا .

إنها أيها الملكُ أعز على من انفاسى واحب من جوارحى . ولو كانت حياتى تدفع عن عينها دمعة لجدت بها راضيا . ولو اعترضتنى النيران فى سبيل تلبية كلمة منها لاقتحمتها . صورتها لا تزال تؤنسنى ، ونغم حديثها ما يزال يتردد فى أذنى . لا أعرف خيرا إلا ما ترضاه ولا شرا إلا ما تخشاه او تأباه . ليس فى الحياة جمال عندى إلا إذا كان فيه منها شبه ، ولو طويت لى الأرض لما كان فيها شىء يكافىء رضاها ، ولو طأطأت لى السماء حتى تناولت نجومها لأهديها اليها لوجدت ذلك دون قدرها .

فقال النعمان فى ارتياح :

إنك لتتحدث عنها حديثا عجبا . لقد سمعت شعرك ولكن فى حرارة قولك ما هو أوقع من الشعر .

فقال عنترة فى حماسة : هذا أيها الملك وصف اللفظ وليس

اللفظ سوى آلة ينقل بها الناس ما اعتادوا ان يحسوه فى نفوسهم من خسيس المعانى . إلا أن ما احسه فى نفسى لعبلة يضيق عنه اللفظ ، فهو ظل حائل وصدى فاتر لا يصف حقيقة ما أحمله لعبلة .

فقال النعمان فى رقة : اذن فقد جئت تطلب مهرها .

فنظر عنترة إليه كأنه يريد أن يتبين ما يقصد بقوله وهل عاد إلى السخرية منه .

وأدرك النعمان ما يدور فى نفسه . فقال مبادراً : أفتحب أن تعود بالعصافير من بابى ؟

فقال عنترة كأنه يحلم : إذن لبقيت لك أبد الدهر شاكراً .

فالتفت النعمان إلى رجل واقف عند رأسه وقال له :

ـــ امض به يا أبا الحرث إلى بيتك وفك قيوده وعد به أول شىء فى الصباح .

والتفت إلى عنترة باسما وقال :

ـــ و إنك منذ اليوم يا عنترة ضيفى .

فنظر إليه عنترة فى دهشة و بسط يديه حيناً وهو صامت ثم صاح بصوت متهدج :

أيها الملك ! أيها الملك !

ثم طوى نفسه وأطرق وأدار وجهه وسار يسحب قيوده ويجر أبا الحرث الموكل به من ورائه .

١٠

بقى عنترة فى الحيرة سنين لم يكن يحسب أنه سوف يقضيها فيها ، ولقى عند النعمان فى أثنائها مكانة لم يكن يحلم أن الأقدار تجرى بها ، وحاز من الغنى ما لم يكن يخطر بباله ، وبلغ من المجد ما لم يبلغه أحد من سادة القبائل .

وأقام فى جوار صديقه الفارس أبى الحرث صاحب النعمان ، وقد أنس إليه منذ عاشره وكان يطرب إلى سماع شعره ، فلا يكاد يخلو منه مجلسه إلا إذا سار فى كتيبة إلى غزوة من الغزوات ، فاذا عاد لازمه فى غدواته وروحاته وفى أماسيه ولياليه . ولم تبخل الأقدار على عنترة بالشرف الأعظم الذى كان لا يناله إلا الأفذاذ من أبطال العرب وأدبائهم بان تقرب من ملك الفرس كسرى . وكان عنترة بين حين وحين ينظر إلى خلفه ويذكر أيامه الخالية كما ينظر الواقف فوق رأس الجبل إلى الوادى البعيد الذى يراه دونه عند الأفق، فيراه غائما غامضاً يحيط به الضباب ولا تبدو منه

إلا أشباح ضئيلة تتحرك خافتة مثل أشباح الجن التى طالما ظهرت له أثناء تجواله فى ليل الصحراء . ولكنه كان يرى فى ثنايا ذلك الماضى الجاهم صورة حبيبة لم تستطع الأيام أن تمحوها . صورة عبلة التى وهب لها قلبه وجعل فيها مناط أمله . وكان لا يفتأ يتذكر كيف رحل من وطنه يطلب مهرها الغالى ، وكيف دفعه ذلك الحب اليائس إلى اقتحام المهالك حتى جرفته المقادير فأقام بالحيرة هذه المدة الطويلة، وضرب فى آفاق العراق وفارس، وحل فى قصور مدائن كسرى، وقاتل مع أقوام لم يرهم من قبل، وحارب أقواما آخرين لم يكن بينه وبينهم ثأر ، فحارب فى سبيل النعمان تارة وفى سبيل كسرى تارة كأنه قد أصبح وحشاً صناعته سفك الدماء . وكان كلما تأمل ذلك الماضى أحس شيئاً فى صدره يشبه الثورة والحنق ، فإنها الأقدار أقحمته فى عواصفها العنيفة وهو مرغم لا يكاد يستطيع منها إفلاتا .

وبلغت تلك الثورة بعد حين مبلغاً جعلته يقبل على الخمر لعله يغرق فى كئوسها همومه ، أو لعله يذهل عن ذكريات هذه السنوات بما فيها من مجد وما فيها من رق . فما كان مقامه عند النعمان ومحاربته أعداءه بأقل فى نظره من الرق وإن كان رقا تحيط به هالة كاذبة

من زخرف الحياة . وكان كلما فرغ إلى ذكريات حياته الأولى بدا له رقه الأول أهون قيداً وأخف ذلا . كان من قبل يغضب لأنه كان عبداً لشداد ، ولكنه كان لا يحارب إلا لقومه لكى يحمى حرمهم ويدفع الأذى عنهم ، أو لكى يفوز بالغنائم ويشتفى بإدراك الثأر من أعدائهم . كان يحارب من أجل عبلة وقوم عبلة لا من أجل هذه الأموال التى كان النعمان يغدقها عليه وهذا المجد الذى كان يلقى إليه أجراً لسيفه .

وأخذ يحس الملل يدب إلى نفسه شيئاً فشيئاً من المقام فى الحيرة ، ووجد أن ذكرى أرض الشرَبَّة والعلم السعدى تعاوده فى فترات متقاربة ، فلا يكاد يمر به يوم بغير أن تتحرك فيه شجونه عند الغدوات وعند الروحات . فإذا خلا إلى نفسه جاشت به وساوسه حتى جعلت الحيرة تصغر فى عينيه ، وحتى هانت عنده تلك الأموال والجواهر التى ازدحم بها منزله ، وخيل إليه أن هذه الأبل التى تعد بالألوف ، وتلك النوق العصافير تثقله وتقعد به عن العودة إلى موطن سعادته . وزاد قلقه إلى فراق الحيرة فاستأذن النعمان مرة بعد مرة فى السفر ، ولكنه كان يدافعه ويتمسك به حتى بلغ الضيق مبلغ منه التبرم ، فأقبل على الخمر يعب منها كل

ليلة ما ينسيه ضجره . وأشفق صديقه أبو الحرث عليه من ذلك الضيق فشفع له عند الملك حتى أذن له بالعودة إلى وطنه فسارع عنترة إلى الاستعداد وانتظر بقلب واجف يوم الرحيل .

وأعد له أبو الحرث مأدبة حافلة فى ليلة الوداع ، اجتمع فيها شيوخ الحيرة وفرسانها ، وكانت مأدبة صاخبة فى غنائها ورقصها وخمرها . وشارك عنترة بانشاده من شعره فيها ، وأخذت الفتيات تغنى بقطع من غزله فى عبلة ، حتى مضى أكثر الليل ، ولم يبق فى المجلس إلا صاحب الدار وعنتره . فقال أبو الحرث :

— من يدرى يا عنترة أين تدفع بنا الأقدار غداً . فلنجعل آخر عهدنا بالاجتماع حديثاً طويلا . وجلسا يتسامران ويشربان وقد مضى من الليل أكثره ، وهدأت ضجة الحيرة فى سكون عميق .

وقال أبو الحرث وهو يملأ كأسين :

— ألك فى كأس أخرى ياعنترة؟ إننى لا أزال أحس عطشاً.

فقال عنترة — لا بأس على إذا شاركتك فى أخرى .

فضحك أبو الحرث وهو يبادر إلى كأسه فيجرع منها جرعة

كبيرة وقال : إنك لم تشرب الليلة كعادتك يا عنترة . وكأنى بك لم تطرب .

فقال عنترة وهو يرشف رشفة من كأسه : إننى الليلة لا أريد إغراق شجونى .

فقال أبو الحرث : أما أنا فلقد راهنت على زقين من زقاق خانقين . وأحب لو راهنت على آخرين .

فقال عنتره : انت تعلم أنها تصدعنى ، وأن رأسى لا يلبث معها أن يدور .

فقال أبو الحرث وهو يقرب له الفاكهة : ألا تذوق من هذا التفاح يا عنترة ؟ إنه من جنى حلب وهو يكسر شرة هذه الخمر . ثم ملأ لنفسه كأساً جديدة ورمى فيها بعض زهر النارنج وأطال شمها ، ثم جرع منها جرعة طويلة وقال لعنترة :

— أراك تشم التفاحة وتتأملها معجباً كأنك تناجيها .

فقال عنترة وهو يقلب التفاحة فى كفه :

— إن فيها ما يهز نفسى .

ثم أخذ يغمغم فى صوت خافت وأبو الحرث ينصت إليه . ثم أنشد أبو الحرث :

أشاقك من عبل الخيال المبرج فقلبك فيه لاهج يتوهج

ونظر إلى عنترة قائلا أترانى حفظت هذا البيت يا عنترة ؟

فنظر إليه عنترة فى ارتياح وقال باسماً .

و إنك لشاعر يا أبا الحرث . إنك تحفظ الشعر منذ تسمعه .

واندفع ينشد سائر القصيدة حتى قال :

لئن أضحت الأطلال منها خواليا كأن لم يكن فيها من العيش مبهج

فصاح أبو الحرث متمماً :

لقد طالما مازحت فيها عبيلة ومازحنى فيها الغزال المغنج

أليس هذا هو البيت ؟ ثم ضحك ومال على أريكته فى فتور الخمر.

فقال عنتره ضاحكا :

— ما أحب إلىّ أن تكون راويتى .

ثم جعل ينتقل من قصيدة إلى أخرى وأبو الحرث يقاطعه بالبيت بعد البيت منها حتى مضى الليل وسمع عنتره صوتاً فقال لجأة :

— أما تسمع يا أبا الحرث حركة القوم ؟

فقام أبو الحرث إلى طنف البهو ونظر إلى البراح الفسيح الذى تحته وقال :

— صدقت يا عنترة . هذا الفجر قد بدا . وحق مناة إن هذا الرحيل يوحش ديارنا .

فقال عنترة وهو يقوم :

— لئن شكرتك يا أبا الحرث فلست بقادر على أن أوفيك حقك .

ثم فتح ذراعيه وعانقه عناقا طويلا .

فقال أبو الحرث : لئن كان فى الأيام مدة لكانت أمنيتى أن آراك .

فأجاب عنتره : ولئن تفرقنا فلقد عرفت فيك كيف يكون الصديق .

ثم صافحه ومضى خارجا وخرج أبو الحرث يشيعه صامتاً إلى المربد فى الفضاء الفسيح خارج البيت .

١١

سار عنترة فى ركبه العظيم يضرب فى الصحراء عائداً إلى أرض الشربة والعلم السعدى ، حتى قطع فيافى اليمامة ونجد ودخل الى أرض الحجاز. ولكنه كان كلما اقترب من وطنه خالجته الشكوك

والمخاوف ، وأحس كأن الشعلة المتقدة فى صدره تضمحل وتخبو. فكان بين حين وآخر يسأل نفسه عما هناك فى تلك الأرض التى كان يتحرق لكى يعود إليها . وهل اذا هو عاد إليها وجد عبلة لا تزال مقيمة على عهدها ؟ وكان أحيانا يبلغ منه الشك ان يسأل نفسه أهو حقاً يحبها كما خيل اليه أم هى لجاجة الوهم تزعم له انه لا يزال يحبها .

وكان أحيانا يتمثل نفسه كأنه لقيها وحدثها فلا يدرى كيف يكون حديثه وحديثها بعد أن فارقها تلك السنين ، و بعد أن عاشر من عاشر من أقوام لا يشبهونها . لكم رأى من النساء وكم استمع الى غناء القينات البارعات الحسن من بنات العجم والكرد والأرمن ، وكم اعتاد فى حديثهن أن يترفق وأن يعبث وأن يمجن . فهل كان الحديث السهل الذى اعتاده من قبل مع عبلة يواتيه اذا لقيها أم يمتنع عليه ؟ وهل يستطيع اذا رآها أن يتذلل لها كما كان يفعل ويسمى نفسه عبدها ، ويجد متعة فى كلمة يسمعها أو بسمة عطف يضىء قلبه بها ؟

ولم يخل قلبه كذلك من القلق كلما تأمل قومه بعد أن غاب عنهم تلك السنين . فهل يعود ليجد عمارة بن زياد ومالكا عمه

وعمراً ابنه ويجد أباه واخوته جميعاً كما تركهم؟ وهل يستطيع أن يعود إلى معاشرتهم وهم الذين عرف كبرياءهم وعنادهم؟ وهل يرضى أن يلقوه بما كانوا يلقونه به وهو عندهم عنترة الذى منّ عليه أبوه شداد ذات يوم بحريته وتفضل عليه بأن نسبه إليهم؟

كان كلما اقترب من وطنه ثارت تلك الشكوك فى نفسه حتى كاد يحس أنه قد صار غريباً عن قومه، وأنه قد أطاع وهماً كاذباً عند ما اعتزم أن يعود إليهم، ومفارقة قوم آخرين كان يعيش بينهم سيداً، ويسمر فى نواديهم، ويعاملهم ويخاطبهم ويقاتل معهم وهو عنترة بطل العرب. فهؤلاء الذين عرفهم فى الحيرة وفى المدائن لم يقولوا له يوماً يابن زبيبة، ولم يعيروه يوماً بسواد لونه ولا بهجنة نسبه. بل كانوا يعدونه سيداً كريماً لأنه كان سيداً كريماً، وقدموه وأعلوا مكانه لأنه كان جديراً بالتقديم والمكانة العالية. فما الذى حمله على أن يضيق بالمقام فيهم لكى يعود إلى هؤلاء الذين نشأ فيهم عبداً رقيقاً، وقضى معهم الحياة فى نضال وكفاح حتى خرج عنهم أخيراً يضرب فى الأرض لكى يطلب مهر عبلة من عرين الأسد؟ وقد حدثته نفسه مراراً أنه قد أخطأ وأن الأولى به أن يعود أدراجه إلى حيث يُقيم عزيزاً،

ويغالب هذا القلب الذى طالما أذله وعذبه . ولكنه مع ذلك سار فى طريقه يدفعه دافع غامض كأن الأقدار هى التى كانت تسيره نحو غاية لا يدركها . . . .

ولما صار فى أرض الشربة بعد طول السير رأى أن يعرج على الوادى الرملى الذى طالما شهده وهو يرعى إبل شداد ، ذلك الوادى الذى كان مسرح صباه وشبابه .

وخطر له ذكر شيبوب الذى أحبه وصاحبه وكان فى كل مكان معه ، فتارة كان جاسوسه وتارة كان رسوله ، وحينا كان خادمه وحيناً كان سميره ، حتى فارقه فى العراق بعد أن رأى الفرسان يحيطون به ويطعنونه ويصرعونه عن فرسه الأبجر . ولم يدر أكان ذلك الأخ لا يزال حيا يرعى إبل سادته أم قد مضى فى سبيله كما مضى عن الدنيا من قبله ويمضى من بعده . ذلك الأخ الذى عاش ما عاش عبداً مرحاً ينعم فى رقه ولا يعبأ إلا بطعامه وشرابه وصيده ونسائه ، ولا يرى الحياة إلا مهزلة لا تستحق شيئاً سوى أن يسخر منها ويلهو فيها ثم يمضى عنها مرحاً اذا حان أجله . . . . .

ولما اقتربت القافلة من الوادى رأى عنترة على البعد شخصاً

على ربوة فخفق قلبه وعادت اليه صور الماضى حية كأنه لم يفارق تلك الأرض إلا منذ ليلة . وصوّب بصره الى الشخص فجعل يتأمله ، وأحس شيئاً فى قلبه يتحرك اليه ، فهمز جواده وأسرع نحوه وهو لا يزال ينظر الى وقفته متكئاً على رمحه . فلما اقترب من الربوة رأى شيبوب ينظر اليه ولا يعرفه . فلما صار منه على مسمع ناداه باسمه ، فما كاد شيبوب يسمع صوته حتى وثب نازلاً فى قفزات واسعة وهو مشمر عن ساقيه الطويلتين فاتحاً فمه الواسع فى بسمة تكشف عن أسنانه البيضاء . وترجل عنترة ووجد نفسه بين ذراعيه وهو يقبل وجهه وكتفيه باكياً ويصيح : عنترة !

فقال عنترة وهو يضمه فى حرارة :

— أنت هذا يا شيبوب مرة أخرى . إنك لأول من أرى ، وإنك لأول من أحببت أن أرى .

فقال شيبوب بصوت مختنق :

— وأنت هذا أراك حياً . أنت هذا حى المسك بيدى وأضمك إلى صدرى وأحس دفء أعضائك .

ثم أرسله من ذراعيه ونظر اليه فى دهشة وقال :

— إنى لا أكاد أصدق عينى .

وجعل يصعد فيه بصره ويصوبه فقال عنترة وهو يأخذ بذراعه:

— أترى فىّ ما تنكر يا شيبوب ؟

فقال شيبوب فى هزة فرح :

— إن السرور يعقل لسانى .

فقال عنترة وهو يسير به بعيداً عن الطريق :

لقد افتقدتك ياشيبوب واشتقت إلى حديثك . فمل بنا إلى هذه الربوة فإن بى شوقاً إلى حديثك .

فقال شيبوب وهو ينظر نحو القافلة العظيمة التى كانت تسير مبطئة نحوهما :

— ألم أرك صريعاً وقد أحاط بك الفرسان يطعنونك ؟

أهذه القافلة لك ؟

فضحك عنترة وقال : أكمل قصتك يا شيبوب ، رأيت الفرسان يحيطون بى ، ثم أطلقت ساقيك للريح تطلب النجاة .

فقال شيبوب : وهل كنت لأغنى عنك شيئاً ؟ اننى فكرت فى مثل لمح البصر ان خير ما أفعله أن أهرب وأنجو بنفسى .

فقال عنترة ضاحكاً : لكى تأتى إلى هنا فتنتظرنى . إن الحياة حلوة يا شيبوب أليس هذا ما حملك على الهرب ؟

فأجاب شيبوب جادا : قلت أعود إلى قومك فأنعاك إليهم ، فما كل يوم يقتل مثل عنترة .

فقال عنترة : ونعيتنى إليهم ؟

فأجاب شيبوب : وقضينا شهراً نبكى . لكم بكت زبيبة . إنها لا تزال تبكى ولا تصدق أنك هلكت . وما زالت تزعم أنك عائد إليها وأنا أكذبها .

فقال عنترة فى رقة : مسكينة أمى . ما أحب إلىّ أن ألقاها .

وأمسك لحظة وهو مطرق ثم قال :

— وهؤلاء يا شيبوب . كيف حال هؤلاء ؟

فرد شيبوب فى امتعاض : أتقصد عبلة ؟

فقال عنترة فى اهتمام : كيف هى يا شيبوب ؟

فقال شيبوب مختصراً : هى امرأة .

وكانت القافلة قد بلغت موضعهما ، فصاح عنترة يأمر بالنزول، ثم التفت إلى أخيه فقال له .

— تقول هى امرأة ؟

فقال شيبوب : يجتمع الفتيات إليها كل يوم يرقصن ويغنين

قبل زفافها . لقد عرفت النساء وما هى إلا امرأة . هن يبكين يوماً ثم يرقصن ويغنين سائر الحياة .

فقال عنترة وهو يغمض عينيه : أهو عمارة ؟ أهو ابن زياد ؟

فقال شيبوب : إنك لا تزال تهواها .

فقال عنترة فى حزن : دع ذلك يا شيبوب ونبئنى هل هو عمارة ؟

فقال شيبوب : إنه هو . ذهب إلى أبيها بعد أن سمع أنك قتلت .

فصاح عنترة : ومن قالها ويلك ؟

فقال شيبوب فى خجل : ألم أرك صريعاً ؟ ألم أر الرماح تتخطفك ؟

فأدار عنترة وجهه فى حنق واستمر شيبوب قائلاً :

فرض عمارة على مالك ألف ناقة مهراً لعبلة . وهل كان أبوها المتكبر ليأبى ألف ناقة ؟ فرضى به مسرعاً ولم يسأل إذا كانت من العصافير أم هى من النسور .

فأطرق عنترة صامتاً وقال شيبوب ناظراً إلى القافلة العظيمة التي تغطى الفضاء .

— ولكن كيف بلغت هذا ؟

فارتاح عنترة إلى تغيير الحديث وقال فى حزن :

— أتسأل الأيام كيف تعبث بنا ؟ أنت رأيتنى فى حلقة الفرسان يطعنوننى ثم أسرت وسجنت . ثم جىء بى إلى مجلس النعمان ليقتلنى . ثم خرجت من المجلس أقرب الناس إليه .

فتبسم شيبوب وقال : ليتنى كنت معك .

فقال عنترة : ومن يدرى يا شيبوب لعل الأقدار كانت تجعل أجلنا معا .

فقال شيبوب ضاحكاً : أما وحق مناة لو كنت معك لكان لى مع القوم شأن .

فأجاب عنترة باسماً : ولكنك لم تبق معى والشكر لمناة .

فنظر إليه شيبوب فى إعجاب وقال : لشد ما تغيرت يا أخى !

فأجاب عنترة كأنه يحدث نفسه : لقد تقلب بى الدهر وهزهزنى . كم حروب شهدتها وكم بلاد رأيتها . قضيت هذه السنوات لاهياً عن نفسى فكنت لا أعرف إلا الحروب والدماء ، وكنت أسمع أصداء الحديد كأننى أسمع غناء العذارى . كنت مثل الوحش الضارى أحب شىء عندى منظر الدماء . لم

أحارب طلباً لثأر ، ولا دفاعاً عن حرم بل كنت أشعر بالغيظ يملأ قلبي كلما رأيت دونى قتالاً . فكنت أقتل وأقتل وأقتل ولا أشتفى مع ذلك غيظى . ولكن حدثنى أنت يا شيبوب عن قومك . كم غزوتم وكم غزيتم ؟ وكم غنمتم وكم غنم الأعداء منكم ؟ أما ذكرتم عنترة يوماً ؟ أما افتقدتم مكانى فى ليلة ظلماء ؟

فقال شيبوب فى حرارة :

ما زلت أذكرك فى صباحى ومسائى . وكلما تذكرت كيف رأيتك صريعاً وثبت من الألم كأن ناراً تحرق قدمى . وكثيراً ما ندمت على أنى لم أبق معك حتى نقتل جميعاً . كانت الحياة وحدى كئيبة يا عنترة . وها أنت ذا تعود إلىّ مرة أخرى . ولكنك تغيرت .

فأطرق عنترة صامتاً كأنه غاب فى فكره واستمر شيبوب فقال :

— لشد ما تغيرت يا عنترة حتى كأنك لست أخى . ولولم أكن أعرفك وأعرف كل جارحة فيك لكذبت نفسى . ولكنى أعرف كل أصبع من بدنك . فهذا جرح يوم عباعب وهذا جرح يوم المرير ، وهذا القطع أصابك يوم عراعر ، وهذا

الذى كاد يودى بك يوم غزوة طيء ، وهذه طعنة عمرو بن ود العامرى ، وتلك طعنة مسحل بن طراق الكندى . أتذكر ذلك الكندى الذى حاربته من أجل عبلة ؟

فرفع عنترة رأسه فى شيء من الحنق وقال :

— ولكن ما جدوى حديثك هذا ؟ إننى أسألك عن هؤلاء .

فقال شيبوب متودداً :

— إنى أذكر هذه الآثار لأنها تذكرنى بأنك أخى ، ولولاها لما صدقت عينى . إننى أكاد أخاف من النظر إليك وأشعر هيبة فى حديثك .

فلم يملك عنترة إلا أن يضحك فى حزنه وقال :

— ومع ذلك فأنت لا تحدثنى إلا عن نفسك ونفسى .

فقال شيبوب :

— وحق مناة ما رأتك امرأة إلا تمنت أن تكون لها بعلا . إسمع نصيحتى فأنا أكثر الناس علماً بهن . لقد خرجت من عبس وأنت عنترة . ولكنك تعود اليوم امرءاً آخر غير عنترة . لقد كنت أحبك لأنك أخى . كنت رفيقاً وكنت عنيفاً ، وكنت ذليلاً وكنت متكبراً ، وكنت قوياً وكنت

ضعيفاً . ولكنى كنت دائماً أحبك ولا أنكمش إذا نظرت إليك عابساً .

وأما اليوم فأنت رجل آخر . ومنذ رأيتك وددت لو صرت لك عبداً . فكيف يهذه النسوة إذا رأين كل هذه القافلة التى تسير وراءك ؟ وكيف بهن إذا رأين هذه الريشة التى فوق عمامتك وتلك اللآلىء البراقة التى تتلألأ من تحتها ؟

فضحك عنترة وقام يسير فى الوادى وشيبوب يسير وراءه وقال : أما إنك يا شيبوب لا تزال كما كنت خبيثاً . ألا تذكر كيف كنت توقد غيظى ثم تطفئه ، وكيف ترسل الحقد فى قلبي ثم تسله كما تسل الشوكة من الأديم ؟ أنت لا تزال كما كنت .

فقال شيبوب وقد اتسعت بسمته :

— أطعنى يا ابن أمى ولا تطع كبرياءك . إنك وحق مناة جدير بأن تكون ملكاً . ولسوف أخطب لك هند ابنة زهير سيد عبس .

فضحك عنترة وقال : حدثنى عن عبلة يا شيبوب فإن بى ظمأ إلى الحديث عنها .

فقال شيبوب : تلك التى زعمت أنها لك وأنها تنتظرك وإن

تطاول الانتظار بها آخر الدهر . إننى أريد أن أقطع قلبها كما قطعت قلبك .

فقال عنترة فى اهتمام : أما حزنت ؟ أما بكت ؟ أما شقت على ثوبها عند ما نعيتنى إليها ؟

فقال شيبوب: نعم بكتك. ثم حزنت حيناً . ولكنها أطاعت عقلها بعد ذلك ورضيت بابن زياد . وموعد زفافها يوم عروبة .

ثم جعل يعد الأيام على أصابعه وقال : بعد ثلاثة .

فصاح عنترة : تقول إنها رضيت ؟

فقال شيبوب : أما قلت لك إن أباها قد رضى ؟ سوف تحرق قلبها وقلب مالك بن قراد . سوف أزوجك من هند ابنة زهير . ولن يستطيع أخوها قيس أن يأباها عليك . . . أخوها قيس ، فإن أباها زهيراً قتل .

فقال عنترة حزيناً : هند . قيس . زهير . هذه كلها أسماء أسمع لفظها ، ولكن عبلة قد تزوجت . إنك قلت قد تزوجت . أليس هذا ما قلت ؟

فقال شيبوب : قلت ذلك .

فقال عنترة : إذن فهل قدر على أن أعود إلى عبس لكى

أرى عرسها وأنا بعيد آ كل قلبي غيظاً ؟ إذن لقد قدر على أن أقطع هذه الصحارى فى سبيلى إليها لكى أمر بعرسها آخر الأمر مكدوداً مثل المسافر المسكين الذى يريد الحج إلى الكعبة إذا مر فى طريقه الطويلة بقصر البخيل الذى يحيي وليمة للعظماء، فينظر إلى الأضواء المنبعثة من القصر ويسمع أصوات الغناء ويسيل لعابه من الجوع إذا شم رائحة الشواء، وهو يسأل بصوت خافت أن يرسلوا إليه طعاماً فلا يسمع أحد صوته .

ثم أطرق حيناً ومضى شيبوب فى حديثه عن حوادث تلك السنين التى كان فيها عنترة بعيداً . ورفع عنترة رأسه بعد حين وقال :

— أنت ملأت قلبي حزناً . وأحس كأن هذا الفضاء يضيق بي . أقلت آنفاً أن عبلة كانت تغنى ؟

فقال شيبوب : لم أقل لك إنها تغنى . هن الفتيات يغنين لها ويجتمعن للرقص عندها . ولكنها امرأة كما قلت لك وتحب أن تكون زوجة رجل من سادة قومها . ولسوف تنظر إليك فى أسف إذا رأتك وتأكل قلبها غيظاً . سوف تحزن عليك إذا رأتك تدخل إلى عبس بهذه القافلة كلها .

فقال عنترة فى حزن : أمسك ويلك يا شيبوب . فان الجرح لا يزال دامياً . كنت حسبته قد اندمل وكنت أسأل نفسى كيف أكون إذا عدت إلى أرضى . وها أنت ذا تعيدنى إلى نفسى القديمة فجأة كأن تلك السنوات قد طويت كلها فى يوم . فأنا اليوم كما كنت لم يتغير فى قلبى شىء .

فقال شيبوب : وأما أنا فان قلبى ممتلىء حقداً كما كان . فهل تريد أن تعود إلى هؤلاء فتتذلل لهم وتطلب منهم بناتهم وهم يسمونك ابن زبيبة ؟

فقال عنترة حزيناً : لست أدرى كيف ألقى هؤلاء ولا كيف يلقانى هؤلاء . أننى نسيتهم حيناً وخيل إلىّ أننى لن أحس لهم خلجة فى نفسى . ولست أدرى إذا عدت إليهم كيف يكون عيشى فيهم .

وأمسك عن الكلام لحظة وهو مطرق ثم رفع رأسه وعيناه مغرورقتان بالدمع وقال :

— لن أتعرض لعمارة ولن أتقدم إلى مالك أطالبه بوعده . لست أعرف أحداً من هؤلاء . فانما أنا أعرف عبلة . ولن أرضى أن تكون لى امرأة إلا إذا أحبت هى أن تكون زوجى .

فصاح شيبوب : أو ترضى بها ؟

فقال عنترة : قل لى يا شيبوب كيف هى ؟ متى رأيتها ؟ هل ما زالت تطلع كالشمس وتزهر كالقمر ويفوح نسيمها كالزهرة ؟ قل لى أما سمعتها تتحدث عنى ؟ أما قالت زبيبة إنها تحدثت عنى ؟ لقد حدثت نفسى مراراً أن أضرب وأن أطعن وأن أقتل حتى أفوز بها قسراً . ولكننى اليوم يا شيبوب حزين لا أريد ضرباً ولا طعناً . أنا أحبها ولكننى لا أرضى أن أفوز بها إلا إذا كان ذلك عن سبيل قلبها .

فضحك شيبوب وقال : ما أهون هـذا ! اطلع عليها بهذه الإبل ولسوف تفوز بقلبها .

فقام عنترة وأمسك بذراع أخيه وقال له جادا :

— اسمع يا شيبوب وأطعنى . ولا تتردد فى حرف مما اقول . عدنى أن تطيع بغير حرف تقوله يا شيبوب .

فنظر إليه شيبوب فى دهشة ثم قال بعد لحظة : ستجدنى مطيعاً .

فقال عنتره جاداً : لست أحب أن أعود إلى عبس إلا كما خرجت منها . إننى لا أحرص على غنى ، فإننى أقدر على أن أجد

قوتى بسهمى وقوسى . ولن أحرص على جاه ولا نسب ، فانى قد رأيت من الحياة ما جعلنى أسمو فوق كل هذا . قد كنت أغضب لأشياء أراها اليوم لا تغضبنى وكنت أحرص على أشياء أخرى لا أجدها اليوم جديرة بحرصى .

كنت أحقد على الناس عند ما كنت لا أعرف لى مكاناً بينهم ، ولكننى اليوم لا أبالى من يكون أبى ولا من تكون أمى ولا أين أحل بين الناس . هو شىء واحد لا أجد فى الحياة عنه عوضاً . وذلك حب عبلة . ولكننى أحبها هى لا لكى أملكها . أحبها لكى يكون قلبها لى .

ثم التفت إلى القافلة العظيمة وأشار اليها قائلا :

— أترى هذه القافلة التي تملأ البطاح ؟ إذهب بها الآن إلى منازل عبس ، وسأبقى أنا هنا حتى تغدو إلىّ بعد أن تفرغ منها . اذهب بها ثم ناد المساكين الذين يسيرون هنا ورائى ، وأولئك الذين كانوا من قبل يحاربون معى ، والصعاليك الذين كانوا يلوذون بى . ففرق كل هذه الأحمال فيهم حتى لا تبقى منها شيئاً . وهذه الإبل التي تراها بين سوداء و بيضاء . فرق هذه بين الضعفاء حتى لا تبقى منهم واحداً بغير عطاء . فاذا بقى منها

شيء فأنحرها وألق بها فى القفر لتكون وليمة لوحش السباع .

وهذه النوق العصافير التى أتيت بها لتكون مهراً لعبلة . إذهب بها إلى مالك بن قراد وقل له هى هدية اليه لينحرها يوم زفافها ، فيطعم منها قوم عمارة بن زياد ومن يجيء من أحياء العرب ليشهدوا عرسه . ثم أحمل هذه الأحمال التى تراها على الإبل السوداء فقد أودعت فيها تحفاً من طرائف المدائن لتكون هدية لعبلة يوم جلوتها . خذ هذه واذهب بها إليها وأبلغها أننى كنت وعدتها يوماً فى غضبى أن أهدى إليها هدية عند زفافها . قل لها هذه هديتى بدل التى وعدتها . قم منذ الساعة ولا تنطق بحرف .

ثم ذهب إلى القافلة فأنزل بعض الأحمال ونحاها إلى جانب قائلا :

— أما هذا فنصيبي . هذه خمر معتقة أجعلها نصيبى ، لعلى أقدر على أن أغرق فيها همومى .

وحاول شيبوب أن يتكلم فأشار إليه عنترة بيده يأمره السكوت قائلا :

— لقد وعدتنى أن تطيع يا شيبوب . إذهب فافعل ما أمرتك

به . فاذا أرادت عبلة أن تختارنى بعد ذلك وجدتنى كما خرجت من عبس يوم خرجت وحيداً .

أقلت إن موعد زفافها بعد ثلاثة .

فقال شيبوب حزيناً : نعم يوم عروبة .

فقال عنتره : سأنتظرك هنا . إلى أن يمضى عروبة .

ثم وثب على فرسه فركبه وأغمد فى جنبيه حد الركاب، فانطلق به فى الوادى

ووقف شيبوب حيناً ينظر فى أعقابه فى دهشة ، ثم هز رأسه ونادى الركب أن يتجهز للسير .

١٢

أمضى عنترة الأيام الثلاثة يضرب فى فجاج الصحراء يصيد طعامه ، ويعكف فى الليل على زقاق الخمر المعتقة . وكان فى أثناء ذلك موزعا بين موجات عنيفة من أشجان متصادمة متعارضة . فحينا يثور به موج من الحزن والجوى حتى يرى الفضاء يضيق به ويود لو لقى عدواً حانقاً فيسدد طعنة إلى قلبـــه فيخلعه من الحياة ، وحينا تملؤه موجه أخرى من الغضب فيهم أن يذهب إلى

قومه فيسوى مع خصومه الحساب عسيراً لما أصابه قديماً وما أصابه حديثاً . وتعتريه بين هذه وتلك حالات هدوء ساهم واجم فيحس كأن قلبه قد انصرف عن كل شيء ، وأنه سلا عبلة فلم يبق لها عنده ما يحمله على غضب ولا على حزن . وكان فى أثناء ذلك كله ينتقل بين شعاب الجبال وثناياها حيث كان ينتقل من قبل وهو يرعى إبل أبيه شداد ، يغنى وينشد الشعر ويحدث نفسه عن عبلة خالياً . فكان كلما عرج على موضع ثارت به ذكرياته فيقضى فى تأملها حيناً كأنه فى حلم ثم يمضى عنه وهو يغمغم ببعض أشعار مما قاله عنده فيما مضى .

فعرج على الصخور الملساء التى طالما توقل فيها بعد نزول المطر ، وطالما شرب من الماء البارد المتجمع فى فجواتها ، واطلع فيه على صورة وجهه وهو حزين لأنه لا يشبه وجوه الفتيان الذين كانوا يسيرون فى عبس معجبين بلممهم السوداء . وعرج على بطون الوديان التى تشقشق طينها الأصفر بعد أن جف وغطى سطحها العشب والشوك والصبير والحنظل . وكان يميل بين وقت وآخر على زهرة من العرار أو الخزامى أو الأقحوان ، فيتأمل لونها وشكلها ويشم رائحتها كأنه يلقى صديقاً عزيزاً بعد أن فرقت الأيام بينهما حيناً .

وكان فى تلك الجولات يقف أحياناً فيرفع ذراعيه ويملأ صدره من الهواء ، كما كان يملؤه وهو فتى ، بعد أن قضى تلك السنوات الماضية فى عواصم الريف لا يكاد يعرف كيف يملأ صدره من الهواء .

فاذا تذكر أيامه التى قضاها فى الحيرة والمدائن وتذكر تلك القافلة العظيمة التى عاد بها تحمل الجوهر والحلى والحلل والتحف من طرائف فارس والروم وأذربيجان ، ثم تذكر أنه بعث بكل ذلك مع أخيه شيبوب ليفرقه فى عبس بين الضعفاء والصعاليك ، أحس ارتياحا كأنما قد تخلص من ثقل كان يجثم فوق صدره ، ودب اليه شعور عجيب بأنه قد استعاد روحه الذى كان قد فارقه منذ دخل أرض العراق .

وعند ذلك كانت تلك السنوات التى قضاها بعيدا عن أرضه تلوح له كأنها سنوات سجن ضيق شاهت فيها نفسه حتى كاد ينكرها ، وتغير فيها قلبه حتى كاد يصير إلى قلب وحش ضار . وخيل اليه أنه قد عاد إلى حيث يستطيع أن يعرف النور والظلمة وحيث يرى النجوم الساطعة والبدر المتألق الزاهر ، والشمس التى تبسم حينا وتحرق حينا ، والهواء الذى يعصف حينا

ويهب فى وداعة حينا . هنا كان يستطيع أن يأكل من صيده ويصادق صديقه ويعادى عدوه ، فاذا ذهب بعد إلى غزوة ذهب إليها مع قومه لكى يغنم معهم غنيمة ، وإذا حارب عدوا مغيرا حاربه ليدافع عن حرم عبس وعن شرفها . فلم يكن بعد ليحارب كالوحش الضارى ، ولا يجد مكافأته فى سفك الدماء والاستكثار من الغنى . لقد عاد إلى أرضه حيث يستطيع أن يستعيد حياته التى كان يحس فيها معنى الحياة .

كان يحزن ويغضب ويأمل وييتئس ، ولكنه كان فى كل ذلك يجد فى الحياة علاقة تجعله يحرص عليها .

ولم يخل قلبه فى كل تلك الجولات لحظة من ذكر عبلة ، ولكنه كان كلما ذكرها عجب أشد العجب من التغير الذى أصاب حبه لها . كان حباً ثائراً دفعه من قبل إلى قتال كل من حدثته نفسه بزواجها ، فأصبح حباً عجيباً فيه عتب على عبلة وحدها ، ولا يابلى بعد ذلك أحداً . فلم يحس وخزة غضب عند ما تصور أن عمارة سوف يزف اليها ، ولا عند ما عرف أن أباها قد رضى بتزويجها ، ولا عند ما قال له شيبوب إن الفتيات يجتمعن عندها يرقصن ويغنين فى انتظار يوم جلوتها . وكأنما

كان يشعر فى قرارة قلبه اطمئناناً الى أنها لن تتزوج ولن ترضى بأن تزف إلى عمارة وأنها سوف تعود اليه هو معتذرة باكية . وكلما تذكر أنه بعث اليها هداياه وأنه بعث إلى أبيها مهرها داخله نوع من الابتهاج ، كأنه قد أدرك منها ومن أبيها ثأرا كان له عندهما . فاذا ما خطر له أنه قد يعود فيجدها قد صارت زوج عمارة لم يداخله يأس ، بل وجد فى نفسه قناعة أن يقضى سائر الحياة عاتبا يناجى صورتها فى حزن وكبرياء .

ومضى اليوم الثالث وانقضى يوم عروبة الموعود ، وكان قد عاد إلى الربوة المشرفة على الحى من بعيد ، وهبط الظلام فجأة بعد أن غربت الشمس ولكن القمر لم يلبث أن أضاء الفضاء . فأخذ عنترة زقاً من الخمر وفضلة من لحم غزال مشوى بقى عنده ، ثم صعد إلى أعلى الربوة وجلس يشرب وهو يتأمل السهل الممتد تحت عينيه . واتجه الى ناحية الحلة التى فيها قومه وقد بدت على البعد فى ضوء القمر غامضة كأنها ظلال من سحابة داكنة ، تمر تحت الشمس ، وجعل يتأمل النيران الموقدة بين البيوت لعله يرى عند شعب الجواء نيرانا مشبوبة تدل على ليلة الزفاف . .

ولـكنه لم يتبين على البعد من شعب الجواء سوى ظلال غامضة فى ضوء القمر الخافت تلوح مثل مناظر الأحلام . هذه هى البقعة التى تقيم فيها عبلة وأهلها تبدو له مثل نقطة ضئيلة فى الليل ، وهى التى حركته ودفعته وأثارته . هى التى أحزنته حيناً و بعثت فى صدره الآمال حينا ، وهى التى خرج من أجلها إلى العالم الفسيح الذى كاد يسلبه روحه ، ثم هى التى عاد من أجلها يضرب فى لجاج الصحراء ، ويقطع قلبه قلقا ويقضى لياليه ساهدا يقلب البصر فى الآفاق خاشيا أن تلوح له فيها نيران تنبىء بليلة الزفاف .

و بقى عنترة يشرب و يقلب نظره فى الفضاء حتى طلع الفجر فأغفى إغفاءة طويلة أفاق منها على صوت يناديه والشمس ترسل شعاعها عليه من وراء التلال .

وأصاخ بأذنه إلى الصوت فعرفه ونهض مسرعا يثب فوق الرمال حتى وجد نفسه بين أحضان امه زبيبة ، وكان شيبوب واقفا إلى جوار بعيرها يريد أن ينيخه . وأرسلت زبيبة ابنها من بين ذراعيها وزغردت وهى تنظر اليه فى ابتهاج ، ثم ألقت نفسها عليه مرة أخرى تقبله وهو يمسح على رأسها بعطف وقال لها :

— إنك لأول من كنت أحب أن أرى اليوم يا أماه .

فقالت فى صوت مختنق :

— لقد أحسست منذ أيام أنك قريب منى . كنت أعرف دائما أنك عائد إلى ولم أصدق ما قال هذا .

وأشارت إلى شيبوب بنظرة لائمة ، وكان واقفا حيالها يبسم ابتسامته الواسعة . ولم يجد عنترة فى دفعة اللقاء ما جعله يتفرغ لتأمل ملابس أمه وأخيه ، إذ كانا يلبسان مجموعة من الثياب عجيبة اختارها كل منهما من بين أحمال القافلة طاعة لهواه . فكانت زبيبة فى حلة حمراء ، وجعلت فى قدميها خفا من الفرو الأسود ، وتمنطقت بمنطقة فضية نزعتها من حمائل سيف ، وتقلدت ببعض قلائد من العقيق والمرجان ، ولبست أساور من الكهرمان والفضة تتدلى فضفاضة عند رسغها .

وكان شيبوب يلبس مثلها ثيابا عجيبة من عمامة ذات ريشة ولآلىء ، إلى ثوب محلى بالقصب إلى سيف مرصع بالجوهر ، ولم يبخل على رمحه ببعض الحلية من عقود المرجان وشرائط الحرير .

وتبسم عنترة عندما تنبه إلى ملبسهما بعد حين ولكنه لم يجد متسعا للحديث فقد كانت عبس تتحرك نحوه بكل من هناك من أهلها .

ونظر عنترة إلى القادمين وتهلل وجهه فرحا ، والتفت إلى شيبوب وقال له هامسا : أكان زفافها ؟

— فأشار شيبوب إليه إشارة مرحه قائلا :

— سأحدثك حديثاً طويلا .

وجاء القوم جماعة بعد جماعة يحيون عنترة ، وكان فتيان عبس فوق خيولهم يملأون البطحاء الممتدة فى أسفل الربوه ، يهتفون باسم عنترة ويتراكضون ويلوحون بالرماح والسيوف . وجاء فى صدرهم قيس بن زهير وآل جذيمة سادة عبس ، ثم أقبل أبوه شداد وأخوته وجاء الشيوخ من آل زياد ، حتى عمارة نفسه أقبل عليه يحييه . وكان عنترة يلقاهم باسما ويحييهم فى هدوء وهم ينظرون إليه فى عجب أن يكون ذلك هو عنتره . وكان يلقى إلى كل فرد تحية هادئة مع كلمة عطف ومودة ، وكان يحس سعادة كبرى كلما رأى على قومه بعض هداياه . وكان النساء والفتيات يقبلن عليه ضاحكات يرحبن به ويرفعن بأصابعهن ما حول نحورهن من العقود المتلألئة التى أهداها إليهن ، أو يلوحن له بمعاصمهن ليظهرن الأساور التى تحليها مما فرق شيبوب بينهن .

ثم أقبل مالك بن قراد فى أهله ، ثم جاءت أخته مروة ابنة شداد

وإلى جانبها عبلة تمشى على استحياء ، فرآها مقبلة تنظر من بعيد إليه بعينيها الواسعتين لا تطرف ، وتكاد تتعثر فى مشيتها . وكان يبدو على وجهها ما يشبه أن يكون ابتسامة ، ولكنها كانت مترددة فيها شيء من الارتباك وشيء من التلهف .

وحيا عنترة اخته مروة باسما عاطفا ، وهمت فى نفسه ثورة كادت تنفلت من حكمه ، وفكر فى مثل لمح البصر ما هو قائل لعبلة بعدها. أيلقاها فى جفاء صامت أم يقرعها بتحية من اللوم قاسية ؟ ومرت عليه لحظة قصيرة طويلة امتلأت فيه نفسه حفيظة وحنقا ، وكاد ينطق ولكنه سمع اخته مروة تضحك وتقول له فى عبثها الذى اعتاده منها :

— لقد حسبت انك سوف تخطف عبلة منذ تراها .

فنظر إلى عبلة فرآها تمد إليه يدها ، ورأى فى نظرتها وحركتها وتعبير وجهها ما سل منه الحنق فجأة ، فأقبل عليها يحييها فى ابتسامة تنم عما كان فى قلبه من الألم والعتاب .

وما كاد يأخذ يدها مصافحاً حتى وجد أنه يقاوم دفعاً قوياً لا يقدر على صده . ووجد قلبه الذى خيل اليه فى بعض تردد أشجانه أنه قد غمض وانبهم عليه مازال كما عرفه قديماً. فهذه عبلة

التى كانت تهزه وهى مازالت تهزه، وهذه عينها التى كانت تسحره ما زالت تبعث إليه فتنتها ، وهذه نظراتها التى كانت تعبر له عن أدق المعانى ما زالت فصيحة فى تعبيرها وتبيينها ، وهذه يدها تمتد إليه كما كانت تمتد إليه فيشعره لمسها أسمى السعادة ، وهذا صوتها العذب الذى طالما غنت به اشعاره ، وملأت به شغاف قلبه بهجة وكبرياء . هذا صوتها الذى طالما نادته به فخيل إليه أن المجـد هو الذى يناديه ، قد عاد إليه وطرق أذنيه . وهاهى ذى عبلة مرة أخرى تقول له :

– عنترة مرحباً !

وهم بغير تفكير أن يرفع يدها إلى شفتيه ، وكأنها أحست بهذه الحركة الدقيقة وأدركت بوجدانها مافى نفسه فقبضت يدها فى ارتباك وحاولت أن تجد غطاء من اللفظ تتوارى به من أعين قومها الذين وقفوا جميعاً ينظرون إليها و إلى عنترة ، ولكنها عجزت أن تجد لفظاً ، فأغضت طرفها وغمغمت بعض ألفاظ تحية مضطربة، وخيل إليها أن تلك اللحظة القصيرة الخاطفة التى وقفت فيها حياله قد امتدت فصارت دهراً . فلوت رأسها تريد أن تفسح لغيرها ممن يتزاحمون على تحية عنترة ولم يجد عنترة من اللفظ ما يستطيع به

أن يعبر عما أراد أن يقوله سوى أن قال بغير وعى :

— سيدتى ! ثم أرسل يدها . فصاحت مروة ضاحكة مرة أخرى قائلة فى خبث :

— أما سمعتم قوله ؟ عنتر عبد عبلة .

فانفجرت ضحكة من الحاضرين حولها . ونظرت إليها عبلة فى ارتباك ، وأغضت واحمر وجهها ، ولكن سحابة الوجوم انقشعت عند ذلك وانطلق عنترة يقول لأخته فى مرح :

— إنك أيتها الأخت الحبيبة تذكريننى بأيام سعيدة . أيام كان عبثك الخبيث يغيظنى .

فقالت : أما يغيظك اليوم يا عنترة ؟

ثم اتجهت إلى عبلة فى خفة وقالت :

— ولكنه يغيظها . انظر كيف يظهر على وجهها ما تحمل من الكراهة لى . ماهذا اللقاء الفاتر يا عبلة ؟ أما كنت بالأمس تبكين وتقولين لى : متى أراه يامروة ؟

هاهو ذا دونك فتعلق برقبته .

فعاد الضحك إلى الجميع وأحس عنترة أن كل ما داخله من الغضب والعتب قد تبدد فى لحظة ، وأقبل على الذين حوله يرد

تحياتهم ولكنه كان لا يرى فى الوجوه سوى صورة عبلة . ولا يسمع من اللفظ إلا صدى صوتها .

***

وغربت شمس ذلك اليوم مرة أخرى كما غربت سائر الأيام ، وكانت النيران توقد عند شعب الجواء وفى حلة عبس ، وأصداء الغناء تتردد بين الخيام من كل جانب بشعر عنترة الذى قاله فى الحنين وهو بعيد .

واجتمع فتيان عبس على الخيل فى الفضاء الرحب حول الحلة يتطاردون ويتراقصون فوق الجياد ، بعضهم واقف على ظهرها وبعضهم يتقلب على جنوبها ويدور من تحت بطونها ، وخرج عنترة راكباً وكانت عبلة على الجواد أمامه وهو واقف خلفها على ظهر الجواد شاهراً سيفه يلمع فى ضوء النيران الموقدة ، وركض جواده بها فى وسط حلقة الفتيان وهو ينشد :

أرض الشربَّة تربها كالعنبر ونسيمها يسرى بمسك أذفر

يا عبل كم من غمرة باشرتها بمثقف صلب القوائم أسمر

فأتيتها والشمس فى كبد السما والقوم بين مقدَّم ومؤخَّر

وكانت الأصداء تتردد فى الفضاء من إنشاد الفتيان بشعر عنترة

أنا فى الحرب العوان   غير مجهول المكان
أينما نادى المنادى   فى دجى النقع يرانى

ولما انتهى الحفل الصاخب إلى مطلع الفجر ، ركب عنترة وزوجه عبلة إلى السرادق العظيم الذى أقامه شيبوب لهما فى أقصى الحلة ، ذلك السرادق الذى أهداه إليه كسرى ومازالت القبائل تتحدث عنه كأنه المدينة إذا أقيمت قواعده . وكانت جوانبه محلاة بنقوش الذهب ، ودعائمه ملبسة بصفائح الفضة . فإذا أضاءت فيه المصابيح فى الليل تلألأت أنوارها فوق فصوص الجوهر المنثورة فى جوانبه.

وسار شيبوب وراءهما يشيعهما حتى دخلا إلى السرادق فقال ينادى عنترة :

— أما كنت تريد أن أحدثك حديثاً طويلا ؟

فنظر عنترة إليه باسماً ، ثم التفت إلى عبلة وأمسك بذراعيها ناظراً إلى عينيها وقال :

— لا بأس عليك ياشيبوب فإنى أحب سماع الحديث منها.

ثم ضمها بين ذراعيه فلبدت فى صدره ، ولفت شيبوب عينيه مغمغماً ببعض ألفاظ مبهمة ومضى عنهما يمسح دمعة سرور جالت فى عينيه .

طالعوا مجلة

الكتاب

التي تقدم الى قراء العربية
في أول كل شهر أبحاثاً قوية
ودراسات رصينة وأنباء طريفة
في مختلف ألوان الآداب والعلوم والفنون

تصدر عن
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر
رئيس تحريرها الأستاذ عادل الغضبان
يشترك في تحريرها كبار كتاب الشرق العربي

ثمن النسخة
بمصر والسودان ١٠ قروش بفلسطين وشرق الأردن ١٢٠ ملا
بلبنان وسوريا ١٢٠ غ.ل.س بالعراق ١٢٠ فلسا

اقرأ

دكتور محمد عبد الحميد جبر

قصة العدوى

دار المعارف للطباعة والنشر

قِصّة العَذْرَى

دكتور محمد عبد الحميد جوهر

قصّة العَدْوَى

اقرأ ٤٤
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٤ — يوليو سنة ١٩٤٦



مقدمة

بقلم حضرة صاحب المعالى

الدكتور سليمان عزمى باشا

العدوى : هو الاسم الذى يجرى الآن على الألسنة ولا يعرف عنه الناس غير شتات من المعتقدات والخرافات .

وإذا كان لا يوجد مؤلف باللغة العربية يشرح أساليب العدوى شرحاً وافياً مبسطاً ليفهمها الناس على حقيقتها وليساعدوا رجال الصحة على الوقاية من الأمراض ، إلا أن هذا الكتاب الجديد فى سلسلة « اقرأ » يسد هذا الفراغ ويزيل عن الأفكار كثيراً من الخرافات التى تمثل روح العصر الذى ولدت وانتشرت فيه . وما تضمنه الكتاب عن قصة الطاعون وجرثومته وانتشار المرض بوساطة البراغيث وغيره من الموضوعات لا يدع مجالا للشك فى أن العناية بالصحة والابتعاد عن الحشرات الناقلة للأمراض المنوعة ضرورة واجبة .

وأسلوب الكتاب فى مجموعه شائق ، وقد استوقف نظرى

ما تضمنه عن شجاعة محبي العلم والإنسانية وتعرضهم للعدوى لإجراء تجارب علمية على أنفسهم انتهت بموت بعضهم ، فى الوقت الذى كان يموت فيه غيرهم من الأطباء والعلماء ضحية فتك هذه الأمراض بهم ، مما يؤكد الدور الهام الذى ينهض به هؤلاء ليدفعوا الموت عن غيرهم .

ومن الموضوعات الهامة التى تعرض لها الكتاب تأثير الفقر ، والعرى ، والجوع ، والازدحام ، فى انتشار الأمراض بين الطبقات الفقيرة ، مما نلمسه الآن بين أفرادها ، وهو الأمر الهام الذى يتكاتف الجميع على دفعه عنهم .

وإذا كان هذا الكتاب قد سد فراغاً فى اللغة العربية فإنى أتمنى الإكثار منه ، لأن من حق الطبقة المثقفة أن تتثقف ثقافة صحية بجانب ثقافتها الخاصة ، إذ لا يوجد ما هو أغلى وأثمن من الصحة ، ومتى تمت لهم هذه الثقافة الخالية من الشوائب فإنهم يصونون أنفسهم من خطر العدوى ، ويؤدون للمجموع خدمة جليلة ببقائهم أصحاء ، فضلاً عن أنهم يساعدون المسؤولين على حماية صحة الشعب من الأخطار التى تهددها .

سليمان عزمى

مع الفأر والبرغوث

الطاعون أو الموت الأسود

سُمِّيَ الطاعون في القرون الوسطى بالموت الأسود لما اتصف به أحد أنواعه من ظهور طفح دموى قاتم اللون على جسم المريض يعطى المرض صورة خاصة به .

عرف الناس الطاعون منذ آلاف السنين بل ربما كانت أوبئة الطاعون من أقدم الأوبئة التى عرفتها البشرية لما امتاز به المرض من طابع خاص جعل من السهل تمييزه عن غيره من الأمراض الوبائية الأخرى التى قد يختلط أمرها على الطبيب فيصعب عليه تشخيصها . عرفه قدماء المصريين كما عرفه الاغريق والرومان ووصفوه وصفا دقيقا وكانوا يخشونه وينظرون إليه نظرة فزع ورعب وكانوا إذا ما سمعوا به أو شعروا بدنوه فروا من منازلهم وهجروا بلادهم لما يعرفونه عنه من أنه متى بدأ فى قرية أو بلد حصد الناس حصدا . كبيرهم وصغيرهم . غنيهم

وفقيرهم . وكانوا ينسبون انتشاره إلى غضب الآلهه عليهم لما ارتكبوه من معاص واقترفوه من ذنوب .

ويظهر أن وطن الطاعون فى الأصـل هو الهند والصين ومنشوريا ومنها انتشر فى فترات مختلفة إلى سائر أنحاء العالم بشكل موجات وبائية هائلة وقد سجل التاريخ ما يقرب من ثلاثمائة وباء عالمى « Pandemic » تفصلها فترات اختلف أمدها من بضع سنين إلى عشرات السنين وكانت من أفتك هذه الأوبئة أو على الأقل من أكثر ما دُرس منها أوبئة الطاعون التى انتشرت فى القرن الرابع عشر والتى قتلت فى أوروبا وحدها عشرين مليونا من الأنفس . كانت شديدة الوطأة إلى حد بعيد كتب عنها المؤرخون كثيرا وصارت موضوع قصص عديدة كتبت بلغات مختلفة . شمل هذا الوباء أواسط أوروبا وجنوبها فأفنى الملايين من الناس وفى بعض البلاد فتك بأكثر من نصف سكانها حتى بلغ عدد الموتى رقما جعل من المتعذر دفنهم إذ كان من الصعب الحصول على التوابيت التى يوضعون فيها أو جمع الأشخاص الذين يقومون بدفنهم وكان من المناظر المألوفة فى ذلك العهد منظر الجثث المكدسة على بعضها وقد يكون من بينها من

لا زال فيه رمق من الحياة ، لم يكن غريبا أن تُرى فى بيت واحد وبين أفراد أسرة واحدة أكوام الجثث وبجوارها أو فوقها المرضى يعانون آلام المرض أو يلفظون النفس الأخير ولم يبق من الأصحاء من يُعنى بهم . أما المراسم الدينية المعتادة فى مثل هذه الأحوال فقد أهملت إهمالا تاما . إما لخوف القسيسين من العدوى — وهو الأرجح — أو لزيادة عدد الموتى عن طاقتهم ، وكان من المألوف أيضا أن يخرج الرجل من منزله لكى لا يعود إليه إذ قد يصاب بالنوع الرئوى من المرض وهو سريع جدا فى مجراه قد يقتل المريض فى يوم أو يومين . أصاب المرض جميع الطبقات على السواء وكان من الناس من آثروا أن يبقوا فى منازلهم ويغلقوا الأبواب عليهم لا يبرحونها حتى ينتهى الوباء ومنهم من كانوا يغادرون بلادهم لاجئين إلى بلاد غير موبوءة لا تلبث أن يحلها الوباء فيغادرونها بدورها وهكذا يهيمون على وجوههم فارين من الموت والموت يلاحقهم . ولم تزد الإجراءات الصحية التى اتخذها ولاة الأمور فى ذلك الوقت على إغلاق أبواب المنازل على المرضى وذويهم إن آثر هؤلاء البقاء مع مرضاهم وعلى وضع لافتة على باب المنزل كتب عليها « الطاعون

فليرحمنا الله برحمته » أما الطعام فكان يتولى أحد الجيران إحضاره دون أن يتجاوز عتبة المنزل .

ومن الأوبئة الشهيرة أيضا ذلك الوباء الكبير الذى بدأ فى أوروبا حوالى منتصف القرن السابع عشر ووصل إلى لندن سنة ١٦٦٥ . قتل هذا الوباء من سكان لندن عدداً كبيراً جداً ولم ينته إلا بكارثة أخرى إذ شب فى لندن حريق هائل أتى على الحرث والنسل وهدم القديم والجديد ولكنه أباد أيضا الموت الأسود فما خمدت النيران حتى خبا الوباء أيضا .

أما عن سبب المرض وطريقة العدوى فقد تخبط الناس فى آرائهم كما تخبطوا في الكثير من الأمراض الأخرى فمنهم من كان يعتقد كما ذكرنا أنه من غضب الله ومنهم من كان يعتبره من عمل الشيطان ومنهم من كان ينسبه إلى تراكم القاذورات ولو أنه لم يكن فى ذلك الوقت أقل قسوة على ساكنى القصور منه علي ساكنى الأكواخ . وفى أواسط أوروبا اعتقد البعض أنه من عمل اليهود فاضطهدوهم شر اضطهاد وكانوا أحيانا يسوقونهم زرافات إلى أكواخ خشبية يضرمون فيها النيران وهم أحياء وفى ستراسبورج وحدها سيق فى يوم واحد ألفان

من الاسرائيليين إلى أحد الميادين حيث أُحْرِقوا ودُفِنوا أمام جمع كبير من الأهالى الذين كانوا يجدون أكبر لذة فى مشاهدة مثل هذا الحفل الدموى . ومن شاء حسن طالعه أن ينجو من الموت والتعذيب كان نصيبه النفى والتشريد بعد مصادرة أملاكه وتوزيعها على الأهلين

استمر الحال كذلك فترة طويلة فلم تُثمر وساطة الكنيسة ولم يُجْدِ تدخل البابا « كلمنت السادس » الذى حاول جهده حمايتهم فكان نصيبه الفشل . وأكبر الظن أن هذا الاضطهاد الوحشى لم يكن وليد العقيدة فقط بل كان إلى حد كبير نتيجة أن استمرأ هؤلاء القوم أموال اليهود ووجدوها غنيمة سهلة بعيد جداً أن يحصلوا على مثلها من عرق جبينهم .

ومن العادات التى انتشرت أو زادت انتشاراً فى أوروبا فى القرن الرابع عشر والتى كان لها بعض العلاقة بانتشار الطاعون عادة غريبة تنحصر فى أن تقوم شعبة من الناس طَبَعَت نفسها بطابع دينى يجوب أفرادها البلاد وهم شبه عرايا لا يكسو جسدهم سوى قميص نُقِش عليه الصليب متعمدين تحمل أقصى العذاب والحرمان مُدَّعين نكران النفس معلنين أن ذلك سيؤدى إلى غفران ذنوبهم

وذهب أحد زعمائهم إلى أن ادعى أن المسيح عليه السلام قال « إن من تحمّل مثل هذا العذاب أربعة وثلاثين يوماً غفر الله له ذنوبه » . كان من عادات هؤلاء القوم أن يخلع الرجل منهم قميصه ويمسك آخر بسوط طويل مُشعّب يجلده به حتى يُدمى ظهره ثم يخلع هو بدوره قميصه ويقوم آخر بجَلده وهكذا حتى يُجْلدَ الجميع . انتشرت هذه العقيدة وأصبح لأربابها نفوذ كبير طغى على نفوذ الكنيسة ، وادعى أفرادها القدرة على شفاء الأمراض، واستمرأوا اضطهاد اليهود وقَتْلَهم زرافات ووحداناً . ولعلهم كانوا أول من أشاع بين البسطاء أن الطاعون من عمل اليهود ، وأخذوا ينزحون من بلد إلى آخر ناشرين مبادئهم السخيفة وناشرين معها الطاعون الذى حملوه من جهات موبوءة إلى جهات غير موبوءة . استمر طغيانهم فترة طويلة . إلا أن الكنيسة تمكنت آخر الأمر من استرداد نفوذها فتضاءلت الثقة بهم بل وطوردوا حتى قُضى عليهم وعلى عقيدتهم .

كانت الثقة فى الأطباء ضئيلة جداً فى ذلك الوقت — ولعلها لا زالت عند الكثير من الناس — إذ فشل طبهم فى منع هذا المرض أو علاجه . كانوا إذ ذاك أضحوكة الجميع خصوصاً وأنهم

اعتادوا إذا ما أرادوا زيارة مريض بالطاعون — وقلما كانوا يفعلون ذلك خشية العدوى — اعتادوا أن يرتدوا ملابس تثير الضحك . عباءة طويلة من الجلد تزحف على الأرض وقناعاً يشبه فى شكله رأس البوم وأن يحملوا عصا طويلة يجسون بها المريض دون أن يقتربوا منه . كان ذلك فى الواقع منظراً مضحكا ولو أنه مما لا شك فيه أن هذه الاحتياطات كانت تقيهم من العدوى إلى حد كبير .

جرثومة الطاعون

أكتشفت جرثومة الطاعون فى الصين سنة ١٨٩٤ وتنازع على السبق فى اكتشافها عالمان أحدهما يرسان " Yersin " والآخر كتاساتو "Kitasato" وأغلب الظن أن كلا منهما أكتشفها دون علم الآخر فى وقت واحد تقريباً وهى جرثومة صغيرة بيضاوية الشكل يبلغ طولها حوالى جزء من ألف من المليمتر توجد بكثرة فى الدمّل أو الرئتين أو الدم حسب نوع الطاعون .

وأنواعه ثلاث : الدملى والرئوى والتسممى .

ولم يكن لاكتشاف الجرثومة على أهميته أثر كبير فى منع المرض الذى لم يُوفَّق القائمون بالصحة العامة إلى طريقة منعه إلا بعد أن عرفوا طريقة عدواه . إلا أن هذا الاكتشاف أدى إلى تحضير مصل لعلاج المرض ولقاح لتحصين الأهالى ضده . أما المصل فيُحَضَّر بحقن الخيل بالميكروب أو ما يستخرج منه ويعاد الحَقن عدة مرات ثم يُفصد الحيوان ويفصل المصل من دمه . والواقع أنه لم يأت فى العلاج بنتائج ذات بال . أما اللقاح فستحلب من الميكروبات الميته تستعمل فى التحصين ضد المرض وهو أيضا بدوره لم يأت بكل الفائدة المرجوة منه فالمناعة التى يحدثها ضعيفة قصيرة الأجل .

طريقة العدوى

إشتبه الناس منذ القدم فى علاقة الفأر بعدوى الطاعون وتوجد بين الآثار التى تركها قدماء المصريين وغيرهم صور رُسِم فيها الفأر وأمامه أناس فى شكل يمثل الهلع والفزع من هذا الحيوان الصغير فى حجمه الكبير فى ضرره . والطاعون فى الأصل مرض يصيب الجرذان وبعض القوارض الأخرى ولولا انتقاله

الى الإنسان لكان من أكثر الأمراض فائدة للانسان إذ يساعده على التخلص من تلك الحيوانات التى تسبب له متاعب وأضراراً كثيرة .

كان الناس دائما يَشْتَمون رائحة الطاعون فى الفأر . وكانوا ولا زالوا يعتبرون وجود عدد كبير من الفيران الميتة فى مدينة أو قرية بمثابة إنذار بقرب انتشار الطاعون بين الأهالى وكان ذلك مجرد حدسٍ لم يُبْنَ على أساس علمى صحيح . والفضل فى اكتشاف طريقة العدوى كما نعرفها الآن يرجع للجنة البريطانية التى أرسلتها حكومة بريطانيا إلى الهند لدراسة هذا المرض وطريقة انتشاره حتى تتسنى مكافحته على أساس التجربة لا على أساس الحدس والتخمين . أجرت هذه اللجنة تجارب كثيرة أثبتت بها الدور الذى تلعبه الفيران والطريقة التى تنتقل بها العدوى بينها ومنها إلى الإنسان . اتضح لها أن فى الهند نوعين من الفيران ينقلان المرض : نوع كبير متوحش يسكن الغيطان وقلما يلجأ إلى المنازل ونوع آخر أصغر منه وأقل توحشاً يسكن المنازل أو بالقرب منها .

ويبدأ المرض فى النوع الأول ثم ينتقل منه إلى الثانى ومن

ثم إلى الإنسان بحيث إذا ما رُسِمَ رسمٌ بيانى لوفيات الطاعون فى كل من هذين النوعين من الحيوان وفى الانسان لاتضح انطباقها انطباقاً ظاهراً لا تفصلها إلا الفترة التى تمر بين انتشار العدوى فى كل نوع من هذه الأنواع . مما يؤيد تسلسل العدوى من النوع الأول من الفيران إلى النوع الثانى ثم إلى الأنسان . وقد أثبتت اللجنة أن براغيث الفيران هى التى تنقل العدوى فإذا ما وصل المرض إلى الإنسان أمكن انتشاره بين الأفراد بواسطة براغيث الإنسان ولا نرى بأساً من أن نورد هنا بعض التجارب التى قامت بها هذه اللجنة لنعطى القارىء فكرة عن البحث العلمى فى مثل هذا الميدان :

(١) وُضع خليط من الفيران المحقونة بالطاعون والسليمة فى قفصين أُحكم صنع أولهما بحيث أصبح لا يسمح للبراغيث بالوصول إلى داخله وروعى أن تكون جميع الفيران خالية من البراغيث ووُجد بعد بضعة أيام أن العدوى قد انتشرت فى القفص الثانى وقد وصلته البراغيث ولم تنتشر فى الأول وقد خلا منها .

(٢) وُضِع فأرٌ معدى بجرثومة الطاعون فى إناء زجاجى مغطى بشبك من السلك ووضع بالقرب منه إناء آخر مماثل له

وغطى الأثنان بالشاش وتُرك الفأر إلى أن مات. ثم وضع فى الإناء الآخر فأر سليم لم يلبث أن أخذ العدوى رغم بعده عن الفأر الأول . مما يدل على أن هناك عاملا حمل العدوى من الفأر الأول إلى الفأر الثانى . فان استبعدنا الهواء (وقد استبعَدَته التجربة الأولى) بقى احتمال وجود حشرة تنقل الجرثومة من المصاب إلى السليم .

(٣) وُضع فأر سليم داخل قفص فى غرفة بها عدد كبير من الفيران المصابة بالطاعون وأحيط القفص بدائرة من مادة لزجة كالتى تستعمل لصيد الذباب وجُعل عرضها أكثر من ١٥ سنتيمتر فسلم هذا الفأر من العدوى رغم إحاطتها به إذ لم تتمكن البراغيث من الوصول إليه فأقصى مسافة يستطيع البرغوث قفزها هى ١٥ سنتيمتر . فاذا ما أراد الوصول إلى الفأر وقع فى الشرك الذى نُصب له من المادة المذكورة .

(٤) بُنِيَت ست خانات سُقِّفت اثنتان منها بالحديد تسقيفاً محكماً بحيث لا تجد الفيران فراغاً فى هذا السقف تعيش أوتتوالد فيه ، وسُقِّفت اثنتان أخريان بالطوب تسقيفاً يسمح بالتجاء الفيران إلى السقف بعدد قليل، وسُقِّفت الباقيتان تسقيفاً رديئاً بحيث تعيش .

الفيران وتتوالد فيه كما تريد . ووُضِعَت تحت هذه الأسقف طبقة من السلك تمنع الفيران من دخول هذه الخانات ولكنها لا تمنع البراغيث، ثم وُضع فى الجميع خليط من الحيوانات المعدية والسليمة والجميع خال من البراغيث فوُجد أن العدوى لم تنتشر فى النوع الأول وانتشرت فى النوع الثانى انتشاراً قليلا . وأصيبت جميع الفيران السليمة فى النوع الأخير . ولما أُحصى عدد البراغيث فى كل من هذه الخانات وُجد أن أكثرها كان فى النوع الأخير. وقد برهنت هذه التجربة أيضاً على أهمية المنازل المحكمة البناء التى لا تسمح بالتجاء الفيران إليها فى منع هذا المرض .

ينقل البرغوث العدوى بالطريقة الآتية : يمتص دم الفأر المصاب ويمتص معه عدداً كبيراً من ميكروبات الطاعون تصل إلى المرىء وتتوالد فيه حتى قد تسده من كثرتها فاذا ما وصل هذا البرغوث إلى فأر آخر أو إلى الإنسان (وهو دائماً يفضل الفأر ولا يلجأ إلى الإنسان إلا إذا لم يقابل ضالته المنشودة) أفرغ فى الدم ما فى جعبته من الميكروبات قبل أن يمتص ما يريده من الدم الجديد . والعدد الذى يَصُبُّه كبير جداً يكفى لإحداث عدوى مؤكدة . ويقال إنه نظراً لانسداد المرىء يشعر

البرغوث بالجوع فيترك الفأر ليبحث عن الطعام فى فأر غيره أو فى الانسان .

لم يبق شك فى طريقة نقل العدوى فالجرثومة تصيب أولا الفيران فتقتل عدداً كبيراً منها . وإذا ماتت الفأر ولم يجد البرغوثُ الدفء الذى تَعَوَّدَ عليه ترك الجثة الباردة ليبحث عن الدفء والدم فى جسم حيوان آخر أو فى جسم الإنسان إن قابله ثم ينتقل المرض بين الأفراد بنفس الطريقة.وقد تنقله كما أسلفنا براغيث الانسان كما تنقله براغيث الفيران . ويَسْرى الوباءُ بين الناس مُبيداً أقلهم مناعة مُبقياً على من اكتسبوا القدرة على مقاومته . حينئذ فقط تنطفىء جذوته ، ويبقى كامناً فى الفيران إلى أن تسنح فرصة انتشاره مرة أخرى . ومن أكثر الظروف ملاءمة لذلك توفر الشروط اللازمة لانتشار البراغيث والملائمة للجرثومة وهى درجة حرارة معتدلة حوالى ٢٥° مئوية ودرجة رطوبة تقرب من التشبع .

وتتوفر فى القطر المصرى هذه الشروط حوالى شهر مارس فى الوجه القبلى ، وحوالى شهر يونيو فى الوجه البحرى .

وإذ تكلمنا عن مصر يمكننا أن نذكر هنا أن أكثر المدن

تعرضاً للعدوى هى الثغور كالاسكندرية وعلى الأخص السويس وبور سعيد وقد تصل منها إلى جهات بعيدة جداً عن منبع العدوى . ويرجع السبب فى بدئها بالثغور إلى وصول سفن من الهند أو الصين أو غيرها من مواطن الطاعون فى الشرق . وقد نُقلت منها بعض الفيران إلى الميناء أو قد يهرع العمال إليها وجلهم كما نعلم رجال أشداء من سكان الوجه القبلى فتنتقل العدوى إليهم ومن عادة هؤلاء العمال أنهم إذا ما مرضوا خشوا الموت فى بلد غريب فشدوا رحالهم إلى بلادهم قبل أن يشتد عليهم المرض . حاملين جرثومته معهم . ناشرين إياها فى بلد يبعد عن منبع المرض بمئات الأميال .

وقد اعتاد رجال الصحة عند ما ينتشر المرض فى بلد من البلاد التحرى عن الحالات حتى يصلوا إلى منبعها وكثيراً ما يتضح لهم أن أول حالة أتت من أحد الثغور .

هذه هى قصة أوبئة الطاعون فى القطر المصرى فى كثير من الأحوال . ولكن هناك أوبئة فشل رجال الصحة فى الرجوع بها إلى أحد الثغور مما لا يدع مجالا للشك أن فى مصر نفسها جهات يستوطنها المرض وربما استوطنها منذ أمد بعيد .

ومعظمها فى الوجه القبلى وعلى الأخص فى مديريات أسيوط وبنى سويف وجرجا .

تنطبق طريقة العدوى التى أشرنا إليها على النوع الدملى والتسممى ، أما النوع الرئوى وهو أشدها وطأة و يكاد أمل الشفاء منه يكون معدوماً فتنتشر عدواه بطريقة تختلف عما ذكرنا كل الاختلاف إذ تنتشر بالرذاذ ولا دخل فيها للفأر أو البرغوث والوقاية منه يجب على الطبيب أو المبخر أو الممرض أو غيرهم ممن يضطرهم عملهم إلى الاقتراب من المريض أن يلبسوا قناعاً يرشح الهواء الذى يستنشقونه ويقيهم من الميكروبات .

ومن حسن الحظ أن أوبئة الطاعون قل أن تبدأ بهذا النوع اللهم إلا فى بعض البلاد التى يصيب المرض فيها أنواعاً أخرى من القوارض تتراكم الجراثيم فى رئتيها فتنفثها فى الهواء بحيث تصل مباشرة إلى أنف الإنسان . ويأتى هذا النوع فى الغالب ثانوياً بالنسبة للنوعين الآخرين فاذا ما تصادف أن استتبت الجرثومة عند أحد المرضى فى الرئتين أحدثت النوع الرئوى وانتقلت العدوى منه إلى غيره بالرذاذ وخصوصاً إذا انتابت المريض نوبة من السعال .

والآن وقد أوضحنا طريقة العدوى أصبح جلياً أن أهم طرق الوقاية تنحصر في إبادة البرغوث والفأر . أما الأول فابادته قد تتم بمراعاة النظافة. أما الثاني وهو المهم فمكافحته تحتاج إلى مجهود كبير إذ يلجأ رجال الصحة إلى طرق شتى وقلما يقتلون من هذه الحيوانات سوى العدد اليسير وذلك لما اتصفت به من الذكاء وسعة الحيلة . يحملون عليها بفرقة تسمى فرقة إبادة الفيران تحاربها بعدة طرق منها وضع الفخاخ وسم الطعام (مراعين إبعاد هذا الطعام عن الأطفال) وسد الثقوب بقطع من الزجاج وغير ذلك من الطرق التي قد تُجدى في أول الأمر إلا أنها لا تلبث أن تفشل والواقع أنه ليس من طريقة مجدية سوى هدم الأكواخ والعشش والمنازل القديمة التي تأوى إليها هذه الحيوانات بعدد كبير وإسكان الأهالي في منازل محكمة البناء لا تسمح للفأر بأن يعيش أو يتوالد فيها . إن هذه الطريقة وحدها هي التي قضت على الطاعون في أوربا فثغر كليفربول أو مرسيليا معرض للطاعون كالسويس تماماً ومع ذلك فقلما انتشر فيه هذا المرض منذ عشرات السنين إذ تعوزه العوامل اللازمة لانتشاره. وقد قال أحد المشتغلين بالصحة العامة في فرنسا : « إن المدَنيّة وحدها هي التي قضت

على الطاعون فى أوروبا والمدنيَّة وحدها هى التى ستقضى عليه فى الشرق » .

حدث فى بعض البلاد أن أمر أولو الأمر من رجال الصحة بحرق قرى بأكملها مبتدئين من خارج القرية إلى داخلها للاحاطة بالفيران ومنعها من التسرب الى قرى أخرى كما قد يحدث إن هم بدأوا من وسط القرية . أمروا باحراق هذه القرى مقلدين حريق لندن العظيم ولكنه إجراء يتطلب مصاريف باهظة قد لا تستطيع الدولة تحمل أعبائها إذ عليها أن تعوض الأهالى عن مساكنهم أو أن تتولى هى بناء مساكن جديدة محكمة كثيرة التكاليف .

من هذا كله يتضح أننا إذا أردنا أن نحمى الأهالى فى مصر من أوبئة الطاعون وجب على أولى الأمر أن يفكروا جدياً فى تنفيذ المشروعات التى طالما تكلموا عنها الخاصة بتحسين الحالة الاجتماعية للفلاح وذلك باسكانه المنزل اللائق الذى لا يسمح للفأر أن يشاركه فيه و إعطائه الأجر الكافى الذى يمكِّنه من أن يعيش عيشة معقولة و يرتدى ملابس نظيفة ، والى أن يتم هـذا و إلى أن يخصص لهذا المشروع للمال اللازم له ستستمر أوبئة

الطاعون كما استمرت فى أوربا فى القرون الوسطى .

تكلمنا عن الفأر من وجهة نقله للطاعون — وليس الطاعون إلا أحد الأمراض التى ينقلها — والآن سنقدم للقارىء نبذة قصيرة عن عادات هذا الحيوان والضرر المادى الذى يلحقه بالجنس البشرى .

يظهر أن هذه الحيوانات استوطنت فى الأصل الشرق ثم رحلت منه إلى جميع أنحاء العالم حتى أصبح لا يخلو منها مكان اللهم إلا المناطق الباردة جداً كالقطب الشمالى الذى يحتمل أن تكون قد وصلت إليه ثم عادت أدراجها باحثة عن جهات أقل برودة وأكثر دفئاً وهى كثيرة النسل جداً بحيث ينتج الزوج عدة مئات فى فترة قصيرة نسبياً. وهى على أنواع كثيرة جداً ذكرنا منها النوع الكبير الذى يعيش فى الغيطان والنوع الأسود الصغير الذى يلجأ إلى المنازل أو ما جاورها . وفى مصر نوع شائع أسود اللون ذو شعر سميك شائك يعرف بالإسم اللاتينى « أكوميس كاهرينس »

تشترك الجرذان مع الإنسان فى صفات كثيرة فهى كالإنسان تستطيع المعيشة فى كل جو وتأكل كل شىء من لحوم وخبز

وخضر وفاكهة ، وكالإنسان يشن بعضها الحرب على بعض ، وحروبها أشبه بحروب القبائل التى كانت منتشرة إلى عهد ليس ببعيد ، وربما لازالت منتشرة فى جهات لم تصلها المدنية بعد . فأر الغيط الكبير الذى اتصف بالتوحش والشراسة طارَدَ الفأر الصغير حتى أسكنه المنازل ولم يعد فى استطاعته منازلة خصمه العتيد . والجرذان كالإنسان تتصف بالخيانة والمكر والخداع وهى كالإنسان تمشى على الأرض وتسبح فى الماء ، وإن لزم الأمر تسلقت الحوائط لبلوغ غرض أو إشباع شهوة، وهى تفوق الإنسان فى كثرة نسلها ، وقد تنتج بضع عشرات منها الملايين فى بضع سنوات ويقال إنه أفلت يوماً من طفل فأران من نوع خاص كان يلهو بهما فلم تمض إلا فترة قصيرة حتى ضجت المدينة من هذا النوع من الفيران . والفيران أكثر ما تكون خصوبة فى الربيع وهو الفصل الذى يخصصه الإنسان للحب والغرام

ويعيش الفأر فى المتوسط ثلاث سنوات وهو أكثر خصوبة فيما بين سن ستة أشهر وسنة ونصف ، وتتمشى هذه الفترة (مع مراعاة النسبة فى العمر) مع فترة الخصوبة فى الإنسان . والفأر كالإنسان لا فائدة منه لأى نوع آخر من مملكة الحيوان..

يستفيد ولا يُفيد . فمن يدرس حياة الحيوانات أو النباتات يجد أن أى نوع منها إن استفاد من نوع آخر من جهة أفاده من جهة أخرى أو أفاد أى نوع غيره . فقد تعيش إحدى الحشرات على حشرة أخرى ، ولـكنها قد تؤدى بذلك أكبر خدمة لنوع آخر من المخلوقات . والحيوان المستأنس قد يتطلب كمية كبيرة من النبات لغذائه ولـكنه يفيد الانسان أكبر فائدة . وتوجد بين الجراثيم فصائل كثيرة تؤدى للانسان أو الحيوان أو النبات أكبر الخدمات . توجد الجرثومة التى تعيش فى الأمعاء وتساعد على هضم ما لم يتمكن عصير المعدة والأمعاء من هضمه ، ويوجد الميكروب الذى يعيش فى جذور البقول ويصنع من أزوت الهواء سماداً طبيعياً قبل أن تخرج المصانع مثله . أما الفأر والإنسان فهما يعيشان على الحيوان والنبات ولا يفيدان إلا جنسيهما . وسُنة الطبيعة أن يعيش القوى على الضعيف ، والضعيف على ماهو أضعف منه . أما الفأر والإنسان فيعيشان على ماهو أضعف منهما وقل أن يعيش أحد عليهما اللهم إلا إن كان من جنسيهما .

قد يوجد بين الناس من يستمرىء لحم الفيران إلا أنهم قلة تـكاد لا تذكر ، ومعظم الجنس البشرى يمجها وهى فى الدين

الاسرائيلى محرمة كما حُرِّمت الميتة ولحم الخنزير عند المسلمين .

وتسبب الجرذان للانسان خسائر مادية فادحة فتستهلك من الحبوب وغيرهامن موادالطعام كميات كبيرة وقد قُدِّر ما يستهلكه الفأر سنوياً فى انجلترا وأمريكا بما يوازى حوالى خمسة وعشرين قرشاً فإن قدرنا الخسارة فى القطر المصرى على هذا الأساس وهو تقدير فيه شيء من التسامح للفرق الشاسع بين عنايتنا بالمواد الغذائية وعنايتهم بها . ولواعتبرنا أن تعداد الفيران فى هذه البلاد يوازى تعداد الأهالى وهو تقدير تقريبى معقول (ومثل هذا التقدير فى أى بقعة من البقاع لا يمكن إلا أن يكون تقريبيا . يُعمل بنصب الفخاخ لهذه الحيوانات واعتبار ما يقع منها نسبة ضئيلة معينة من عددها الكلى) لو عُمِل التقدير على هذا الأساس لبلغت الخسارة حوالى أربعة ملايين من الجنيهات سنوياً . وإذا قلدنا الأمريكيين فى تقدير خسارة الأرواح بالمال معتبرين أن الفرد يساوى مقداراً معيناً لبلغت الخسارة رقماً قياسياً . وفضلا عما تقدم فإن الكثير من الجرذان يهاجم الطيور والحيوانات الصغيرة بل وأحيانا الحيوانات الكبيرة . ويقال إن فى هامبورج فى حديقة حيوانات « هاجنيك » الشهيرة سطت الفيران على

أحد الفيلة فأحدثت في ساقه قروحاً قذرة كبيرة اضطرت المشرفين عليه إلى إعدامه . كما يقال إن في الهند سطت جرذان جائعة على طفل صغير فأتت عليه . وتكثر الفيران عادة بجوار السلخانات فإذا ما نُصبت الفخاخ فيها أو بجوارها وقع منها العدد الكبير وفي الحرب العظمى الأولى أيام أن كان الفرنسيون يكثرون من ذبح الخيول حدث أن أتت الفيران على جثث بضعة خيول كانت قد تُركت بإحدى سلخانات باريس ولم تترك منها سوى العظم . وفي تلك الحرب أيضاً لاقى الجنود الأمرّين لكثرة ما استعمل فيها من الخنادق التي كانت تلجأ الفيران إليها بعدد وفير ناقلة إليهم المرض ومُتلِفة ما ادخروه من طعام . وقد كتب أحد أولئك الجنود إلى والدته يشكو حاله فكان مما شكا منه ما أصاب الكعكة الكبيرة التي أهدتها إياه والتي كان قد وطد العزم على أن يأكلها على عدة أيام فأكل جزءاً منها أول يوم ثم اكتشف في صباح اليوم التالي أن الفيران قد نهشت منها جزءاً كبيراً فصمم على أن يضع ما بقي تحت وسادته وراعه أن قام في منتصف الليل والفيران الكبيرة تحوم حول رأسه فوفّقه ذكاؤه إلى اكتشافٍ ظن أنه سيتغلب به على مكر هذه الحيوانات

إذ وضع ما بقى من الكعكة فى قطعة من القماش وعلقها فى سقف الخندق بقطعة من السلك ونام مطمئناً إلى أن أيقظه صرير غريب فما فتح عينيه حتى رأى الربطة تتأرجح من السقف واتضح له أن فأراً قد وصل إليها واستمرأ طعمها فقرض منها ما طاب له، وأخيراً اكتشف الجندى أن خير طريقة هى أن يأكل هو وزملاؤه ما تبقى منها قبل أن تأكله الفيران

وكثيراً ما تهجم الفيران بجيوش جرارة على المزارع والقرى فتحدث فزعاً ورعباً وخسارة مادية لا تقدر . وهناك من المؤرخين من دونوا ضمن مشاهداتهم ما رأوه من جيوش جرارة من الجرذان لا حصر لها تجتاز الغيطان راحلة من بقعة إلى أخرى غير مبقية على شىء

وتشترك الفيران مع الانسان أيضاً فى الكثير من أمراضه نذكر منها الطاعون واليرقان المعدى والتريكنيوس و بعض أنواع التيفوس ، وقد تضيف الفيران فوق ذلك جراثيم تسمم الطعام والكلب وحمى عضة الفأر وغيرها من الجراثيم التى لو اقتصر ضررها على الفيران لكانت من أفيد الجراثيم للانسان

الجديد فى علاج الطاعون : ذكرنا أن المصل المضاد قد جرب فى هذا المرض فلم يأت بفوائد تذكر . بعد اكتشاف مركبات السلفوناميد وبعد ما برهنت عليه هذه المركبات من نجاح كبير فى علاج الكثير من الأمراض الميكروبية كان من الطبيعى أن يجربها الأطباء فى علاج الطاعون وقد أتت ببعض الفائدة فى النوع الغددى أما النوع الرئوى فلا زال الموت منه يكاد يكون محتما وكل ما ينتج هنا عن استعمال هذه المركبات لا يزيد على تأخير الموت يوماً أو يومين.

من الغريب أن هناك جراثيم عديدة من فصيلة ميكروب الطاعون تصيب أنواعاً عديدة من الحيوانات وعلى شدة مشابهتها لميكروب الطاعون فهى لا تصيب الإنسان مطلقا مهما عرض لعدواها لأنه يتمتع بمناعة طبيعية ضدها وقد يأكل الدجاج أو لحم البقر المصاب بهذه الأنواع من الجراثيم دون أن يصاب بأذى ولو أنه ذكر أخيراً أن طفلا أصيب بتسمم دموى سببته جرثومة من هذا النوع نقلت إليه من عضه قط كان حاملا لهذا الميكروب .

وكما أن الإنسان منيع ضد معظم هذه الجراثيم فكذلك كثير من الحيوانات كالبقر مثلا منيع ضد ميكروب الطاعون وقد يظن البعض أن ميكروب الطاعون البقرى هو نفسه ميكروب الطاعون الآدمى والواقع أنه يختلف عنه كل الاختلاف ولا علاقة بينهما مطلقا .

مع البعوض

الحمى الصفراء أو القيء الأسود

سُمِّيت هذه الحمى بهذين الإسمين لما يصحبها غالباً من يرقان يصبغ الجلد باللون الأصفر ومن قيء امتزج بالدم واسْوَدَّ لونُه لتفاعل الدم مع حمض الهيدروكلوريك فى عصير المعدة .

ويظهر أن هذا المرض استوطن فى الأصل أفريقا ولا سيما غربها ومنها انتقل إلى المكسيك وأمريكا الجنوبية واتخذ له فيها وطناً ثانياً . وهو لاستيطانه هذه الجهات منذ عهد بعيد أكسب سكانها مناعة قوية ضده بحيث إذا عُرضوا للعدوى نجوا من الاصابة أو أصيبوا بها بشكل خفيف جداً قد لا تزيد أعراضه عن أعراض انفلونزا بسيطة .

و إذا أصابت هذه الحمى الأوروبيين أو غيرهم من الأجناس البيضاء فتكت بهم فتكا ذريعاً . وقد وصلت الحمى الصفراء إلى الولايات المتحدة وعلى الأخص إلى فلادلفيا عدة مرات وكان من عادة حكام القرن الثامن عشر عند بدء الوباء أن يأمروا بقرع

الأجراس و إطلاق المدافع بطريقة خاصة منبهين الأهالى إلى انتشار المرض .

وأخيراً اختفت الحمى من تلك البلاد وانقطعت زياراتها الثقيلة وقد نسب الأهالى ذلك إلى تحسن الطرق الصحية دون أن يعرفوا إلى أى هذه الطرق رجع الفضل فى اختفاء المرض

وهذه الحمى التى لم يكتب عنها المؤرخون كما كتبوا عن الطاعون أو التيفوس لم تكن أقل قسوة على الجنس البشرى من هذين المرضين فقد فتكت هى أيضا بالملايين من الناس إلا أن معظمهم كانوا ممن يسمونهم بالوطنيين (Natives) أو الملونين (Coloured) من سكان أفريقا وهنود أمريكا وممن لم يهتم المؤرخون بتدوين تاريخهم والواقع أن كل ما نعرفه وكل ما كتب عن الحمى الصفراء يرجع إلى عهد قريب .

اكتشف كولمبس عام ١٤٩٢ جزيرة سماها اسبانيولا 'Espagnola' وعرفت فيما بعد باسم هيسبانيولا "Hispaniola" وكانت من أهم مستعمرات اسبانيا وقد عُيِّن ابن كولمبس « دون دييجو كولمبس » (Don Diego Columbus) حاكما لها . وقد كتب المؤرخون الذين رافقوا كولمبس فى رحلته.

الثانية إلى أمريكا أن مرضاً غريباً أصاب الاسبانيين النازحين إلى هذه الجزيرة فكانت تنتابهم الحمى ويصفر جلدهم حتى يصبح بلون الكبريت ثم يموت منهم عدد كبير . وحدث أيضاً بعد ذلك أن نزل المكتشف دى لار (De Lare) فى نفس هذه الجزيرة ومعه ألفان وخمسمائة من الاسبانيين مات منهم ألف بحمى تشبه الحمى التى أصابت رجال كولمبس .

كانت بهذه الجزيرة مناجم غنية بالذهب مما شجع عدداً كبيراً من الاسبانيين على الرحيل إليها فى أوائل القرن الثامن عشر فأخذوا يُسخّرون الأهالى ويسومونهم العذاب حتى أن الكثيرين منهم قتلوا أولادهم وزوجاتهم ثم انتحروا ليتخلصوا من هذا الشقاء واضطر الاسبانيون آخر الأمر إلى أن يحضروا الأيدى العاملة من جهات أخرى فأتوا من أفريقيا بعدد كبير من الزنوج الذين اتصفوا بالقوة والقدرة على تحمل المشاق وكانوا فوق ذلك — وهو الأهم — يتمتعون بمناعة قوية ضد الحمى الصفراء فزاد نسلهم وتفوقوا فى العدد تفوقاً كبيراً وانقرض السكان الأصليون أو كادوا . ثم بدأ الزنوج يثورون على الاسبانيين الذين

أخمدوا هذه الثورات بقسوة ووحشية لا مثيل لها فكانوا يُفتتون عظامهم وهم أحياء أو يجلدونهم حتى يفارقوا الحياة، فإذا ما توخوا الشفقة جمعوهم فى صعيد واحد وحصدوهم بنيران بنادقهم إلا أن كثرة عدد الزنوج تحت قيادة زعيمهم القدير «توسانت لوفرتير» (Toussaint L'Ouverture) مكنتهم آخر الأمر من الغلبة فانتقموا من الاسبانيين شر انتقام ، وأسقوهم جرعة من دوائهم فجلدوهم وفتتوا عظامهم وحصدوهم برصاص بنادقهم

قُدِّر لهذه الجزيرة بعد ذلك أن تقع فى أيدى الفرنسيين الذين ثار عليهم الأهالى بدورهم فأرسل إليها نابليون حملة قوامها ٢٥٠٠٠ جندى لاخماد الثورة وما نزل الجنود الفرنسيون إلى البر حتى فر الأهالى إلى خارج المدينة بعد أن أحرقوها وخربوا كل شىء فيها فطاردهم الفرنسيون وهم لم يكونوا فى الحقيقة ينظرون إلى هذه الحرب نظرة جدية إذ لم يكن أمامهم جيش منظم كجيشهم بل قبائل همجية لا دراية لها بفنون الحرب ولا تملك من عتاده الكثير ولا القليل ومع ذلك فقد عاد الجيش الفرنسى ولم يبق منه سوى ثلاثة آلاف مقاتل لا لأن الزنوج قهروه بل لأن الحمى الصفراء فتكت به فتكا ذريعاً وكادت هذه الحملة

تفشل لولا الخيانة والرشوة التى أدت إلى القبض على زعيمهم العظيم توسانت الذى قضى نحبه بعد ذلك فى أحد السجون الفرنسية .

انتقلت الحمى الصفراء من هذه الجزيرة إلى الولايات المتحدة وعلى الأخص فلادلفيا فسببت الهلع والذعر بين الأمريكيين الذين كانوا يحاربونها بإشعال النار وإطلاق البارود معتقدين أنهم بذلك يطردونها من البلاد كأنما هى جيش حقيقى يطارد بالنار والبارود .

تخبط الناس فى شرح طريقة العدوى كما تخبطوا فى شرح طرق العدوى فى غيرها من الحميات . كانوا فى أول الأمر ينسبونها كالمعتاد إلى تراكم القاذورات وهو زعم قديم اعتاد الناس أن يلجأوا إليه فى تعليل الأمراض الوبائية حتى يؤيده العلم أو يظهر سبباً آخر . والواقع أن الحمى الصفراء لم تكن فى الأحياء الغنية النظيفة أقل انتشاراً منها فى الأحياء الفقيرة القذرة مما جعل أحد مشاهير أطباء أمريكا يفند نظرية تراكم القاذورات ونسبها إلى عامل أبعد عن الحقيقة إذ زعم أن هذه الحمى تنشأ من استعمال البن التالف وقد أيد هذا الرأى بعض الجهات العلمية ولعل ذلك

راجع إلى تصادف انتشار المرض فى بعض جهات البرازيل فى وقت أصيب فيه محصول البن بآفة أو عطب .

بعد ذلك ببضع سنوات أعلن طبيب أمريكى يدعى نوت (Nott) أنه يُرَجِّح أن هناك علاقة كبيرة بين البعوض والحمى الصفراء وربما كان هو الناقل لها وحوالى سنة ١٨٨٠ كتب طبيب فى كوبا يدعى كارلوس فنلى يقول إنه يعتقد أن الحمى الصفراء تنتقل بواسطة البعوض وقد أجرى فعلاً بعض التجارب لاثبات نظريته إلا أنها لم تكن تجارب مقنعة .

لاحظ هذا الطبيب أن الحمى الصفراء قليلة الانتشار أو تكاد تنعدم فى الجو البارد وفى الجهات المرتفعة وهو ما يتفق مع عادات البعوض الذى يكثر انتشاره فى الصيف ولا يصل غالباً إلى الجهات المرتفعة ولاحظ أيضاً أن المرض لا ينتقل من المريض إلى السليم بالطريق المباشر . كل هذا جعله يؤمن بأنه لا بد من أن يكون هناك عامل ينقل العدوى ورجّح أن يكون هذا العامل هو البعوض بل ذهب إلى أكثر من ذلك وذكر نوعاً معيناً من البعوض كان يعرف باسم « كيولكس فاتجانس » ويعرف الآن باسم « إيدس إيجيبتاى » . ونشر فى مجلة العلوم الطبية

الأمريكية رسالة دوّن فيها آراءه وتجاربه إلا أن الناس فى هذا الوقت كانوا فى شغل عن تتبع مثل هذه الأبحاث وكان جل اهتمامهم موجهاً إلى الميكروبات والاكتشافات الكثيرة التى قامت بها مدرسة باستير فى فرنسا ومدرسة كوخ فى ألمانيا فلم يُعيروا رسالة فنلى الطبيب غير المعروف أقل اهتمام واستمروا يؤكدون أن الحمى الصفراء تنتشر بواسطة القاذورات .

وفى عام ١٩٠٠ — أثناء الحرب الأمريكية الاسبانية — انتشرت الحمى الصفراء فى فرقة أمريكية عسكرت فى كوبا فأرسلت إليها الحكومة الأمريكية بعثة طبية عسكرية مكونة من « والتر ريد » رئيساً و« چيمس كارول وچيسى لازار وأريستيدس أرجمنتى » أعضاء وكان الأول والثانى طبيبين عسكريين والثالث طبيباً مدنياً والرابع من رجال الصحة العامة الكوبيين وقد امتاز عن الآخرين بأن أصيب قبل ذلك بالحمى الصفراء فأصبح منيعاً منها ، وكانوا جميعاً مدربين تدريباً بكتريولوجيا كافياً ، وكان « ريد » رئيس البعثة على علم بآراء فنلى ولو أنه لم يكن مقتنعاً بها فأمر بأجراء بعض التجارب بعد أن حصل منه على عدد قليل من البعوض الذى يشتبه فيه والذى رُبِّى

تحت إشرافهم . تركوا هذا البعوض يمتص دم مريض بالحمى الصفراء وبعد بضعة أيام تطوع اثنان من أعضاء البعثة وهما كارول ولازار بالقيام بدور حيوانات التجارب فى المعمل إذ لم يكن قد عُرِف إلى ذلك الحين أى الحيوانات قابل للعدوى بهذه الحمى . سُمِح لهذا البعوض أن يمتص من دمهما ما شاء وأن يلفظ فيه جرثومة المرض التى امتصها من المريض إن كان ذلك حقيقياً . بعد بضعة أيام ظهرت أعراض الحمى الصفراء على كارول وكاد يموت منها ولكن الله أراد له أن يتغلب على المرض ليكمل بحثه . أما لازار فقد سلم من العدوى . إلا أنه حدث ذات يوم وهو فى أحد عنابر الحمى الصفراء أن حطت على يده بعوضة لم يأبه لها ولم يحاول طردها تاركا إياها تمتص من دمه ما شاءت ولا نعلم إن كان ذلك تعمداً فى سبيل البحث أو نتيجة إهمال أو ظناً منه أنه منيع لفشل التجربة الأولى فيه . والاعتقاد السائد أنه تعمد تركها معيداً التجربة على نفسه . و بعد بضعة أيام من هذا الحادث الذى لم يكن لازار قد ذكر شيئاً عنه ظهرت عليه أعراض الحمى الصفراء وقضى نحبه بعد مرض قصير تاركا أرملة وطفلين صغيرين لم ير أحدهما . كان حينئذ فى

مقتبل العمر لم يبلغ الرابعة والثلاثين وكان ممتلئاً صحه ونشاطاً ، أمامه مستقبل باهر وله آمال كبيرة فمات ضحية العلم والإنسانية وخُلِّد اسمه بأن أُنشىء مبنى صغير للبحث فى هذا المرض أطلق عليه اسم « كامب لازار » .

كانت وفاة لازار صدمة عنيفة لأعضاء البعثة إلا أنهم مالبثوا أن أفاقوا منها . وقد يظن القارىء أن هذا الحادث علمهم أن لا يعودوا إلى إجراء مثل هذه التجارب الخطرة على الإنسان وأن يتريثوا حتى يجدوا من الحيوانات ما هو قابل للعدوى لإجراء تجاربهم عليها وأكبر الظن أن غيرهم ما كان يفعل سوى ذلك . أما هم فقد استمروا فى عملهم الجرىء . أعلنوا ذات يوم عن حاجتهم إلى متطوعين لتجارب الحمى الصفراء ووعدوا أن يمنحوا كل متطوع مائتى دولار قد لا تسنح له الفرصة للتمتع بدولار واحد منها فتطوع كثيرون وقبل بعضهم الهبة وأبى البعض إلا أن تُجرى عليهم التجربة فى سبيل الإنسانية وفى سبيل الإنسانية وحدها ، من أولئك جندى بسيط يدعى كسنجر وكاتب شاب يدعى موران . ذكر لهما ريد الخطر الذى سيعرضان له وأفهمهما حقيقة ما هما مقدمان عليه ولم يَفُتْه

أن يضرب لهما مثلاً بلازار فلم يَفُتَّ هذا من عضدهما ولم يُقَلِّل من حماسهما ولم يترددا بل قبلا إجراء التجربة . فلما ألح عليهما ريد بقبول الهبة رفضا بإباء وقالا نحن نقبل هذه التجربة على شرط واحد وهو أن تكون بلا مقابل ، حينئذ وقف الضابط العظيم ورفع يده إلى رأسه بتحية عسكرية قائلاً : « أيها السادة إنى أحييكم » .

أُجْرِيت التجربة وهى لا تخرج عن التجربة التى أجريت على كارول ولازار فأصيب كسنجر بالمرض وأراد الله أن يُشفى منه وهو مفلس كان بوسعه أن يتمتع بالمائتى دولار . أما موران فقد سلم من العدوى هذه المرة وأبى إلا أن يتطوع مرة أخرى فى تجربة ثانية إذ وُضع مع آخرين فى غرفة أُحْكم غَلقها بالسلك وأُطلق فيها عدد كبير من البعوض المعدى . فأخذ العدوى هذه المرة وشُفِى هو أيضاً . وأصيب كذلك من الآخرين عدد ليس بقليل .

لم يبق شك لدى البعثة فى أن البعوض ينقل العدوى ولكن بقى لهم أن يثبتوا أنها لا تنتقل بسواه . أرادوا أن يعرفوا إذا ما كانت هذه الحمى تنتقل أيضاً بالقاذورات كما زعم كثير من

الناس ومنهم عدد كبير من الأطباء وكان لا بد لهم هذه المرة أيضاً من متطوعين لم يجدوا صعوبة فى الحصول عليهم من بين الجنود. وُضِع هؤلاء المتطوعون فى غرفة غُطِّيت أبوابها ونوافذها بالسلك حتى لا يصل إليها البعوض وأُثِّثت بأثاث بال ووضع على الأسرة ملاءات لُوثت بقىء وبراز مرضى الحمى الصفراء وارتدى المتطوعون كذلك ملابس ملوثة بهذه القاذورات وبالاختصار لم يدعوا طريقة لتلويث هذه الغرفة إلا واتبعوها بحيث أصبحت شبه مزبلة يأنف الحيوان أن يعيش فيها ومع ذلك فقد مكث المتطوعون فيها ثلاثة وعشرين يوماً يأكلون وينامون فى هذا الجو القذر الملوث ورغم ذلك سلم الجميع ولم يأخذ العدوى واحد منهم وهكذا أثبتت اللجنة أن البعوض وحده هو الناقل للحمى الصفراء وأن نوعاً معيناً هو الذى يفعل ذلك وهو النوع المسمى « إيدس إيجيپتاى » ولو أنه اتضح أخيراً أن نوعاً آخر قد ينقل الحمى الصفراء التى تنتشر خارج المدن . فى الريف والغابات . ويُضيف جرثومتها نوع من القردة يعيش فى الغابات وربما كان هو الأصل فى تاريخ الحمى الصفراء .

وفى الحمى الصفراء كما فى الملاريا وغيرها من الأمراض التى تنتقل بالبعوض لا ينقل العدوى سوى الأنثى من هذه الحشرات .

ومن المدهش أن هذا العمل العظيم الذى قامت به البعثة الأمريكيه لم يلق اهتماماً حتى من الأمريكيين أنفسهم وقد اتضح فى إحدى المناسبات أن رئيس الجمهورية نفسه كان يجهل وجود هذه البعثة ولعل ذلك راجع إلى اهتمام القوم فى ذلك الوقت بشئون الحرب الأمريكية الأسبانية دون سواها . انتهت البعثة من عملها و بعد فترة قصيرة مات رئيسها ولتر ريد أثر إصابته بالتهاب فى الزائدة الدودية قبل أن يرى بعينه ما أدَّاه اكتشافه العظيم لبلاده من خدمات . فلولا هذا الاكتشاف لما أنشئت قناة پناما التى اقترن تاريخها بتاريخ الحمى الصفراء بحيث لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى .

إن فكرة وصل المحيط الأطلسى بالمحيط الهادى عن طريق پناما فكرة قديمة خطرت لكثير من حكام تلك الأقاليم ولكن بعضهم كان يرى فيها خطراً سياسياً فيمانع فى إنشائها متذرعاً بالسفسطة الدينية قائلا : « إن من الكفر أن نصل ما فصله الله » .

كما قيل من قبل عن قناة السويس « خرق القناة خرق فى الإسلام » ولو أن القول الأخير قد صح إلى حد بعيد .

بعد نجاح دليسبس فى إنشاء قناة السويس فكر الفرنسيون فى إنشاء قناة بناما ولم تكن لديهم أقل فكرة عن المصاعب الجمة التى تكتنف هذا العمل العظيم . ولقد نبههم أحد مواطنيهم ممن استوطنوا منطقة بناما منذ عهد بعيد إلى الأخطار والمتاعب المقدمين عليها وقال لهم « إنكم لو شرعتم فى هذا العمل فلن تجدوا فى منطقة بناما كلها الأخشاب الكافية لصنع توابيت موتاكم » فلم يكترثوا لتحذيره ووطدوا العزم على تنفيذ فكرتهم وألفوا شركة ضخمة برأس مال كبير وأوفدوا المهندسين والعمال والمعدات وأغفلوا أو لم يكترثوا بإرسال العدد الكافى من الأطباء وخصوصاً من تخصص منهم فى مسائل الصحة العامة . ولم يخصص فى ميزانية الشركة للأعمال الصحية سوى مبلغ ضئيل جداً خصص معظمه للمستشفيات لا لأعمال الوقاية . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى اعتقادهم أن ما هم قائمون به عمل هندسى بحت لا شأن للمسائل الصحية به . ولعلهم لم يدركوا أن المشاريع العظيمة كقناة بناما وقناة السويس وخزان أسوان

ونفق سان جوتار وغيرها من الأعمال المندسية الهائلة . لعلهم لم يدركوا أن مثل هذه المشاريع تكتنفها مصاعب ليست المسائل الصحية أقلها شأناً . وحتى من الوجهة الهندسية لم تسلم تصرفاتهم من الأخطاء إذ يقال إنهم أخطأوا التقدير والحساب عدة مرات ويظهر أن نجاحهم فى قناة السويس هو الذى ملأهم غروراً وقد كانوا يتمشدقون دائماً بقولهم « لقد نجحنا فى قناة السويس فلم لا ننجح هنا ؟ » والواقع أنهم باءوا من هذا المشروع بالخيبة والفشل ، و بقدر شُحِّهم فى المسائل الصحية كانوا مسرفين كل الإسراف فى غيرها فقد بعثروا من مال الشركة الملايين من الفرنكات فى التمهيد للمشروع وفاق سخاؤهم كل وصف فى تعويض الأهالى عن الأراضى أو الفيافى التى كانوا يملكونها فإذا ما قدرت لجنة التعويض لقطعة أرض ثمناً يبلغ عشرة أضعاف ثمنها الحقيقى دفعوه عن طيبة خاطر .

وصل العمال والمهندسون إلى منطقة بناما وما أن يدأوا عملهم حتى كانت الطامة الكبرى إذ اجتاحتهم موجة هائلة من الحمى الصفراء والملاريا فتكت بهم فتكا ذريعاً وقد كانوا طعما سهلا للحمى الصفراء . كانوا وقوداً صالحاً التهمته نيران هذه

الحمى فأتت على معظمهم . ولا غرابة في ذلك فهم لا عهد لهم بها ولم يعرّضوا لعدواها من قبل ولذا انعدمت المناعة فيهم بتاتاً (وهذا هو شأن الأمراض الوبائية إذا حلت بقوم لم يعرفوها من قبل حصدتهم حصداً والله نسأل أن يبعد هذا الوباء عنا وهو ليس عن أبوابنا ببعيد والمناعة ضده معدومة فينا وبعوضه يذرع القطر طولاً وعرضاً) .

فقدت الشركة الفرنسية من العمال والمهندسين عشرين ألفاً عدا عدد كبير من الزنوج لم يدخلوهم فى حسابهم ويقال إن كثيراً من سفنهم بقيت راسية فى الميناء عدة أشهر وليس عليها عامل أو بحار واحد .

انتهى المشروع بفشل ذريع وخسارة فادحة فى المال والأرواح ولا تسل عن الصدمة التى أصابت دليسبس من جراء ذلك وقد لقى من سخط المساهمين وغضبهم قسطاً وافراً وتوفى بعد ذلك ببضع سنوات فقيراً معدماً ولم يكن حزنه لفشل مشروع قناة بناما بأقل من سروره بنجاح مشروع قناة السويس .

لم يظهر الأمريكيون أثناء قيام الفرنسيين بالمشروع حماسة كبيرة له بل لعلهم كانوا يتمنون فشله رغم اقتناعهم بأهميته

وضرورة إتمامه . أملاً فى أن يتم على أيديهم إذ هو يكاد يكون خاصاً بهم . وقد برهنت لهم الحرب الأمريكية الأسبانية على ضرورة إنشاء هذه القناة إذ كانت السفن الأمريكية تضطر إلى الإبحار حول أمريكا الجنوبية كى تصل إلى جهة قد لا تبعد عن الجهة التى أبحرت منها سوى بضعة أميال . حينئذ فقط وطدت الحكومة الأمريكية العزم على إنشاء القناة فدرست المشروع درساً دقيقاً ومهدت له بطريقة منتظمة ولم يفتها أن تعمل على الإفادة من غلطات الشركة الفرنسية ولو أنها فى أول الأمر كادت تقع فى نفس الخطأ الذى وقعت فيه فأرسلت بعثة صحية ضئيلة قوامها طبيب شاب يدعى « وليم جورجاس » وعدد قليل جداً من المساعدين . وصلت هذه البعثة إلى پناما ورئيسها لا زال يعتقد فى علاقة الحمى الصفراء بتراكم القاذورات فبدأ حملة تنظيف على نطاق واسع جداً . إن هى أثمرت فى تطهير المنطقة من القاذورات فهى لم تثمر فى كبح جماح الحمى الصفراء ومع ذلك فقد استمر فى حملته هذه حتى ضج منه الأهالى . وتصادف أن قابل فنلى — ويذكر القارىء تحمسه لعلاقة البعوض بهذا المرض — فحاول إقناعه بنظريته ولكنه لم يجد

منه سوى أذنا صماء رغم الصداقة التى توطدت بينهما ، وأخيراً بلغته أخبار بعثة ولتر ريد وما برهنت عليه من أن البعوض هو وحده الناقل للحمى الصفراء فآمن بذلك و بدأ حملته من جديد على هذا الأساس وقد كان رجلا لا يعرف أنصاف الحلول فإذا ما بدأ عملاً أعاره كل عنايته ووطد العزم على إتمامه مهما كلفه ذلك من عناء وجعل النجاح دائماً نصب عينيه فحمل حملة شديدة على البعوض ولم يدع طريقة من طرق إبادته إلا واتبعها فردم البرك وصب البترول على سطح المياه الراكدة وغطى النوافذ والأبواب بالسلك المانع للبعوض ودرس عادات البعوض الناقل للحمى الصفراء فاتضح له أنه يتوالد فى أقل كمية من الماء يتوالد مثلا فى الأوانى الصغيرة التى يملؤها ساكنو المناطق الحارة بالماء ويضعونها تحت أرجل الموائد والدواليب لحماية الطعام من النمل بل اتضح له أنه يتوالد فى الحفر التى تتركها حوافر الحيوانات فعمل على منع أو تفادى ذلك . وبالاختصار كافح البعوض بكل وسيلة . كافحه فى أحقر كوخ وفى أكبر فندق ، ويقال إنه حدث يوماً أن صَبَّ أحدُ عماله بعد ما أنهكه التعب ما تبقى معه من مزيج من البترول والقطران فى خزان للماء على سطح أحد

الفنادق الكبيرة ولم يكن بالمدينة ماء جار وتصادف أن دخل حمام هذا الفندق قبطان سفينة وصلت حديثاً فخلع ملابسه وغطى جسمه بطبقة من الصابون وهو طَرِب يغنى معجباً بصوته فما فتح الصنبور حتى غمر جسمه هذا المزيج الكريه من البترول والقطران وامتزج بالصابون فكون معجوناً قبيحاً أسود اللون لم يجدوا فى الفندق أو بالقرب منه ماء يُزيلونه به ويقال إنه بقى كذلك بضع ساعات صب فيها على المشرفين على هذا الفندق من أدب اللغة مالا يوجد فى قواميسها وظلت هذه الحادثة لمدة طويلة موضع تسلية الجميع .

لقد قابل جورجاس فى سبيل إتمام عمله متاعب شتى فالميزانية شحيحة والعمال قليلون وإذا ما شكا إلى الرؤساء المحليين قابلوه بالسخرية أو صارحوه باعتقادهم أن هذا العمل عمل هندسى لا شأن للطب به وإذا ما لجأ إلى من بيدهم الأمر فى وشنجتن لم يجد سوى أذناً صماء بل وقد لاموه مرة لمخابرتهم عن طريق البرق بدل البريد . وإن انتابتهم نوبة كرم سمحوا له بالقليل من الزنوج وإذا ما توسل إلى حاكم بناما أجابه بقوله « وما للبعوض والحمى الصفراء ؟ إن كل بعوضة تقتلها تكلف الدولة عشرة

دولارات » فيرد عليه جورجاس بقوله « إنه ثمن بخس فقد تلدغك هذه البعوضة فتصبح خسارتنا أكثر من ذلك بكثير »
وحدث يوماً أن كان يحاضر بعض الأطباء عن علاقة البعوض بالحمى الصفراء فكان رأيهم أن ليس للبعوض شأن بالحمى الصفراء وتصادف أن كان أمامه إناء به عدد من البعوض (ولم يكن معدياً) فوقع هذا الإناء — ولعله تعمد إيقاعه — وخرج منه البعوض فما كان منهم إلا أن ولوا وجوههم شطر الباب وفروا من الغرفة محطمين الشبك فى طريقهم .

استمر الجدل بينه و بين أولى الأمر ، وأخيراً ضاق بهم ذرعا وضاقوا به ذرعا وأصبحوا يرون أن وجوده غير مرغوب فيه ، وانتهزوا فرصة زيارة أحد الرؤساء من وشنجتن كان قد حضر لمراقبة العمل عن كثب فأكرموا وفادته واحتفوا به ولما حازوا ثقته أقنعوه بضرورة نقل جورجاس من منطقة بناما وكان عند حسن ظنهم به فكتب إلى وشنجتن يوصى بنقله معتبراً وجوده معطلا للأعمال إلا أن الجمعية الطبية الأمريكية كانت من جهتها قد أوفدت مندو باً عنها ليقدم لها تقريراً عن الحالة الصحية فى بناما وكان تقريره فى صالح جورجاس فأصبح هذا التناقض فى الآراء

موضع حديث الجميع وأحدث ضجة وصلت أخبارها إلى رئيس الجمهورية ثيودور روزفلت الذى كان على وشك أن يستدعى جورجاس ويعين أحد أصدقائه محله لولا أن استشار فى آخر لحظة طبيباً كبيراً يثق به فأخبره هذا الطبيب أن الحمى الصفراء تنتقل فعلا بواسطة البعوض ولفت نظره إلى أبحاث اللجنة الأمريكية للحمى الصفراء وقد كان الرئيس كما ذكرنا يجهل كل شىء عنها ، فما كان منه إلا أن أصدر أمره ببقاء جورجاس مكانه وبإعطائه كل ما يريد من المال والرجال فقام بحملته خير قيام حتى انقرض البعوض وانقرضت معه الملاريا والحمى الصفراء وأصبح إنشاء القناة أمراً ممكناً فقد رأى بعينيه آخر حالة للحمى الصفراء فى منطقة بناما ويقال إنه دخل ذات يوم مع بعض مساعديه مشرحة أحد المستشفيات وكان الأطباء يجرون الصفة التشريحية على جثة رجل مات من الحمى الصفراء فقال لهم « أمعِنوا النظر فى هذه الحالة فستكون آخر صفة تشريحية من هذا النوع تشاهدونها » .

استُخْدِم فى إنشاء القناة عدد كبير من الزنوج وُضِعوا تحت إشراف جورجاس الصحى وهناك ظهر أن كفاءته فى الإدارة

لا تقل عنها فى المسائل الفنية فقد شكا المهندسون وغيرهم من المشرفين على العمل من كسلهم وخمولهم فبحث جورجاس عن السبب واتضح له أنه لا يرجع إلى ضعف أو عيب فيهم بل يرجع إلى سوء التغذية فاتبع نظاماً جعلهم أقدر على العمل وأكثر إنتاجاً وذلك بأن أمر بأن يُصرف لهم الطعام الصحى الكافى أثناء عملهم وأن يُخصم ثمنه من أجورهم فدفعهم ذلك إلى التهامه عن آخره غير مُبقين على شىء وكانوا من قبل يوفرون من أجورهم على حساب طعامهم مما أدى إلى سوء تغذيتهم .

انتهى العمل فى القناة عام ١٩١٤ فكانت أعمق وأعرض قناة فى العالم ولا يزيد عنها فى الطول سوى قناة السويس وطولها مائة ميل وقناة كيل وطولها ستون ميلا . أما القناه التى نحن بصددها فطولها خمسة وخمسون ميلا فقط .

وافتتحت القناة رسمياً فى سنة ١٩١٥ فقصّرت الطريق بين المحيط الأطلسى والهادى بآلاف الأميال . وعُيِّن جورجاس بعد الانتهاء من قناة بناما مديراً للقسم الطبى بالجيش الأمريكى وبقى فى هذه الوظيفة إلى سنة ١٩٢٠ حيث توفى فى لندن فى زيارة شبه رسمية أصيب أثناءها بمرض استلزم نقله إلى مستشفى

الـكسندرة العسكرى وهناك زاره الملك جورج الخامس وأنعم عليه بنيشان سان ميشيل وسان جورج ولما أرسل للسؤال عنه فى اليوم التالى أجاب بأنه يشعر بتحسن كبير بعد الزيارة الملـكية وأنه على استعداد لأن يُقلّد نيشاناً آخر . إلا أن المنية وافته بعد بضعة أيام واحتُفِل بجنازته احتفالاً رسمياً مهيباً فى كنيسة سان پول وهو شرف لا يناله إلا العظماء .

جرثومة المرض

هنا أيضاً تعددت الاكتشافات فزعم أحد الباحثين أنه اكتشف جرثومة المرض ووصفها بأنها ميكروب مستطيل من النوع العصَوى وسماها « باسيلس أيكترويدس » (Bacillus icteroides) واتضح بعد ذلك أنها جرثومة لا شأن لها بالحمى الصفراء ووصف باحث آخر ميكروبا آخر سماه « باسيلس انتروجانس » Bacillus interrogans ثم اتضح خطأ هذا الباحث أيضاً ويدل الاسم نفسه على أنه لم يكن واثقاً منه والواقع أنه لم يكن موفقاً فى اختيار هذا الاسم الذى إن دل على شىء

فإنما يدل على أن الجرثومة نفسها تتردد فى أن يُنسب إليها شرف العلاقة بالحمى الصفراء .

وأخيراً وصف نجوشى البحاثة اليابانى المشهور جرثومة من النوع الحلزونى المنتمى لفصيلة ميكروب الزهرى والتى تشبه كل الشبه جرثومة مرض آخر قريب جداً من الحمى الصفراء فى أعراضه يسمى « اليرقان المُعْدى » . أطلق نجوشى على جرثومته اسم « ليتوسپيرا أيكترويدس » Leptospira icteroides وبالنسبة لمركز نجوشى العلمى آمن العالم الطبى بهذا البحث على الفور . وكم فى الطب من أخطاء استمرت زمناً طويلا كان سببها الثقة العمياء فإن قال رجل كنجوشى ونحن بصدده الآن أو پاستير وهو لا يحتاج إلى تعريف أو ڤيرشو العالم الباثولوجى الألمانى الشهير . إن قالوا شيئاً آمن به الجميع دون مناقشة . إلا أنه لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة ولكل عالم هفوة . وصف ڤيرشو مثلا منذ أكثر من ستين عاماً مرضاً سماه اليرقان الرشحى (Catarrhal Jaundice) وأخذ الأطباء بوصفه وتعليله للمرض طول هذه المدة واتضح منذ سنتين أو ثلاث فقط أنه كان مخطئاً وأن المرض فى الحقيقة مرض نوعِى تسببه جرثومة ضئيلة جداً

من النوع الذى يمر من المرشح تصيب الـكبد فتحدث فيه التهاباً يعقبه ظهور اليرقان وقد حدثت عدة إصابات بهذا المرض فى الحرب الأخيرة كما ظهرت أعراض مماثلة لأعراضه فى أفراد عولجوا أو لقحوا بالمصل الآدمى وكان آخرها شبه وباء فى الجنود البريطانيين والأمريكيين نتج عن إضافة المصل الآدمى إلى لقاح الحمى الصفراء لتخفيف ضراوته كما حدث بين جماعة من المصريين أن أصيبوا بهذا المرض أثناء علاجهم من البلهارسيا بالطرطير نتيجة استعمال حقنة واحدة لحقن الجميع دون تعقيمها بين مريض ومريض مما أدى إلى انتشار العدوى ونقلها إلى الآخرين بما تبقى فى الحقنة من دم أحد المرضى، وليست هذه هى الحادثة الوحيدة من هذا النوع فمنذ عشر سنوات تقريباً أصيب عدة أشخاص فى أحد أحياء القاهرة بحمى شديدة اتضح فيما بعد أنها ملاريا خبيثة وبالتحرى عن منشئها وُجِد أن هؤلاء المرضى كانوا من مدمنى المخدرات وقد تبرع أحدهم بحقنهم بالمخدر فى الوريد مستعملا حقنة واحدة دون تعقيم فنقل الملاريا من أحدهم إلى الباقين .

ولنعد الآن لجرثومة نجوشى التى زعم أنها تسبب الحمى

الصفراء . استمر العالم الطبي سنين عديدة يعتقد فى علاقة هذه الجرثومة بالحمى الصفراء واستمر أساتذة الطب يلقنون طلبتهم هذه المعلومات واستمر مؤلفو الكتب الطبية يدونونها فى كتبهم دون أقل تحفظ ، وتمادى نجوشى نفسه فى نشر أبحاث جديدة أساسها بحثه القديم . فقال مثلا إنه نجح فى نقل هذه الجرثومة إلى خنزير غينيا بواسطة البعوض وقال إيضاً إنه حضّر مصلا ضد هذه الجرثومة استعمله فى علاج المرض بنجاح كبير وأيّد هذه النتائج بعض الباحثين . إلا أن البعض الآخر لاحظ بتحفظ شديد أن جرثومة الحمى الصفراء تشترك مع جرثومة اليرقان المُعْدى فى صفات كثيرة تكاد تجعلهما صِنْوين وجرؤ باحثان آخران وهما تيلار وسلاردس (Theiler & Sellards) فنشرا رسالة علمية ربما تردد الناشر كثيراً فى نشرها ذكرا فيها أنهما فحصا حالات كثيرة من حالات الحمى الصفراء ولم يعثرا على جرثومة نجوشى وكانت هذه الرسالة فاتحة وابل من الرسائل لباحثين آخرين ذكروا فيها فشلهم هم أيضاً فى العثور على جرثومة نجوشى ولعل الكثيرين منهم كانوا قد لاحظوا ذلك منذ زمن بعيد وكانت تعوزهم الشجاعة والثقة بالنفس فلم ينشروا نتيجة بحثهم .

أخيراً أجمع الكل على أن جرثومة نجوشى لا شأن لها بالحمى الصفراء بل وبرهن أحدهم بالدليل القاطع على أن هذه الحمى تسببها جرثومة من الجراثيم الضئيلة جداً لا يزيد حجمها عن $\frac{١}{٥٠٠٠٠}$ من المليمتر ولا تُرى بالميكروسكوب العادى وتمر من ثقوب أدق المرشحات .

ضايقت هذه الرسائل نجوشى وأقضّت مضجعه فصمم على الإبحار إلى غرب أفريقا حيث يتوطن المرض ليدرس الأمر من جديد . نصحه أصدقاؤه أن يعدل عن هذه الرحلة لضعف بنيته واعتلال صحته فضلا عن أنه كان قد جاوز الخمسين فلم يستمع لنصحهم . وما أن وصل حتى اتخذ لنفسه معملا صغيراً انكب فيه على العمل بلا انقطاع حتى اقتنع أخيراً بخطئه و بصحة نتائج زملائه الآخرين وكان ذلك بعد سبع سنوات من نشر رسالته الأولى . اشتغل فى معمله الصغير بضعة أشهر ليل نهار وقد تعود زملاؤه إذا ما مروا على معمله بعد انقضاء سهرتهم أن يروا الأنوار ساطعة . إلا أنه حدث ذات يوم أن لاحظ أحدهم أن المعمل على غير عادته يسوده السكون والظلام فلما سأل عن السبب قيل له إنه توعك بسيط ألزمه الفراش . وفعلا عاد نجوشى

لمعمله بعد ثلاثة أيام . إلا أنه لم يبق فيه سوى يوم واحد إذ اضطر ثانياً لملازمة الفراش واتضح أنه أصيب بالحمى الصفراء وهذا غالباً شأنها قد تهبط الحرارة مؤقتاً ثم تعود فترتفع أعلى مما كانت . توفى نجوشى بعد مرض قصير وهكذا قضت عليه الجرثومة التى ضحى السنين الطويلة من شبابه فى البحث عنها .

أثر هذا الخطأ تأثيراً كبيراً فى نجوشى فانتابته الكآبة واستولى عليه الكدر، ولو أنه فى الحقيقة لم يكن وحده مسئولا عما حدث فأكبر الظن أن زملاءه الأطباء الذين اعتمدعليهم فى إرشاده إلى حالات الحمى الصفراء أرشدوه خطأً إلى بعض حالات اليرقان المعدى . وقد ذكرنا أن أعراض المرضين تتشابه إلى حد كبير وأن اليرقان المعدى ينشأ عن العدوى بجرثومة حلزونية يظهر أنها هى التى وصفها نجوشى فى الحمى الصفراء. وقد لاحظ كثير من الباحثين الشبه الكبير بين الجرثومتين . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقول إن نجوشى قد تسرع فى نشر بحثه ولم تكن هذه هى المرة الوحيدة التى تسرع فيها . فقد ذكر مثلاً أنه اكتشف جرثومة سماها « بكتريوم جرانيولوسم » قال إنها تسبب الرمد الحبيبى فاتضح خطؤه ولم يكن موفقاً هذه المرة أيضاً . إلا أنه مع

هذا كله كان رجلا عظيما له اكتشافات هامة يكفى اكتشاف واحد منها ليخلد اسمه بين عظماء الطب .

الوقاية

ذكرنا أن أهم عامل فى القضاء على الحمى الصفراء هو التخلص من البعوض وأتينا على بعض الطرق المستعملة لهذا الغرض .

وهناك طريقة أخرى وإن كانت أقل أهمية إلا أنها من وجهة البحث تستحق الإشارة إليها — تلك الطريقة هى تحصين الأهالى باللقاح الواقى لإكسابهم المناعة ومساعدتهم على مقاومة المرض إن هم عُرِّضُوا له . كان أول من فكر فى التطعيم ضد الحمى الصفراء هو فنلى طبيب كوبا الذى سبق أن أشرنا إليه ، فكر فى التطعيم بواسطة البعوض المُعْدَى ولكنه فشل كما فشلت أيضاً البعثة الأمريكية التى احتفظت ببعوضة امتصت دماً ملوثاً من حالة خفيفة واستعملتها فى تطعيم بضعة أشخاص ولكنها كانت طريقة خطرة لم تعد إليها البعثة بعد موت تلك البعوضة التى لغُلوِّهم فى المحافظة عليها سموها « صاحبة السعادة » . وقد حدث ذات يوم لصاحبة السعادة هذه أن اشتبكت أجنحتها فى السلك المغطى

به الإناء الذى وُضعت فيه ولم يَرَوْها إلا وهى فى النزع الأخير فحاولوا إنقاذها بكل ما أوتوا من علم وبجميع الوسائل الطبية ولكنهم فشلوا وأراد الله أن تقضى نحبها وحولها من الأطباء عدد لم يجتمع عدد مثله حول أى مريض فى كوبا .

بعد ذلك ببضع سنوات اكتشف ستوكس (Stokes) أن القِردة من نوع « ماكاكوس ريزوس » قابلة للعدوى بهذه الحمى فاقترح هندل (وكان أستاذاً للبيولوجيا فى مصر لبضع سنوات ثم غادرها إلى غرب أفريقا للبحث فى الحمى الصفراء) اقترح أن يحضّر اللقاح من كبد وطحال قرد حقن بفيروس المرض ، وفعلا نُفّذ هذا الاقتراح مع تعديل بسيط فى سنة ١٩٣٢ إذ حضّر سوير (Sawyer) لقاحاً على هذا الأساس أُضيف إليه مصل الناقهين من الحمى الصفراء لتخفيف ضراوة الجرثومة . وكان يأمل أن يُحَصَّن بهذا اللقاح الأطباء وغيرهم من المشتغلين بالبحث فى هذا المرض أو مكافحته إلا أنه اتضح أنه لا يخلو من الخطر . وبهذه المناسبة نذكر أن جرثومة هذا المرض سريعة العدوى فى المعمل . وقد أصيب أطباء كثيرون أثناء فحص دم المرضى أو حقن الحيوانات أو إجراء الصفة التشريحية . ولذلك فان أسلم

طريقة لتفادى العدوى هى أن لا يقدم الطبيب على مثل هـذه الأعمال دون قفاز من المطاط .

اكتشف تيلر (Theiler) بعد ذلك أن الفأر الصغير قابل للعدوى على شرط أن يحقن فى المخ مباشرة وهو اكتشاف هام أغنى الأطباء عن استعمال القرد الغالى الثمن العسير المنال . وأدى هذا الاكتشاف إلى تحضير لقاح آخر من فيروس مُررَّ عدة مرات فى الفيران بالطريقة المشار إليها حتى خفت ضراوته نحو الإنسان إلى حد كبير . ولكى تُخَفَّفَ ضراوته أكثر من ذلك أضيف إلى اللقاح مصل الناقهين من الحمى الصفراء واستُعمِل هذا اللقاح فترة طويلة إلى أن اتضح أن المصل المضاد نفسه قد يسبب العدوى بمرض آخر يسمى « التهاب الكبد المُعدي » . ثم توصلوا أخيراً إلى زرع الفيروس . وأمكن تحضير اللقاح الآن من فيروس مُرِّرَ فى المزارع الصناعية فوق المائة والخمسين مرة حتى فقد ضراوته تماماً .

قد أدى أيضاً اكتشاف قابلية الفأر للعدوى إلى ابتكار طريقة هامة للبحث عما إذا كان المرض كامناً فى أى بقعة من البقاع وذلك بأن يُمزَج الفيروس بمصل الأهالى ويحقن المزيج فى الفأر .

فإن وجدت المواد المضادة في المصل سلم الحيوان و إلا قتله الفيروس والنتيجة الأولى تدل على انتشار المرض فى هـذه المنطقة و إلا ما وُجدت المواد المضادة فى المصل . كما أن هناك طريقة أخرى تتبع لسبب مماثل وهى أن تُؤخذ من كبد المتوفين دون فتح جثثهم بواسطة جهاز مخصوص عينات تفحص للحمى الصفراء فحصاً بكتربولوجياً وهستولوجياً .

والآن بقيت لنا كلمة عن خطر وصول هذه الحمى إلى مصر المهددة بها لوجودها بالقرب من حدودها على الأخص فى منطقة بحر الغزال ، ولانتشار البعوض الناقل لهـا فى جميع أنحاء البلاد ولو أن درجة الحرارة لا تلائم فيروس هذه الحمى إلا فى الجهات الحارة جداً.

إن الوسائل الصحية المتبعة الآن تنحصر فى مراقبة القطارات والسيارات والطائرات والسفن القادمة من الجهات الموبوءة ، وتبخيرها بمجرد الوصول وتطعيم المعرضين للعدوى كالمسافرين إلى الجهات الموبوءة والمجاورين لها .

مما ذكرنا يتضح أن هذا المرض ـــ ولو أن تاريخه قصير ـــ قد هدم مدنيات ودولا وساعد على إنشاء غيرها ، وأعطى الزنوج

بقاعاً كان يسودها الأوربيون ، وهزم جيش نابليون ، وسلب الفرنسيين قناة بناما ، وقضى على حياة علماء كثيرين ، إلا أن خطره قلّ كثيراً الآن بما اتُبِع من طرقٍ للوقاية وما استُنْبِط من لقاحٍ لإكساب المناعة .

ليست الحمى الصفراء هى المرض الوحيد الذى ينقله نوع البعوض الذى أشرنا إليه ، بل هو ينقل أيضاً حمى الدنج التى يسببها أيضاً ڤيروس صغير والتى تنتاب العالم منها موجات شديدة فى فترات مختلفة ولكن هذا المرض لحسن الحظ حميد العاقبة قلما يسبب الوفاة ، ولو أنه قد يسبب آلاما ومتاعب كثيرة للمريض.

وهذا البعوض ينقل أيضاً داء الفيل الذى تسببه ديدان صغيرة تنفث يرقاتها فى الدم . ومن الغريب أنها لا تظهر فيه إلا ليلا مما جعل بعض المتهكمين يسأل إن كانت هذه الديدان تحمل ساعةً تستشيرها قبل أن تخرج لتمضية سهرتها .

الملاريا أو الهواء الفاسد

هناك من الشواهد ما يدل على أن أفريقيا هى المهد الأول للملاريا . نشأت فيها ثم انتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم

حيث سببت متاعب كثيرة لأمم بلغت أوج مجدها . ولا نبالغ إن قلنا إنها كانت من أهم العوامل التى هدمت الإمبراطورية الرومانية والإغريقية إذ انتشرت فيهما انتشاراً مريعاً ، وقد دلت الإحصائيات على أن ما سببته من الخسارة فى الأرواح يربو كثيراً على ما سببه أى مرض وبائى آخر وقد كانت لحسن الحظ من أكبر العوامل التى منعت الأوروبيين من استعمار مناطق كثيرة . كما أنها عاقت أو أفنت بعثات علمية هامة ، وليس عهدنا ببعثة لفنجستون فى مجاهل أفريقيا وبعثة ستانلى التى لحقتها وما سببته لهما الملاريا من المتاعب ببعيد . وهى لا زالت من سكان المعمورة مئات الملايين وتميت منهم زهاء ثلاثة ملايين سنوياً . وقد فتكت الملاريا والكوليرا والدسنتاريا والسخرة بعمال كثيرين فى منطقة السويس أثناء القيام بإنشاء القناة ولولا صبر المصريين وتحملهم الخطر والبؤس والمتاعب على أنها القدر الذى لا مفر منه لفشل المشروع . وكانت منطقة الإسماعيلية عام ١٩٠٠ من أكثر المناطق تعرضاً لها مما جعل هذه المدينة الجميلة التى أنشئت فى الصحراء بحدائقها الفيحاء مقبرة لعدد كبير من ضحايا هذا المرض .

توصف الملاريا دائماً بأنها مرض من أمراض المناطق الحارة لا لأنها وقف على هذه المناطق بل لأنها تنتشر فيها أكثر مما تنتشر فى المناطق الأخرى للفرق الشاسع فى المعيشة وأسباب الراحة والمدنية بين أهالى كل من هذه المناطق . ولعلها فى غابر الزمان أيام أن كان الأوروبيون يعيشون عيشة لا تختلف كثيراً عن عيشة سكان أواسط أفريقيا . لعلها فى ذلك الوقت لم تكن أقل انتشاراً فى أوروبا منها فى المناطق الاستوائية — على الأقل فى فصل الصيف — . إن جو انجلترا نفسه لم يمنع المرض من أن ينتشر فيها حتى أواخر القرن التاسع عشر .

وللملاريا أنواع مختلفة منها الحميد والخبيث ، وقد كان النوع الثانى ، وربما لا يزال إلى عهدنا هذا صعب التمييز من الحميات الأخرى حتى يلجأ الطبيب إلى المعمل ، وكثيراً ما يخلط بينها وبين التيفوس ، والتيفود والحمى الصفراء وغيرها من الحميات .

يظهر أن الناس منذ عهد قديم كانوا يعرفون العلاقة المتينة بين الملاريا والمستنقعات ، كانوا ينسبونها إلى هواء المستنقعات الفاسد ، وربما كان هذا هو السبب فى تسميتها باسم ملاريا (Malaria) أو الهواء الفاسد ، وكانوا يعرفون أنهم إذا

ما جففوا هذه المستنقعات قل انتشار الملاريا ، وقد زعم بعضهم أن حيوانات صغيرة جدا لا تراها العين تنشأ فى هذه المستنقعات فإذا ما وصلت إلى الأنف أحـدثت المرض . وهم فيما يختص بالحيوانات الصغيره قد رموا رمية من غـير رام . فالواقع أن الذى يسبب الملاريا هو كما سنرى طفيلى صغير جدا ذو خلية واحدة يعيش على كرات الدم الحمراء . أما فيما يختص بطريقة العدوى فقد كانوا بعيدين كل البعد عن الحقيقة ، فناقل الملاريا هو البعوض ، وهو كما سنرى اكتشاف يرجع إلى عهد قريب .

حوالى سنة ١٨٧٥ زعم كلبس الألمانى وكروديلى الإيطالى (Klebs 8 Krudeli) أنهما وفقا إلى اكتشاف جرثومة الملاريا وسمياها «شيزوميتس باسيلاريس» (Schizoinetes bacillaris) ووصفاها بأنها ميكروب مستطيل حامل للبذور ، يعيش فى الأرض والمستنقعات . ومنها ينتشر فى الجو حيث يصل إلى الفم أو الأنف فينمو فى الجسم ويحدث المرض وزعما أيضاً أنهما أصابا الكلاب بالملاريا بعد حقنها بالماء الملوث بهذه الميكروبات أو بمزارعها وأن شدة الأعراض تتوقف على عدد الميكروبات المحقونة كما ذكرا أنهما حقنا بضعة أرانب بهذه الميكروبات ،

فأصيبت بحمى متقطعة وتضخم فى الطحال ، وهى أعراض لا تختلف عن أعراض هذا المرض فى الإنسان .

ولما لوحظ أن أكثر الناس تعرضا للعدوى هم الذين يضطرهم عملهم إلى البقاء خارج منازلهم بعد غروب الشمس قالا إن ذلك يرجع إلى أنه فى هذا الوقت يتكون ضباب منخفض لا يزيد ارتفاعه عن قامة الرجل وأن هذا الضباب يحمل الميكروب أو بذوره فضلا عن أنه فى هذه الحالة يحيط به غشاء من الماء يحميه و يزيد فى ضراوته ، وهو تعليل يبين لنا كيف أن الناس حتى أكثرهم ثقافة يتلمسون أحياناً الأعذار و يحاولون خلق الأسباب لتعليل فكرة علقت بأذهانهم مهما كان نصيبها من الخطأ أو الصواب. ولم تقف فوضى البحث عند هذا الحد ، بل ادعى آخرون حتى بعد اكتشاف الجرثومة الحقيقية أنهم اكتشفوا جرثومة المرض التى كانت فى نظرهم هى الحقيقية ولا نرى داعياً لسرد هذه الخزعبلات .

أما مكتشف الجرثومة الحقيقية فهو طبيب عسكرى فرنسى يدعى « لاڤيران » رأى فى عينات الدم المأخوذة من مرضى الملاريا طفيليات صغيرة جدا ذات خلية واحدة داخل خلايا الدم الحمراء . ورأى أيضا حبيبات صغيرة جدا قاتمة لم يكن له

بها عهد من قبل . فظن — ولم يجزم — أنه اكتشف جرثومة الملاريا . وللتأكد من ذلك — شأن الباحث المدقق — ذهب إلى الجزائر حيث المرض أكثر انتشاراً وأعاد الفحص على مئات العينات من دم المرضى فكان فى كل مرة يشاهد الصورة نفسها ، فلما وثق من نفسه تقدم فى سنة ١٨٨٠ إلى أكاديمية العلوم فى باريس برسالة قصيرة عن سبب الملاريا ، فقوبل اكتشافه فى أول الأمر ، كغيره من الاكتشافات العظيمة ، خصوصاً إذا كان صاحبها غير معروف ، قوبل بالشك وفى بعض الأوساط بالهزء والسخرية ، ولكن العالم الطبى ما لبث أن تحقق من صحة اكتشافه . وتوالت الرسائل العلمية تؤيد هذا الاكتشاف . ولعل نجاحه هذا لم يرق لرؤسائه فعملوا على إبعاده عن البحث وخيروه بين أن يقبل الترقية إلى وظيفة إدارية أو يستقيل ، فرفض العرض الأول كما كان ينتظر من رجل مثله وترك الجيش والتحق بمعهد باستير حيث استمر يعمل إلى أن وافته المنية سنة ١٩٢١ بعد أن حصل على جائزة نوبل .

لم يحل اكتشاف طفيلى الملاريا مشكلة نقلها ، ولكن هذا أيضاً ما لبث أن كُشِف القناع عنه .

ويرجع الفضل فى ذلك إلى طبيب إنجليزى يدعى : « رونالد روس » (Ronald Ross) ولو أن طبيباً إيطالياً يدعى جراسى (Grassi) نازعه شرف السبق إلى هذا الاكتشاف ولكن العالم الطبي يكاد يُجمع على الاعتراف بأسبقية روس رغم أن جل بحثه كان منصبا على ملاريا الدجاج ، إلا أن الشبه بين المرضين كبير ، فإذا كان جراسى قد طبق نتائج روس على ملاريا الإنسان فهو لم يأت بجديد .

كان روس بدوره طبيباً عسكرياً ، بدأ حياته العملية فى الجيش البريطانى بالهند ولكنه لم يكن مغرما بالطب ، بل كان شديد الكره له ، ولعله اضطر إلى دراسته اضطرارا . تحقيقاً لرغبة أبداها والده .

كان شديد الولع بالأدب ، وله قصائد وقصص كثيرة إن هى لم ترفعه إلى مرتبة الأدباء فهى لم تعدم قراء وجدوا لذة ومتعة فى قراءتها ، وكان من بينهم عدد ليس بالقليل من الأدباء الذين تنبؤا له بمستقبل باهر فى عالم الأدب . كان على وشك أن يطلّق الطب ويحترف الأدب لولا أن تزوج وأصبح رب عائلة وزادت مسئوليته واشتدت حاجته إلى المال ، فخشى أن

يغامر بمركزه فى الجيش . وقد كان إلى ذلك الحين مورد رزقه الوحيد . سافر إلى الهند تصحبه زوجه وميكروسكوب اشتراه بما ادَّخره من مال ، ولم يكن مألوفا أن يحمل طبيب عسكرى مثل هذا الجهاز ، فتهكم عليه زملاؤه وسخروا منه . خصوصاً وأنه كان ميكروسكوباً عتيقاً ، إن عُرِض الآن على طالب طب مبتدىء لأنف أن يشتغل به .

لم يكد روس يستقر فى مكانه حتى أخذ يلهو بما سماه زملاؤه ألعوبته ، مهملا عمله الرسمى مما أثار غضب رؤسائه الذين نهوه واضطهدوه وهددوه بالنقل بل بالطرد من خدمة الجيش إن هو لم يُقلع عن هذا اللهو ، ولكنه لم يكن بالرجل الذى يرضخ بسهولة للوعيد أو التهديد . وتصادف أن انتشرت الملاريا فى الهند فى ذلك الوقت فرأى الفرصة سانحة للبحث فى طريقة عدواها وكان هناك رأى أبداه العلماء الألمان والفرنسيون والإنجليز والإيطاليون أنها تنتقل بواسطة البعوض ، ولكنه كان رأياً فقط لا يستند على برهان قاطع ولم يؤيد بتجارب علمية تثبت صحته . فأخذ يفحص الآلاف من هذه الحشرات بأنواعها المختلفة دون جدوى .

ولما خبت نار وباء الملاريا استعاض عنها بملاريا الدجاج واستمر على هذا الحال ثلاث سنوات أصيب أثناءها بالملاريا ثم بالكوليرا التى كادت تقضى عليه . وقد ضعف نظره من كثرة استعمال الميكروسكوب التى تلفت عدساتها وبلغ بها القدم مبلغاً جعلها تكاد لا تصلح للعمل . وأخيراً حدث أن فحص يوماً بعوضة من نوع الأنوفيل فوجد فى الخلايا المبطنة لمعدتها طفيلى الملاريا .

هنا كاد يطير لبه من الفرح وقام لتوه وكتب قصيدة طويلة أرسلها لزوجه يصف فيها ما وصل إليه ويشكر العناية الإلهية التى قدرت له أن يكتشف سراً هاماً من أسرار الطبيعة وأن لا يضيع جهده سدىً ، وأن يتم على يديه كشف القناع عن طريقة عدوى حاصدة الملايين .

قوبل بحث روس فى أول الأمر كالمعتاد ببعض الشك، ولكن سرعان ماثبتت صحته وأشاد العلماء بقيمته ورأى بعينه ثمرة بحثه، رأى الملاريا تمحى من جهات كثيرة . رآها تدبر من تلك البقاع إدبارا ورأى أماكن كانت مقبرة للأهالى فأصبحت بفضل اكتشافه جنة يعيش سكانها عيشة رغدة ممتلئين صحة وقوة بعد أن كانوا ضعفاء أنهكهم التعب وأذبلهم المرض لما

أمتصه من دمائهم طفيلى الملاريا .

منح روس جائزة نوبل كما منحها لافيران من قبل لاكتشافه الطفيلى ومما يدل على أهمية هذا المرض أن يحصل اثنان اشتغلا بالبحث فيه على أكبر جائزة علمية فى العالم فى فترة قصيرة . ولو أن مكتشف الكينين قاتل طفيلى الملاريا عاش فى عصر جائزة نوبل لحصل عليها هو أيضاً .

وقصة الكينين قصة ممتعة تدل على ما للقدر وقوة الملاحظة من شأن كبير فى اكتشاف أسرار الطبيعة .

تصادف فى أوائل القرن السابع عشر أن كانت فرقة أسبانية تسير فى فيافى بيرو فانتابت أحد الجنود قشعريرة ثم حُمى شديدة وظن زملاؤه أنه لا بد هالك ولم يكن لديهم من الوقت أو الوسائل ما يسمح لهم أن يُعْنوا به فتركوه على مضض ومضوا فى سبيلهم . فارتمى الرجل تنخر الحمى عظامه منتظراً الموت ليريحه من آلامه . وإذ هو كذلك شعر بظمأ شديد فزحف حتى وصل إلى بركة صغيرة تغمر شجرة كبيرة وقعت فيها فشرب منها ولشدة ظمئه اضطر للشرب بعد ذلك مراراً رغم مرارة مائها الشديدة فأدبرت الحمى وشعر بالحياة تدب فيه ثانياً وأخيراً تمكن

من القيام واللحاق بفرقته فذهل الجميع عند ما رأوه ولما قص عليهم قصته عاد نفر منهم وفحصوا البركة وماءها والشجرة التى وقعت فيها فوجدوا ماءها مراً ووجدوا قشر الشجرة أمر منه واستنتجوا أن مرارة الماء تعود إلى ما ذاب فيه من مواد نفذت اليه من الشجرة وأن الشجرة بالتالى هى السبب فى شفاء زميلهم من الحمى واستعملوا خشب هذا النوع من الشجر فى علاج حالات مماثلة فأتى بأحسن النتائج . وحدث فى سنة ١٦٣٨ أن أصيبت الكونتس سنكونا بالملاريا فعولجت بهذا النبات وشفيت وسُمِّى النبات باسمها «سنكونا» ومنذ هذا الوقت كَثُرَ استعماله فى علاج الملاريا وانتشر حتى وصل إلى أوروبا إذ أحضره معه إلى إسبانيا طبيب الكونتس وأخذ يبيعه بأثمان باهظة وما لبث أن علم به الچزويت فحصلوا على كميات كبيرة منه واستعملوه فى علاج الملاريا وغيرها من الحميات وأكثروا من استعماله حتى أُطلق عليه اسم « مسحوق الچزويت » فنفَّر هذا الاسم الناس منه مؤقتا لشدة كرههم فى هذا الوقت للچزويت وكل ما انتمى إليهم من قريب أو بعيد . وتصادف أن كان البابا فى هذا الوقت على خلاف مع ملك الإنجليز فحاول الجزويت الإصلاح بينهما ساعين إلى جعل

انجلترا دولة كاثوليكية . إلا أن الإنجليز بما جبلوا عليه من الولاء لملوكهم طردوهم واضطهدوهم شر اضطهاد واعتبروا كل من استعمل مسحوقهم خائناً لوطنه ومليكه ولم يشذ عن ذلك سوى رجل يدعى روبرت تابور (Robert Tabor) أوتى قسطا وافراً من الشجاعة وقسطا أوفر من ملكة جمع المال . كان هذا الرجل فى أول الأمر يعمل فى كمبردج كمساعد صيدلى ثم التحق بالجامعة كطالب أثناء النهار وخادم لزملائه أثناء الليل فتمكن بذلك من سداد نفقاته ولكنه قرر أخيراً الرحيل إلى لندن قبل أن يتم دراسته وهناك أشاد بمسحوق الجزويت وكتب عنه كثيراً وأظهر للناس سخفهم فى مقاطعته ثم حصل على كميات كبيرة منه وأعلن عنه كدواء طارد للحمى فحاز نجاحاً كبيراً وعولج به فبلا مرضى كثيرون وأخيرا وصلت أخبار هذا الدواء العجيب إلى الملك فعين تابور طبيبه الخاص وأنعم عليه بلقب « سير » وحدث أن أصيب الملك نفسه بالملاريا فعولج به وتم له الشفاء على يد تابور الذى أصبح موضع ثقته ومن أقرب المقربين إليه . وحدث أيضا أن أصيب ولى عهد فرنسا بالمرض نفسه فأوفده الملك لعلاجه وأراد الله أن ينال هو أيضاً الشفاء على يد تابور فكافأه

ملك فرنسا — ولم يكن سوى لويس الرابع عشر نفسه — كافأه بمنحه لقب « شيفالييه » فكان كل هذا التكريم سبباً فى إثارة روح الحسد والكراهية ضده فى نفوس الأطباء الإنجليز والفرنسيين وقد أراد بعضهم أن يسخر منه أمام جمع كبير من الأمراء والنبلاء فسألوه إن كان يعرف ما هى الحمى فأجابهم « قد تعرفون أنتم أيها السادة ما هى الحمى . أما أنا فأعرف كيف أعالجها » .

أستمر استعمال السنكونا كما هى مدة طويلة وزُرِعت منها مقادير كبيرة وأنواع عديدة واتضح أن بعضها يمتاز عن البعض الآخر فى قيمته العلاجية واختلف الناس فى أى الأنواع أصلح فنهم من كان يفضل النوع الأصفر ومنهم من فضل النوع الأحمر ومنهم من وجد عينات كثيرة من الأصفر والأحمر عديمة الفائدة ودامت هذه الفوضى نحو قرنين مما كاد يقضى على شهرة هذا الدواء كعلاج ناجع للملاريا وأخيراً وفق كيماويان فرنسيان وهما « بيتر بلتيير » (Peter Pelletier) و « جوزيف كافنتون » (Joseph Caventon) إلى تحليل السنكونا واستخراج العنصر الفعال منها وهو المسمى الآن بالكينين وبذلك تيسر ضبط الجرعة اللازمة للعلاج وتفادى الأطباء استعمال نوع من السينكونا

قد تكون كمية الكينين فيه ضئيلة أو معدومة .

عرف الكيماويون بعد ذلك تركيب الكينين الكيماوى بالضبط إلا أنهم فشلوا فى تحضيره صناعيا من عناصره الأولية كما حُضِّرت مركبات أخرى كثيرة عُرف تركيبها الكيماوى، و إن حضر فتكاليفه باهظة ولا زال الكينين إلى الآن يستخرج من خشب السنكونا مما جعل إنتاجه وقفا على البلاد التى تزرع هذا النوع من النبات الذى بدأت زراعته فى پيرو ثم انتقلت إلى جاوا حيث التربة صالحة والجو ملائم وقد قاسى الحلفاء الأمرين أثناء الحرب العالمية الثانية من جراء نقص كبير فى الكينين عوضهم عنه لحد ما نجاحهم فى تحضير مركبات الأتبرين والپلاسموكين التى تكاد تضارع الكينين أو تفوقه أحيانا فى علاج الملاريا والوقاية منها . وهذه المركبات فى الأصل مركبات ألمانية تمكن الحلفاء من معرفة تركيبها ثم تحضيرها تحت أسماء أخرى .

فى الوقت الذى حُضِّر فيه الكينين — وربما إلى وقتنا هذا كان كثير من الأطباء لا يعرفون من الحميات سوى الملاريا والتيفود وكثيرا ما كان يختلط عليهم الأمر فى التميز بين هذين المرضين فكانوا يستعملون الكينين لا كأداة للعلاج فقط بل

كوسيلة للتشخيص أيضاً فإذا ما أعطوا المريض الكينين يومين أو ثلاثة وهبطت الحمى اعتبروا الحالة ملاريا واستمروا فى العلاج بالكينين وإذا لم تهبط اعتبروها تيفودا وعالجوها على هذا الأساس

بقيت لنا كلمة عن الملاريا التى انتشرت أثناء الحرب فى جنوب القطر المصرى انتشارا مريعاً زاد فى حدته ما وصل اليه الناس فى هذه الجهات من البؤس والفقر والعرى والجوع مما أضعف مقاومتهم وقلل مناعتهم وجعل منهم طعما سائغا سهلا لطفيلى الملاريا — الحميد منه والخبيث — ولم يكن هذا الطفيلى غريباً عن القطر، إنما الغريب هو نوع من البعوض يسمى « أنوفيليس جامبيا » ينتشر عادة فى غرب أفريقيا وهو نوع اتصف بالشراهة والميل الشديد إلى امتصاص دم الناس وهو يتوالد بكثرة وفى أقل كمية من الماء كالكمية البسيطة التى تملأ موضع حوافر البهائم . وصل جنوب مصر أثناء الحرب فترعرع فيها ونشر وباء الملاريا الذى حصد الآلاف من الناس ولولا أن قام رجال الصحة وأعلنوا عليه حربا شعواء لوصل حتى القاهرة والوجه البحرى وكان ضرره أشد فى الجهات الأخيرة لكثرة ما يتراكم فيها من مياه الرى .

مع القمل

التيفوس

سُمّى التيفوس بحمى السجون أو المعسكرات أو السفن لكثرة انتشاره فى كل منها نظراً لشدة ازدحامها . كما أطلق عليه أيضاً اسم « حمى القحط » إذ هو فى أوقات القحط أكثر انتشاراً منه فى أى وقت آخر ، والواقع أنه مرض الفقر والبؤس والقذارة . وباء ديكتاتورى لا يعرف الديموقراطية يصيب الفقراء وقلما يصيب الأغنياء ، وهو فى ذلك على النقيض من بعض الأمراض الوبائيــة الأخرى كالجدرى الذى يصيب الملوك والصعاليك على السواء .

وهذا المرض وإن كان قد عُرف ووصف منذ زمن بعيد إلا أن الناس كانوا إلى عهد قريب لا يفرقون بينه وبين التيفود ولا زال الفرنسيون يطلقون على المرضين اسماً واحداً تقريباً فيسمون التيفود "Typhus abdominal" والتيفوس "Typhus exanthematique" . وقد يشابه التيفود التيفوس فى بعض

الأعراض ولكنه يختلف عنه كل الاختلاف فى مجراه وطريقة عدواه ، وهناك من الأطباء المتمرنين من يشتم فى مريض التيفوس رائحة خاصة تساعده على تشخيص المرض . وقد كان أول من لفت النظر إلى الفرق بين المرضين طبيب فرنسى مارس الطب فى باريس فى أوائل القرن التاسع عشر . دوّن هذا الطبيب الخواص الاكلينيكية والباثولوجية لكل من المرضين ولو أنه كان على جهل تام فيما يختص بالسبب أو طريقة العدوى .

اختلفت آراء الناس بشأن سبب التيفوس وطريقة عدواه ، فنهم من كان ينسبه إلى القاذورات والروائح الكريهة ، ومنهم من كان يعتبره كغيره من الأمراض من عمل الشيطان أو غضب الله ، والواقع أنهم لم يكونوا فى تعليلاتهم هذه بعيدين كثيراً عن الحقيقة . ولم يكن الأطباء أوفر حظاً من عامة الشعب فى معرفة سبب المرض أو طرق عدواه أو علاجه . بل لاحظ القوم فى أواخر القرن الثامن عشر أنه كلما زاد عدد الأطباء ازدادت الوفيات ، ولعل السبب فى ذلك راجع إلى ما اعتاده أطباء ذلك العهد من كثرة فصد المرضى وحرمانهم من جزء كبير من دمهم قد يكونون فى أشد الحاجة إليه لمقاومة المرض والتغلب على جرثومته .

لعب التيفوس دوراً هاما فى تاريخ البشرية فكم من شعوب أبادها وكم من ممالك هدمها وكم من جيوش أفناها . بل هو العدو الأول للجيوش . قد يفنى من جنودها أكثر بكثير مما يفنيه رصاص البنادق وقنابل المدافع . ولا نبالغ إن قلنا إن هذا كان شأنه فى جميع الحروب الهامة تقريباً منذ القدم ، وسنورد هنا بعضها على سبيل المثال :

(١) الحروب الصليبية : كان التيفوس السبب فى فشل بعض المعارك فى الحروب الصليبية التى شنها الأوروبيون على المسلمين فى أوقات مختلفة .

(٢) معركة المجر بين مكسميليان الثانى امبراطور ألمانيا وسليمان سلطان تركيا التى امتد سلطانها وقتئذ إلى بلاد المجر . لقد كان الأول على وشك طرد الأتراك من المجر ، وكان فى نيته مطاردتهم حتى القسطنطينية لولا أن انتشر وباء التيفوس بين جنوده مما اضطره إلى التقهقر ومما أدى إلى انتهاء الحملة بفشل ذريع .

(٣) موقعة نابولى بين فرنسيس الأول ملك فرنسا وشارلس الخامس ملك أسبانيا . كان فرنسيس الأول على وشك الانتصار على خصمه لولا أن انتشر وباء التيفوس بين جنوده فحصدهم

حصداً ولم يُبق من خمسة وعشرين ألف جندى سوى أربعة آلاف . مما اضطر العاهل الفرنسى إلى التقهقر وليس بينه وبين النصر سوى قاب قوسين أو أدنى وانتهى حلم لو تحقق لغير تاريخ فرنسا وربما تاريخ العالم أجمع .

(٤) معركة نابليون الروسية . وصل جيش نابليون إلى موسكو ثم ما لبث أن اضطر إلى العودة منها أدراجه فأتى بردُ روسيا القارس والجوع والعرى والحرمان وما صحبها من أمراض وبائية أهمها التيفوس والدسنتاريا . أتى كل ذلك على أكثر من ثلاثة أرباع جيش نابليون العرمرم فلم يصل إلى باريس من جيش كان يبلغ مئات الألوف سوى بضعة آلاف أنهكهم المرض فأصبحوا لا يصلحون لشىء .

(٥) الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) انتشر التيفوس فى الصرب فى أوائل الحرب انتشاراً مريعاً غير مُبقٍ على العسكريين أو المدنيين ، ويقال إنه أباد من جميع سكان الصرب ذكوراً وإناثاً وأطفالا وشباناً وشيباً ما لا يقل عن خمسهم وهى نسبة كبيرة جداً قلما وجد لها مثيل فى تاريخ الأوبئة ، ولما كان الأطفال يتمتعون ببعض المناعة ضد هذا المرض فقد ترك الكثير

منهم يتامى . وكان من المألوف أن ترى منازل مات الآباء فيهامن التيفوس أوالرصاص وماتت الأمهات من التيفوس ولم يبق سوى بعض الأطفال يقوم الكبير منهم بأود الصغير . كانت وطأته بالطبع على الجنود أشد منها على المدنيين . فشُل" الجيش الصربى شلا تاما وكان باستطاعة النمسويين وقتئذ أن يقضوا على هذا الجيش بأجمعه بحفنة من جنودهم فى أقصر وقت لولا أن وصلتهم أخبار التيفوس فأحجموا عن الهجوم أوعلى الأقل أجلوه إلى أن تخبو نار الوباء التى خشوا أن يصل شررها إليهم . ولم تكن بولونيا أثناء هذه الحرب أوفر حظاً من الصرب ولاغرابة فى ذلك ففى هذه البلاد كما فى بعض جهات روسيا استوطن المرض منذ أمد بعيد . وكان لهذا العامل أكبر الأثر فيما حل بهذه البلاد من هزائم فى أول الحرب .

امتد الوباء أيضاً إلى ألمانيا والنمسا ولكنه لم ينتشر فيهما كما انتشر فى الجهات الأخرى بفضل ما اتخذ من الاحتياطات والطرق المنظمة لمكافحته ، ولما كان الألمان يخشون وصول العدوى إليهم من أسرى أعدائهم فقد أصدروا أوامر مشددة تقضى بأخذ الأسير بمجرد أسره إلى إحدى محطات التطهير الكثيرة فى الجيش

الألمانى فتطهر ملابسه ويطهر جسمه ويقص شعره وكانوا يقاسون مشقة كبيرة فى حملهم على قبول هذا الإجراء الذى اعتبره بعضهم ضرباً من ضروب التفنن فى التعذيب ، ويقال إن بعثة أمريكية وصلت إلى ألمانيا لتحقق فى مسائل كثيرة كان يشكو منها أسرى الحرب من أعداء الألمان فوجدت البعثة أن عملية قص الشعر والتطهير كانت من أهم ما شكوا منه فأغرتهم بالملابس والأحذية الجديدة على أن يقبلوا الرضوخ للتطهير فقبل البعض هذا العرض ورفض الآخرون واضطرت البعثة آخر الأمر أن توزع ما بقى لديها على الألمان أنفسهم .

امتد الوباء أيضاً إلى فرنسا وانجلترا ولكنه لم ينتشر فيهما كما انتشر فى أواسط أوربا ويرجع الفضل فى ذلك أيضاً إلى ما اتخذ من الاحتياطات الشديدة ضده . أما فى الشرق الأدنى والأوسط فقد كانت وطأته شديدة نوعاما ولعله فى الحقيقة كامن فى الكثير من هذه البلاد ينتظر فرصة الجوع والفقر والعرى لينتشر بين الناس . والمشاهد أنه كلما ساءت الحالة الاقتصادية — بصرف النظر عن الحروب — كلما سنحت الفرصة لهذا الوباء ليترعرع

ويفتك بالأهلين وقد كان هذا شأنه أيام الأزمة الاقتصادية التى حلّت بمصر وسائر أنحاء العالم عام ١٩٣١ .

(٦) الحرب العظمى الأخيرة : لم ينتشر التيفوس فى الحرب الأخيرة بقدرما انتشر فى الحروب الأخرى وربما كانت هـذه الحرب على ضخامتها أقل الحروب تأثراً بالتيفوس ويرجع الفضل فى ذلك لتقدم طرق مكافحته وللأبحاث المديدة التى أفهمتنا الكثير مما كنا نجهله عنه ، ولما اكتشف من مواد كيماوية تبيد ناقل التيفوس ولما حضر من لقاح إن لم يق من المرض فقد يخفف من وطأته إلى حد كبير ، ومع ذلك فقد كان عدد المرضى كبيراً جداً وكانت الكثرة فى الغالب فى جانب من يسمونهم بالوطنيين (Natives) .

كان من البلاد التى شملها الوباء بلاد الشرق الأوسط . وقد انتشر فى مصر من سنة ١٩٤١ إلى ١٩٤٥ ولكن الحالات فى السنة الأخيرة كانت أقل منها فى السنين الأخرى . إلا أن نسبة الوفيات على العموم كانت كبيرة إذا ما قورنت بمثيلاتها فى الأوبئة التى انتابت هذه البلاد فى فترات عديدة . مما يدل على احتمال وصول جرثومة جديدة غير الجرثومة التى نعتقد أنها كامنة

فى مصر . أو قد يكون السبب هو ضعف المقاومة لسوء التغذية الذى شمل الأهالى طوال سنى الحرب .

ذكرنا أن من أهم العوامل فى انتشار المرض أثناء الحروب ما يلازمها من الفقر والعرى والجوع والزحام ، وكل هذه الأسباب مما يساعد على انتشار القمل الذى ثبت منذ حوالى أربعين عاما أنه ينقل جرثومة المرض من المريض إلى السليم .

يرجع الفضل فى هذا الاكتشاف إلى العالم الفرنسى نيكول "Nicolle" الذى بعد أن ظل يعمل عدة سنوات فى معهد باستير بباريس نقل إلى تونس حيث أنشأ معهداً على نمط معهد باريس جمع فيه عدداً وافراً من الباحثين وأنشأ له مجلة منتشرة الآن فى جميع أنحاء العالم ، وأصبح للمعهد من الشهرة ما جعله من أهم معاهد البحث الطبى فى العالم .

اهتم نيكول بالبحث فى مرض التيفوس وطريقة عدواه وكانت أول تجربة له خاصة بالبحث عما إذا كانت جرثومة المرض موجودة بالدم الموبوء وعن أى الحيوانات قابل العدوى . فأخذ الدم من مريض بالتيفوس وحقنه فى أحد القردة التى استحضرها من مستعمرات فرنسا فى أواسط أفريقيا والتى كان

يعج بهامعمله لكثرة ما استحضره منها فما مضت بضعة أيام حتى أخذت حرارة القرد فى الارتفاع واستمرت مرتفعة بضعة أيام ثم بدأت تنخفض وأخيراً شفى الحيوان فلما أعيد حقنه بعد ذلك لم يأخذ المرض إذ أصبح منيعاً ضده .

أعاد التجربة مراراً على قردة أخرى فكان فى كل مرة يحصل على النتيجة نفسها ولم يمت قرد واحد من القردة المحقونة وهكذا أثبت نيكول أن الجرثومة موجودة فى دم المرضى وأن القرد قابل للعدوى دون أن تقضى عليه وأنه إن أخذ العدوى مرة سلم منها إلى الأبد .

وفى الواقع لم يكن نيكول أول من أثبت أن جرثومة التيفوس توجد فى دم المريض ، فقد سبقه إلى ذلك طبيب روسى استبدل القرد بنفسه فحقن نفسه بالدم الموبوء وما لبث أن ظهرت عليه أعراض المرض وأراد الله أن يشفى منه ويموت بعد ذلك ببضع سنوات متأثراً بمضاعفة من مضاعفاته أصابت القلب .

اشتبه نيكول فى احتمال نقل هذا المرض بحشرة من الحشرات كالقمل أو البراغيث أو البعوض ثم استبعد النوعين الآخرين لانتشار المرض فى أماكن خلت منها وندرته فى أماكن اكتظت

بها ووجه كل اهتمامه للقمل ولم يكن قبل ذلك قد عرف عن القمل أنه من الحشرات الهامة فى نقل العدوى وسواء كان ذلك نتيجة حدة ذكائه أو مجرد إلهام يمن به الله على بعض عباده . سواء كان هذا أو ذاك فقد وفق إلى اكتشاف من أهم الاكتشافات المتعلقة بالصحة العامة .

أجرى نيكول تجارب عديدة استغرقت بضع سنوات لكى يثبت أو ينفى ما للقمل من علاقة بالتيفوس وكان دقيقاً متريثاً شأن كل باحث يغار على مركزه العلمى فكم من باحث تسرع فى نشر نتيجة بحثه ثم اتضح خطؤه فكانت وصمة لازمت اسمه طول حياته . تفادى نيكول ذلك بإعادة تجاربه مئات المرات . كان يضع القملة التى رباها فى المعمل على جلد مريض التيفوس فإذا ما امتصت من دمه كفايتها رفعها وتركها فى أنبوبة بضعة أيام ثم وضعها على جلد قرد سليم فترتفع حرارته بعد بضعة أيام وهى الفترة التى تسمى بفترة الحضانة وتبقى الحرارة مرتفعة بضعة أيام أخرى ثم تنخفض ويشفى القرد ويكتسب المناعة من المرض طول حياته . أعاد هذه التجربة حتى استعمل من القردة وغيرها من حيوانات المعمل

التى اتضحت قابليتها للعدوى عدداً كبيراً جداً وكان فى كل مرة يحصل على النتيجة نفسها.

لاحظ أيضاً أن مرضى التيفوس إذا ما طُهِّرت ملابسهم وإذا ما أُخلوا من القمل أمكن تمريضهم فى عنبر واحد مع مرضى بأمراض أخرى دون أن ينتقل التيفوس إليهم.

أخيراً ذهب نيكول إلى باريس وتقدم إلى الأكاديمية الفرنسية برسالة ذكر فيها مجمل أبحاثه وما وصل إليه من النتائج فكان انقلاباً كبيراً فى تاريخ هذا المرض الذى ظلت طريقة عدواه غامضة لعدة قرون والذى حينما نسبه الناس إلى القذارة والروائح الكريهة وغيرها من العوامل التى نعرف الآن أنها مما يصحب انتشار القمل أو يسببه لم يكونوا بعيدين كثيراً عن الحقيقة. كان الناس أميل إلى الاعتقاد أن الروائح الكريهة هى السبب الأول فى انتشار هذا الوباء ولا يخفى أنه كلما ازدحم الأهالى فى مكان ضيق وكلما أحجموا عن تغيير ملابسهم ومراعاة النظافة فى أجسامهم كلما كثرت هذه الروائح.

ولشدة البرد فى الشتاء اعتاد الأوروبيون فى القرون الوسطى ارتداء أكثر كمية من الملابس قد تبقى على أجسامهم أسابيع

بل شهوراً دون التفكير فى الاستحمام أو تغييرها أو حتى تغيير بعضها ، وفى مثل هذا الجو وهذه الظروف يجد القمل مرعى خصباً يرتع فيه . يجد الدفء الذى يحبه والرائحة الكريهة التى يعشقها والدم الذى يغذيه وهذا كل ما يحتاج إليه ليعيش ويبيض ويفقس بيضه ويكثر نسله . وهذه الحشرة بطبيعتها قليلة التنقل وربما كانت لها فى غابر الزمان أجنحة فقدتها مع التطور بتوالى الأجيال فأصبحت قليلة الحيلة طفيلية تعتمد على غيرها فى غذائها ومأواها كل الاعتماد .

ويظهر أن الناس وقتئذ ما كانوا ليجدوا غضاضة فى وجود القمل فى ملابسهم أو على أجسادهم التى ربما اكتظت به حتى بين الطبقات الراقية . ويحكى عن مربية إحدى أميرات ذلك العهد أنه كان من بين إرشاداتها لتلميذتها أن تحرص على أن لا تقتل القمل أمام الناس ويقال إن فى أحد بلاد السويد فى القرن الخامس عشر كان العمدة ينتخب بالطريقة الآتية : يجلس المرشّحون حول مائدة مستديرة ويضعون لحاهم عليها ثم توضع قملة وسط المائدة فمن وصلت القملة إلى لحيته فاز بالمنصب . ويقال أيضاً إن فى بلاط أحد ملوك القرون الوسطى علم الملك

أن أحد الضباط الشبان الملحقين بالقصر والذين شغلهم عن عملهم نزق الشباب علم أنه يغازل إحدى الوصيفات فدعا الملك والد الشاب وكان من كبار قواده وأخبره بما علمه عن نجله وأمره أن يردعه عن غيِّه وإلا فهو مُنزِلٌ به أقصى العقاب . فذهب الوالد إلى ولده وهو ثائر ساخط عليه وكان الشاب لا يزال فى مخدعه فأخذ يؤنبه تارة ويسدى إليه النصح تارة بينما الشاب ينظر إليه غير مكترث مستغرقاً فى الضحك . مما زاد غضب والده . فلما سأله عن السبب فى الضحك وليس المجال مجال ضحك لفت نظره إلى قملة كانت حائرة على جسده تارة تصعد إلى جبهته ثم تنزل إلى رقبته وتارة تغوص فى لحيته ثم تصعد إلى شعره المستعار وهكذا أخذ الشاب يتتبعها طول الوقت وهو لا يعى كلمة واحدة مما قاله والده .

وعلى ذكرى الشعر المستعار نذكر أن هذا النوع من لباس الرأس كان دائماً حافلا بعدد كبير من القمل يعج به ولا يتركه إلا ريثما يحصل على غذائه من الدم ثم لا يلبث أن يعود إليه وبهذه المناسبة أيضاً نذكر القصة التالية التى حدثت وحدث الكثير من أمثالها فى القرون الوسطى : انعقدت إحدى المحاكم فى انجلترا

لمحاكمة شخص كانت مسألته قد شغلت الرأى العام لمدة طويلة واهتم الناس بها اهتماماً كبيراً وازدحمت المحكمة بالمحلفين والمحامين والقضاة وعلى رؤوسهم الشعر المستعار ، وعلى أجسادهم كمية هائلة من الملابس الثقيلة وكان عدد النظارة كبيراً جداً ضاقت بهم الغرفة وفسد الهواء وانتشرت الروائح الكريهة ويظهر أن الأنف ما كان يعج فى ذلك الوقت الروائح الكريهة بقدر ما يمجها الآن فقد تعود الناس عليها لنقص كبير فى وسائلهم الصحية . ولعل عادة التعطر الذى كان يكثر منه الرجال والنساء على السواء خصوصاً الأغنياء منهم ترجع إلى هذا السبب . استغرقت الجلسة وقتاً طويلا وانتهت بإدانة المتهم وما هى إلا بضعة أيام حتى ظهرت أعراض التيفوس على كثير من المحلفين والقضاة ومات منهم عدد ليس بقليل واعتبر الناس ذلك مثلاً من أمثلة العدل الإلهى إذا كانوا يؤمنون ببراءة المتهم .

قلنا إن القمل فى ذلك الوقت كان منتشراً فى جميع الطبقات حتى الطبقات الراقية . أما فى وقتنا هذا فأكثر ما نراه فى الطبقات الفقيرة التى يكاد يقتصر عليها (هذا إذا استثنينا قمل العانة الذى قد يصيب كل الطبقات والذى لا شأن له بالتيفوس) .

ومنظر المرأة العجوز التى تضع رأس ابنتها على ركبتيها تصيد القمل أو بويضاته من شعرها وتقتله بأظافرها منظر مألوف فى الريف وفى الأحياء الفقيرة فى القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة كما أن منظر الملابس المبطنة بالقمل فى عيادات المستشفيات العامة منظر مألوف للأطباء . ومنظر القروى الذى يجلس على رصيف أحد الشوارع أو فى عربة ترام مزدحمة أو فى إحدى السيارات العامة يحك جلد ظهره بأظافره أو بعصاه يدل فى الغالب على أن قملة تضايقه والمثل السائر الذى يقول « ما حك جلدك مثل ظفرك » إن دل على شىء فإنما يدل على أن حك الجلد بالأظافر أمر عادى مألوف يجب أن يتولاه الشخص بنفسه ولو كان فى مكان بعيد كالظهر حيث يكثر القمل وهو فى الغالب المقصود وإلا لما احتاج لمن يحك له ظهره . وإن أنس لا أنسى ما رأيته يوماً إذ كنت فى الريف وفاتنى القطار وكان لا بد لى من العودة إلى القاهرة فى هذا اليوم وكانت إحدى السيارات العامة على وشك القيام فركبتها على مضض وهى مزدحمة بالركاب والتيفوس منتشر فى ذلك الوقت وكنت أتوجس خيفة أن تصلنى قملة من أحد الركاب وكان الكثير منهم يحك جلده

بظفره . و بينما أنا أفكر فى ذلك إذ لمسنى جارى فى المقعد وكان ضابط بوليس لا أعرفه ولفت نظرى إلى قملة كانت تمشى الهوينا على ظهر « الكمسارى » ربما وصلت إليه من أحد زبائنه أو زحفت من داخل اللابس إلى الخارج تبحث عن مأوى آخر . وهذا فى الغالب دأب القملة المصابة بالتيفوس كثيرة الحركة عصبية المزاج قليلة الثبات فى مكان واحد ميالة إلى التغيير . مريضة محكوم عليها بالموت بعد فترة معينة من امتصاص الدم الموبوء.

قلنا إن المرض من أكثر ما يكون انتشاراً فى السجون لدرجة أن أطلق عليه اسم « حمى السجون » ويرجع السبب فى ذلك إلى زج العدد الكبير من المسجونين فى حيز ضيق و إلى قلة استعمال الماء والصابون وجميعها كما أسلفنا عوامل تؤدى إلى انتشار القمل وبالتالى إلى تفشى وباء التيفوس . إلا أنه ربما كان هذا الوصف أكثر انطباقاً على سجون القرون الوسطى منه على سجون الوقت الحاضر فقد كانت السجون وقتئذ على أسوأ حال وكان هذا شأنها فى جميع الدول . وزادها سوءاً فى انجلترا ضريبة جديدة سموها ضريبة النوافذ لجأت الحكومة

إلى فرضها لزيادة ميزانيتها ويظهر أنها كانت إذ ذاك فى حاجة كبيرة إلى المال . فُرِضَ على كل نافذة ضريبة سنوية قدرها شلن . ولما كان الناس فى جميع العصور ومن جميع الطبقات يتفادون دفع الضرائب ما أمكنهم فقد سدوا بالطوب أو بالأخشاب أكبر عدد من النوافذ واستغنوا عنها فى مبانيهم الجديدة أو اكتفوا بالقليل منها ولما كانت السجون فى ذلك الوقت شبه مؤسسات خاصة يكاد يديرها حكامها لحسابهم الخاص . فقد اكتشف بعض أولئك الحكام أن النوافذ منبع متاعب كثيرة للسجانين وأضرار كبيرة للمسجونين فأغلقوها وأحكموا إغلاقها ورأى عدد قليل منهم أن يستعيض عنها — وفى الوقت نفسه يتفادى الضريبة — بوضع مَرْوَحة كبيرة على سطح البناء فوق أنبوبة تصل إلى داخله وهى طريقة للتهوية لا بأس بها إلا أنها لم تلق نجاحاً كبيراً إذ نَسب إليها البعض إصابة المسجونين بالالتهاب الرئوى أو النزلة الشعبية أو غير ذلك من الأمراض .

بقيت لنا كلمة عن أنواع القمل بعد ما ذكرناه عن عاداته والدور الذى يلعبه فى نقل التيفوس . هناك ثلاثة أنواع من القمل : (١) قمل الجسم وهو الناقل للتيفوس وهو فى الغالب

أبيض اللون قد يميل إلى السمرة حسب لون الجلد الذى يعيش عليه وهى خاصة تتمتع بها الحيوانات الدنيئة إذ هى بهذا الاندماج فى الوسط تصعب رؤياها وتقى نفسها شر أعدائها. طريقة من طرق حفظ الجنس أخذها الإنسان عن أدنأ الحيوانات بابتداعه ما سماه «الكاموفلاچ» الذى مهما تفنن فيه لن يتقنه كما أتقنته الطبيعة. يعيش هذا النوع على الجسم فإذا ما ملأ معدته بالدم لجأ إلى طيات الثياب الداخلية وفيها يضع بويضاته

(٢) قمل الرأس وقد ينقل التيفوس وإن فعل فهو لا يجارى فى ذلك قمل الجسم ولونه فى الغالب رمادى قاتم يميل إلى السواد كالوسط الذى يعيش فيه أيضاً وتلصق بويضاته بالشعر بواسطة مادة لزجة قد يكثر إفرازها حتى يلتصق الشعر ببعضه.

(٣) قمل العانة وهو يأنف أن ينقل التيفوس أو يأنف التيفوس أن ينتقل به، والواقع أنه يختلف عن النوعين الآخرين كل الاختلاف. مُفَرطَح يشبه فى شكله السرطان «أبو جلمبو» باهت اللون يميل إلى الصفرة، إذ هو لا يوجد غالباً إلا فى الأجناس البيضاء، ويصيب الغنى والفقير على السواء، وينتقل فى أكثر الأحوال بالطريق الجنسى.

يعتقد بعض الناس أن كل قملة قد يعثرون عليها فى ملابسهم مصابة بالتيفوس مما يسبب لهم متاعب كثيرة وطالما يقض مضجعهم ظناً منهم أن أعراض التيفوس لن تلبث أن تظهر عليهم. وقد زارنا بعض المثقفين ولا سيما الأطباء يحملون قملة قبضوا عليها مختبئة فى ملابسهم بعد رحلة فى ترام أو قطار مزدحم . أتوا بها وهم فى حالة عصبية ليعرفوا إن كانت هذه القملة تحمل التيفوس وأفضل طريقة تتبع فى المعمل فى مثل هذه الحالة أن تسحق القملة فى قليل من الماء أو محلول الملح ثم تحقن بطريق البريتون فى خنزير غينيا . ففى الحالة الإيجابية ترتفع حرارة الحيوان بعد بضعة أيام وتبقى مرتفعة بضعة أيام أخرى ثم تأخذ فى الانخفاض . فإذا ماقُتل الحيوان أثناء الحمى أو بعدها وفُحص مخه وطحاله وُجدت علامات باثولوچية خاصة اختص بها هذا المرض .

ولكن هذه الطريقة كما يرى القارىء طريقة طويلة عقيمة وقد تظهر أعراض التيفوس قبل أن تُعرَف نتيجة الفحص . ولذلك فإنه فى رأينا ولا سيما إن كان التيفوس منتشراً أن يُطمأن مثل هذا الشخص بحقنه باللقاح الواقى إن لم يكن قد حُقن به من قبل (فى ظرف ستة أشهر) . وهو إجراء لاحظنا

أنه دائماً يبعث الطمأنينة فى نفس من كان عصبي المزاج . فإن لم يفلح اللقاح فى منع المرض فقد يخفف من حدته .

جرثومة التيفوس

بقيت جرثومة التيفوس غير معروفة إلى عهد قريب ، وقد زعم كثير من الباحثين أنهم اكتشفوا سببه . فمن قائل إنهـا ميكروب عصوى تمكن من زرعه على الأوساط الصناعية وإحداث العدوى بحقنه فى حيوانات المعمل ، ثم ما لبث أن اتضح خطؤه . ومن قائل إنها من الجراثيم الضئيلة جداً المسماة بالفيروس والتى تستطيع لضآلتها أن تمر من ثقوب أدق مرشح . وقد كان هذا هو الرأى السائد لفترة طويلة ترجع إلى عهد قريب . ولكنه اتضح أخيراً أن سبب التيفوس نوع من الجراثيم يقع فى المرتبه بين الميكروبات العادية والفيروس ، ويشترك مع كل منهما فى بعض صفاته . وهذا النوع المتوسط من الجراثيم يكثر وجوده فى الحشرات كالقمل والبق والقراد والبراغيث . ومنـه ما هو مُحْدِث للمرض كجرثومة التيفوس مثلا ، ومنه ما يعيش عيشة فطرية فى أمعاء هذه الحشرات ولا ضرر منه .

يرجع الفضل فى اكتشاف جرثومة التيفوس إلى طبيب أمريكى شاب يدعى ريكتس (Ricketts) ذهب إلى المكسيك بصحبة طالب طب ناشىء فى وقت انتشر فيه الوباء فى هذه البلاد فأخذ فى البحث وفحص الكثير من العينات ثم نشر عام ١٩١٠ فى مجلة الجمعية الأمريكية الطبية رسالة قصيرة تحت عنوان « كلمة مبدئية عن سبب التيفوس » ذكر فيها أنه عثر فى دم المصابين بالتيفوس على جرثومة صغيرة جداً يُرَجَّح أن تكون هى المسببة للتيفوس . وقال إنه سيواصل بحثه وله كبير الأمل أن ينشر فى عدد قريب نتيجة هذا البحث بالتفصيل . ولكن القدر أراد غير ذلك فلم يُنشَر البحثُ فى المجلة الطبية بل نُشِر نعيُه فى جميع الجرائد اليومية . فقد أصيب أثناء بحثه بالتيفوس نتيجة عدوى أخذها من المعمل . كانت إصابة شديدة قضت عليه فى بضعة أيام ولم يبلغ إذ ذاك الثامنة والثلاثين من عمره. ذهب ضحية العلم وهو فى ريعان شبابه ، ولم تُقصر الجرائد والهيئات العلمية التى نعته فى الإشادة بفضله . ولم يُقصر زملاؤه أمثال «روكاليما» الذين أكملوا بحثه بعد التحقق من صحة ما وصل إليه . لم يقصروا فى تخليد ذكراه باطلاق إسمه على جرثومة التيفوس التى سموها

« ريكتسيا پروڤاتزكى » والاسم الثانى لباحث آخر مات أيضاً بالتيفوس قبل ريكتس بعدة سنوات .

ثبت أن جرثومة ريكتس هى المسببة للتيفوس وهى فى حجمها تقرب من الميكروبات العادية إلا أنها تختلف عن هذه الميكروبات فى صعوبة صبغها وصعوبة زرعها ، إذ لا بد لهـا من خلايا حيّة تتكاثر فيها . شأنهـا فى ذلك شأن الڤيروس . فجميعها جراثيم لا تستطيع أن تعيش عيشة مستقلة، بل لا بد لها من خلايا تقوم بأودها ، وتقدم لها طعامها .

طريقة عدوى القمل

القمل كالإنسان ضحية التيفوس يمرض به كما يمرض به الإنسان. بل التيفوس أكثر قسوة على القمل منه على الإنسان . فالقملة المصابة بالتيفوس محكوم عليها بالموت بعد فترة تكاد تكون ثابتة فبينما تبلغ الوفيات فى القمل مائة فى المائة تتراوح فى الإنسان بين عشرة وثلاثين فى المائة فقط ، أى أنه من كل عشرة أشخاص مصابين بالتيفوس يموت فى المتوسط اثنان فقط ، وقد تصل

الوفيات فى المتقدمين فى السن إلى أضعاف ذلك وتصل العدوى إلى القملة بالطريقة الآتية : تمتص القملة دم المصاب وفيه كما أسلفنا العدد الكبير من الجراثيم فتصل الجرثومة إلى الخلايا المبطنة للمدة والأمعاء حيث تتوالد وتتكاثر إلى أن تكتظ بها هذه الخلايا وتنتفخ من كثرتها مما قد يؤثر على تغذية الحشرة . ثم تنفجر الخلية فتفرغ ما فى جعبتها من الجراثيم فى الأمعاء . وهنا يبدأ خطر هذه القملة على الإنسان إذ هى إن وصلت إلى شخص سليم وتبرّزت على جلده صبت عليه عدداً كبيراً من الجراثيم . فإن حك جلده بأظافره كما يحدث عادة أحدث تشققات ضئيلة تُلَوّثُ ببراز القملة فتصل الجرثومة إلى الدم وتظهر عليه أعراض المرض بعد انقضاء مدة الحضانة وهى حوالى عشرة أيام .

يبدأ ظهور الجراثيم فى براز القملة بعد خمسة أيام من امتصاصها الدم الموبوء ويبلغ عددها أقصاه وتصل قدرتها على الإصابة بالمرض غايتها فى اليوم العاشر ، وتموت القملة فى اليوم الثانى عشر إلى الخامس عشر على الأكثر .

ومن المشاهد أن الأنثى فى القمل أكثر عدوى من الذكر وذلك لأن الجرثومة تتوالد فيها أكثر بكثير مما تتوالد فى الذكر

فقد يصل عدد الجراثيم فيها إلى أكثر من ثلاثة أمثال ما يصل إليه فى الذكر . وأمثال ذلك فى الأمراض كثير.فأنثى البعوض فقط هى التى تنقل الملاريا والحمى الصفراء ، وأنثى البهائم والماعز تنقل بألبانهـا حمى مالطة ، وأنثى الآدميين تحمل ميكروبات الحميات المعوية أكثر بكثير مما يحملها الذكر،ولا شك أن حامل هذه الميكروبات منبع عدوى هذه الأمراض . والأنثى فقط هى التى تنقل مرض الهموفيليا إلى أنجالها الذكور دون الاناث ودون أن تصاب به هى . هذا فضلا عما تنقله إلى الذكور من متاعب الحيـاة . فالأنثى فى جميع المخلوقات — من الإنسان إلى أدنأ الحيوانات — تسبب أضراراً كثيرة ، وقلما تحل مصيبة ليس للأنثى فيها نصيب الأسد .

والقملة الحاملة لجرثومة التيفوس هى كما أسلفنا قملة مريضة عصبية كثيرة الحركة تترك من أخذت منه العدوى لاجئة إلى غيره من بنى الإنسان وبها عادة قبيحة تدل على جهلها بأبسط آداب المائدة فهى دائماً تتبرز أثناء تناول الطعام وطعامها كما أسلفنا هو دم الإنسان . تمتص دماً نقياً وتخرج بدله عدداً هائلا من الميكروبات يساعد الإنسانُ بساطته على وصولها إلى الدم بخدش جلده بأظافره .

تيفوس بلا قمل

لابد لكل جرثومة من مخزن دائم تعيش فيه و إلا انقرضت الجرثومة وانقرض معها المرض المسببة له وهذا مع الأسف مالا نراه . فالأوبئة بيننامنذ أقدم العصور . فمخزن ميكروب التيفود مثلا هو كيس المرارة عند حاملى التيفود . ومخزن ميكروب الدفترياهو زور أو أنف حاملى الدفتريا . ومخزن الطاعون واليرقان المعدى هو الفأر . ومخزن الحمى الفحمية هو الأرض التى فيها يتكور الميكروب ويحيط نفسه بغشاء سميك يحميه من عاديات الدهر ، وهكذا لكل جرثومة ملجأ تلجأ إليه بين وباءين ، فأين إذاً ملجأ جرثومة التيفوس وهو بيننا منذ آلاف السنين ؟

ذكرنا أن التيفوس الوبائى يصيب الإنسان والقمل ولا يصيب فى الطبيعة حيواناً آخر ، وهو يميت كل قملة يصيبها ولا يميت من بنى الإنسان سوى العدد القليل ، ولا تعيش الجرثومة فى الأرض أو الهواء أو الماء ، فالشواهد كلها تدل على أن هناك احتمالا كبيراً أن يكون الإنسان نفسه ملجأ الجرثومة .

ومما يعزز هذا الرأى وجود نوع خفيف من التيفوس فى

بعض المدن الكبيرة بالولايات المتحدة كنيويورك مثلا يكاد لا يصيب سوى المتقدمين فى السن من الإسرائيليين البولونيين أو الروسيين رغم خلوهم من القمل ، هو تيفوس بلا قمل يصيبهم فقط ولا يصيب أبناءهم . ويعلل العلماء الأمريكيون ذلك بأن أولئك القوم الذين ولدوا فى بولونيا أو روسيا وأمضوا طفولتهم أو شبابهم فيها ، ثم رحلوا إلى أمريكا أصيبوا بالتيفوس فى وطنهم الأول ، وشفوا منه ، واكتسبوا المناعة ضده . إلا أنهم بقوا حاملين لجرثومته فلما مضت السنون وتضاءلت المناعة تغلبت عليهم الجرثومة مرة ثانية ، وظهرت عليهم أعراض المرض من جديد . هى شبه نكسة بعيدة الأجل .

إن هؤلاء القوم هم فى الغالب أناس جمعوا فى أميركا وطنهم الجديد مالا وفيرا وعاشوا فيها عيشة عز ورفاهية بعد عيشة الفقر والبؤس فى وطنهم الأصلى ، وسكنوا القصور بعد سكنى الأكواخ وانقطعت الصلة بينهم وبين القمل منذ أمد بعيد .

وإذ تكلمنا عن التيفوس بلا قمل حق لنا أن نقول كلمة عن نوع آخر من العدوى ليس للقمل به شأن وهو عدوى المعمل ، فجرثومة التيفوس من أخطر الجراثيم على الباحثين . إذ يكفى أن

يصل عدد قليل جدا منها إلى الجلد ليحدث العدوى ، وضحايا التيفوس من هذا النوع كثيرون ذكرنا منهم « ريكتس » مكتشف الجرثومة . وقد حدث منذ بضع سنوات أن كان أحد أطباء المراكز فى مصر يأخذ عينة دم من مريض بالتيفوس ، فتصادف أن غزته الإبرة التى أخذ بها الدم ولم تمض بضعة أيام حتى ظهرت عليه أعراض التيفوس وتوفى منه . من المحتمل طبعاً أن يكون هذا الطبيب قد أخذ العدوى بالطريق الطبيعى إلا أن ظروف الحالة ، ومدة الحضانة تجعل الإنسان يرجح الطريق الأول .

ويظهر أن هناك طريقة أخرى تنتقل بها العدوى إلى الأطباء فى المستشفيات العامة دون وساطة القمل ، ، وهى أنه قد يحدث أثناء خلع المرضى ملابسهم القذرة أن يتطاير منها براز القمل الملوث بعد أن جف وأصبح سهل التطاير . فيصل الرئتين ويحدث العدوى عن هذا الطريق .

وهناك من الشواهد ما يرجح أن عدداً كبيراً من الأطباء أصيب بهذه الطريقة . أما الأطباء الذين أصيبوا بالطريق الطبيعى بحكم احتكاكهم بالمرضى فلا يمكن حصرهم . وربما كانوا أكثر الناس تعرضاً له ، وربما أقلهم مقاومة .

مع الفأر والبرغوث مرة أخرى

تكلمنا إلى الآن عن التيفوس الوبائى الذى ينتقل بواسطة القمل . وهناك أنواع أخرى من التيفوس أقل أهمية وأضيق انتشارا تكاد تنحصر فى جهات معينة قل أن تتخطاها .

من هذه الأنواع نوع يصيب الفيران وينتقل منها إلى الإنسان بواسطة براغيث الفيران ، فإذا ما استقر فى الإنسان أمكن انتقاله بين الأفراد بواسطة القمل وهو فى الواقع لا يختلف كثيراً عن النوع الوبائى القملى . ومن المحتمل أن يكون هذا النوع الأخير قد بدأ فى غابر الزمان فى الفيران ثم تتطور حتى اتخذ طابعاً خاصاً به وأصبح لا يصيب إلا الإنسان ولا ينتقل إلا بالقمل ، وفى هذه الحالة طبعاً يكون التيفوس الفأرى أقدم من التيفوس القملى الوبائى بكثير . والفرق بين جرثومة النوعين بسيط جداً .

وقد يكتسب من يشفى من أحدهما بعض المناعة ضد الآخر . ومخزن العدوى فى النوع الذى نحن بصدده هو بلا شك الفأر فالمرض فى الأصل كالطاعون مرض الفأر . والجرثومة فى الأصل

تقطن جسم الفأر ، فإذا ما وصلت إلى الإنسان ، فهى مجرد مصادفة ما كانت لتسعى إليها . وأكبر صلة بين الفأر والإنسان هو البرغوث . وإذا تذكرنا أن برغوث الفأر يفضل الفأر على الإنسان . وأن هذه الحشرة قلما تترك الفأر إلا بعد أن يصبح جثة باردة علمنا السبب فى أن الإنسان قلما يصاب بهذا النوع من التيفوس . ولا يصاب به عادة إلا من كان له صلة وطيدة بالفيران كساكنى الأكواخ والمنازل القديمة المهدمة الملأى بالجحور التى تأوى العدد الكبير من هذه الحيوانات .

وهذا النوع أيضاً فى العادة أخف وطأة من النوع الوبائى ، وربما رجع السبب فى ذلك إلى أن جرثومته لم تألف جسم الإنسان بعد. وأكبر الظن أنها إن مرت به لبضعه أجيال ربما زادت ضراوتها عليه ، وربما انقلبت إلى النوع الوبائى .

يوجد هذا النوع من التيفوس فى المكسيك وجنوب فرنسا والملايا و بلاد أخرى ، ويطلق أهالى كل منها عليه اسماً يتفق مع ماعرفوه عنه من الخواص . فالمكسيكيون يسمونه Tabardillo أى « العباءة » لطفح غزير يغطى جسم المريض شبهوه بالعباءة والفرنسيون يسمونه (Fiévre Nautique) أو « الحمى

البحرية » لانتشاره على ساحل فرنسا ، لا سيا فى تولون . والملايون يسمونه « تيفوس المدن أو الحوانيت » وربما كان ذلك لانتشار الفيران فى الحوانيت مما يعرض أصحابها للعدوى. وأكبر الظن أن هذا النوع يوجد فى مصر أيضاً إذ انتشر منذ سبع سنوات بين عمال قناطر محمد على وباء تيفوس دلت بعض التجارب التى قمنا بها على أنه فى الغالب من النوع الذى نحن بصدده .

ولا تختلف عدوى البرغوث عن عدوى القمل إلا فى أن الجرثومة لا تقتل البرغوث ، إذ هو لا يلبث أن يتخلص منها ويتم ذلك فى حوالى شهر . والبرغوث كالقملة يمتص الدم الموبوء وتصل الجرثومة إلى المعـدة والأمعاء حيث تتكاثر فى الخلايا المبطنة لها حتى تمج هذه الخلايا بها ثم تنفجر وتصب كل ما فى جعبتها فى الأمعاء فتمتزج الجراثيم بالبراز .

هناك عدا ما ذكرنا أنواع أخرى محلية (endemic) من التيفوس ينتقل أكثرها بواسطة القراد . وتعيش الجرثومة فى الطبيعة فى القراد أو الفيران أو الكلاب أو غيرها من الحيوانات وتوجد فى الغالب فى الولايات المتحدة حيث يسمى المرض « حمى

الجبال الصخرية » . وفى جنوب فرنسا حيث يسمى « الحمى الدُمَّلية » وفى البرازيل حيث يسمى «ساو پولو» وفى استراليا حيث يسمى (Q fever) . وفى اليابان حيث يسمى «تسوتسوجاموشى» وفى الملايا حيث يسمى « حمى الريف » وربما وُجدت فى جهات أخرى فقد ذكر أحد الأطباء الإنجليز أخيراً أنه شاهد حالة من النوع القرادى فى السودان ، بل هى ربما وُجدت فى القطر المصرى ولو أننا إلى الآن لم نعثر على ما يؤيد ذلك .

تشخيص التيفوس : سنذكر هنا كلمة عن تشخيص التيفوس لا لأنه يهم القارىء ، بل لنبين له كيف يخدم القدر الباحثين أحياناً ، كان الأطباء فى أغلب الأحيان يعتمدون فى تشخيص التيفوس على علاماته الإكلينيكية فاذا ما لجأوا إلى المعمل كان ذلك لاستبعاد حميات أخرى كالتيفود والملاريا التى كثيراً ما كان يجد الطبيب بعض الصعوبة فى تمييزها من التيفوس ، والتى عرفت طرق تشخيصها فى المعمل قبل أن يعرف شىء عن تشخيص التيفوس .

حدث أثناء الحرب العظمى الأولى أن أُرسلت عينة بول

من مريض اشتبه فى إصابتـه بالتيفود إلى طبيبين شابين إسرائيليين ، يسميان « ڤيل وفيليكس » كانا يشتغلان في معمل صغير من معامل الجيش فى جاليسيا الشرقية وكان المطلوب منهما فحص هذه العينة لميكروب التيفود ، فلم يتمكنا من فصله منها . ولـكنهما فصلا ميكروبا آخر أرادا أن يتحققا إن كانت له علاقة بحالة المريض ، فحصلا على القليل من دمه وأجريا تجربة تسمى تجربة التجمع ، فكانت النتيجة إيجابية ، ثم اتضح بعد ذلك أن الحالة لم تـكن حالة تيفود بل حالة تيفوس ظهرت علاماته الإكلينيكية واضحة جداً ، بحيث لم يبق شك فى التشخيص ، فأعادا هذه التجربة على المئات من حالات التيفوس مستعملين نفس هذا الميكروب (وهو من الغريب لا شأن له بالتيفوس) فـكانت النتيجة فى كل مرة إيجابية كما كانت النتيجة دائماً سلبية عند إجرائها على مرضى الحميات الأخرى ، فلما تأكد لهما أنها تجربة يمكن الاعتماد عليها فى تشخيص التيفوس نشرا هذا البحث ثم أيده غيرهما من الباحثين وأصبح التيفوس الآن يشخص فى جميع أنحاء العالم بتفاعل مع ميكروب لا علاقة له بالتيفوس . وهذا العمل

وإن كان وليد المصادفة ، إلا أنها مصادفة قابلت من عرف أن يستفيد منها وفرصة سنحت لمن انتهزها ، والرجل الموفق القوى الملاحظة هو الذى إذا واتاه الحظ حرص على أن لا يفلت منه . وهناك أناس تأتيهم الفرصة الملائمة من باب فيخرجونها من باب آخر .

هناك صادفة أخرى متعلقة بنفس هذا الاكتشاف لا نرى بأساً من ذكرها هنا : انتشر فى الملايا وباء تيفوس من الأنواع غير الوبائية ، واستعمل خطأ فى تشخيصه ميكروب غير الميكروب الذى أشرنا إليه ولو أنه كان من فصيلته ، فكانت النتيجة إيجابية ، فلما استعمل الميكروب الأصلى أعطى نتيجة سلبية ، كذلك أعطى الميكروب الجديد نتيجة سلبية مع حالات التيفوس الوبائية ، وهكذا اكتشف بطريق المصادفة نوع من الميكروب يتفاعل فقط مع بعض الأنواع غير الوبائية ويميزها من التيفوس الوبائى .

الوقاية من التيفوس

لا بد أن يكون القارىء قد استنتج مما ذكرنا أن الطريقة المثلى للوقاية من التيفوس تنحصر فى إبادة القمل. تنحصر فى النظافة التامة : نظافة البدن والملابس وفى تفادى الزحام بقدر الإمكان. كما تنحصر فى عزل المرضى لا لمجرد عزلهم بل لتطهير ملابسهم وأجسامهم وحمايتهم من القمل أو بالأحرى حماية القمل منهم حتى لا يأخذ العدوى وينقلها إلى غيرهم. تُنشأ أثناء انتشار التيفوس محطات لإبادة القمل يدخلها الشخص والقمل يرعى فى ملابسه وشعره وجسده ويخرج منها نظيفاً مرتدياً ملابس معقمة بعد أن ودع القمل الذى ربما لازمه زمنا طويلا. أما نصيب هذا القمل فهو الإعدام بطرق خاصة.

ومن الطرق المجدية لإعدام، القمل التى اتُبِّعت فى الحرب الأخيرة فأتت بأحسن النتائج تعفير الملابس والجسم بمسحوق جديد يسمى د. د. ت (D. D. T) تكفى أقل كمية منه لإزهاق أرواح هذا القمل الذى جُرِّبت قبل ذلك فى إبادته مواد كيماوية أخرى كثيرة فكانت إما أن لا تؤثر عليه وإما أن تؤثر عليه وعلى الجسم فى الوقت نفسه. أما المسحوق الجديد فلا خوف ولا ضرر منه

هذه هي الطرق المثلى لمنع التيفوس ، وهذه هي الطرق التي قضت عليه في البلاد المتمدينة . فلم يكن التيفوس في وقت من الأوقات وقفا على بلد دون آخر ولم ينل شرف الانتساب إلى أمراض المناطق الحارة كما يزعم البعض . فهو إن كان أكثر انتشاراً في هذه المناطق فما ذلك إلا لأنها لم تُعْنَ بمسائلها الصحية كما عُنيت بها البلاد الأخرى . والتيفوس على النقيض من ذلك يكثر في الطقس البارد حيث يُكثِر الناس من الملابس ويقللون من الاستحمام وهو إن كان قد اختفى من بعض البلاد الغربية فما ذلك إلا لأن القوم هناك تعلموا أن يعيشو عيشة نظيفة .

في المرتبة الثانية من وجهة الوقاية يقع التحصين باللقاح الواقي وهي قصة قديمة تنبه إليها الانسان منذ لاحظ أن من أصيب مرة بمرض وبائي قلما يصاب به مرة أخرى وأول مرض استعمل فيه التطعيم باللقاح الواقي هو الجدري .

سنسرد هنا بالاختصار قصة التطعيم ضد التيفوس ولو أن هذا الموضوع لا يهم سوى الأطباء إلا أنه قد لا يخلو من فائدة لغير الأطباء .

أول من فكر في التطعيم ضد هذا المرض طبيب تركي يدعى

حمدي إذ انتشر التيفوس في تركيا في الحرب العظمى الأولى فرأى حمدى أن يستعمل الدم الموبوء في تطعيم الأهالى بعد تسخينه قليلا إلا أن النتائج لم تكن مشجعة فقد جرّب هذا اللقاح في الجنود في الجيش التركى ثم في الجيش الألمانى المعسكر في رومانيا فلم يأت بفائدة تذكر ويقال إن أحد الاطباء في تركيا طعّم بعض المرضى في مستشفى عام بكمية قليلة من الدم الموبوء بقصد إكسابهم المناعة فكانت النتيجة عكس ما أراد إذ أصيبوا بالتيفوس وأمرت الحكومة التركية بإجراء تحقيق تبين منه أن الرجل كان مصابا باختلال في قواه العقلية . وهذا الحادث وإن كان قد انتهى بكارثة إلا أنه أيد بطريق المصادفة ما ذهب إليه العلماء من وجود الجرثومة في دم المصابين .

أتى بعد ذلك نيكول مكتشف طريقة العدوى وحضّر لقاحا من مخ وطحال خنزير غينيا المحقون بجرثومة التيفوس وكان لقاحه يحوى الجرثومة كما هي دون قتلها أو تخفيف ضراوتها ونصح بحقن هذا اللقاح بكميات ضئيلة جداً . إلا أنه اتضح أنها طريقة خطرة فجرثومة التيفوس ليست من الجراثيم التي يسوغ التهاون بها ولو بأقل مقدار . ولذلك فإن هذه الطريقة قد قُبرت قبل

أن تولد إذ لم يجرؤ أحد على أتباعها لما فيها من الخطر على الأفراد والجمهور الذى قد تنتشر الجرثومة بينه بواسطة القمل .

وفى شمال إفريقيا حضّر عالم فرنسى آخر يدعى بلانك لقاحاً ضد التيفوس الفأرى من براز البراغيث ولم يقتل الجرثومة بل اكتفى بتخفيف ضراوتها . كان يضع فى إناء زجاجى فأرين قلمت أنيابهما حسما للنزاع بينهما وحُقنا بالجرثومة الشديدة الضراوة ثم يطلق عليهما خمسين ألف برغوث ويُغلِق الإناء بشبك من السلك رفيع المسام بحيث يسمح بوصول الهواء إلى الفأرين ويمنع البراغيث من مغادرة الإناء فتجد هذه الحشرات فى دم الفأرين ما تشتهيه من الطعام وفى الوقت نفسه تبتلع الجرثومة مع وجبة الدم فتتكاثر فى أمعائها ثم تصل إلى برازها . وكان كل يومين يَستبدل الفأرين بآخرين حُقنا بنفس الطريقة ثم يبدأ الحصد بعد أسبوعين مع الاستمرار فى استبدال الحيوانات كل يومين وتغيير الأوانى كل أسبوعين لاستبعاد ما يفقس جديداً من بويضات البراغيث .

أما الفيران التى استعملت فى الأسبوعين الأولين فتعدم ويستغنى عنها . وعملية الحصد تنحصر فى أن يؤخذ الفأر وينتف

شعره الذى قد تلوث بكمية هائلة من براز البراغيث الذى يحوى الملايين العديدة من جرثومة التيفوس . يؤخذ هذا الشعر و يجفف ثم ينخل و يجمع المسحوق الناتج من هذه العملية — وهو بالطبع يحوى الجرثومة بمقدار كبير — ويعلق فى سائل أضيف إليه قليل من الصفراء لتخفيف ضراوة الجرثومة . وينتج كل إناء حوالى مليون جرعة من اللقاح فالجرعة حوالى ٠٫٠١ مليجرام وكمية المسحوق الناتجة من إناء حُصِد ثلاثين أو أربعين مرة حوالى عشرة جرامات . وقيمة هذا اللقاح الوقائية لا بأس بها . إلا أن هناك خطراً على القائمين بتحضيره خصوصاً عند بدء عملية الحصد ولا بد لهم حينئذ من قناع يحميهم من تطاير الجرثومة فى الهواء ووصولها إلى الرئتين .

اتضح أخيراً أنه يمكن الاستعاضة من الجرثومة الحية بالجرثومة الميتة ولو أن الأولى قد تكون أكثر قدرة على إكساب المناعة . ولكن الثانية أسلم عاقبة . وقد حُضِّرت على هذا الأساس أنواع كثيرة من اللقاح سنشير إلى بعضها لنعطى القارىء فكرة عن الصعوبات التى يجدها الأطباء فى تحضيرها :

لقاح فيجل وهو مستحلب من أمعاء القمل المعدى بالتيفوس

فى محلول خفيف من الفينول ويظهر أن قيمته الوقائية كبيرة ويرى أكثر المشتغلين بالصحة العامة أنه من أفضل ما استعمل من انواع اللقاح إلا أنه لا يمكن تحضيره إلا بكمية ضئيلة جداً قد لا تكفى لتطعيم أكثر الناس تعرضاً للعدوى كالأطباء والممرضين والممرضات والمبخرين وغيرهم ممن يضطرهم عملهم إلى الاحتكاك بالمرضى . وترجع الصعوبة فى تحضير هذا اللقاح إلى ما يأتى :

(أولاً) دلت التجارب على أن أنجح طريقة لعدوى القملة هى بحقنها فى الشرج بالمادة المحتوية على الجرثومة وهى عملية تحتاج إلى صبر وخبرة وقد لا يتقنها الطبيب إلا بعد مران طويل وتُستعمل عادة لهذا الغرض أنبوبة شعرية رفيعة جداً تُمتص فيها المادة الملوثة ثم توضع القملة تحت الميكروسكوب ويوضع طرف الأنبوبة فى الشرج وتُحقن المادة . ونذكر بهذه المناسبة أن عالمين انجليزيين وهما « بيكوت وأركريت » أوفدا إلى مصر عام ١٩٢٢ للبحث فى التيفوس فأصيبا بالمرض فى المعامل الرئيسية لوزارة الصحة أثناء حقن القمل بالطريقة السالفة ولم يتمكن بيكوت من مقاومة العدوى فتوفى بعد مرض قصير .

(ثانياً) . لا بد من تغذية القملة المعدية لمدة عشرة أيام قبل قتلها وأخذ إمعائها ولما كان غذاؤها الوحيد هو الدم ولما كانت القملة موبوءة تحتم تغذيتها على أناس منيعين سبق أن أصيبوا بالمرض وشفوا منه وهى مشكلة ليس من السهل التغلب عليها فإن توفر الأشخاص المنيمون فقد يصعب اقناعهم بالتبرع بدمائهم لهذه الحشرة البغيضة .

(ثالثاً) لا بد من تشريح القملة بعد اليوم العاشر وفصل إمعائها وهذه أيضاً عملية تحتاج إلى الصبر والخبرة والتمرين .

(رابعاً) يحتاج هذا اللقاح إلى عدد كبير جداً من القمل فالشخص الواحد يحتاج فى المتوسط إلى مائتى قملة أى أننا إذا أردنا تطعيم خمسة آلاف شخص فقط لاحتجنا إلى مليون قملة وهو عدد إن تيسر الحصول عليه فلن يتيسر العدد الكافى من الفنيين لحقنه واستخراج أمعائه أو من المنيعين لتغذيته .

(خامساً) خطره على القائمين بتحضيره .

تغلب الروس على بعض هذه الصعوبات أثناء الحرب العظمى الأخيرة فاستنبطوا لقاحاً على أساس لقاح ڤيجل ولو أنه قد لا يضارعه فى القدرة على إكساب المناعة . كانوا يملأون إناء

زجاجياً بدم ملوث مُنع من التجمد بإضافة القليل من سترات الصودة إليه ثم يغطون الإناء بقطعة من جلد آدمى بعد سلخها من إحدى الجثث مباشرة . يضعونها على الإناء بحيث يمس سطحها الداخلى الدم الملوث ثم يضعون القمل عليها ويغطونه ويحفظون الإناء فى درجة ٣٧ مئوية أى حرارة الجسم فيمتص القمل الدم بطريقة لا تختلف كثيراً عن الطريقة الطبيعية وتحدث العدوى فى الوقت نفسه . وبعد عشرة أيام (يُغير الدم والجلد أثناءها بضع مرات) يُجمع القمل ويُصحن بأجمعه في محلول أضيف إليه قليل من الفينول وبذلك يتفادون حقن القمل وتغذيته وفصل أمعائه .

هناك طرق كثيرة أخرى اتبعت فى تحضير اللقاح وسنكتفى بالإشارة إلى طريقة « كوكس » الأمريكية وهى الآن أكثر الطرق استعمالا لسهولتها وصلاحيتها لتحضير اللقاح بكمية كبيرة ضد جميع أنواع التيفوس وتنحصر هذه الطريقة فى زرع جرثومة أى نوع من أنواع التيفوس على غشاء صفار البيض القابل للفقس .

توضع البيضة لبضعة أيام فى فرن التفريخ على درجة حرارة

٤٠ مئوية ثم يكشف عليها بواسطة شعاع من النور قوى للتأكد من أن الجنين حىّ يتحرك ثم تثقب البيضة وتحقن بالجراثيم ، ويُغطى الثقب بقليل من البرافين وتوضع ثانياً فى فرن التفريخ على درجة ٣٧ مئوية لبضعة أيام أخرى حتى يموت الجنين ثم تفتح مع مراعاة التعقيم التام ويفصل غشاء الصفار ، ويفحص للتأكد من وجود الجراثيم فيه بعدد وافر ، ويحضر اللقاح بعد التخلص مما علق به من مادة الصفار الدهنية .وكان الأمريكيون أثناء الحرب يعتبرون هذه الخطوة سراً من الأسرار الحربية

أما الألمان والإيطاليون فيظهر أنهم لم يهتموا بهـا إذ وُجد لقاحهم الذى عثر عليه الحلفاء فى حملة الصحراء محتوياً على كمية كبيرة من الصفار .

الجديد فى علاج التيفوس

إن علاج التيفوس فى الوقت الحاضر لا يختلف عن علاج الحميات الأخرى ولا يخرج عن العناية بالتمريض وزيادة المقاومة ومنع المضاعفات وتخفيف سموم الجرثومة بقدر الإمكان بالإكثار من السوائل وإن كان هناك جديد فهو استعمال مادة لا زالت فى دور التجربة تسمى

حامض البراأمينو بنزويك "para - amino benzoic acid"، وهى من جهة تركيبها الكيماوى تشبه مركبات السلفوناميدالتى استعملت بنجاح كبير فى علاج كثير من الأمراض المعدية ولكنها تؤثر على هذه المركبات تأثيراً مضاداً . ولذلك فإن هذه المركبات حينما جُرِّبت فى علاج التيفوس وفشلت بل وأضرت فكر بعض العلماء الأمريكيين فى تجربة الحامض المذكور. أجروا التجربة فى مستشفى الحميات بالعباسية فأعطوا هذه المادة لبعض المرضى بطريق الفم بكميات كبيرة ، ويقال إنها أفلحت فى تقصير مدة المرض وتخفيف وطأته . إلا أنه قبل تعميم استعمالها لابد من تجربتها على عدد أوفر من المرضى وعمل مقارنة دقيقة بين فريق من المرضى عولج بها وفريق آخر لم يعالج بها . وما قيل عن هذا الحامض ينطبق أيضاً على الاتبرين وعلى المصل المضاد اللذين يقول البعض إنهما أتيا ببعض الفائدة فى علاج التيفوس الوبائى .

تكلمنا فى هذه الرسالة عن التيفوس ببعض التفصيل لأنه أهم الأمراض التى ينقلها القمل . أما الأمراض الأخرى التى تنقلها هذه الحشرات البغيضة فهى الحمى الراجعة وحمى الخنادق .

والطريقة التى تنقل بها القملة الحمى الراجعة تختلف بين الطريقة

التى تنقل بها التيفوس إذ تنتشر جرثومة هذه الحمى (وهى من النوع الحلزونى الذى يشبه جرثومة الزهرى) فى كل جسم القملة فإذا ما حك الشخص جلده وسحق القملة أثنــاء ذلك خرجت الجراثيم منها ولوثت التشققات الصغيرة التى يحدثها بأظافره .

ولم تميز الحمى الراجعة عن الحميات الأخرى كالتيفود والتيفوس والملاريا حتى منتصف القرن الماضى وكان أول من وصفها وصفاً دقيقاً مميزاً لها طبيب ألمانى كان يعمل فى مصر يدعى كسنجر أثناء وباء انتشر فى هذا القطر عام ١٨٥١ .

وأطلق عليها اسم الحمى الراجعة (Relapsing fever) لأول مرة أثناء وباء انتشر فى إدنبرة عام ١٨٤٣ .

ويظهر أن المرض استوطن مصر منذ عهد بعيد ولو أنه وُصف لأول مرة سنة ١٨٥١ . ثم اختفى ولم يظهر ثانياً حتى عام ١٨٨٤ واستمر ينتشر فى القطر كل عام تقريباً لبضعة أعوام ثم اختفى ثانياً . ولم يظهر إلا بعد الحرب العالمية الأولى وأعاد الكرة بعد الحرب الأخيرة وهو الوباء المنتشر بالقطر الآن وكانت الإصابة به نادرة جداً بين الحربين .

والحمى الراجعة على أنواع مختلفة منها ما ينقله القمل ومنها

ما ينقله القراد وقد استوطن كل نوع بلادا معينة كتونس والجزائر والهند وأواسط أفريقا واسبانيا وأمريكا وقد وصلت العدوى إلى أوروبا فى فترات مختلفة ولكنها أصبحت الآن أقل انتشاراً مما كانت عليه فى السنين الخالية لتحسن الحالة الصحية ومراعاة النظافة وتوفر سبل العيش .

ويظهر أن الأنواع التى ينقلها القراد أقدم بكثير من الأنواع التى ينقلها القمل بل يظهر أنها كلها بدأت بهذا النوع ويذهب بعض العلماء إلى أن هذا المرض فى الأصل كان يصيب القوارض كالفيران وكان ينتقل بينها عن طريق القراد ثم أصاب الإنسان عن طريق المصادفة وظل لفترة طويلة ينتقل بين بنى الإنسان بواسطة القراد ثم تفرع من هذا النوع النوع الذى ينتقل بواسطة القمل ، ويقال إن النوع القرادى يتخذ له ملجأ ومخزناً فى جسم الفيران ، وهذه القوارض وكثير غيرها من الحيوانات قابلة للعدوى بهذا النوع شديدة الحساسية له بعكس النوع القملى فإنه يعدى الفيران والقردة فقط . وقد دلت التجارب على إمكان نقل النوع القملى بواسطة البق أيضاً ولا تصل العدوى إلى السليم إلا بعد سحق البقة وخروج الجراثيم منها كما يحدث فى حالة القمل ولكن

يظهر أن انتقاله عن هذا الطريق نادرجداً ولاشك فى أن القمل هو أهم عامل فى انتشار الوباء .

والظروف الملائمة لانتشار الحمى الراجعة هى نفس الظروف الملائمة لانتشار التيفوس وتوجد من الوجهة الوبائية علاقة كبيرة بين المرضين وكثيراً ما ينتشران فى وقت واحد أو يتلو أحدهما الآخر وعلاقتهما بالحروب علاقة وطيدة كما بينا من قبل ومن الغريب أن يختفى الوباء لعدة سنوات ثم يظهر فجأة وينتشر انتشاراً مريعاً ثم تنطفىء جذوته ولا يعود إلا بعد سنين عديدة .

اكتشفت جرثومة هذا المرض فى برلين عام ١٨٦٨ فقد اكتشفها عالم ألمانى يدعى اوبيرمير (Obermeiér) أثناء وباء انتشر فى برلين فى ذلك الوقت ولم ينشر نتيجة بحثه حتى عام ١٨٧٣ وتمكن من نقل المرض إلى الأصحاء بحقنهم بدم المرضى ولكنه لم يتوصل إذ ذاك إلى معرفة الطريقة الطبيعية التى ينتشر بها بين الناس .

والجرثومة كما ذكرنا من النوع الحلزونى المنتمى لفصيلة ميكروب الزهرى تصل مع الدم إلى معدة القمل أو القراد ثم تنتشر فى جسدها

وكثيراً ما تصل إلى بويضاتها فتتسبب عن ذلك عدوى وراثية قد تمتد لبضعة أجيال .

وجرثومة الحمى الراجعة تنتشر فى دم المريض لبضعة أيام ترتفع أثناءها درجة الحرارة ارتفاعاً كبيراً ثم تتكون فى الدم مواد مضادة تطرد الجرثومة من الدم فتلجأ إلى الأحشاء الداخلية فتجد عدواً آخر أكثر قسوة وأشد بأساً وهو نوع من الخلايا يلتهمها التهاماً وهى فى ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار . إلا أن بعضها قد ينجو ويتخذ لنفسه طابعاً جديداً فلا يتأثر بالمواد المضادة ويعود إلى الدم بعد فترة تنخفض فيها درجة الحرارة وقد يظن المريض أثناءها أنه شفى تماماً . فترتفع الحرارة ثانياً وهكذا إلى أن يتغلب المريض نهائياً على الجرثومة أو تتغلب هى عليه وهو لحسن الحظ ما لا يحصل إلا فى أحوال قليلة .

وجرثومة الحمى الراجعة تفوق جرثومة الزهرى فى حساسيتها لمركبات الزرنيخ ولذلك فإن كمية قليلة من هذه المركبات كافية لشفاء هذا المرض . وبالنسبة لنجاح البنسلين فى علاج الزهرى فقد جرب أيضاً فى علاج الحمى الراجعة ويقال إنه أتى بنتائج لا بأس بها.

قبل أن نختتم قصة القمل ننتهز هذه الفرصة لنحيي من تعيه

الذاكرة من الباحثين الذين قضوا شبابهم وضحى الكثير منهم بحياته فى سبيل البحث عن سبب التيفوس وطريقة عدواه . نحيى نيكول الذى اكتشف طريقة العدوى . و پروڤاز بك الذى ضحى بنفسه فى سبيل البحث عن سببه ، وريكتس الذى مات فى ريعان الشباب وهو يبحث عن جرثومته ، وبيكوت الذى توفى فى مصر غريباً عن بلده أثناء حقن القمل بجرثومته . والعدد الكبير من الأطباء الذين أصيبوا بالمرض أثناء مقاومته أو فحص مرضاهم .

وأخيراً نحيى رجلا آخر من مشاهير الرجال وهو شوبرت الذى يختلف عمن ذكرنا فى أنه مات بالتيفوس فى مقتبل العمر لا ضحية العلم بل ضحية الموسيقى وما سببته له من البؤس والحرمان . والتيفوس كما ذكرنا مرض البؤس والحرمان . مات شوبرت فى الثانية والثلاثين من عمره قبل أن يكمل مقطوعته الشهيرة التى أعجب بها بتهوفن عندما سمعها لأول مرة ووصف صاحبها — ولم يكن يعرفه — بالعبقرية ، وهكذا كان التيفوس سبباً فى بقائها ناقصة وتسميتها «بالمقطوعة الناقصة» (La Symphonie inachevée).

مع الذباب والماء

يختلف الذباب عن القمل والبعوض والبراغيث فى أنه يحمل جراثيم الأمراض بطريقة آلية محضة فهو لا يمرض بها كما يمرض القمل مثلا بالتيفوس ولا تأخذ الجرثومة دورة من حياتها فى جسده كما يفعل طفيلى الملاريا فى البعوض بل هو يحملها على جسمه وأرجله وأجنحته وأجزاء فمه وتمر فى أمعائه مع برازه دون أن يتأثر بها ، ولما كان من عادة الذباب أن يتوالد فى أقذر الأمكنة وأن يتردد بين حين وآخر على أطيب الطعام أصبح من الطبيعى أن ينقل الجراثيم من الأول إلى الثانى ، فالذبابة إذا ما حطت مثلا على المواد البرازية ابتلعت منها أكثر من كفايتها فإذا ما وصلت بعد ذلك إلى إناء لبن أو غير ذلك من غذاء الإنسان لفظت فيه ما التهمته من البراز لتستبدله بما لذ من الطعام . هذا فضلا عما قد يصل إلى هذا الطعام من براز الذباب وما قد يحمله على أجنحته وجسمه وأرجله من الجراثيم فإذا تذكرنا أن أهم الجراثيم الخطرة التى قد توجد بالبراز هى جراثيم الأمراض المعوية كالتيفود والباراتيفود وتسمم الطعام والدسنتاريا

والكوليرا علمنا أن الذباب هو من أهم العوامل التى تنقل هذه الأمراض . وقد اتضح أخيراً أن جرثومة الشلل الطفلى تمر أيضاً فى الأمعاء . فتبين أن هذا المرض أيضاً من الأمراض التي قد ينقلها الذباب . وهو ينقل كذلك الرمد الحبيبى الذى يصيب أكثر من تسعين فى المائة من المصريين مما يدل على الصداقة المتينة بيننا و بين الذباب ، ومن المخجل أن هذا المرض المنتشر بين المصريين هذا الانتشار يندر أن يصيب الأجانب المقيمين فى مصر والسبب ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح .

يشترك الماء مع الذباب فى الأمراض التى ينقلها كل منهما وذلك لأن الماء قد يلوث بالمواد البرازية كما يلوث بها الذباب فالماء ينقل الحميات المعوية والدسنتاريا والكوليرا وقد ينقل الشلل الطفلى . وهذا هو ما دعا جميع الحكومات فى العالم المتمدين إلى العناية به أكبر عنايه فشركات المياه خاضعة لإشرافها إذ تقوم معاملها بفحص عينات المياه فحصاً كيماوياً و بكتريولوجيا فضلا عما تقوم به الشركة نفسها من الفحص المتواصل بواسطة من تستخدمه من الفنيين .

وأكبر عامل فى تلويث الماء هو حامل الميكروب وهو شخص

فى الغالب أصيب بالمرض ثم شفى منه دون أن يتخلص من ميكروبه بل بقى حاملا له . أصبح بينه وبين الميكروب معاهدة عدم اعتداء . فتوطدت الصداقة بينهما وأصبح لا يضر الحليف منهما حليفه .

وسنتكلم الآن بالاختصار عن بعض الأمراض المعدية التى تنتقل بالماء أو الذباب .

الحميات المعوية : تشمل هذه الحميـات التيفود والپراتيفود بأنواعه وعلاماتها الاكلينكية واحدة تكاد لا تختلف الواحدة منها عن الاخرى ، وإن كان التيفود فى العادة أشد وطأة من الپراتيفود إلا أن هناك حالات من النوع الأخير قد تفوق في شدتها التيفود. وهناك حالات تيفود خفيفة قدتكون أخف وطأة من الپراتيفود ولذلك فان الأطباء لم يتمكنوا من التفرقة بين هذه الأمراض إلا بعد أن اكتشفت الجراثيم المسببة لها وأصبح المعمل وحده هو القادر على تمييزها . ولو أن هذا فى الواقع من الوجهة العملية ليس بذى أهمية . فجميعها تتفق في علاجها وطرق الوقاية منها .

أول من رأى ميكروب التيفود عالم ألمانى يدعى جافكى وتلاه

عالم ألمانى آخر يدعى إبرت وصفه بالتفصيل وفصله من الجسم وحضَّر منه مزارع نقية وقدم البرهان القاطع على علاقته بالمرض

تحدث عدوى التيفود عادة من تلوث الماء أو الطعام . أما الماء فيلوثه فى الغالب حامل الميكروب . أما الطعام فيلوثه الذباب كما يلوثه حامل الميكروب : وسنقص على القارىء هنا قصة حامل التيفود .

يشفى المريض من التيفود ويتخلص من ميكروبه نهائيا فى بضعة أسابيع إلا أن نفراً قليلا قد يستمر حاملا لهذا الميكروب عدة سنوات أو مدى الحياة وفى هـذه الحالة يضيف الجرثومة غالباً فى كيس المرارة إذ يجد فيه الميكروب ملجأ مريحاً هادئاً يحميه من عاديات الجسم كما يجد فيه مادة الصفراء التى يألفها وعلى النقيض من معظم الميكروبات يستطيع أن ينمو ويتكاثر فيها . ويتألف أكثر حاملى الجراثيم من هذا النوع من الإناث ولعل ذلك يرجع إلى عيشة الخمول والكسل التى تعودن عليها مما يعرضهن لأمراض الكبد والمرارة . وكيس المرارة المريض أكثر عرضة لإيواء الميكروب من الكيس السليم والويل كل الويل لمن تقوم هؤلاء النساء بطهى طعامهم . هذا وقد يضيف الحامل الجرثومة أيضاً

فى حوض إحدى الكليتين أو كليهما كما أنه قد يضيفها أناس لم يمرضوا بالتيفود بل عُرِّضوا لعدواه فقط . ومثل هؤلاء الناس لا يضيفونه لمدة طويلة فكثيراً ما يتخلصون منه أو يصابون بالمرض إن ضعفت مقاومتهم أو أهملوا فى طعامهم ويحدث أحياناً أن يُطَعَّمَ مثل هذا الشخص بلقاح التيفود وتظهر عليه أعراض التيفود بعد التطعيم مباشرة ويذهب البعض إلى أن اللقاح هو الذى أصابه بالمرض . والواقع أن اللقاح أضعف مقاومته مؤقتاً فأعطى الفرصة لميكروب التيفود لكى يهاجم مضيفه الذى ارتبط معه قبل ذلك بمعاهدة عدم اعتداء وليس ميكروب التيفود أول من نقض مثل هذه المعاهدات .

ولكى نبرهن للقارئ على أهمية حاملى التيفود سنقدم له بعض الأمثلة الشهيرة عما سببه الحامل من مصائب لأخيه الإنسان:

قصة الآنسة مارى مالون : اشتغلت هذه الفتاة وهى لا تزال فى الثامنة عشرة من عمرها طاهية فى منزل لإحدى الأسر الأمريكية وحدثت فى هذا المنزل إصابتان بالتيفود لم يعرهما رجال الصحة أى اهتمام . ثم تركت هذه الأسرة إلى أسرة أخرى حيث حدثت بضع إصابات أخرى بالتيفود فلما تكرر تنقلها بين المنازل

شأن أمهر الطهاة في جميع أنحاء العالم تكررت معها إصابات التيفود وعندئذ تنبه إليها رجال الصحة ففحصوها واتضح لهم أنها حاملة لجرثومة التيفود فأخذوا عليها تعهداً كتابياً أن تطلق مهنة الطهى وأن تبحث عن عمل آخر . إلا أنه لم يمض على ذلك بضع سنوات حتى حنّت إلى مهنتها القديمة وعادت إليها تحت اسم مستعار وفى بلد آخر نزحت إليه . ومما زاد الطين بله أن وقع اختيارها هذه المرة على مستشفى عام كبير لتقوم فيه بالطهى لأكبر عدد من أناس ضعفت مقاومتهم.وقلت مناعتهم فأصيب منهم بالتيفود عدد كبير ، ويقال إنها كانت أيضاً سبباً فى وباء تيفود حمله ماء الشرب وعم بلدة بأجمعها وبذلك بلغ ضحاياها الآلاف فقبض عليها ولاة الأمور ثانياً ولعدم وجود قانون يحمى الجمهور من مثل هؤلاء الناس فقد منحوها منزلا محترماً فى جزيرة نائية تنزل فيه ضيفاً على الحكومة الأمريكية وأجروا عليها مرتباً سخياً ورجوها أن تعيش فى هذا المنزل عيشة رغدة مابقى لها من الحياة وأن تريح نفسها من طهى الطعام للناس وأن تريح الناس من طعامها الشهى ومن شرف التعرف بها وبجرثومتها . فعاشت فى هذا المنزل وحيدة سعيدة إلى أن وافتها المنية وقد جاوزت

الستين فتكون بذلك قد أضافت هذا الميكروب أكثر من أربعين سنة وأضافتها الحكومة الأمريكية أكثر من عشرين .

وباء كرويدون : حدث منذ بضع سنوات أن انتشر مرض التيفود فى كرويدون بالقرب من لندن . وانجلترا على العموم تتمتع بسمعة طيبة من جهة التيفود وغيره من الحميات المعوية فقلما تحدث فيها إصابات من هذا القبيل إذ الوسائل الصحية متوفرة فيها . ماء مرشح وطعام نظيف ومجار وفضلات تزال أولا بأول . فلا غرابة إذاً إن أفزع تيفود كرويدون رجال الصحة الذين أجروا بحثاً دقيقاً لمعرفة منبعه فاتضح لهم أنه وباء يحمله الماء . فلما بحثوا عن سبب تلوث الماء وجدوا أن المدينة تأخذ ماءها من بضعة آبار عميقة وهو منبع لا يدانيه فى نقاوته منبع آخر . إلا أنهم اكتشفوا أن عطباً أصاب أحد الآبار واستخدم المهندسون بعض العمال لإصلاحه دون إبطال البئر فلما فحص هؤلاء العمال وُجِد أن أحدهم يفرز الميكروب فى البول وقد اعترف بأنه تبول فعلا فى البئر بل وظهر بطرق عُرِفت حديثاً أن الجرثومة التى يحملها العامل هى نفس الجرثومة التى أصابت الأهالى وانتهى التحقيق

بفصل المهندسين الذين سمحوا باستعمال ماء هذا البئر أثناء قيام العمال بإصلاحه .

كثيراً ما حاول الأطباء علاج حامل التيفود أو الپراتيفود ولكن دون جدوى ويظهر أن الطريقة الوحيدة التى قد تفلح فى تخليصه من هذه الميكروبات هى استئصال كيس المرارة ولـكنه لا يوجد قانون يجبره على الرضوخ لمثل هذه العملية .

التطعيم ضد التيفود : أول من حضر اللقاح ضد التيفود هو طبيب بريطانى يدعى ريت (Wright). واستعمل هذا اللقاح على نطاق ضيق فى حرب البوير وعلى نطاق أوسع فى الحرب العظمى الأولى التى عُمِّم استعماله فيها فأتى بنتائج طيبة إذ لم يصب من الجنود بالتيفود إلا عدد قليل نسبياً رغم معيشتهم فى الخنادق والمعسكرات المؤقتة التى لا يمكن أن تتوفر فيها الوسائل الصحية .

كان اللقاح فى أول الأمر يُحضر من ميكروبات التيفود فقط ثم أصبح يُحضر منها ومن ميكروبات الپراتيفود بأنواعها ويُعطى حقناً تحت الجلد على دفعتين أو ثلاثة وقد يحدث تفاعلا شديداً محليًّا وعامًّا مما جعل كثيراً من الناس يرهبونه بل ويأمنونه ومما حمل بعضهم على تفضيل التطعيم بطريق الفم وهذا الطريق وإن

خلا من التفاعل إلا أنه أقل إكساباً للمناعة من الطريق الأول.

اجتمعت أدلة كثيرة على أن اللقاح يكسب الشخص مناعة قوية ضد الحميات المعوية ومن هذه الأدلة ما يأتى :

(١) فى أوائل الحرب العظمى الأولى حينما كان اللقاح يحتوى على ميكروبات التيفود فقط لوحظ أن الپراتيفود على غير المعتاد كان أكثر انتشاراً من التيفود (٢) بعد انتهاء الحرب لوحظ أن الحميات المعوية كانت بين النساء وبين الرجال فوق الأربعين أكثر انتشاراً منها بين الشبان وما ذلك إلا لأن الشبان جُنِّدوا وقد شمل التطعيم جميع الجنود تقريباً (٣) عُمِلت مقارنات عديدة بين المطعمين وغير المطعمين من المدنيين فوجد أن نسبة الإصابة والوفيات فى الفريق الأول أقل بكثير منها فى الفريق الثانى.

يحدث أحياناً أن يصاب الشخص بالمرض بعد التطعيم مباشرة وقد يُنْسب ذلك إلى التطعيم. وهى طبعاً فكرة خاطئة جعلت بعض الناس يحجمون عن التطعيم. فاللقاح مُحَضَّر من ميكروب ميت ولا يستطيع الميكروب الميت أن يحدث المرض وتفسر الإصابة بأحد أمرين : إما أن يكون الشخص قد عُرِّض

للعدوى قبل التطعيم وأصبح فى دور الحضانة وتصادف أن طعّم وهو فى هذا الدور (وقد يقصر اللقاح مدة الحضانة ولكن المرض كان لا بد آت بل وربما أفاد التطعيم فى تقصير مدته وتخفيف وطأته) . وإما أن يكون الشخص حاملا مؤقتاً لميكروب التيفود فأضعف اللقاح مقاومته وسمح لصديقه الميكروب أن يقلب المجن عليه . كل هذه العيوب إن كانت عيوباً لا تعادل قطرة فى فوائد التطعيم ولا يجب أن تكون سبباً فى الإحجام عنه اللهم إلا أن كان الشخص هزيلا ضعيفاً مصاباً بمرض فى القلب أو الكبد أو الكليتين .


اقرأ



المؤلفات التى ظهرت فى سنتها الرابعة (١٩٤٦)

٣٨ العلم والحياة بقلم الدكتور على مصطفى مشرفة باشا
٣٩ المدينة المسحورة « الأستاذ سيد قطب
٤٠ مهد العرب « الدكتور عبد الوهاب عزام بك
٤١ الفيتامينات للدكتورين م. ر. الطوبى وم. عبدالعزيز
٤٢ قصة عبقرى بقلم الأستاذ يوسف العش
٤٣ عنترة بن شداد « « محمد فريد أبو حديد بك
٤٤ قصة العدوى « الدكتور محمد عبد الحميد جوهر

يظهر فى أول أغسطس سنة ١٩٤٦
الكتاب رقم ٤٥ وعنوانه

مشاهدات فى الهند

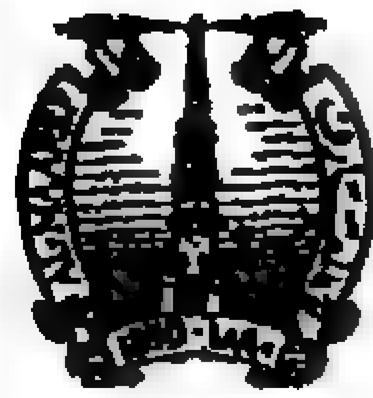
بقلم السيدة أمينة السعيد

تحقيق خاص قامت به الكاتبة أثناء زيارتها لبلاد الهند فى شهر ديسمبر من سنة ١٩٤٥ تقدمه لقراء هذه السلسلة فيجدون فيه مرآة صادقة عن حالة الهند ومشاكلها فى الوقت الذى أصبحت فيه هذه البلاد على أبواب انقلابات واسعة .

إن أردت مطالعة بعض القصص الراقية
فاختر ما يناسبك من المجموعة الآتية :

ص		
١٨	الحب الضائع	للدكتور طه حسين بك
٢٠	دعاء الكروان	« « « «
٢٥	شجرة البؤس	« « « «
٢٠	الموجة العذراء	للأستاذ أحمد الصاوى محمد
٢٠	حياة قلب	« « « «
٢٠	شباب الفولجا	« « « «
٥٠	رجال ونساء (جزءان)	« « « «
٢٥	الشيطان لعبته المرأة	« « « «
٢٥	إبرهيم الثانى	للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى
٢٠	بنت الشيطان	للأستاذ محمود تيمور بك
٢٠	ألوان من الحب	للأستاذ عبد الرحمن صدقى
٢٥	الخطايا السبع	للأستاذ على أدهم
٢٠	قصص روسية	للأستاذ محمد السباعى
١٨	رجلان وامرأة	للأستاذ محمد على غريب
٢٥	عودة الروح (أول)	للأستاذ توفيق الحكيم
٢٠	وحى النزلة	للسيدة أمينة السعيد

أو أى كتاب آخر تنتقيه من
قائمة مطبوعات دار المعارف بمصر



دار المعارف

للطباعة والنشر

المحل الرئيسي بالقاهرة	:	٧٠ شارع الفجالة
فرع الإسكندرية	:	٢ ميدان محمد علي
مكتب فلسطين وشرق الأردن	:	شارع مأمن الله بالقدس
مكتب السودان	:	شارع السردار بالخرطوم

ولها متعهدون ببيروت ودمشق وبغداد

اقرأ

امينة السعيد

مشاهدات فى الهند

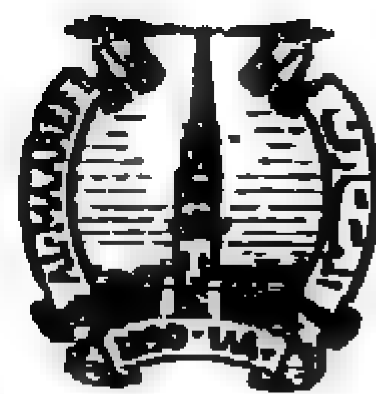
مشاهدات في الهند

أمينة السعيد

مشاهدات في الهند

اقرأ
٤٥
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٤٥ — أغسطس ١٩٤٦





١

كان الهدوء شاملا ، والليل بارداً ، وهواء الشتاء القارس ينفح الوجوه ؛ والقاهرة بنت المرح والنور تنام فى ظلام دامس لا يخفف من رهبته غير التماع بعض النجوم الساهرة ، وهى تطل بين آونة وأخرى ، فتلقى علينا من السماء الملبدة بالغيوم بسمة متألقة. وتسللت بنا سيارة المطار فى تهادٍ و بطء ، كأنها تشفق أن يزعج صوت عجلاتها الضخمة هذا السحر المصرى العجيب !

جلسنا جميعاً صامتين ، وقد تدثر كل منا بمختلف الأغطية والمعاطف استعداداً لدرء البرد فى طبقات الجو العليا ، التى سنشقها بالطائرة فى رحلة طويلة إلى الهند .

ولم يكن بيننا تعارف قديم ، لتبادل التحيات والحديث ، فأطبقت الشفاه ، وأطرقت الرءوس ، وغرقت العيون فى لجة عميقة من التفكير ؛ فربط الماضى بيننا جميعاً و إن اختلفت تعبيرات الوجوه باختلاف الماضى الذى تجول فيه .

وثقل هذا الصمت على ضابط انجليزى شاب، فانبرى للحديث عسى أن يحطمه ، ولم يكن الحديث مرغوباً فى هذه اللحظة ، فلم يجد بيننا مشجعاً أو مجيباً ، فانخفض صوته تدريجاً ، وماتت الكلمات على شفتيه ، وأطبق السكون مرة أخرى ، ولم نعد نسمع غير حفيف عجلات السيارة ، وهى تتقدم بنا حثيثاً نحو المطار .

وتفرقنا فى مقصف المطار ، وانتحيت جانباً أرتشف فيه قدحا من القهوة ، وأتأمل منه جماعة المسافرين . لم أجد بينهم غير امرأة واحدة تصحب طفلة جميلة لا تزيد سنها على خمس سنوات؛ ورأيت فى وجه هذه المرأة مزيجاً من التفاؤل والوجوم ، فهى تارة باسمة تنظر إلى ساعتها ، كأنها تستحث الوقت على الإسراع ، وتارة أخرى جامدة العينين ، بعيدة النظرات، تحاول أن تخترق حجب مستقبل لا تطمئن إليه . وقد علمت فيما بعد أنها فرنسية فرقت الحرب بينها و بين زوجها فانتظم فى سلك الجندية ، وسافر عبر البحار، وظلت هى باقية فى أرض وطنها تقاسى آلام الاحتلال والجوع والحرمان . ولما وضعت الحرب أوزارها عُين زوجها فى القنصلية الفرنسية بالصين، وأرسل يستدعيها فلبت دعوته وجاءت إلى مصر لتطير منها إلى الهند وتعبر جبال الهملايا فتستقر فى الصين.

وكانت كما توقعت نهباً لشعورين متعارضين : القلق من حياة تقبل عليها ولا تعرف من أمرها شيئاً ، والسرور لقرب اللقاء بعد أن فارقها شريك حياتها كل هذه السنين .

وعلى خطوات جلس ضابط بريطانى شاب ، لم أر فيه أثر المرح المعهود فى إخوانه ممن راضتهم الحرب على تقبل الترحال باسمين ؛ بل كانت هناك ابتسامة ، ولكنها ارتسمت على ركن واحد من فمه ، وتقلص الركن الآخر ، ولاحت عليه تباشير زمجرة يزيدها تألق عينيه البراقتين سخرية وقسوة ، فالعالم أجمع لا قيمة له فى نظر مثل هذا الرجل ، وصور الحياة مهما تعددت ألوانها لا تستطيع أن تحرك روحه الجامدة ، وتثير فى نفسه ثقة أو تفاؤلا . وسمعته يقول لأحد زملائه :

— وأى فائدة من البقاء فى الوطن ؟ ! لقد سُرِّحت عند ما وضعت الحرب أوزارها ، فوجدت العالم فى عهد السلم أشد تطاحناً منه فى ميادين الوغى . واشتممت رائحة جولة ثانية لابد أن يثار عجاجها قريباً بين الظافرين ، فأشفقت نفسى من كفاح اجتماعى كتب له أن ينقطع فى بدايته ، لذلك تطوعت ثانية فى جيش الهند ، وسأبقى به حتى يدوى نفير القتال من جديد ! !

هكذا أقدمنا جميعاً على سفر واحد وإن اختلفت إحساساتنا ، وتنوعت دوافعنا ، وتباينت أهدافنا : فهذه الفرنسية فى طريقها إلى الصين تقصد زوجها الذى بعدت عنه سنوات طوالا ، وهذا الضابط يرحل إلى الهند مدفوعاً بالتشاؤم وفقدان الثقة بالحكمة البشرية ؛ وللباقين مآربهم الأخرى، فليس من المعقول أن ينتقل إنسان من قارة إلى قارة وقد خلف وراءه الوطن والأهل والأحباب دون حافز قوى يضطره إلى ذلك .

ولكن أ كان حافزى قويا أيضاً ؟ ! بالأمس بدا الأمر ضروريا حتى أننى قبلت السفر بعد أربع وعشرين ساعة ، وارتضيت الرحيل إلى أقصى نواحى المعمورة ، ولكن رأيى تغير هذا الصباح وأنا أجلس فى مقصف المطار أنتظر ساعة الرحيل و بدا الأمر تافهاً لا يستحق المخاطرة ، فأنحيت على نفسى باللائمة أن قبلت السفر وحيدة إلى بلد بعيد تفصلنا عنه آلاف الأميال ، ولا أعرف عن حياته وشئون شعبه شيئاً . ترى ماذا يكون لو سقطت الطائرة وتحطمت فحرمت وأولادى رؤية بعضنا بعضاً ؟ سيقول الكل : إنها طائشة جريئة تترك أطفالها من أجل مؤتمر نسائى هندى ، فاستحقت عقاب الجرأة والطيش !

وارتفعت يدى دون أن أشعر إلى المصحف الصغير الذى كنت أعلقه حول عنقى ، فما كادت أصابعى تلمس غطاءه الفضى حتى عاودتنى الطمأنينة وشملنى هدوء عظيم ، وحسنت نظرتى إلى ما أقدمت عليه ، فعدت متفائلة كما كنت فى اليوم السابق ، وتضاءلت الصعوبات أمامى ، فغدت الرحلة سهلة يسيرة : ألا يسافر الناس كل يوم بالطائرة إلى أقطار أبعد من الهند فيصلوا سالمين ، ويعودوا إلى ذويهم آمنين ؟ !

ولماذا أخشى الرحيل وحدى ؟ حقيقة أننى لا أعرف الهند ولم أسافر إليها من قبل ، ولكننى اعتدت فى الأعوام الأخيرة أن أرحل وحيدة إلى بلاد لا أعرفها وليس لى فيها أصدقاء ينتظرون فما شعرت يوماً بالوحدة ، وما استهدفت أبداً للخطر ، فلتكن تلك الرحلات السابقة مقياساً لهذه ، ولما ينتظرنى فى الهند من راحة وسعادة .

ولم يكن المنطق سليما فى هذا التفكير ، وإنما كنت أطمئن نفسى ؛ فقد اقتصرت رحلاتى السابقة على بلاد عربية ، وبلاد العرب ترتبط جميعاً بروابط قوية من الصداقة والتفاهم واللغة والتفكير ؛ وإذا انتقل مصرى إلى سوريا مثلاً فهو فى وطنه ،

و بين أهله وعشيرته و إن اختلفت المناظر، وتغيرت الأجواء ؛ لأن العربى عربى مهما تنوعت البيئة التى يعيش فيها ، والعروبة صلة جامعة تأكل المسافات ، وتوحد الأوطان .

وعادت بى الذاكرة إلى أربع سنوات مضت عند ما جلست فى منزلى ذات مساء أنتظر قدوم جماعة من الضباط الهنود كنت قد دعوتهم تلبية لرغبتهم الصادقة فى التعرف ببعض الأسر المصرية و إنشاء أواصر الصداقة معها .

ولم أكن أعرف إذ ذاك عن الهند قليلاً ولا كثيراً ، اللهم إلا ما ترسمه المخيلة من صور غريبة يزينها زخرف المبالغة : فهى بلاد كبيرة بعيدة تضم بين جنباتها الواسعة شعباً يركب الأفيال، ويتمرغ فى الذهب ، ويسكن قصوراً شامخة رصعت جدرانها بالجواهر والأحجار الكريمة . ويتزعم هذا الشعب المترف الغنى فيلسوف زاهد ، لا يرتدى من الثياب إلا قليلها ، و يقتات بلبن ماعزة لا تفارقه . ولقد استطاع هذا الناسك المتبتل أن يملك زمام مواطنيه ، ويوجههم نحو التحرر بطريقة سلمية عجيبة استعصى فهمها علينا معشر العرب .

ولم يكن لى عذر مقبول فى هذا الخيال المبالغ فيه، فقد تعلمت

أثناء الدراسة شيئاً من الجغرافيا ، وحفظت الكثير عن الهند وأشجارها وأنهارها وحياة سكانها . وكان جديراً بي أن أعرف شيئاً عن تلك البلاد ، فأخذت فى ذلك المساء أبذل مجهوداً جباراً فى تقليب طيات الذاكرة واستخراج بعض معلوماتها ، فكان جهداً ضائعاً انتهى بالفشل .

وجاء الأضياف فارتحنا إليهم وغدوا على مر الأيام أصدقاء حميمين ، لا تحلو لنا نزهة أو جلسة فى غير وجودهم ، وأعجبنا كثيراً بخلقهم الحميد ، ونبلهم العظيم ، وكرامتهم الشامخة ، فأحببنا بلادهم فى أشخاصهم ، وتمنينا زيارتها من أجلهم . وبفضلهم زالت صور الماضى وخزعبلاته ، وتعلمنا حقائق كثيرة مثل « باكستان » وأهدافها ، والخلافات الطائفية التى تنطوى عليها تلك الأهداف .

وبدت لنا الخلافات الطائفية تافهة القيمة ، وإلا فكيف رضوا أن يجتمعوا مسلمين ونصارى وهندوس وپارسى وسيخ حول مائدتنا كل ليلة تقريباً ، فنتناول الطعام معاً ، ونقضى ساعات طويلة فى سمر دون أن تبدو لنا من أحدهم بادرة تدل على نفور أو خلاف ؟!

وكانت هذه الظاهرة أبداً موضع اختلاف بيننا و بينهم، فنحن نراهم أخوة يعيشون معاً ، و يتنزهون معاً ، ويأكلون معاً، فإن استطاعوا أن يفعلوا ذلك فى مصر فلم لا يفعلونه فى الهند ، إلا إذا كانت هناك أصبع محركة ؟! وكانوا يبتسمون لهذا الرأى و يقولون : إنهم مثل الطبقة المتعلمة ، ولا يصح أن تقاس الهند بأفراد هذه الطبقة لندرتهم ، فضلا عن أن الخلاف متأصل متشعب من الصعب أن يتصوره الغريب من بعد . ولم نصل أبداً إلى اتفاق فى هذا الموضوع .

يبدو أن صور الماضى تعددت أمامى ، وأنا جالسة فى مقصف المطار ، فشغلت بها عن المذياع الذى يردد اسمى ، و يدعونى أن ألحق بالطائرة . وكدت أتخلف عن السفر لولا ذكاء أحد المسافرين ، فقد سمع المذياع يكرر اسماً شرقياً ، فتلفت فى المكان فلم يجد وجهاً شرقياً غير وجهى ، فتقدم منى مسرعاً ، ونبهنى ، و بفضله استطعت أن ألحق بالطائرة قبل أن تقلع بدقائق معدودات !

وحلقت بنا سفينة الهواء ، وارتفعت فوق الغمام ، وراحت تشق طريقها فى الظلام ، والكل على سابق حاله : صامت

مكتئب ، يستعرض الماضى ، و يتكهن بالمستقبل ، حتى تنفس الفجر ، وتدافعت جيوش النهار زاحفة وراء طبقات الظلام الهاربة ، واصطبغ الأفق بدماء الشمس الأرجوانية ، فدبت الحركة بيننا ، وارتفعت الرءوس المطرقة ، وأشرقت الوجوه الواجمة ، وغاب الماضى بذكرياته ، ولم يعد أمامنا غير مستقبل كله أمل وابتسام . وكان انقلاباً عجيباً و إن كان طبيعاً ، فالليل مبعث التأمل والتفكير ، وفى ظلامه الدامس تكتئب النفوس ، و يشيع التشاؤم ، فما أحلى النور ، وما أجمل النهار !

دبت الحياة فى الطائرة ، ورفرفت أجنحة الإلفة فى جوها ، فلم نعد غرباء لا نتبادل تحية أو حديثاً ، بل أحسسنا أننا أسرة واحدة تضمها جنبات سفينة الهواء ، فتربطها بمصير واحد . والتفت كل إلى صاحبه يعنى بأمره ، و يسامره ، و يقص عليه نوادر حياته ومخاطراتها . وجلس إلى جوارى ضابط كهل ، قضى فى الهند زهرة شبابه ، فلما علم أننى ذاهبة إلى تلك البلاد أنبنى فى رفق ، وحذرنى أموراً كثيرة ، وكان قاسياً فى نقده للهنود ، فعاودنى التشاؤم ، وانقبض صدرى بعد انشراح ، ولكننى عدت

فتذكرت أنه سكسونى ، وللسكسون فى الشرق رأى لا نتفق معهم فيه !

وانقضى يومان فى رحلة ممتعة ، هبطنا خلالها فى مختلف بلدان الشرق ، فنزلنا أولاً بفلسطين ذات الجبال العربية العتيدة ، وهبطنا بعدها العراق أبا دجلة والفرات ومهد الثقافات الإسلامية القديمة . وشاهدت فى البصرة منظراً فريداً : آلاف الأفدنة المتصلة الممتدة ، زرعت جميعها نخيلاً ، فبدت مثل غابة شاسعة تنوء بأعباء ثقال من تمر عالمى طبقت شهرته ولذته الآفاق . وحلقنا فوق إمارة البحرين ودرنا بها مرات قبل الهبوط فرأيت جزراً ثلاثاً هى كل أرض ذلك الأقليم . تُرى أى مستقبل ينتظر هذه الدويلات الصغيرة ، وأى أمل لنا فى التقدم والارتقاء ، و بلادنا مقسمة على هذا الحال إلى فتات ينتثر هنا وهناك ؟؟! لقد علمتنا الحروب المتتابعة أن الشعوب الصغيرة لا يمكن أن تقف أمام طغيان المدنيات الحديثة ، وأن القوة فى العدة والتعداد . وخليق بنا أن نتعظ بما تعلمناه ، فنجمع شمل هذا الفتات المنثور ، حتى نصبح جبهة قوية ثابتة ، لا شعوباً هزيلة تعداد السكان فى بعضها ربع مليون !!!

كانت الرحلة ممتعة دون شك ، ولكنها طويلة شاقة ، فحل بى التعب والإجهاد ، ورغبت عن تتبع المناظر الرائعة التى نمر عليها ، ولم أعد أنشد غير الراحة والسكون ؛ فلما نزلنا بإيران وبأقصى شبه جزيرة العرب ، تمنيت من صميم قلبى أن أنسى فى ركن من الأركان ، فتقلع الطائرة من غيرى ، لأصيب قسطاً من الراحة المنشودة ؛ ولكن الرقابة الحازمة حالت دون تحقيق أمنيتى !

وآذنت الرحلة أخيراً بالانتهاء ، وتهادت الطائرة بعد سفر دام يومين ، ثم هبطنا عند منتصف الليل على مطار « كراتشى » ، وهى أول بلاد الهند فى طريقنا . واستقبلتنا وجوه هندية سمراء ، تضىء بالذكاء والكبرياء ، فانتحى الضابط السكسونى بى جانباً ، وقال :

— لا تنتظرى مساعدة من هؤلاء ، فأنت مسلمة ، وهم هندوس ، والأفضل أن تعدى نفسك للمضايقات !

وزعجت لقوله بعض الزعج ، ثم فكرت قليلا ، فوجدت أنه لم يكن هناك فى الواقع ما يدعو إلى الانزعاج ، فأى مساعدة أحتاج إليها من هؤلاء ، وقد أعددت عدتى لكل شىء ، فجواز

السفر كامل قانونى ، وحقيبتى خالية من الممنوعات ، ووجهتى معروفة ، ومكانى فى الفندق محجوز ؟ !

ومع ذلك ثار غضبي ، وتحفزت لأبادىء بالعدوان ، وشمرت عن ساعد المشاكسة ، لأقابل به المضايقات !

وتقدم متى هندوسى جامد الوجه ، صلب التقاطيع ، لا يظن من يراه أن الابتسام يعرف طريقاً إلى شفتيه ، فقلت فى نفسى : هنا ستكون معركتى الأولى ! وتأهبت للصراع ، وقدمت إليه جواز السفر ، وقلت متحدية :

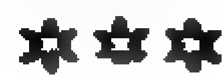
— مسلمة مصرية ، وجهتها الهند ، لحضور مؤتمر حيدر أباد !

وتأمل الهندوسى وجهى قليلا ، وانثنى إلى الجواز يقرأه بتدقيق ، فلما تحقق من صحته ، تلا ذلك أمر عجيب لم أكن أتوقعه ، فقد أشرقت على فمه ابتسامة جميلة ، غيرت معالم وجهه الجامد ، وامتلأت عيناه بآيات الرضا والعطف ، وتدفقت منه على كلمات التحية والترحيب ، فكانت مفاجأة شديدة شعرت معها بالأرض تميد تحت قدمى !

ووجدتنى أجلس فى مقعد مريح ومن حولى شباب الهندوس والمسلمين يتسارعون إلى خدمتى ، وجاءت القهوة ، وتلاها

الشاى ، ثم بدأت معركة بين هؤلاء الشبان على من يدفع عنى ثمن المشروبات .

وشاء كرم موظفى المطار أن يسهلوا علىّ زيارتى الأولى لبلاد الهند ، فاتصلوا تليفونياً بالدوائر النسائية الكبيرة ، وأنبأوا سيدات المؤتمر بقدومى، وأعطوهن اسم الفندق وعنوانه، مما ساعدنى كثيراً على القيام بمهمتى دون مضيعة للوقت .



ومن العدل أن أقول : إن الشعور الطيب الذى غمرنى به موظفو المطار ، ما هو فى الواقع إلا ظاهرة لما جبل عليه الهنود جميعاً من عطف وكرم على إخوانهم الشرقيين ، وبخاصة أبناء العروبة . والعجيب أنهم يعرفون عنا أكثر مما نعرف عنهم ، ويتتبعون أحداثنا السياسية والاجتماعية باهتمام وشوق عظيمين ، ويحملون لنا من التقدير والاحترام شيئاً كثيراً . وللمصرى هناك مكانة ممتازة ، لأنه دعامة الشرق كما يقولون ، ولذلك فهو يقابل بالتجلة والتكريم أينما حلّ أو ذهب ، مما يبعد عنه الوحشة ، ويملؤه بإيمان عجيب بأنه يعيش بين أهله وعشيرته ، على الرغم من اختلاف اللغة ، وتباين العادات والتقاليد .

ولا يقتصر الكرم المتدى على طائفة دون أخرى ، فقد نزلت ضيفة على الهندوس كما نزلت على المسلمين ، فلقيت من كلا الفريقين تقديراً واهتماماً واحتراماً .

***

جلست فى ركن من أركان مطار كراتشى تعبة مجهدة ، بعد رحلة طويلة شاقة ، ومفاجآت عنيفة لم أكن أتوقعها ، ودار رأسى تحت وطأة الصداع ، فأسندته إلى راحتى ، ولم تمض لحظات معدودات حتى تثاقلت جفونى ، ونعست فلم أعد أحس بما يدور حولى !

عند ما فتحت عينى مرة ثانية ، كان السكون مطبقاً ، والظلام شاملاً ، وموظفو المطار قد تركوه وانصرفوا إلى بيوتهم ؛ ولم أر على مرمى النظر مخلوقاً بشرياً غيرى ؛ وهكذا استجيبت دعوتى أخيراً ، فنسيت فى مكان لم أكن أحب أو أرغب مطلقاً فى البقاء فيه !

ويقع مطار كراتشى فى صحراء السند القاحلة على بعد عشرة أميال من المدينة ، وسبيل الاتصال بين الاثنين سيارات خاصة كبيرة كانت قد انصرفت فى ذلك الوقت بالمسافرين .

ولا أظن أن قلبي ارتجف فى يوم من الأيام مثلما ارتجف فى تلك اللحظة التى كنت فيها وحيدة داخل مطار مظلم مهجور ، وسط صحراء قاحلة ، على بعد أميال من أول مدينة فى بلاد لا أعرفها !

وبحثت عن حقيبتى ، فلم أجد لها أثراً ، فتضاعف خوفى ويأسى ، وقمت أتفقد أرجاء المكان علنى أجد من ينقذنى من ورطتى ، واهتديت أخيراً إلى نور بعيد ، قصدته مسرعة ، فوجدت ضابط الحراسة الإنجليزى ، وقصصت عليه ما حدث ، فابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— من دواعى سرورى أن أقدم خدماتى دائماً للسيدات ، فهلمى إلى سيارتى ، وسأنقلك بها إلى المدينة .

ولم أطمئن كثيراً لهذا القول ، فاختراق الصحراء بعد منتصف الليل مع ضابط يسره دائماً أن يقدم خدماته للسيدات ، أمر لا يبعث على الاطمئنان ! ومع ذلك قبلت دعوته ، حتى أتمكن من الوصول إلى العمران ، والبحث عن حقيبتى التى أودعت فيها جميع ملابسى ونقودى .

وجلسنا فى السيارة صامتين ، وراحت عجلاتها تقطع بنا

صحراء جرداء ، مليئة بشيء ظننته فى الظلام مستنقعات ، لابيضاض لونه ، وقسوة الروائح الكريهة التى تفوح منه . واضطربت أمعائى ، وخشيت أن تكون بلاد الهند كلها على هذا الحال ، فيتعذر علىّ البقاء ، وحضور مؤتمر حيدر أباد السند الذى احتملت المشقة من أجله .

وأعترف أننى لم أكشف للآن عن حقيقة هذه المنطقة ، ولا سبب الروائح الكريهة التى تنبعث منها ؛ فعند خاتمة رحلتى عدت إلى المطار فى الظلام أيضاً ، فلم أتبين فى الذهاب أو الإياب طبيعة ذلك الجزء من صحراء السند .

وانقضت نصف ساعة تقريباً ، لم نتبادل خلالها كلمة واحدة ، ثم رأيت أمامى أنوار مدينة كراتشى المتألقة ، فبعث النور اطمئناناً فى قلبى ، وعاودنى المرح ، وزايلنى الخوف والقلق . وبعد دقائق كنا أمام الفندق ، حيث وقف مندوب شركة الطيران الذى رافقنا ذاهلاً بجوار حقيبتى ، يسائل نفسه : أين اختفت المصرية التى كانت مع جماعة المسافرين فى المطار !

***

٢

عند ما انبلج نور الصباح ، وقفت فى شرفة الفندق أتأمل مدينة كراتشى وهى تنتشر حولى أميالاً وأميالاً ، فأخذت لجمالها الحزين ، ونظافتها التامة ، وأناقة مبانيها الممتدة حتى حافة الصحراء التى تحتضن المدينة من ثلاث جهات .

ولا أظن أننى رأيت مكاناً يرفرف عليه روح حزين مثل هذه البلدة ، بل مثل الهند كلها ، فالحزن طابع الهند الأول ، تراه مرتسما على كل وجه وكل بنيان وكل طريق ؛ وهى ظاهرة عجيبة تسترعى أنظار الغريب ، ولا سيما إذا كان مثلى ينتمى إلى شعب مرح يبسم دائماً حتى للآلام والنكبات !

قد يكون حزن الهند المخيم وليد قرون متعاقبة من الآلام ، وقد يكون طبيعة فى الخلق الهندى ؛ ولكنه موجود على كل حال ، وجذوره متأصلة فى المجتمع ، وفروعه مختلطة بمواطن الجمال ، حتى ليصعب الفصل أو التمييز بينهما .

وكراتشي مدينة حديثة لم يمض على إنشائها غير بضع عشرات من السنين ، وهى لذلك تعتبر أنظف مدن الهند ، وأكثرها نظاماً : فطرقاتها طويلة معبدة ، تقوم على جانبيها مبان صغيرة قليلة الارتفاع ، لا تزيد على طبقة أو طبقتين . ويقع حى المساكن فى ناحية من المدينة ، وقد شيدت فيه منازل بيضاء أنيقة ، تحيط بها حدائق واسعة ، ولكنها منازل منخفضة ، طابعها البساطة فى البناء والتأثيث ، لأن الحكومة تملك الكثير منها ، وتخصصه لرجال الجيش والموظفين .

ويتوج هذا الحى قصر منيف لأسرة هارون الشهيرة ، ولقد بنى هذا القصر على الطراز الهندى ، فهو عظيم الاتساع ، كثير الغرف ، ذو أجنحة مختلفة ، ليعيش فيها الأبناء بعد الزواج كما هى العادة المتبعة هناك . وتحيط به من جميع الجهات شرفات كبيرة أقيمت على أعمدة بيضاء شاهقة . وأرض القصر وجدرانه وسقفه من المرمر الرائع الذى يبعث الرطوبة خلال شهور الصيف القائظة . والأرض المرمرية تغطيها أثمن السجاجيد العجمية ، والأرائك والمقاعد المنخفضة مكسوة بالدمقس المطرز بالفضة والذهب ، والموائد مليئة بالتحف النادرة . وبالقصر قاعتان

للطعام كاملتا العدة والاستعداد : إحداهما للولائم وهى تسع مائة شخص ، والثانية للاستعمال اليومى وتسع ثلاثين .

والناحية الأخرى من المدينة تحوى حياً تجارياً عظيما يقصده الغرباء عقب نزولهم بأرض الهند ، للتفرج على ما يحويه من نفائس . وعلى جوانب طرقات الحى تقوم الحوانيت الشرقية ، المليئة بالجواهر والحرير المطرز باللؤلؤ والفضة والذهب ، حتى ليبلغ ثمن قطعة النسيج منها ثروة كاملة فى بعض الأحيان . ولقد صنعت هذا الحرير أيد هندية ، لتتخذ منه ملابس السيدات المترفات ، وهى الملابس المعروفة باسم « الصارى » . والصارى عبارة عن قطعة من الحرير المطرز ، يبلغ طولها ستة أمتار ، وتلف حول الجسم بطريقة خاصة ، ومع ذلك فهى أسيرة « الموضة » ، تتغير أشكالها بتغير مزاج السيدات ، مما يستلزم إخراج تحف جديدة منها كل يوم .

والعجيب أن المنسوجات الغالية المطرزة بالفضة والذهب ، موفورة فى الهند يستطيع الإنسان أن يجدها في كل مكان ، على حين يقاسى الشعب أزمة خطيرة فى كساء الطبقات الوسطى والفقيرة . والأنسجة التى تستعملها هاتان الطبقتان تكاد تفقد

فى الأسواق ، بل لا توجد فعلا فى أسواق الريف ، مما أدى إلى انتحار بعض النساء ، لعجزهن عن شراء ما يستر أجسادهن ، وتقارير الشرطة تحوى كثيراً من هذه الحوادث المؤسفة .

وحوانيت كراتشى متنوعة البضائع ، بعضها يبيع الفضة فقط ، ويحوى شيئاً كثيراً من الأوانى ، وأدوات الزينة الفضية التى ينقصها بوجه عام الدقة فى الصناعة ، وإن بلغ قليلها حد الكمال . أما العاج فموفور هناك ، لكثرة الفيلة فى الغابات ؛ وصناعته مربحة ، لأن الأجانب يقبلون على شراء التماثيل العاجية ليقدموها هدايا عند العودة إلى أوطانهم .

وتمتاز بضائع كراتشى بأثمانها المعتدلة . لبعدها عن العاصمة الهندية ، حيث يعيش كبار موظفى الحكومة ، ويتقاضون مرتبات ضخمة يرتفع معها مستوى المعيشة ، فتتضخم أسعار الحاجيات. ولقد رأيت بضائع فى كراتشى ، ثم شاهدت مثيلها بعد ذلك فى دلهى ، فوجدت أن الثمن فى العاصمة قد قفز إلى أربعة أمثال !

ولا شك أن شاطىء « كليفتون » هو أجمل ما رأيت فى تلك المدينة ، فقد بنى على طراز شاطىء انجليزى معروف بهذا الاسم أيضاً . وتقود إليه درجات مرمرية عريضة ، تتخللها

ممرات طويلة ، ظللت بالأقواس المقامة على أعمدة جانبية ؛ فإذا انتهت الدرجات والممرات رأينا رمالاً متسعة تنتهى بالبحر . وفى ركن من الشاطىء الرملى يقوم معبد هندوسى أثرى ، لم تشأ الحكومة أن تهدمه ، خشية غضب الرأى العام ، فبقى فى مكانه مأوي للحمام الذى يعيش فى سقفه ، ويستظل بنوافذه ، ويحلق فوقه أفواجا كبيرة ، ثم يهبط عليه ، فيكاد يخفيه تحت أجنحته البيضاء الجميلة . ولقد أضفى المعبد الهندوسى جمالا عجيباً على الشاطىء الأوربى ، فخرجت من الإثنين صورة تذكرنا بمجد الهند القديم ، وأثر الصدمة الغربية فيه .

ويقبل الناس على زيارة الشاطىء طوال العام ، ويجدون فيه متعة خلال الصيف والشتاء ، لأن البحر رفيق بكراتشى ، يغمرها بنسيم عليل عند ما يشتد القيظ فى البلاد ، ويبعث إليها بهواء دافىء يحد من قسوة شتائها الصحراوى .

وعلى رمال « كلفتون » يجلس عشرات من بائعى الأصداف يقصدونه كل يوم مبكرين ، وينصرفون عنه وقت غروب الشمس . وهؤلاء الباعة مثل صادق للصبر الهندى العجيب ، فهم يأتون كل صباح إلى الشاطىء ، ويبسطون على رماله قطعة

كبيرة من النسيج الأبيض ، يغطونها بآلاف الأصداف بعد صفها فى أشكال هندسية دقيقة . ويأخذ الصف منهم معظم ساعات النهار ، فإذا انتهوا تكون الشمس على وشك الغروب ، فيجمعون ما بذلوا الجهد فى تنظيمه ، ويودعونه حقائبهم الخشنة ، وينصرفون به إلى بيوتهم ، ليعودوا فى الصباح التالى ، ويبدأوا العمل من جديد !

وبكراتشى ثلاثة فنادق كبيرة ، يقع كل منها فى حى هام من أحياء المدينة ، وجميعها مبنية على الطراز الهندى ؛ أى مكونة من طبقة أو طبقتين على الأكثر ، أرضها وجدرانها من البلاط ، وغرفها بسيطة متواضعة ، وتحيط بتلك الغرف شرفات خشبية واسعة ، تقوم على أعمدة تتخللها الأقواس . ونوافذ الفنادق وأبوابها مغطاة بستائر من «الحصر» يمكن رفعها أو إنزالها وقت الحاجة ، وهى تقوم مقام « الضلف » الخشبية فى بلادنا ، وتوجد الستائر «الحصر » فى كل مبنى هندى ، فلما سألت عن السبب قيل لى : إنها مجدولة من نبات خاص يعتبر مكيفاً للهواء ، وعند ما تشتد الحرارة فى الصيف ، ويصبح جو الهند خانقاً ، ترش هذه الستائر بالماء ، وتسلط عليها المراوح الكهربائية ،

فتخف وطأة الحرارة ، ويدور فى البيت تيار هوائى لطيف ، يجعل الحياة محتملة بين الجدران .

وخدم الفنادق عادة من الهندوس ، لأن هذه الطائفة تمثل سواد الشعب . وتقاليدها الدينية تحرم عليها تقبل الطعام والشراب من يد لا يعتنق صاحبها هذا الدين ، أما الطوائف الأخرى كالمسلمين والمسيحيين والسيخ والبارسى ، فلا يدينون بمذهب التفرقة ؛ ولا مانع لديهم من أن يخدمهم أى كان . وللسبب ذاته أيضاً نجد أن الهندوس لا يقبلون من الخدم فى منازلهم إلا من كان هندوسياً مثلهم ، أما خدم المسلمين فخليط من جميع الأديان .

وأعتقد — إن كان لى أن أحكم بما رأيته — أن فنادق الدرجة الأولى فى بلاد الهند لا يمكن أن تصل إلى مستوى مثيلاتها فى مصر ، من حيث الأناقة والاستعداد والخدمة وجمال الرياش . وليس معنى هذا أن الفنادق الهندية قذرة مثلا ، كلا . فهى على العكس من ذلك نظيفة ومنظمة ؛ ولكن الملحقات كالحمامات والأدوات الصحية فيها ليست على ما ينبغى أن تكون . وقد يرجع تفوقنا فى هذه الناحية إلى وقوع مصر فى

ملتقى الطريق بين الغرب والشرق ، وقربها الشديد من أوروبا ، وإقبال السائحين عليها أفواجاً من أنحاء العالم ، مما يقتضى توفير سبل الراحة والرفاهية لهم . ولا شك أن ازدحام المدن الهندية خلال سنوات الحرب ، وازدياد الإقبال على الفنادق ، وتعذر بناء الجديد منها ، قد خفّض مستوى هـذه الأماكن العامة عما كانت عليه وقت السلم .

ومن الزيارات التى أثلجت صدرى بكراتشى ، وملأت نفسى بالرضا ، تلك التى قمت بها إلى مدرسة أهلية تابعة لحزب المؤتمر : فقد تبين الساسة والمصلحون أن عاهة الهند الأولى جهل أبنائها ، لذلك وقفوا جهداً طيباً ، ومالا وفيراً على محاربة الأمية ونشر الثقافة المناسبة ، ففتحوا مدارس عدة ، لتلقين أبناء الفقراء مبادىء العلوم والصناعات . وكانت مدرسة كراتشى إحدى هذه المدارس ، وهى بناء ضخم واسع : به غرف دراسية كثيرة ومعامل للكيمياء والتاريخ الطبيعى ، وقاعات واسعة مجهزة بالآلات والمغازل والمناسج ، يتعلم الصبية والفتيات فيها غزل القطن والحرير ونسجهما ؛ وهى مهنة مربحة تكفل للطلبة بعد التخرج رزقاً طيباً .

وقامت تلك المدرسة على أسس التوفيق الحقيقية فبدأت صغيرة ثم كبرت على مر الأعوام . وكان المدرسون فى عهدها الأول يعلمون التلاميذ فى الحدائق العامة تحت قبة السماء ، فلما زاد الإقبال وتوافر المال نصبوا خياماً ، أعقبتها أكواخ خشبية ، انقلبت أخيراً إلى بناء ضخم جميل .

ويسرنى أن أقول إن حزب الجامعة الإسلامية يهتم أيضاً بهذه الناحية ، ويفتح المدارس فى بعض البلاد ، ولكن المدارس الإسلامية ما زالت محدودة ، لقلة موارد المسلمين بالنسبة إلى موارد الهندوس .

وتقتصر الملاهى فى مدينة كراتشى على دور « السينما » ، ويقبل الناس عليها من جميع الطبقات ، لأن معظم هذه الدور يتوخى عرض الأشرطة الهندية فقط . وقد تقدمت صناعة الصور المتحركة هناك تقدماً ملحوظاً ، بحيث أصبحت تدر على القائمين بها مالا وفيراً ، وتلبى رغبات الشعب الكثيرة فى هذه الناحية . ومما يدعو إلى الاغتباط أن الأسر الهندية الطيبة لا تأنف أبداً من أن يشتغل أبناؤها أو بناتها بالتمثيل والرقص ، لأن التمثيل والرقص هناك فنان جميلان يلحظان بالتقدير والفخر والإعجاب .

وتمتاز الأشرطة الهندية بطولها ، حتى ليعرض المتوسط منها فى أربع ساعات على الأقل . وتقوم موضوعاتها على الأساطير الهندية القديمة ، وعلى قصص ملوك الزمان الغابر ، وما ناله هؤلاء الملوك من مجد ، ثم غضب الآلهة عليهم ، فتشريدهم وفقرهم وذلتهم ، وعودة الطيبين منهم إلى المجد مرة أخرى بعد تذوق نصيبهم من العقاب .

وجل المناظر مأخوذة من المعابد الهندوسية المقدسة ، التى تنتشر فى جميع أنحاء الهند ، وتحتشد بشتى أنواع الأوثان ؛ فللهندوس آلهة لا حصر لها : منها واحد للرحمة ، وثان للقسوة ، وثالث للعفاف ، ورابع للشهوة إلى آخر هذه السلسلة الطويلة التى تمثل نواحى الطبيعة البشرية على تعددها وتنوعها .

ولا يكاد يخلو شريط سينمائى من الغناء والرقص ، والغناء فى الهند شرقى جميل ، تقوم أسسه على الأنغام لا الكلمات . أما الأنغام فخليط من الفارسية والمغولية والهندية ، والكلمات بدعة مستحدثة ، فالغناء الكلاسيكى لا يحوى شيئاً منها ، ويقتصر على نغمات يدندن بها المطرب ساعات طوالا .

والهنود جميعاً يقدسون فن الغناء ، ويعتبرون النبوغ فيه

صلة إلهية ، تمكن صاحبها من القيام بالمعجزات ، فهم يؤمنون مثلا بأن المطرب التاريخى «تانسنج» كان إذا أنشد أغنية الماء تساقطت الأمطار بغزارة ، والشمس ساطعة فى كبد السماء ! ويروون عنه قصصاً مختلفة منها أنه أنشد يوما لأحد الملوك أغنية النار فأوقدت شموع القصر المطفأة. ولا سبيل مطلقاً لمناقشتهم فى هذا الموضوع ، أو محاولة إقناعهم باستحالته ، فهم جميعاً على اختلاف مذاهبهم ، وتفاوت درجات ثقافتهم يؤمنون بصدق هذه القصص إيمانهم بالله والدين .



لغة اليدين فى الرقص الهندى

والرقص الهندى رائع كل الروعة ، ولكن الغريب يحتاج إلى تكرار مشاهدته ، حتى يتمكن من تقديره وفهمه . وهو فن دقيق صعب يتطلب مرانة طويلة ؛ ولذلك يتعلمونه فى الصغر ليتقنوه فى الشباب .

وعماد هذا الفن مرونة الحركات. ولغة اليدين والوجه؛ فكل لمحة أو تعبير تعنى شيئاً، وكل حركة بالذراع أو الكف تدل على شىء آخر، ولابد أن يعرف المتفرج هذه اللغة، ليتتبع الفلسفة أو القصة التى يدور الرقص حولها. والرجال كالنساء يرقصون فى الهند، ويحركون رقابهم، وأيديهم، وعيونهم، وحواجبهم طبقاً لقواعد تلك اللغة الصامتة؛ ولأن الرقص فى الهند فن رفيع كما ذكرت سابقاً، فمن المألوف أن نجد ضابطاً عظيماً أو موظفاً حكومياً كبيراً يتقن الرقص و عارسه علانية.

وأول ما يسترعى النظر فى كراتشى وفى غيرها من المدن الهندية، كثرة البقر فى الطرقات، وما لها من سلطان على الحياة العامة، فصاحبة الجلالة البقرة الهندية تتمتع بتكريم وتبجيل وحرية لا تتوافر لخير أفراد الشعب، وذلك لأن الهندوس يعبدونها، و يعتبرونها أم الله، لأنها تدر لبنا يهب الحياة للناس ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة تجول قطعان البقر فى الطرقات كما يحلو لها، فلا يجرؤ أحد على إيذائها أو إبعادها عن طريقه. وقد تقتحم الحوانيت فى بعض الأحيان، فإن كان صاحب تلك الحوانيت هندوسياً، تركها تعيث فى المكان فساداً؛ أما إذا

كان مسلماً ، وحاول إخراجها قسراً ، قامت معركة دينية حامية بين الطائفتين قد تراق فيها الدماء ، وتذهب الأرواح .

والبقر أنواع ، وتعظيمه يختلف تبعاً لما يحمله من علامات وشارات ، والبقرة التي تحمل الشارة المقدسة ، تنال أعلى مراتب التكريم والإجلال، فيحتفظ بها المتدينون في دورهم ، ويقدمون لها خير الطعام ، ويزينون قرونها بجدائل الزهور ، ويتبركون ببولها ، ويدهنون المطابخ والجدران بروثها ليقبل السعد على البيت، وتعم الخيرات !! وأمثال هؤلاء قليلون والحمد لله في الهند.

وتقوم الديانة الهندوسية أصلا على عبادة الروح ، وتقديسها، ولو كانت لأحقر الحيوانات والحشرات . وتغالى الأقلية المتعصبة في هذا النوع من العبادة ، حتى إنهم ليرفضون قتل برغوث أو قملة أو بعوضة ، ويتركونها تمتص غذاءها من دمائهم ، مع علمهم بأنها تحمل ميكروب الطاعون والتيفوس والملاريا الخبيثة !

وللأشجار الكبيرة قدسيتها أيضاً ، ولذلك لا يُسمح لبستاني أن يقطع غصونها أو يشذبها ، فتنمو على فطرتها ، وتتكاثف أغصانها ، وتتشابك فروعها مما يعوق المرور في بعض الأحيان .

وأذكر عندما غادرت كراتشى للمرة الثانية في طريقى إلى

دلهى ، أن ذهبت إلى المطار فى سيارة ضخمة من سيارات نقل المسافرين ، فوصلنا من الطريق إلى منطقة تشابكت أغصان أشجارها حتى تعذر على السيارة أن تمر بسهولة ، واقتضى الحال من السائق أن يضاعف قوة المحرك ، لينتزع طريقه بين الغصون وارتفع صوت المحرك ، فكاد يصم الآذان ، وتلته قرقعة الغصون وهى تتحطم ، فانزعج الجالسون ، وانبرى أحدهم — وكان أجنبياً حضر إلى الهند حديثاً — لتأنيب الضابط الهندوسى المرافق لنا على ترك الأشجار متشابكة هكذا ، فنظر الضابط إليه بسخرية وقال :

— تذكر يا سيدى أنك فى الهند ، حيث يمكنك إذا أردت أن تقتل رجلاً ، ثم تسير آمنا فى طريقك ؛ ولكنك لن تنجو أبداً إذا ذبحت بقرة ، أو قطعت غصناً من هذه الغصون !

وبسبب هذه الأشجار يشتبك الهندوس والشيعة فى بعض الأحيان ؛ فالشيعة هناك مظاهرات دينية يحملون فيها المشاعل والبيارق ومختلف الزينات العالية . وقد يحدث أن تمر تلك المظاهرات بمناطق تشابكت أغصان أشجارها ، فيتعذر عليهم المرور من تحتها بما يحملون ، فيأبى عليهم كبرياؤهم الدينى إنزال ما بأيديهم ، فيسعون إلى تحطيم الغصون ، وإذ ذاك تنشب

معركة دامية بينهم و بين الهندوس ، قد تنجلى عن قتلى وجرحى كثيرين .

و يبدو أن الحياة البشرية فى الهند أتفه قيمة من حياة الحيوان والأشياء ، وكرامة المشاعل والأعلام ، فمن أجل هذه الأشيـاء يتقاتل الإخوان ، و يسفك بعضهم دم بعض .

قد يتبادر إلى الذهن بعد تكرار ذكرى للمسلمين والهندوس أن بلاد الهند لا تحوى غير هاتين الطائفتين ، ولـكن الواقع غير ذلك ، فهناك شيع عدة ، وأديان كثيرة يختلف أصحابها فى الزى واللغة والدين والتقاليد والعادات . ولقد أثبتت الإحصاءات التى قام بها سير چون جريسون عام ١٩٣١ أن عدد لغات الهند يبلغ خمساً وعشرين ومائتى لغة ؛ فللبنغالى لغته ، وللبنجابى رطانته ، وللسندى لسانه الخاص ، وهكذا إلى آخره . وتختلف هذه اللغات بعضها عن بعض كل الاختلاف ، بحيث يتعذر على الهندى فى أى مقاطعة فهم ما يقوله إخوانه من أبنـاء المقاطعات الأخرى .

وتتعدد الأديان أيضاً تعدداً يباعد بين الناس، و ينفر بعضهم من بعض ، فأكثر سكان الهند من الهندوس ، و يليهم المسلمون

فهم مائة مليون أى ربع الشعب ، وبين الإثنين ما نعرف من تطاحن وعداء .

أما السيخ فستة ملايين ، ويعيش معظمهم فى البنجاب ، وترجع دياتنهم إلى القرن السادس عشر ، عندما ظهر مصلح كبير اسمه « جورو ناناك » ، لم يعجبه الخلاف الدائم بين المسلمين والهندوس ، ففكر فى التوفيق بينهما ، وضم صفوفهما ، لذلك بشر بديانة جديدة ، اشتق تعاليمها من الديانتين ، فجمع فيها بين الفلسفة الهندوسية ، وبين توحيد الاسلام وبعض تشريعاته ، وعاداته القديمة ، مثل تحريم الخمر والتدخين واطلاق شعر الرأس واللحية . ولم تلق دعوة « جورو ناناك » ما كان ينشده من إقبال ، فلم تصبح ديانة الهنود جميعاً ، واقتصرت على فريق محدود فقط . ومع قلة عدد السيخ اشتدت قوتهم أخيراً باقبالهم على التطوع فى الجيش خلال الحرب العالمية الأولى والثانية ، وهم يعتزون بهذه القوة ، ويرفضون الخضوع لحكم الهندوس أو المسلمين ، وينشدون الاستقلال بأنفسهم .

وللمسيحية فى الهند أتباع ، يبلغ عددهم أربعة ملايين ؛ فلقد نشطت جماعة المبشرين خلال القرون الماضية وخاصة فى الجنوب

وقدمت من الثقافة والوظائف ما رغب الفقراء والمنبوذين فى اعتناقها . ومعظم المسيحيين يعيشون فى مقاطعة « ترافنكور » حيث يكونون ثلث عدد سكانها ، ويدخل المولدون ، وهم أنصاف الهنود وأنصاف الأوروبيين ، ضمن هذه الطائفة .

وهناك جماعة أخرى قليلة العدد عظيمة القوة والنفوذ فى الهند وهم البارسى أو عبدة النار الذين يعيشون فى بمباى ويسيطرون على التجارة والصناعة ودور المال . وقد أتقنوا هذه النواحى ، وبرعوا فيها ، فأصابوا من المال ما لا يحصى ولا يعد ، وامتلكوا أعظم مصانع البلاد ، وأكبر شركات الطيران والتصدير والفنادق فيها .

ولا يقتصر الأمر على هذه الطوائف ، فهناك أقليات أخرى مثل « الجين » ، والبوذيين الذين يقطنون المناطق الجبلية فى شمال الهند .

ولو أن الهنود جميعاً اقتنعوا بأن الدين رابطة شخصية تصل العبد بربه ، لهان الأمر ، ولكنهم يدخلونه فى السياسة والمجتمع بحيث يتعذر التفاهم ، ويستحيل التعاون ، ويشيع الخصام والقتال ، وتكون النتيجة أن تعيش كل طائفة مستقلة بجوانيتها

ومطاعمها وأماكن نزهاتها، فلا يتم الاختلاط إلا بين طبقة محدودة من المثقفين .

والعجيب أن الهنود إذا خرجوا من بلادهم — وقد فعلوا ذلك خلال سنوات الحرب — نسوا الفروق ، وعاشوا معاً فى صفاء وصداقة ومحبة متبادلة . وأذكر أنهم كانوا يتوافدون على بيتى ، فيجلسون معاً ، ويأكلون معاً ، ويتبادلون أطيب التحيات والحديث ؛ ولكنهم يعودون إلى التقاطع والتشاحن بعودتهم إلى وطنهم ، وتصيبهم حمى الانقسام مرة أخرى ، فيتفرقون شعياً ومذاهب ، ويدب النفور والعداء ، بعد الصداقة والوئام .

ومع تعقد المشكلة الهندية، فتلك الظاهرة توحى بإمكان التعاون والصداقة فى الهند ، ما دام قد أمكن وجودهما خارجها ، ولعل الجهل هوسبب الانقسام الأول ، فنسبة المتعلمين ضئيلة ، والأمية ما تزال تخيم ثلاثة وتسعين فى المائة من الشعب . ونحن نعرف أن الجهل مبعث التعصب ، لأنه يحول بين صاحبه وبين تفهم روح الديانات على حقيقتها ، وتطبيق مبادئ الإخاء والإنسانية التى تنطوى عليها كل عقيدة فى العالم .

ويؤيد نظريتى فى إمكان التعاون ، مايبدو فى بعض المناطق

الهندية من التعصب للعنصرية ، فهناك مثلا فريق اسمه « الراچبوت » يؤمنون بأنهم انحدروا من النار لا من الطين . و بعض قبائل الراچبوت مسلمة ، و بعضها الآخر هندوسى ، ومع ذلك تراهم يناصر بعضهم بعضاً أمام أى قوة ، ولو كانت من دينهم ، لأن رابطة العنصر أقوى فى اعتقادهم ، وأحرى بالتقديم على كل شىء آخر . وقد حدث فى الانتخابات أن رشح راچبوتى هندوسى نفسه فى قرية راچبوتية مسلمة ، ونافسه مسلم من غير تلك الطائفة . فانحاز أهل القرية إلى الراچبوتى الهندوسى ونصروه على أخيهم فى الدين . وهم يفعلون مثل هذا فى الخلافات والمشاجرات والعراك ، فتتضاءل العقيدة أمام رابطة الدم .

٣

اقترب موعد انعقاد المؤتمر النسائى ، فغادرت كراتشى بعد إقامة دامت ستة أيام ، وأخذت القطار إلى مدينة حيدر أباد السند ؛ ووقفت فى نافذته أتأمل صحراء السند الشاسعة ، وقد امتدت رمالها أميالا وأميالا ، فلا يكاد يتخلل تلك الرمال غير قرية صغيرة أو قريتين .

وكان فى رفقتى سيدتان من أعضاء المؤتمر ، إحداهما انجليزية ، والأخرى هندوسية من طبقة « البراهما » أى الأشراف ؛ فلما وقفنا بالمحطة التالية ، كان العطش قد اشتد بى ، وتاقت نفسى إلى قدح من الشاى ، فالمشروبات والطعام لا تتيسر إلا بالمحطات ، ولا يقدم شىء منها أثناء السير ، لأن كل ديوان فى القطارات الهندية ينفصل تماماً عما يليه ، وبابه الوحيد يفتح ناحية الرصيف بحيث يستحيل على المسافر الخروج إلا عند الوقوف .

وبمناسبة القطر الهندية أقول إن مستواها قد انخفض كثيراً خلال الحرب ، لأن الحكومة أخذت أفضلها ، ونقلته إلى ميادين القتال ، وتركت للأهلين ما تبقى ، وكله عتيق قديم . والعربات هناك معدة للسفر الطويل ، لاتساع أرض الهند ، وبعد المسافات بين المدن ، ولذا لا يكون بالديوان عادة إلا سرير أو سريران أو أكثر للنوم عليها فى الليل ، والجلوس بالنهار .

والمسافات بين البلاد الهندية أعظم من أن يتصورها غريب مثلى ، وقد يستغرق السفر من بلد إلى بلد أسبوعاً أو عشرة أيام . وأذكر عند ما كنت فى زيارتى الثانية لكراتشى أنى سألت

هندياً أمدينة دلهى بعيدة ؟ فنظر إلى دهشاً لجهلى بجغرافية البلاد ، وأجاب :

— طبعاً لا ، فهى قريبة جداً ، ولن يأخذ القطار إليها أكثر من ثلاثة أيام !

قلت سابقاً إن العطش اشتد بى ، وتاقت نفسى إلى قدح من الشاى ، فلما وقفنا على المحطة التالية ، رأيت الباعة يتنقلون فيها ، ويعرضون بضاعتهم على المسافرين ، فطلبت من زميلتى الهندوسية أن تطلب من أحدهم ما أريد ، فنادت أول بائع وقع نظرها عليه وأبلغته الطلب . وتطلع الرجل إلى وجهها ، فلما رأى على جبينها نجمة الهندوس الحمراء ، قطب وقال بخشونة :

— لا . لا يمكننى أن أبيعك شيئاً ، فأنا مسلم ، ولا أخدم غير المسلمين .

وكانت زميلتى واسعة الصدر متسامحة ، لأنها قضت عشر سنوات فى أوربا فلم تعد تؤمن بالخلافات الطائفية التى تستنفد جهد بلادها ، وتدفعها الى الوراء ، فابتسمت فى وجه الرجل ، وأجابت برقة :

— اننى حقاً هندوسية ، ولكن ليس لدى مانع من أن

أتناول الشراب من يدك ، بل يسرني فى الواقع أن أفعل ذلك !

وأشرق وجه البائع المسلم ، وشاع الرضا فى عينيه ، وقال معتذراً:

— لا أرى الآن ما يمنعنى من خدمتك ، فنحن جميعاً أخوة ننحدر من أم واحدة ، وما تقاعست إلا لأن بنى دينك يرفضون عادة التعامل معنا .

وأحضر لنا الشاى مسرعاً ، وتفانى فى خدمتنا ، فكان يعود إلينا بعد ذلك فى كل محطة تالية ، ويسألنا عما نريد .

ولا شك أن هذه الواقعة تدل دلالة واضحة على أن التعصب يصدر من الهندوس أولا ، ويملى عليهم تصرفات تغضب المسلمين ، وتثير كرامتهم ، فيردون تعصباً بمثله ، أو أقوى منه ، ويقابلون القطيعة بقطيعة قد تكون أشد وأقسى .

ومما يدعو إلى الارتياح اضمحلال هذا الروح بين الطبقات الراقية والمتعلمة ، بل فقدانها فعلاً بين المتسامحين المتنورين من الطرفين ، ولكن أمثال هؤلاء قلة فى الهند ، وكثرة الشعب ما زالت منغمسة فى رذيلتى الجهل والتعصب .

***

بعد سبع ساعات طويلة بطيئة وصل القطار بنا أخيراً إلى

حيدر أباد السند ، وهي غير حيدر أباد الدكن المشهورة بحاكمها « النظام » أغنى أغنياء العالم . ولم أكن أعرف أحداً بهـذه المدينة غير زعيات المؤتمر اللواتي أتيحت لي فرصة مقابلتهن في كراتشي ؛ فنزلت من القطار ، وأنا مرتبكة بعض الارتباك ، فرأيت سادة المدينة يقفون في انتظارنا ، ويتسابقون نحونا ، ليفوز كل منهم بدعوتنا قبل الآخرين ، فنكون ضيوفاً على بيته خلال انعقاد المؤتمر .

ولم يكن هناك بد من قبول الضيافة ، فتلك المدينة على كبرها وشهرتها ، لا تحوى شيئاً من وسائل الراحة ، ولا أثر فيها لفنادق الدرجة الأولى والثانية ، وكل ما هناك أنزال صغيرة لا يمكن سيدة أن تحتمل الحياة فيها .

ومدينة حيدر أباد السند موطن أغنى أغنياء الهند ، يخرج التجار الهنود منها ، فينتشرون في جميع أنحاء العالم ، ويجمعون اللايين من تجارة التحف والحرير ، ومع ذلك فمهد الأغنيـاء هذا مهمل متأخر إلى درجة لم أر لها مثيلا في المناطق الأخرى : فالطرقات غير معبدة ، مليئة بالأتربة والأحجار ، تقوم على جانبيها قنوات مكشوفة لتصريف المخلفات والمياه القذرة ، فتنبعث

من تلك القنوات روائح كريهة تفسد الجو، وتملؤه بأفواج الذباب.

وتكتظ تلك الطرقات بعدد لا يحصى من البقرات ، التى تضرب بأظلافها الأتربة ، وتثيرها فى الهواء ، وتسد بجموعها الزاخرة سبيل المرور فى أحيان كثيرة . ولقد اضطررت أكثر من مرة إلى الوقوف بالسيارة وراء جموعها المحتشدة ، حتى تتفرق من تلقاء نفسها ، وتسمح لنا بالمسير ، فمن المكروه فى الهند أن يتعجل الإنسان تلك الحيوانات المقدسة، ويفرقها بالدفع أو اللكز.

ولا أكون مغالية إذا ذكرت أننى مدة إقامتى بمدينة حيدر أباد السند لم أرتشف قطرة واحدة من الماء ، لأن الماء فيها مغبر عكر ، تستطيع العين المجردة أن تتبين فيه أتربة وأجساماً صغيرة سابحة . وعلى ذكر الماء أقول إنهم فى الهند لا يحبونه بارداً ، ولا يستعملون الثلج فى الشتاء على الرغم من دفء الجو فى هذا الفصل ، بل على العكس يسخنونه على النار أحياناً ، ويقدمونه دافئاً للشرب !

ولم أفهم فى بدء الأمر فلسفة عقد المؤتمر فى هذه المدينة ، ولكنى عرفت فيما بعد أن الولايات تتناوب دعوة المؤتمر ، ويقوم سادتها بجميع نفقاته ؛ وكان الدور على السند ، وعاصمتها حيدرأباد .

وقام الأعيان فى الواقع بواجبهم على أكمل وجه ، فوزعوا الأعضاء على بيوتهم ، وأكرموا وفادتهن، وتنافسوا فى الكرم ، لينال كل منهم فخر الأسبقية على إخوانه ؛ فكانت موائد الإفطار تمد كل صباح ، وعليها من الأطعمة ما لذ وما ندر .

وكان من أبلغ مظاهر كرم مضيفى الهندوسى تقديمه البيض على المائدة ؛ فالهندوس لا يأكلون اللحم والبيض ، لأنهم يقدسون الروح ، والمتدينون منهم يحرمون طهى الصنفين . وكانت أم مضيفى من هذا الفريق ، وأراد ابنها أن يوفق بين إكرامنا ، و بين المحافظة على شعورها ، فلجأ إلى جيرانه ، فكان يطهى البيض في بيتهم ، ويحمله إلينا كل صباح !

وعند ما انكشف لنا هذا الأمر — وكنا الثلاث اللائى جمع بينهن القطار — بذلنا المستحيل فى إقناعه بإهمال البيض، توفيراً للمشقة والعناء اللذين يكابدهما ، فأبى كل الإباء ، وظل إلى النهاية يحمل البيض بيده ، ولا يكلف الخدم ، خشية أن يتأففوا من القيام بهذا العمل .

و بيوت حيدر أباد أشبه بقلاع ضخمة : تبدأ عند الطريق بباب خشبي كبير ، يرتفع من خلفه سلم ذو درجات قصيرة متتابعة،

وتنتهى الدرجات بدهليز ضيق طويل يقود إلى درجات ودهاليز أخرى ، تؤدى إلى أجنحة البيت التى يعيش الأبناء فيها مع زوجاتهم وأطفالهم .

والبيوت على كبرها وضخامتها بسيطة فى الداخل ، ليس بها إلا الضرورى من الرياش والأثاث ، لأن أهل السند الأغنياء لا يعيشون فى مدينتهم بل يقضون جل العام فى بمباى ، أو فى خارج بلاد الهند ، ويعتبرون حيدرأباد موطن الآباء والأجداد ، ومن أجل ذلك يزورونها شهراً كل عام على الأكثر ، ويبخلون بالنفقات على بيوتها المغلقة طوال السنة .

وكنا ننام فى هذه البيوت ، ونتناول وجبة الإفطار فيها ، أما الغداء والعشاء ففى مدرسة قريبة ، غصت أبهاؤها بالموائد الطويلة . وتنقسم الموائد قسمين : أحدهما للنباتيين ، وهم الهندوس الذين يحرمون أكل اللحم والبيض ، ويكتفون بالخضروات والبقول ، والقسم الثانى لغير النباتيين أمثالى من أصحاب الديانات الأخرى .

ويسير النظام فى الغداء والعشاء على الطريقة المتبعة هناك ، فتقدم إلى الآكلين ألوان لا عداد لها ، قوامها الأرز ،

و «الكأرى» وهو اللحم المطهى بالتوابل اللاذعة ، ثم الخضروات المختلفة ، والفطائر المملحة ، واللبن المختر المحلى بالسكر ، والحلوى على أنواعها . والطريف أنهم يطهون الأرز كما نفعل نحن ، ولكنهم يقسمونه على أوان مختلفة ، ويصبغون أرز كل آنية منها بلون ، بعد ذلك يخلطونه فى الصحون ، فتبدو تلك الصحون جميلة الشكل وهى مليئة بالأرز الأحمر والأخضر والأصفر والأبيض .

ويختلف الخبز باختلاف ألوان الطعام ، فلا يعطى مع الفطائر شىء منه ، والخضروات عادة يصحبها الخبز الأوروبى ، أما «الكارى» فيقدمونه مع «الچپاتى» وهى خبز مستدير الشكل ، بالغ الرقة ، يحمر فى الزبد حتى يتشبع بالسمن .

والهنود على اختلاف طوائفهم وطبقاتهم يحبون مضغ «البان» بعد الأكل و « البان » عبارة عن ورقة شجرة البان وهو نبات متسلق يوجد فى الهند . ويطلون الورقة بمادة شديدة المرارة فى لون العسل الأسود ، ويرشونها بمواد يدخلها « الحبهان» و«جوز الطيب » ومسحوق الجير إلى غير ذلك من المواد التى يتعاطونها هناك . وتطبق الورقة على شكل مثلث ، وتقدم للراغبين . وتصطبغ الأسنان عادة بلون البان ، ولذلك يلاحظ أن أسنان

الموسرين محمرة اللون ، أما أسنان الفقراء فتكاد تكون سوداء لأن الموسرين ينظفون أسنانهم بطبيعة الحال كل صباح ، وهو أمر غير ميسور للفقراء .

ولقد مكنتني الإقامة في كراتشي وحيدر أباد السند من الاطلاع على بعض نواحي الحياة هناك : فمن العادات الشائعة أن يتناول الناس طعامهم جالسين على الأرض ، في صفوف متقابلة . وأمام كل جالس صحن نحاسي واسع يشبه « الصينية » في بلادنا مع تفاوت يسير يتلخص في انخفاض جوانبه . وترص حول الصحن أوراق أشجار مختلفة الأشكال والحجوم ، ويوضع الطعام الأساسي في الصحن الأوسط ، والألوان الفرعية على ما حوله ، فالخبز مثلاً على ورقة التين ، و« المخلل » على ورقة المانجو ، والملح على ورقة التفاح إلى آخره ، مثلما تفعل في الطريقة الحديثة المعروفة « بالسرفيس أمريكان » ! وقد لا يوجد الصحن النحاسي بالمرة وإذ ذاك يغرف الطعام في قطعة كبيرة من ورق الموز . ويخلع الهندوس أحذيتهم خارج حجرة الطعام ، ويدخلون إليها حفاة ، لأن لتلك الحجرة حرمة خاصة .

هذه طريقة الأكل بين سواد الشعب ، ولكن الموائد

والصحون وغيرها من الأدوات ، مستعملة فى منازل الطبقات الراقية والمتوسطة .

والهنود جميعاً من هندوس ومسلمين ونصارى وسيخ و پارسى يفضلون تناول الطعام بأيديهم ، ولا يستعملون الشوكة والسكين حتى على ظهور أفخر البواخر التى تنقلهم إلى أوربا وأمريكا . ولا يصح أن نعزو ذلك إلى تأخر ، أو جهل بضرورة استعمال هذه الأدوات ، فقصور أغنيائهم ، و بيوت موسريهم عامرة بمختلف أنواعها الفاخرة ، و إن لم يستعملوها ؛ ولكنهم يأكلون بأيديهم ، لأنهم يؤمنون بأنها طريقتهم الوطنية الشرقية ، فلا يصح التخلى عنها من أجل عادات غريبة تافهة فى نظرهم . وتدفعهم هذه الروح أيضاً إلى التمسك بالزى الهندى ، ومن النادر أن ترى رجلاً منهم بغير سرواله الوطنى الأبيض ، أو امرأة لا ترتدى الصارى . وتفخر النساء الهنديات بالصارى ، ويذكرن عن عقيدة ثابتة أنه أجمل أزياء الدنيا ، وهى حقيقة ، فالصارى رداء رائع الجمال، يلتف حول أجسادهن الطويلة النحيلة فيزيدها رشاقة وجمالا .

وكان لظهورى بالزى الأوروبى رنة كبيرة من الدهشة فى

الهند ، وسألنى الناس تباعاً عما حدث لمصر ، حتى تترك زيها الشعبي ، وتتشبه بالغرب، فاضطررت عشرات المرات إلى توضيح هذه المسألة ، وأفهمتهم أنه لم يكن للمصريين ملبس خاص ، وثيابهم التى عرفوها قرناً بعد قرن مقتبسة من غيرهم ، بحكم العناصر المختلفة التى توالت على البلاد ، وبحكم موقع مصر الدولى !

ولم يكن لتوضيحى أثر كبير فى إقناعهم ، فكانوا يهزون رءوسهم أسفاً ، ويقترحون على أن أقوم بدعاية واسعة فى بلادى ، فأبشر بزى الصارى ، وأدعو المصريات لارتدائه . ولا أظن أننى سأقوم بتلك الدعاية ، فالصارى على جماله ثوب غير عملى ، لا يناسب امرأة تقتحم الحياة العامة وتشترك فيها ، فهذه الطبقات الحريرية الملتفة حول الجسد حتى أخمص القدمين تعوق الحركة ، وتضطر صاحبتها إلى البطء والحذر ، ونحن الآن فى زمن السرعة والسبق ، وعلى الواحدة منا أن تشق طريقها فى الشوارع والسيارات العامة وعربات الترام ، مما يفسد الصارى ، ويقلب نظامه رأساً على عقب !

وقد لاحظت بمناسبة الأزياء الهندية ، أن الصارى يسير على نمط واحد لا يتغير ، فليس هناك مثلا صارى بسيط للصباح ،

وثان حريرى للعصر ، وثالث مرقش أنيق للمساء ، كما هو عرف الملبس المتبع فى كل مكان ؛ فالمندية المقتدرة ترتدى فى الصباح ما ترتديه فى المساء من ثياب مطرزة موشاة بالذهب والفضة ، فتبدو طيلة اليوم مثل عروس تتهادى فى ثوب زفافها .

وفى حيدر آباد السند شارع أنيق ، أطلق الناس عليه مجازاً اسم « طريق باريس » لأنه ملتقى شباب البلدة من الجنسين ، ومكان نزهتهم كل صباح ومساء ، فتسير فيه الفتيات زرافات ووحدانا ، فى أجمل ثياب وأتقن زينة ، وهو استعراض جدير بالمشاهدة ، لذلك قطعت « طريق باريس » أكثر من مرة ، لأرى جميلات السند يخطرن فى أروع الأزياء وأغلاها ، فإذا استرعت إحداهن الأنظار ، ذبلت عيون الأخريات حسداً وكمداً ! !

ويقوم فى نهاية « طريق باريس » منتدى صغير ، تحيط به حديقة غناء ، فرشت أرضها بالحشائش الخضراء . وفى هذا المنتدى يلتقى الأثرياء ، وتقام حفلات الزواج ، الذى يبدأ عادة فى « شارع باريس » بنظرة فابتسامة فلقاء !

وحيدر آباد السند مركز هام لصناعة الحرير ، وتوزيعه فى

أنحاء العالم ، وتمتاز عن المناطق الأخرى ، بالأنسجة السندية الشهيرة ، المطرزة بنقوش حمراء ، والمرصعة بالمرايا الصغيرة ، فإذا ارتدت السيدات هذا النسيج ، وسرن به فى الطرقات ، انعكست أضواء الشمس على المرايا الصغيرة ، فتلتمع وتضىء كأنها ماسات !

٤

ذهبت إلى حيدر أباد السند من أجل حضور المؤتمر النسائى الهندى ، ولم أكن أعرف قبل ذلك قليلا أو كثيراً عن قيمة هذا المؤتمر ، ومبلغ نجاحه ، بل لم أكن أعرف شيئاً يذكر عن المرأة الهندية ، ومدى اهتمامها بشئون السياسة والمجتمع ، ولذلك لم أضع برنامجاً خاصاً ، ولم أقرر نوع الموضوعات التى سأتناولها بالحديث ، وتركت الأمر لحين وصولى ، واطلاعى على حقيقة الحال هناك .

دهشت جداً عند ما تبينت فى كراتشي أن حديث الهند قاطبة يدور حول المؤتمر ، وبخاصة أن معظم الدول الغربية قد اشتركت فيه ؛ فقد أقبلت مندوبات عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وانجلترا ، ونيوزيلندا ، واستراليا ، والسويد ومصر ولبنان ؛ وهو

حدث جديد ، فلم يسبق أن اشتركت كل هذه الدول مجتمعة فى مؤتمر نسائى هندى .

وقد يكون السبب فى هذه الظاهرة اتساع الأفق السياسى خلال الحرب ، مما هيأ الأذهان فى مختلف الأقطار إلى ضرورة التعاون من أجل توطيد دعائم السلم العالمى المنشود .

وازداد سرورى عند ما قرأت برنامج المؤتمر ، ووجدت أن المرأة الهندية المتعلمة ستتناول بالبحث جميع مشكلات بلادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ وبذلك سهلت رسالتى ، فوضعت برنامجى ، وقررت أن تنال مشكلة فلسطين جهدى الكامل، لأنها فرصة لاتعوض أن نعرض القضية على مندوبات الغرب ، ونسمعهن وجهة النظر العربية التى قلما وصلت على حقيقتها إلى بلادهن .

ولم تكن مهمتى سهلة أو يسيرة ، فنحن نعرف ما بين الهندوس والمسلمين من عداء مستحكم ، يدفع كل فريق منهما إلى التخلى عن القضية التى يدافع عنها الفريق الآخر . وشاء الحظ أن تكون فلسطين من بين تلك القضايا التى لاتنال تعضيد الطرفين معاً ، فقد أعلن المسلمون فى الهند أنها مشكلة إسلامية بحتة ،

عليهم الدفاع عنها بتأييد العرب، وتوطيد حقهم الشرعى فى البلاد المقدسة . وقاموا فعلاً بجهاد مشكور ، و بعث محمد على جناح زعيم الجامعة الإسلامية خطاباً إلى نائب الملك يستفسر فيه عن اتجاه السياسة البريطانية بخصوص فلسطين ، فأجاب نائب الملك بخطاب رسمى يعد فيه بأن لا تتخذ حكومته قراراً قبل الرجوع إلى العرب واستشارتهم ونيل موافقتهم .

ولما سمع الهندوس بهذا الأمر تخلوا تماماً عن القضية الفلسطينية ، ولم يظهروا اهتماماً بها ، فتسربت وجهات النظر الصهيونية إليهم ، ووجدت منهم استجابة وقبولا .

ولقد تبينت هذه الحقيقة لدى وصولى نخشيت أن أخفق فى رسالتى ، لأن أكثر أعضاء المؤتمر من الهندوسيات ، فقد انفصلت المسلمات عنه منذ سنوات بانفصال المسلمين عن حزب المؤتمر ، فلم يبق فيه منهن غير عدد قليل لا يتعدى أصابع اليد ، وهذا العدد يتكون من سيدات لا يدن بمذهب حزب الجامعة الإسلامية السياسى . لما تبينت ذلك قررت أن أقوم بدعاية تمهيدية واسعة ، لأقنع الهندوس بخطأ ظنهم ، وأفهمهم أن مشكلة

فلسطين قضية وطنية لا دينية ، يجب أن يؤيدها كل من ينشد العدالة ، ويطالب بحرية الشعوب الصغيرة .

وانتهزت فرصة الحفلات التى أقيمت لى ، والاجتماعات الصحفية المختلفة فتحدثت خلالها عن فلسطين ، وعن حق العرب الشرعى فيها ، ودحضت الادعاءات الصهيونية المنتشرة هناك ، فكان لأحاديثى أثر واضح ، ظهر على صفحات الجرائد فى صورة مقالات تلخص أقوالى . وأقبل الناس على قراءة تلك المقالات بشغف ، ورحبوا بوجهات النظر العربية ، فلم تمض أيام معدودات حتى كان الهنود على تباين عقائدهم يتحدثون عن فلسطين بعطف ظاهر .

وهنا آخذ على العرب تقصيرهم المخزى فى الدعاية لقضيتهم العادلة ، واقتصارهم على الخطب والمقالات التى لا تتعدى حدود بلادهم ، ولا تصل أبداً إلى آذان الغرب . أما الصهيونيون فلا يلقون من الخطب إلا قليلها ، وينفقون جهدهم الكامل وأموالهم الطائلة فيما هو أجدى من الخطابة ، فيقومون بدعاية واسعة ، وينشرون مطالبهم فى جميع أنحاء العالم ، فيؤازرهم الناس ما داموا لا يعرفون شيئاً عن أقوال الآخرين وحججهم . وأذكر أنه بعد

الخطابات التى ألقيتها فى المؤتمر ، والكلمات التى أدليت بها إلى الجرائد عن فلسطين أقبلت على بعض مندوبات الغرب فأبدين منتهى العطف على قضيتنا ، وسجلن اقتناعهن بشرعية المطالب التى ذكرتها ، وقوة الحجج التى عرضتها . وسألننى فى عجب كيف يسكت العرب كل هذا السكوت ، فلا يرسلون إلى العالم الخارجى من يعرض الأمر على محاكم الرأى العام ، وأهبن بى أن أطالب الزعماء ، عند عودتى إلى مصر ، بالاهتمام بناحية الدعاية الخارجية ، وقلن إن شعوبهن لو سمعت هذه الحجج لاقتنعت بها وأيدت العرب ، واضطرت حكوماتها لأن تقف موقفاً عادلا .

وجدت إلى جانب القضية الفلسطينية أموراً معقدة أخرى ومع خروجها عن نطاق منهاجى ، رأيت من واجبى أن أشرحها للرأى العام ؛ وأطلع الناس على حقيقتها ، فقد وصلت إلى الهند اتهامات تسىء إلى مواقفنا السياسية ، وتنشر هالة غبراء حول بعض الشخصيات الكريمة فى بلادنا .

وقمت بواجبى فى هذه الناحية ، فشرحت مواقفنا للصحفيين، وأثبت لهم سلامتها ، وعددت لهم مآثر تلك الشخصيات

الكريمة التى أساءوا الحكم عليها ، ونصيب هذه المآثر فى رقى مصر وتقدمها ؛ فكانت الصحف تنشر بعض توضيحاتى ، وتغفل الإشارة إلى الكثير منها ، تجنباً لمتاعب الرقابة التى كانت ماتزال قائمة .

كان يوم افتتاح المؤتمر النسائى عظيما مجيداً ، فقد امتلأ السرادق المقام فى حديقة « الأكادومى » ، فكان به ما لا يقل عن خمسة آلاف نسمة بين رجال ونساء أقبلوا من جميع أنحاء الهند ليسهموا فى نجاح المؤتمر النسائى .

وكانت رئيسة الشرف « ساروجينى نايدو » الشاعرة العالمية أو بلبل الهند المغرد كما يسمونها هناك. ولقد نالت دواوينها الشعرية الانجليزية شهرة عالمية ، وانتقلت مؤلفاتها إلى الدنيا القديمة والجديدة



سروجينى نايدو بلبل الهند المغرد

فأصابت عالم القراء الأوروبيين والأمريكيين « حمى نايدو » ، فأقبلوا على تصفح ما خطت بأهتمام و إعجاب ثم هبطت هذه الحمى تدريجاً ، كما حدث للشاعر « طاغور » من قبل .

ومازالت « ساروجيني نايدو » سيدة الهند الأولى ، لأنها لا تقصر جهدها على الشعر فحسب ، بل تشترك أيضا فى سياسة البلاد ، وتتزعم الحركات الوطنية ، مما جمع الناس حولها ، وأنزلها فى قلوب القادة منزلة كبيرة .

وقد ألقت الشاعرة المبدعة يوم الافتتاح خطاباً مرتجلا باللغة الإنجليزية هزت به مشاعر الحاضرين ، وبعثت السرور والتفاؤل فى النفوس ، فنالت من التحية شيئاً كثيراً . وتكاثرت عليها عقود الزهور المجدولة ، فوضعتها حول عنقها ، حتى كاد جسدها القصير البدين يختنق تحت أكوامها . والعقود عادة متبعة فى الهند يقدمها الناس دليل التقدير والتكريم والترحيب ، وهى مجدولة من الزهور والورود المونقة ، ومتصلة بأسلاك رقيقة من الفضة والذهب ، تشبه « التلى » الذى كان مألوفاً عند عرائس الجيل الماضى .

وكانت السيدة « هانسا ميتا » رئيسة المؤتمر العاملة ، فألقت

خطاب الافتتاح بلغة انجليزية بليغة ، تناولت فيه مشكلات الهند السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوطنية ، فعالجت كلا منها بذكاء ومقدرة وسعة اطلاع .

وأحب أن أذكر بهذه المناسبة ، أن أهم خطابات المؤتمر كانت تلقى باللغة الإنجليزية ، فهذه اللغة متداولة فى الهند ومفهومة للجميع تقريباً . أما بقية الخطابات فكانت تلقى باللغات الهندية ، فلم نفهمها لعدم وجود مترجمات يشرحنها لنا .

وتوالت بعد السيدة «هانساميتا» مندوبات الدول الأجنبية ، فقدمت كل منهن تقريراً قصيراً عن جهود المرأة فى بلادها ، ومطالبها الملحة للحاضر والمستقبل ، فلما حان دورى تكلمت عن مصر بصورة شاملة ، وختمت حديثى بفلسطين ، فوجدت أن الاهتمام عام بالقضية ، وتعالى الهتاف للعرب ، فخرجت الجرائد فى اليوم التالى بآيات التشجيع ، مما أكد لى أن المؤتمر سيتخذ قراراً حازماً بخصوصها .

وتبدد الأمل بعد ذلك بأيام معدودات ، عند ما أحسست أن بعض العناصر الرجعية القليلة تحارب فكرة اتخاذ القرار ،

خشية أن يكون فى ذلك تأييد لوجهة نظر مسلمى الهند ، وهو ما لا يتفق مع الخصومة القائمة .

وكانت تلك العناصر على قلتها قوية النفوذ ، نخفت أن تفسد على خطتى ، لذلك ضاعفت الجهد وواجهت اللجان المختلفة بأحاديث مطولة تشرح كل صغيرة وكبيرة من قضية فلسطين ، فكلل الله مسعاى بالنجاح ، واتخذ المؤتمر قراراً حازماً يقول فيه :

« بما أن هذا المؤتمر يقوم من أجل السلام ، وينكر فرض إرادة الأمم القوية على الضعيفة ، فهو يرقب فى قلق بالغ حالة فلسطين ، مهد العرب منذ قرون ، حيث بنوا ثقافتهم ، وعاشوا دائماً فى أمن وسلام وتسامح مع أصحاب العقائد الأخرى . ولهذا يعبر المؤتمر عن أقصى عطفه القلبى ، وتأييده التام ، لمطالب الاتحاد النسائى العربى ، من حيث إلغاء تصريح بلفور ، الذى يعد اليهود بوطن قومى فى فلسطين ، ضد رغبات العرب أهل البلاد الشرعيين . وهو يناشد الولايات المتحدة الأمريكية ، وبريطانيا العظمى رفع هذا الظلم حالا » .

وقد أرسلت نسخ من هذا القرار إلى الدول العظمى وإلى الجامعة العربية .

وتوالت زعيمات الهند على المنصة ، فألقت كل منهن كلمة بليغة فى تأييد القرار ، فلما حل دور « لايدى رام راو » وهى من فضليات سيدات الهند ، وقفت أمام المذياع ، وأعلنت أنها تحملنى رسالة شفوية من نساء الهند إلى أخواتهن العربيات ، وتتلخص هذه الرسالة فى أن المرأة الهندية ، وقد عرفت الآن حقيقة القضية الفلسطينية ، ستتتبع أمرها بذات الاهتمام الذى تتتبع به قضايا بلادها ، وستحارب من أجلها إلى آخر نقطة من دمائها إذا اقتضى الحال .

وعند ما أخذ الرأى على القرار الفلسطينى ، أقرته الحاضرات بالاجماع ، ولم يتخلف صوت واحد عن التأييد .

كان القرار الفلسطينى واحداً من ستة وثلاثين قراراً أصدرها المؤتمر بصدد مشكلات الهند المختلفة . وفى الواقع أن نساء الهند ملأن قلبى بالإعجاب ، وهن يتوالين على المنصة كل صباح ومساء ، فيناقشن أعظم الموضوعات حيوية بحكمة وذكاء وسعة

اطلاع ؛ فكنت أحس فى بعض الأحيان أننى أمام عقول جبارة صافية ، لا بد أن تصل إلى أهدافها عما قريب .

ومن أهم الموضوعات التى اتخذفيها المؤتمر قرارات حازمة وجوب استقلال الهند ، وتسليم مقاليد الحكم لأبنائها ، حتى تتمكن البلاد من النهوض على أسس متينة من الحرية والتقدم والإصلاح .

وناقش المؤتمر مسألة حريات الشعوب الصغيرة ، فأيد أندونيسيا وطالب بسحب القوات الهندية منها .

ونال جيش الهند الحرة كل التأييد والتعضيد ، فدعت المرأة الهندية إلى وقف محاكمة ضباطه الثلاثة ، و إطلاق سراح جنوده المسجونين .

وطالب المؤتمر برفع الرقابة القائمة ، وإطلاق حرية الصحافة والنشر ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين

وهجمت نساء الهند على سوء الإدارة ، والإهمال الذريع فى اتقاء الأضرار التى نشأت عن فيضان البنغال ، وأدت إلى مجاعة ذهبت بأرواح الملايين .

وعالجت السيدات مشكلة نقص الكساء ، وقلة المنسوجات

فى الأسواق ، ولا سيما ما يقوم منها فى الأرياف ، مما نتج عنه انتحار بعض السيدات ، لعدم توافر الملبس لهن . وطالبن الحكومة بزيادة المصانع ، وتحديد الأسعار ، حتى تجاب مطالب الشعب ، ويوضع حد لجشع التجار .

ولقد أطلت فى حديث المؤتمر بعض الاطالة ، ولكننى أرمى بذلك إلى نقطتين : أولاهما توضيح الخلق الهندى ، فمشكلات المجتمع الخطيرة ، لم تخفف حدة شعوره بالأخوة نحو الشرقيين عامة ، والعرب خاصة ، فالهنود يعتبروننا أخوة أشقاء ، وينظرون إلى مشكلاتنا باهتمام ؛ ويتتبعون أخبارنا بشوق . أما النقطة الثانية فهى إعطاء فكرة صحيحة عن المرأة الهندية المتعلمة ؛ وما تستطيع القيام به إذا تهيأت لها الفرصة ، ولا شك أنها تستطيع عمل الكثير ؛ فهى بارزة الشخصية ، سامية التفكير ، مستقيمة المنطق تدرس مشكلات بلادها فى حذر ، فتتبين مواطن العلة ، وتعمل على علاجها بطرق تتمشى مع سياسة العالم المتمدين ، مع التمسك بالقومية الطيبة ، التى لا تتعارض هى وروح العصر الحديث .

وأعتقد عن ثقة أن مشكلات الهند الخطيرة ، التى تستنفد جهد الرجال ، وتشغل أذهانهم عن قضايا الوطن ، لو تخلوا عنها ،

ووكلوا أمرها إلى المرأة ، لوجدت لها الحلول المرضية ، ولـكان للهند شأن آخر ؛ فالهندية أسمى من مواطنها ، من حيث الشخصية والإرادة والحكمة والحيوية ، وهى ملاحظة استرعت أنظارى ، وأنظار كل غريب يزور هذه البلاد .

والتعاون مع المرأة الهندية المتعلمة يأتى بالخير العميم ، ولـكننا معشر النساء المصريات لا نستطيع أن نتخذ خطوة كهذه فى الوقت الحاضر ، فعلى الرغم من أننى حملت رسالة كتابية حارة ، لرئيسة الاتحاد المصرى ، تناشدها فيها زعيمات الهند تكوين جبهة منا ومنهن ، غير أن الخلاف الطائفى القائم هناك يحول بيننا وبين الانحياز لأحد الفريقين ضد الآخر . وإلى أن يتصافى المسلمون والهندوس لن نقبل بحال من الأحوال تشكيل الجبهة المنشودة ، حتى لا يتفاقم العداء ، فتدخل بلادنا فى الخصومة القائمة .

وأحب هنا أن أعتب على العرب لإهمالهم شأن إخوانهم الهنود ، وجهلهم العظيم بشئونهم ؛ فاذا ذكرنا الهند طافت بأذهاننا شتى الغرائب والطرائف ؛ كأن الغرائب والطرائف هى كل ما تحويه تلك البلاد الواسعة ، فى حين أنهم يعرفون عنا الكثير ، ويحملون لنا حبا واحتراما وإعزازا ، ويتتبعون قضايانا بلهفة . وهذه المودة

والأخوة لا تجد صدى فى صدورنا، مع أنه تربطنا بهم روابط شتى من اللون والشرقية وبعض العادات والمحن الماضية والحاضرة.

٥

كنت أعتقد دائماً أن المرأة لا تستطيع أن تقوم بعمل وطنى يذكر إلا إذا نالت من الحقوق الحيوية ما يكفل لها الأمن والاستقرار ، لأن الحياة فى نظرى أخذ وعطاء ، ولذا يتحتم على المجتمع أن يعطى إذا أراد أن يأخذ من الفرد جهداً ما .

هذه — على الأقل — هى القاعدة التى ينبغى أن يقوم عليها كل مجتمع متمدين ولكننى وجدت غيرها فى الهند ، فالمرأة المتعلمة هناك تقوم بواجبها الكامل نحو بلادها ، وتسهم فى بناء صرح وطنها، وتأخذبيد المجتمع لتعينه على السير قدماً ، مع أنها محرومة من كثير من الحقوق التى تتمتع بها أختها فى البلاد الأخرى ، فالمجتمع الهندى جشع إذاً لأنه يأخذ دائماً ولا يعطى شيئاً مقابل ما يأخذه !

والعجيب أن المرأة الهندية لا تحقد على مجتمعها من أجل ذلك ، بل تؤدى رسالتها فى تسامح وسخاء ، وتطالب بحقوقها فى

الوقت نفسه ، ولا تتوخى الشدة فى المطالبة؛ وهو سلوك لا أقرها عليه ، فالتهاون فى مثل هذه الأمور لا يأتى بالنتيجة المرجوة ، والحقوق لا تكتسب بالتسامح ، بل بالجهاد والشدة والصراع .

وقد أكون مخطئة فيما ذكرت ، ولكن لكل منا منطقه الذى يؤمن بصوابه ، ومنطقى يقول إن المجتمع الذى يسلب المرأة حقوقها الحيوية يقوم على عنصر كريه من أنانية الرجل ، لا يحد من جبروتها غير أنانية أشد وأقسى .

ولست أرى داعياً لأن تتفانى الهندية فى خدمة مجتمعها، فلا تنال منه جزاء ولا شكوراً ، وتقابل بالنكران والجحود فى كل مكان ؛ بدليل أن الهنود على اختلاف ألسنتهم وعقائدهم يتفقون معاً على نقطة واحدة وهى اضطهاد المرأة ، وغبنها من حيث مركزها الاجتماعى !

ويكفى لإثبات ذلك أن نستعرض حالة المرأة فى كل طائفة من طوائف الهند ؛ فأكثر الشعب هناك من الهندوس .

والديانة الهندوسية لا تعترف بمكانة النساء ، ولا تقر لهن فى المجتمع مقاماً جليلا ، وتعتبر الرجل إله المرأة الذى حق عليها عبادته ، واحتمال قسوته دون شكوى أو تذمر ، فهى ظله ، ولا

يصح للظل أن يسمو إلى مكانة الأصل .

ومن أجل ذلك كانت الزوجة الهندوسية فى الماضى تُحرق يوم وفاة زوجها وتدفن معه ؛ فتقبل على « المحرقة » التى اجتمع حولها الأقارب والأصدقاء وتقتحم نيرانها باسمة ، وذلك دليل الرضا والقبول، فإن تراجعت حلّ العار بأسرتها، فتنبذها لتعيش ما تبقى لها من الحياة طريدة شريدة .

وظلت هذه الشرعة متبعة قروناً وأجيالاً حتى تنبه المصلحون إلى ما تنطوى عليه من وحشية، فقاموا ينادون بإبطالها، و بوضع القوانين التى تحرمها ، ونجحوا فى حملتهم ، فمنع القانون حرق الأرملة و إن حرم عليها الزواج ثانية إرضاء للرأى العام !

ومنع زواج الأرملة إجحاف بالمرأة الهندوسية ، لأن زواج الأطفال كان معروفاً هناك إلى عهد قريب ، فكان من حق الوالد أن يزوج ابنته وهى فى السنة الأولى من عمرها لصبى فى مثل سنها ، ثم يعطيها أهل زوجها ، فيحملونها معهم إلى بلدتهم لتنشأ مع قرينها جنباً إلى جنب ، فتعتاد أخلاقه ، وتألف عادات أسرته. وكان يحدث فى كثير من الحالات أن لا يأتلف الطفلان بل يتنافران منذ بادئ الأمر فتصبح حياتهما حياة شقية لاخلاص

منها إلا بالموت . وكان يحدث أيضاً أن يموت الزوج الصغير بعد مرض من أمراض الطفولة ، فيتحتم على عروسه وهى ما تزال فى المهد أن تعيش أرملة إلى الأبد ، وأن تتجرع كأساً مريرة من الذل لأنها جلبت الشؤم على البيت فمات الإبن بعد دخولها فيه!

وقد منع القانون الحديث الزواج بين الأطفال ، ووضع له الرابعة عشرة سناً أدنى ؛ ولكن مشكلة الأرامل لم تحل بعد ، فما زال فى الهند عدد كبير من « الأرامل البكر » كما يسمونهن هناك ، يعشن عذارى ، ويمتن عذارى ، مهما بلغ بهن الشباب والجمال .

ولا شك أن القانون المدنى الإنجليزى قد خفف وطأة هذا الأمر قليلاً ، فأصبح فى مقدور الأرملة أن تلجأ إليه ، وتعقد زواجها فى مكاتبه ؛ ولكن مثل هذا العمل نادر جداً ، لأنه يتطلب شجاعة أدبية هائلة ، لمواجهة ثورة الأسرة ، واحتقار المجتمع الهندوسى .

وينادى المصلحون فى الوقت الحاضر بوجوب زواج الأرملة إن أرادت ، ووضع بالفعل قانون يبيح ذلك ، ولكن القانون لم يتقرر العمل به رسمياً إلى الآن ، بسبب العقبات التى تقوم فى

طريقه ، واعتراض الرجعيين ، ولهم فى الهند نفوذ كبير .

والمرأة الهندوسية لا ترث أبداً ، فإن توفى زوجها أو والدها لا تصيب شيئاً من ماله مهما عظم ؛ وتضطر فى مثل هذه الحالة لأن تعيش كلاً على أفراد أسرتها ، اللهم إلا إذا كانت متعلمة ، وأرادت الاستقلال ، فإذ ذاك تقتحم الحياة العملية ، وتكتسب رزقها بعرق جبينها .

ومن أجل ذلك تقبل الهندوسيات على التعليم بشغف ، فتكون الأمية بينهن أقل منها فى المسلمات ، ولكن نسبة التعليم مازالت ضئيلة ، والمثقفات قليلات ، وأكثر النساء يذقن الأمرين من جراء هذا الغبن الاجتماعى الصارخ ؛ مما يدفع أرامل كثيرات إلى الانتحار بالسم أو النار ، فآلام الموت تهون أمام ما ينتظرهن فى الحياة !

ولا تقف آلام الهندوسية عند هذا الحد ، بل تتعداه إلى تقاليد الزواج ، فهى تخطب الرجل ، وتمهره مبلغاً من المال يرتفع أو ينخفض تبعاً لارتفاع أو انخفاض مركزه ، فلكل رجل ثمن محدد ، قد ينخفض إذا كانت المرأة على نصيب يذكر من الجمال .

والعادة الشائعة أن يبعث أهل الفتاة رسولاً لخطبة الشاب الذى يختارونه ، فتدور المباحثات المالية أولاً ، وعليها يتوقف مبدأ القبول أو الرفض . ويغالى شباب الهندوس فى تقدير الصداق مغالاة جعلت من الزواج تجارة رابحة ، دفعت ببعض الآباء إلى الانتحار ، لعجزهم عن توفير المال اللازم لزواج بناتهم .



مثل من أمثلة الجمال الهندى

وعلى العروس أيضاً إعداد حاجياتها من أثاث وأدوات فضية وملابس حريرية : فمن الأثاث فرش غرف المنزل ، ومن الأدوات الصحون والملاعق والسكاكين وأوانى الزهور ، ومن الملابس عدد من ثياب المصارى يبدأ بواحد وثلاثين ، ثم يرتفع إلى واحد وأربعين ، فواحد وستين ، فواحد

ومائة ، فواحد وألف ، تبعاً لمركز العروس ومبلغ ثراء أهلها !

وطبيعى أن يفرح الهندوسى إذا رزق صبياً ، وأن يغتم كل الغم بالبنات . فالصبي يجلب ثروة طيبة ، الخراب فى أعقاب زواج الفتيات . وقد لاحظت أيضاً أن الابنة الجميلة تتمتع بمعاملة أفضل من أختها القبيحة ، لأن الجمال يخفض الصداق ، والقبح يضاعفه !

والروابط العائلية شديدة فى الهند إلى حد يحرم الزوجة الشابة الحرية المحببة إلى كل امرأة ؛ فالمنازل كبيرة ، والأجنحة معدة لحياة الأبناء بعد الزواج ، فيعيش خمسون شخصاً فى بيت واحد مثلا ، و يتقيدون جميعاً بتقاليد رب الأسرة ، ولا يفعل أحدهم إلا ما يحلو لعميد البيت أو عميدته .

وللأم سلطان كبير على زوج ابنها ، فلا تجلس أمامها دون استئذان ؛ ولا ترفع فى حضرتها الغطاء عن رأسها ، ولكن هذه التقاليد قد خفت وطأتها كثيراً بين القلة المتعلمة .

أما الهندية المسلمة فقد منحها الدين حقوقاً كثيرة ، ولكنها لا تستفيد منها ؛ فبحكم الجيرة والحياة المشتركة اقتبس مسلمو الهند بعض العادات الهندوسية، فهم مثلا لا يورثون المرأة عملا بقانون

« التقاليد » فإذا التجأت إلى المحاكم تطلب نصيبها ، لا تجد من يعير قضيتها اهتماما ، لأن قانون التقاليد قائم معترف به رسمياً في البلاد .

وقد حدث أخيراً بعض التعديل ، فأعطى المسلم حق اختيار القانون الذى يطبق على ورثته بعد وفاته ، فإن أوصى كتابة بقانون الشريعة ورثت المرأة طبقاً لتعاليم الدين ، وإن لم يوص وهو ما يحدث غالبا — طبق قانون « التقاليد » ، ولا فائدة بعد ذلك من الجدال والمقاضاة .

ويدل هذا التصرف على أن مسلمى الهند لا يتفهمون روح دينهم الحق ، وإلا لنفذوا تعاليمه الجوهرية ، وحققوا العدالة الإسلامية التى هى فى نظر الحق والإسلام أهم من الاقتصار على أداء فريضة الصلاة ، وصيام شهر رمضان !

ويقف الحجاب أو « البردا » عقبة كئودا فى طريق تقدم الهندية المسلمة ، وهو حجاب عجيب ، يلتف حول الجسد ، ويغطيه من قمة الرأس الى أخمص القدمين . وأمام العينين فتحتان صغيرتان ، تغطيهما طبقة من النسيج الشفاف ، لا يكاد البصر يتبين من خلالهما شيئاً . وبعض النساء لا يكتفين بهذا الحجاب

فإذا ركبن عربة غطين مقدمها بقطعة كبيرة من النسيج الثقيل حتى لا تقع أبصار المتطفلين على حجاب من يجلسن فى الداخل . وإذا عرفنا أن شتاء الهند دافىء قصير ، وأن صيفها طويل قائظ أمكننا أن نتصور الهندية المسلمة ، وهى تتصبب عرقا بين طيات كفن الأحياء الذى ترتديه ؟

ويحول الحجاب دون التحاق المسلمات بالمدارس ، والمساهمة فى شئون المجتمع ، ولذلك يتفشى الجهل بينهن ، وتكون نسبة التعليم فيهن أقل منها فى الهندوسيات . ومما يدعو الى السرور خروج الطبقــة المتنوره على « البردا » ، وإقبال نسائها على الثقافة وخدمة المجتمع ، فبرز منهن سيدات لعبن أدواراً مجيدة فى الجهاد السياسى والاجتماعى . ومن بين هؤلاء « بيجام شاهنواز » التى اقتحمت أكثر من معركه انتخابية ، فخرجت ظافرة منتصرة ، وأصبحت عضوا عاملا فى المجلس التشريعى . وهناك أيضا « بيجام جناح » شقيقة محمد على جناح زعيم حزب الجامعة الإسلامية ، وهى تقود الحركة السياسية بين السيدات وتوجهها توجيهاً صالحاً ؛ ولـكن مثيلات بيجام شاهنواز و بيجام جناح قليلات جداً مع الأسف .

ولقـد لاحظت أن بعض القرويات الهندوسيات يتحجبن « باليردا » أيضا ، فعجبت لأن دينهن لايفرض ذلك فلما سألت عن السبب قيل لى إنهن اقتبسنه من المسلمات ، فأصبح عادة متبعة بين بعض الأسر القروية . ويرجع السبب فى اقتباسه إلى الأمراء الذين حكموا المقاطعات فى قديم الزمن ؛ وكان بعض هؤلاء شهوانياً ، يعيش من أجل الملاذ ، فإذا رأى أحدهم وجهاً جميلاً أمر باحضار صاحبته الى القصر ولو كانت متزوجة . وتكررت المآسى، وتعاظم البلاء، فحجب هندوس تلك المقاطعات نساءهم ، لتعجز عين الحاكم الشرير عن تمييز الوجه الجميل من القبيح ! وعلى مر الأجيال زال خطر الأمراء من هذه الناحية ، ولكن الحجاب أصبح عادة متبعة لدى بعض القرويين من تلك الطائفة.

وفى الواقع أن حالة المسلمين فى الهند أثارت فى نفسى كثيراً من التأملات،وأعادت الى الذهن ذكريات بلاد أخرى شاهدتها، فحزنت لتأخر عامة الشعوب الإسلامية ، وتقهقرها فى ميدان المدنية والتقدم .

وعندى أن جوهر العلة فى ذلك جهل المسلمين بحقيقة روح دينهم ، وإساءة تطبيق تعاليمه ، باهمال شأن الأوطان ، وحرمان

المرأة من العلم ، وتقييدها بالحجاب وغيره من الخزعبلات .
والنتيجة أن تأخر المسلمون فى موكب الحضارة ، واحتلوا منه مكان الذيل ، فأساءوا الى أنفسهم ، وجلبوا الاتهامات لدينهم ظلماً ، فنظر العالم المتمدين الينا ساخراً وقال: إننا متأخرون لأننا مسلمون !

ودیننا المجيد برىء من كل ذلك ، فقد رسم لناحياة لاتتوافر لغيرنا ، ومنحنا من الشرائع الرشيدة ما يكفل لنا العدالة والرقى والتقدم ؛ واعترف بمقام المرأة الجليل فى المجتمع ، ومنحها من حقوق التعلم والتعليم والتجارة والزراعة ما يرفعها فوق هامات الأخريات؛ فأغمضنا عيوننا عن هذا الخير العميم ، واستعضنا عن الجوهر بالعرض ، وشغلتنا المظاهر والتمسك بالأعراض عن واجبنا الحقيقى الذى يمليه علينا روح ديننا الحنيف ، ألا وهو خدمة بلادنا والعمل الدائب على ترقية أخلاقنا ، والسمو بمجتمعنا ؛ والإسلام الصحيح روح ومبادىء .

وفى الحق أن المسلم العارف لأصول دينه ؛ المدرك لروح تعاليمه من يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، فيؤدى الفرائض ويجاهد أيضا فى خدمة بلاده ورفع شأنها بالقضاء على الجهل

والتأخر ، ليرتفع بذلك شأن دينه فى أعين الآخرين . ألم يقل الله تعالى فى كتابه العزيز : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم « ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ، ولا من ترك الآخرة للدنيا ، ولـكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » ؟

هذا كلام الله سبحانه وتعالى، وحديث رسوله الـكريم، وفى الإثنين دعوة تحض المسلمين على خدمة دنياهم والعمل لآخرتهم؛ فهل عمل المسلمون بقول الله ورسوله ؟ أعرف أنهم يقدمون لآخرتهم ، فيصومون شهر رمضان ، و يؤدون فريضة الصلاة، و يبنون الجوامع الكبيرة ، فبذلك يلبون شطراً واحداً من دعوة ربهم ، فأين نصيب الشطر الآخر ؟ وماذا عملنا لدنيانا ؟ ؟ إن شعو بنا تتخبط فى ظلمات الجهل ، ونسبة التعليم فينا هزيلة ، ولذلك تأخرنا وتخلفنا عن موكب الحضارة ، فسبقنا الغير ، وكنا أحق بمكان الصدارة . ولو أننا عملنا لدنيانا مثل ما قدمنا لآخرتنا، فاقتصدنا فى تشييد الجوامع ، لبناء المدارس ونشر التعليم ، أو أتبعنا سنة المماليك الذين كانوا يقيمون معهداً علمياً بجوار كل جامع بنوه ، لحسن حالنا ، وزايلنا جهلنا ، وتقدمت شعو بنا .

إن الإسلام دين البساطة، وحسب المسلم رقعة نظيفة من الأرض يصلى فيها ، فتكون صلاته مقبولة عند ربه ، كما لو صلى فى أكبر الجوامع وأفخرها. ألم يقل الله تعالى فى كتابه العزيز « ولله المشرق والمغرب، فأينما تولوا ، فثم وجه الله » . ولكن المدارس لا يمكن أن تقوم فى أى رقعة نظيفة من الأرض فحسب ، ونشر الثقافة ومحاربة الجهل يتطلبان تشييد دور العلم ، وتخصيص الأموال للانفاق عليها ، وهى فرصتنا الوحيدة للتقدم والرقى ، ولنا من أجلها عند الله الأجر والثواب .

واعتقد أن الذين يأخذون الإسلام على أنه صوم وتسبيح و بناء مساجد فحسب، يتأون عن روحه الصحيحة التى يؤيدها الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

واستميح القارىء عذراً لجموحى عن الموضوع ، ولكن الذكرى تحرك الشجون ، وتثير الغضب على من يؤذون خير الأديان ، وهم لا يشعرون .

نعود الآن إلى حديث النساء فنقول إن « البارسى » أو عبدة النار فى الهند فئة صغيرة إذا قيست بالمسلمين والهندوس ،

ومع ذلك فهى جماعة هامة لا يصح إغفال شأنها، لمهارة أفرادها، وتفوقهم فى ميادين التجارة والصناعة ؛ فدانت لهم كنوز البلاد، واقتنوا ثروات لا تحصى أموالها ولا تعد.

وللمرأة « البارسى » من الخصائص ما يميزها من غيرها ، فهى بيضاء اللون وللدماء الفارسية التى تجرى فى عروقها أثر فى هذا . وبفضل اتساع ذهن البارسى وتسامحهم حسن مركز نسائهم ؛ وبفضل المال الوفير تفتحت أمامهن أبواب العلم ، فاخترن الأجنبي منه ، وتخرجن فى الجامعات الانجليزية بنجاح ، ولكنهن مع الأسف اتبعن خطوات أهل طائفتهن من حيث التشبه بالسكسون فى الحياة والتصرفات وأسلوب الحديث والتواء اللسان !

وقد يكون السبب فى تعلق المرأة البارسى بأهداب الأجنبى ، ما يمليه شعور الأقليات من تصرفات شاذة فى بعض الأحيان؛ وقد يكون السبب أيضاً وفرة المال ، فامتلأت بالغرور، وأحست أنها ترتفع فوق مستوى مواطنيها ؛ ولكن النتيجة على كل حال أن فقدت ميزاتها كهندية حرة ، وأصبحت مخلوقاً عجيباً ، ما هو بالأوروبى ، لاختلاف اللون والتقاطيع والعبادة والعادات ،

وما هو أيضاً بالهندى ، لشذوذه عن الحياة المألوفة عند الهنود . ولا شك أن تشبه البارسى رجالا ونساء بالأوروبيين ، وتعلقهم بأهداب المدنية السكسونية ، قد أبعد قلوبهم عن الهند ، وشغلهم عن قضاياها الوطنية .

وفى الهند فريق آخر من الشعب يبعث وجوده الحزن والرثاء ، وهو فريق المولدين ، أنصاف الهنود وأنصاف الأوروبيين ، ويعرفون هناك باسم « الأنجلو إنديان » . وهنا أحب أن أوجه النظر إلى أن هذا الإسم لا يطلق أبداً على من كانت أمه انجليزية ووالده هندياً ، فان هذا يعتز بهنديته ، ويعتبر هذا الإسم إهانة لا تغتفر؛ وإنما يطلق فقط على من كانت أمه هندية ووالده إنجليزياً .

وكان هذا الفريق — أى نتاج الأم الهندية والأب الإنجليزى — ينظر إلى إنجلترا كوطنه وبلاده ، وظل على هذا الشعور أجيالا ، مما أفقده احترام الهنود وصداقتهم ؛ ولكن الإنجليز أنكروه ولم يعترفوا قط بانجليزيته ، فعاش أهل تلك الفئة حيارى ، لا يعرفون لأنفسهم وطناً أو مصيراً .

ويعانى نساء الأنجلو إنديان احتقاراً اجتماعياً شاملا، فالانجليز يزدرونهن ، والهنود يمقتونهن ، وأبواب المجتمع والوظائف المحترمة

مغلقة فى وجوههن ، فكانت النتيجة أن انحطت أخلاق بعضهن انحطاطاً شديداً ، وساء سلوكهن ، وتمرغن فى الرذيلة ، فازددن شقاء على شقاء .

هذه نظرة إجمالية تشرح لنا حالة نساء الهند على تعدد عقائدهن وأجناسهن ، وترينا أن المرأة فى تلك البلاد ما زالت محرومة من حقوقها الاجتماعية التى تكفل لها التقدم والأمن والاستقرار .

ولكن الهندية مع حرمانها من ذلك ، تتمتع بحق التصويت والانتخاب ، وهو تاج الحقوق الذى لا تناله المرأة عادة حتى تستكمل مطالبها الحيوية الأخرى . ومن دواعى السرور أن الهندية تمارس هذا الحق بشجاعة واستقلال فى الرأى ، غير متأثرة بعوامل داخلية أو خارجية . وقد قابلت سيدات أعطين أصواتهن فى الانتخابات من يخالفون أزواجهن فى الرأى والمبدأ ، فضربن بذلك مثلا أعلى فى فصل السياسة والصالح العام ، عن العلاقات الزوجية وصلات القربى والرحم .

٦

من أبرز ما يراه المسافر إلى الهند فى الوقت الحاضر يقظة سياسية جديدة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ تلك البلاد ، فقد صُوِّر لنا الهنود فى الماضى صورة المستسلم الراضى ، حتى أساء العالم الخارجى حكمه عليهم ، وظن الناس خطأ أن الاستسلام والرضى طبيعة فيهم . والحقيقة أن الهندى ليس مستسلماً أو ذليلا بل هو أبىّ جسور ينشد الحرية ، ويتوق إليها كغيره من أبناء الشعوب الأخرى ، فإن كان قد خضع واستكان ، فقد فعل ذلك مضطراً أمام مشكلات اجتماعية معقدة ، شغلت ذهنه عن قضية بلاده .

و فى الهند الآن يقظة سياسية شاملة ، فالنفوس ثائرة على الاحتلال ، والشعب أجمع يسعى إلى تحطيم تلك الأغلال التى أذلته طويلا ؛ و إن انقسم الناس فريقين : أحدهما — وهم الهندوس — يطلب الاستقلال بلا قيد ولا شرط ، و الآخر — وهم المسلمون — يضع لذلك الاستقلال بعض القيود والاشتراطات التى يراها لازمة لحفظ كيانه ، وتأمين نصيبه من العدالة الاجتماعية .

وبلاد الهند مدينة بهذه اليقظة للحرب العالمية الثانية ، فقد جُندت منها جيوش قوامها مليونان ونصف مليون مقاتل ، وأرسلت تلك الجيوش عبر البحار إلى عالم كان الهنود يجهلونه من قبل ، فنزلوا بلاداً تتمتع شعوبها بالحرية والاستقلال ، ورأوا كيف يكون الحال عندما يحكم الشعب نفسه ، وعندما يحكمه أجنبي تحول مصالحه الشخصية دون التقدم والإصلاح .

وحمل الجيش الهندى رسالة الحرية إلى بلاده ، فآمن الكل بها ، ووازنوا بين أنفسهم ، وبين غيرهم ؛ وخرجوا من الموازنة بنتيجة تقول: إن حالتهم الحاضرة لن تصل بهم إلى التقدم والرقى .

وليس أدل على اليقظة الشاملة ، ومبلغ قوتها فى بلاد الهند ، مما حدث لجيش الهند الحرة ؛ فعند ما حارب الحلفاء فى سنغافورة ساعدهم جيش هندى كبير يرأسه ضباط ثلاثة أحدهم مسلم والثانى هندوسى والثالث سيخ ، فلما سقطت سنغافورة بقواتها فى يد اليابانيين ، عرض هؤلاء على الجيش الهندى أن يحارب فى صفوفهم ، مقابل وعد كتابى باستقلال الهند ، وتحريرها تماما عند النصر .

وقبل الهنود عرض اليابانيين ، وانضموا بقواتهم إلى صفوفهم

وأطلقوا على أنفسهم اسم الهند الحرة ؛ فلما سقطت سنغافورة ثانية فى يد الحلفاء ، أسروا الجيش الكبير ، وسجنوا جنوده ، وقدموا جميع ضباطه إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى .

وكان الأمر سينتهى بهم حتما إلى الإعدام ، لولا أن قام الشعب الهندى قومة واحدة ، واجتمعت جهود الهندوس والمسلمين والسيخ ، للمطالبة بإطلاق سراحهم حالا ، بحجة أنهم حاربوا مع اليابانيين رغبة فى تحرير الهند ، وهى رغبة تملأ قلب كل هندى ، فإن كانت تلك الرغبة جريمة فليحاكم أهل الهند جميعاً !

وقامت المظاهرات فى كل مكان ، واشتبك القائمون بها والحاكمون فى معارك دامية ، فأطلق الرصاص ، ومات كثيرون ، فلم يثن الموت الهنود عن جهادهم . واشتد ضغط الرأى العام ، وتفاقم الغضب والسخط ، حتى أنذرت الحالة بقرب وقوع ثورة أهلية خطيرة .

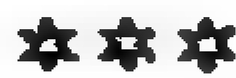
وقامت المرأة الهندية فى هذا الجهاد بقسط كبير ، فتصدرت صفوف المجاهدين ، وتزعمت حركة إنقاذ الجيش ، وتناقش المؤتمر النسائى فى هذه النقطة ، وأصدر قراراً حازما يشارك به الرجال

فى استنكارهم للمحاكمة ، ويطالب بحرية الضباط والجنود .

وأجيبت الرغبة العامة أثناء إقامتى بالهند ، وأوقفت المحاكمة فعلا ، وأطلق سراح القادة الثلاثة وضباطهم . ولا أظن أننى سأنسى ذلك اليوم ما حييت ، فقد خرجت الجماهير هاتفة مهللة ، وازدانت البلاد بالأعلام والمشاعل والأنوار ، ووضعت الشموع الصغيرة الموقدة متقاربة على أرصفة الشوارع ، وبين غصون الأشجار ، فبدت مدينة دلهى ، وكنت بها إذ ذاك ، متناهية الروعة والبهاء .

وعند ما عدت إلى مصر قرأت فى الصحف أنباء من الهند تشير إلى إعادة محاكمة القائد المسلم وأحد الضباط من بنى دينه ، فلما استفسرت عن السبب علمت أن إيقاف المحاكمة كان خطوة جريئة من جنرال أوكنلك حاكم الهند العام . وقد قام بهذه الخطوة مدفوعا بعطفه الظاهر على الهنود ، وتقديره الكامل للشعور الذى يدفعهم إلى وقوف مثل هذه المواقف ؛ وهو التقدير الذى جمع حوله قلوب الهنود جميعاً ، مع أنه يمثل المستعمر الذى يكرهونه . ويبدو أن جنرال أوكنلك أمر بإيقاف المحاكمة ، وإرضاء الهنود ، دون الرجوع إلى حكومته ، وأخذ مشورتها ،

فوجئت بريطانيا بقراره المتسامح ، فثارت النفوس فى داوننج ستريت ، وراجعته حكومته بشدة ، مما اضطره إلى إعادة النظر فى قراره السابق ، وتهدئة الرأى العام فى بلاده ، بتقديم كبش الفداء فى شخص هذين الضابطين ، بتهمة جديدة أمكنه التوصل إليها و إثباتها ؛ وهى تهمة القسوة فى معاملة الجنود الذين رفضوا التعاون مع اليابان . وقد قامت الأدلة فى المحاكمة على أن الضابطين كانا يغاليان فى قسوتهما ، فيعلقان الجند الرافضين من أرجلهم ، و يأمران بجلدهم جلداً مبرحاً ، فحكم عليهما من أجل ذلك بالسجن بضع سنوات .



هذا مثل واحد من أمثلة كثيرة لليقظة السياسية فى الهند ، وللوعى الاجتماعى الذى كشف الغشاء عن أعين الهنود ، فرأوا ما لم يروه من قبل ، وتبينوا مواطن الضعف ، فساد التذمر ، وعمت الشكوى ، وترددت بها الألسن ، وأفعمت القلوب برغبة جامحة فى التحرر ، حتى يصفو الجو ، وتنطلق أيدى المصلحين فى وضع المشروعات التى تعالج العلل الحاضرة ، وترفع شأن البلاد .

وقد لاحظت الثورة السافرة ، ورأيت القلق البالغ ، وسمعت

شكوات مريرة ، فتحدثت مع هندى كبير أعتقد أنه لا يبالغ كثيراً فى كلامه ، واستوضحته طبيعة الأمور التى يشكو الناس منها ، فسرد على كلاما طويلا ، أورد فيما يلى أهمه فى نظرى .

يقول صديقى الهندى : إن حالة الحكم فى البلاد لا ترمى إلى تقدم وإصلاح ، بل تعمل على بقاء العلات والعيوب ، حتى لا يرتفع للهنود شأن ، أو تقوم لهم قائمة ؛ فميزانية التعليم مثلا مقصورة على الأموال التى تجبى من الضرائب المفروضة على الخمور ، والهندوس وهم معظم الشعب لا يشربون الخمر ، والمسلمون وهم البقية لا يتذوقونها ، فالخمور المستهلكة إذاً قليلة فى الهند ، وأموال ضرائبها ضئيلة لا تكفى تعليم فئة صغيرة من الشعب .

وتبيح الحكومة الهندية تداول المخدرات ، وفى إمكان كل إنسان أن يشترى الأفيون من أقرب بدال إلى بيته ، ولهذا التساهل ينغمس فقراء الشعب فى هذه الرذيلة ، فتنحط الصحة العامة ، ويزداد هزال الناس جيلا بعد جيل ، ويبلغ بهم خمول الذهن والبدن حداً يمنعهم من القيام بأعمالهم على أكمل الوجوه .

وبلاد الهند مرتع خصيب لمختلف أنواع الأوبئة والأمراض ،

فالتيفود والتيفوس والجدرى تنتشر انتشاراً فاحشاً ، ومع ذلك لا يوجد قانون يحتم الحقن والتطعيم لوقاية الأهالى ، والأمر متروك لرغبتهم الخاصة ، اقتداء بالنظام القائم فى الجزر البريطانية ، ولكن الجزر البريطانية لا تتعرض للأخطار بسبب عدم انتشار تلك الأمراض هناك ، وظهور حالة منها كل سنوات ؛ أما حالة الهند فتختلف عن ذلك ، فالجدرى والتيفود والتيفوس تفتك بأرواح عشرات الآلاف كل عام ، مما لا يقبل معه المنطق تطبيق قانون واحد على البلدين .

والهند على كبرها ، ووجاهة مدنها الحديثة لا تعرف نظام المجارى ؛ والفضلات تجمع فى مخازن يكسحها المنبوذون يوميا ، وفى ذلك إضرار بالصحة العامة ، وتعقيد لمشكلة هذه الطبقة من الشعب .

ونظام الحكم مشوه فى الهند ، فالبلاد تنقسم قسمين : أحدهما فى يد الإنجليز ، والثانى مقاطعات يحكم كلاً منها « مهراجا » أو « نظام » طبقاً للنظم الاقطاعية القديمة . و بعض هؤلاء الحكام عادل يعمل لخير شعبه ورفاهيته ، والبعض الآخر ظالم جائر يعيش من أجل المتعة وجمع المال . ولا تتدخل السلطات فى أمر

هذه المقاطعات ، وبذلك تشترى ولاء حكامها ، فيقرضونها مئات الملايين فى الحروب والأزمات . وقد أقرض أحدهم الحكومة البريطانية ثلثمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات عند بدء الحرب العالمية الثانية ! !

هذه بعض النقط التى ذكرها محدثى الهندى الكبير ، وقد تكون صحيحة ودقيقة ، وقد يكون فيها كثير من المبالغة ، ولكنى سردتها كما سمعتها منه .

ومما لا شك فيه أن الاستعمار قد أصاب الهند بجراح بالغة ، لا يتحقق علاجها إلا بالاستقلال . والهند جديرة بالحرية ، فقد تألمت كثيراً واستغلت طويلاً ، ومع ذلك قامت في الحرب بدور مجيد كان عاملا أساسياً فى اكتساب النصر ، ورجحان كفة الحلفاء .

ولقد قاسى الهنود من أجل هذا الدور مالم يقاسه شعب آخر ، فقد جند منهم مليونان ونصف مليون مقاتل من خيرة الرجال وزهرة الشباب ، فكسبوا النصر بدمائهم ، وأتوا من ضروب الشجاعة ما عجز عنه غيرهم ، بدليل أنه فى معركة بورما استحق الهنود سبعة عشر وساماً من صليب فيكتوريا ، وهو أعظم أوسمة

البطولة والبسالة ، مع أن الذى وزع منها فى هذه المعركة عشرون وساماً فقط !

ولم تقتصر التضحيات على الأرواح ، بل تعدتها إلى النواحى الاقتصادية والحيوية ؛ ففى بدء معركة شمال أفريقية اشتدت حاجة الحلفاء إلى القضبان الحديدية ، فخلعوا من أراضى الهند ما يزيد طوله على ألفين ومائتى ميل ، مع شدة احتياج البلاد إليه ، بل إلى أضعاف أضعافه . وكانت النتيجة أن شلت حركة النقل للمدنيين ، فقاض الطعام وتعفن فى بعض المقاطعات ، وقد مات ملايين الناس جوعا فى مقاطعات أخرى ؛ وحادث مجاعة البنغال مازال ماثلا فى الأذهان !

ومن أجل الصناعات الحربية جندت الهند جميع مصانعها حتى ما يقوم منها فى أصغر القرى والعساكر ؛ فمونت الجيوش بالمعدات والآلات والأنسجة والذخائر ، وأرسلت ملايين الأطنان منها عبر البحار ؛ فمن الأنسجة القطنية مثلا أخذت الولايات المتحدة فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ما يقرب طوله من سبعين ألف ميل !! وأخذت الصين أحد عشر ألف ميل ؛ هذا إلى مئات الآلاف التى أخذتها الدول المتحالفة الأخرى ! .

وقامت المصانع الهندية بصنع أربعة ملايين ونصف مليون مظلة من مظلات الهبوط . وأربعمائة مليون قطعة رداء عسكرى خاكية اللون ، وملايين الثياب الخضراء المستعملة فى حرب الغابات وخمسين مليوناً من الأحذية ، وكل هذه الأشياء من أقطان الهند وأصوافها وحريرها وجلودها .

وتناقص الكساء بين المدنيين بطبيعة الحال ، وخلت أسواقهم منه ، فانتحر بعض النساء عندما عجزن عن إيجاد ما يغطى أجسادهن .

ولقد كانت الهند خلال الحرب العالمية الثانية قاعدة حربية هامة ، فأرسلت إليها قوات لاعداد لها من أمريكا وانجلترا وكندا وجنوب أفريقيه واستراليا والصين ، فاضطرت الحكومة الهندية لأن تبنى مساكن لهؤلاء النزلاء تسع مليوناً وربع مليون جندى ، وأقامت مخازن على أرض مساحتها إثنان وأربعون مليون قدم مربعة ، ومائتى حقل للطيران ، ومائة وثلاثين مستشفى كبيراً . وعمت بسبب ذلك أزمة المساكن ، واستحال بناء جديد منها ، لعدم توافر مواد البناء ، وأصبح المألوف أن نرى هناك أسراً طيبة تعيش فى الخيام !.

والاستقلال هو مكافأة الهند الوحيدة ، التي يجب أن تنالها مقابل جهدها الجبار ، وتضحياتها الكبيرة ، ودورها المجيد طيلة سنوات الحرب والقتال .

ولا شك أن الشعب الهندى مجيد نبيل ، له من الصفات



جامعة بشاور الإسلامية

العظيمة ما يميزه ، وما يكفل له مستقبلاً فريداً . أما عيوبه فنتيجة الاستعمار والجهل ، وانتشار الأمية بين الناس، وعندما يسود التعليم وتضمحل تلك الأمية ، ستداوى الهند جراحها

بيدها ، وترتق التمزقات الكثيرة المنتشرة فى ثوب مجتمعها ، وإذ ذاك سيكون لها شأن كبير .

ونحن إذ نتكلم عن الأمية فى الهند ، فما ذلك إلا لأن الجهل يسود ثلاثة وتسعين فى المائة من أفراد الشعب ، والمتعلمون سبعة فى المائة فقط ، وهو عدد عظيم وإن قلت نسبته ، فالمتعلمون هناك ثلاثون مليوناً ، أى ضعف الشعب المصرى بأكمله .

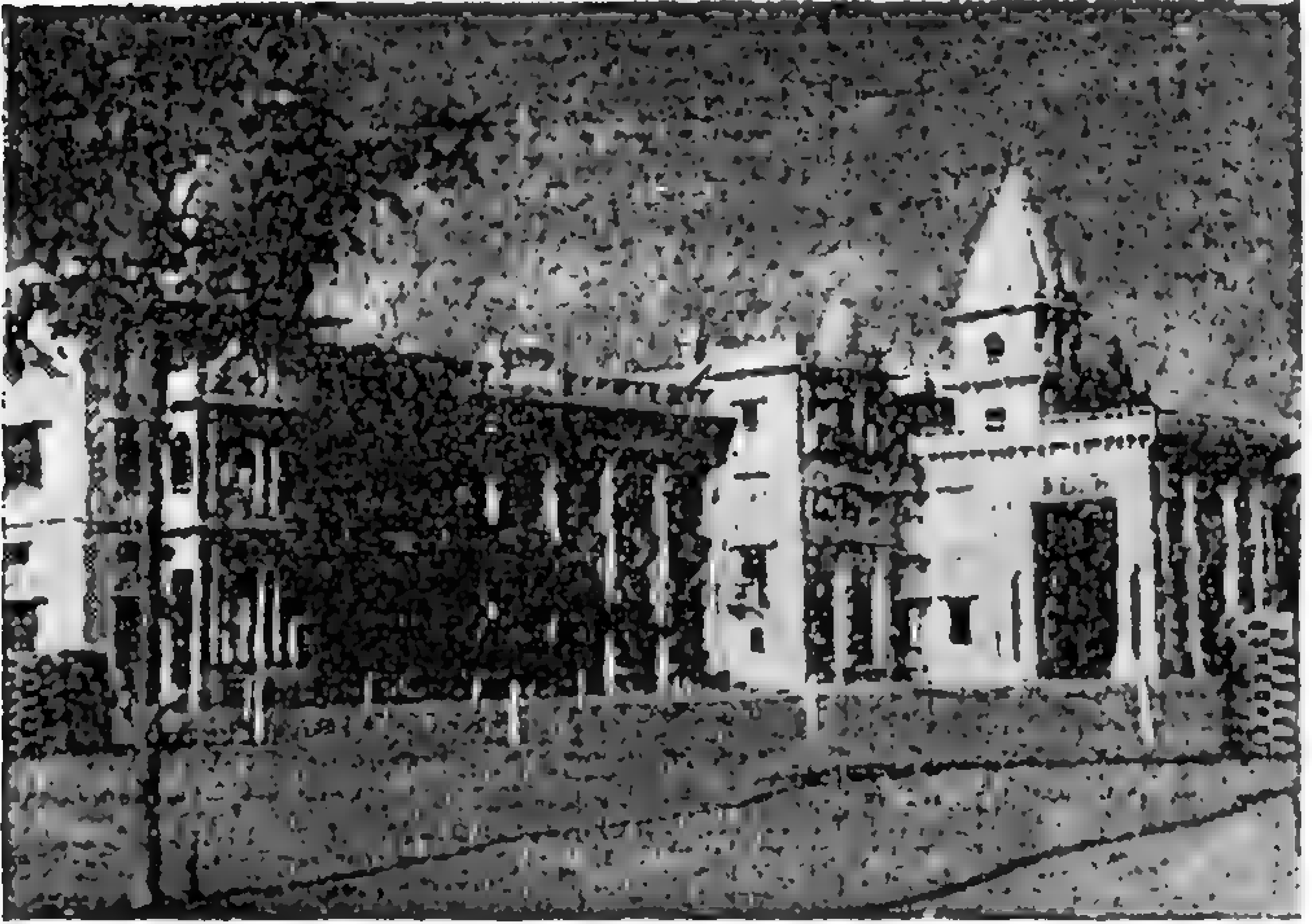
وفى الهند جامعات ومدارس كثيرة ؛ فهناك من هذه المعاهد سبع وعشرون ألفاً وخمسمائة ، لمختلف أطوار التعليم ودرجاته ، منها ألفان وستمائة مدرسة ثانوية ، وعشرون ألفاً ابتدائية ؛ وثمانية وتسعون معهداً صناعياً وفنياً .

وفى الهند سبع وعشرون جامعة ، بلغ بعضها من الرقى والتوسع ما يضعها فى مصاف خير الجامعات الأوروبية : كجامعات بومباى ، وكلكتا ، ومدراس ، وميسورى ، وناجبور وباتنا ، وبنجاب ، والله آباد ، وبنارس ، ثم جامعة آجرا الإسلامية الشهيرة .

وتقع كل من هذه الجامعات فى وسط مقاطعة هامة بحيث

يسهل على الناس أن يقبلوا عليها من جميع أنحاء الهند ، فيرتشفوا فيها مناهل العلم العذبة .

وهذه المعاهد على كثرتها وتعددها قطرة فى بحر زاخر فأهل الهند أربعمائة مليون ، ومثل هذا العدد يحتاج إلى عشرات أمثال عدد المدارس الموجودة فى الوقت الحاضر .



جامعة بنارس الهندوسية

ولقد تبين الهنود — بفضل يقظتهم الحاضرة — مدى ضرورة العلم لتقدمهم، وإصلاح عيوبهم الاجتماعية حتى الطائفية

منها ، ولذلك يعملون على نشر المدارس ومضاعفتها فى أسرع وقت ممكن .

٧

لا أظن أننى شاهدت مدينة خلفت فى نفسى أثراً بليغاً مثل دلهى عاصمة الهند ، وسيدة المدن ، وقبلة السائحين الذين يتوافدون عليها من أجل مشاهدة آثارها ، ودراسة معالم تاريخها .

وتعتبر دلهى من أقدم مدن العالم ، فقد شيدت قبل روما ، وعرفت قبل عهد الإسكندر ، وظلت منذ ذلك الوقت محتفظة بجمالها ورونقها ، فلم تنل الدهور المتعاقبة شيئاً من عزتها وجبروتها ، ولم تهز الأحداث التاريخية مكانتها ، فقد كانت دلهى أقوى من التاريخ ، فوقفت غير عابئة به مهما تقلبت أطواره وتباينت صفحاته .

ولا أظن أن أحداث المستقبل ، مهما عظمت ، ستؤثر على تلك المدينة ، أو تحنى رأسها ، فتنكسر شوكتها ، فقوة دلهى لا تكمن فقط فى مبانيها الجميلة وآثارها الرائعة ؛ بل إن تلك القوة تنبعث أيضاً من موقعها الفريد ، فهى تمتد من الجنوب إلى

الشمال ؛ فتقع فى مهب الرياح الجبلية الطيبة التى تخفف كثيراً من وطأة صيفها الهندى القائظ ؛ فضلا عن أنها تقوم عند مفترق الطرق الهندية الهامة ، بحيث تستطيع أن تطل من برجها الشامخ على أنحاء البلاد المختلفة ، فتملك ناصيتها .

وتقع دلهى عند نهاية ممر كبير ، يجرى من الشمال الغربى ماراً بوديان نهر السند ، بين سلسلة جبال الهملايا ، وصحراء راجبوتانا . ويتسع هذا الممر عند وادى جومنا ، فيصبح سهلا كبيراً ، يتجه نحو الشرق ، ويمتد من الهند الوسطى إلى الجنوب ، فلا يعوقه عائق ، حتى خليج البنغال . وبفضل هذا الموقع الفريد غدت العاصمة مركزاً هاما تلتقى عنده الطرق الحديدية الرئيسية ، وتنتشر منه التجارة ، إلى أنحاء العالم الخارجى .

ولقد قامت فى الماضى محاولات عدة لمحو سلطان دلهى ، وإضعاف قوتها ، بإنشاء عواصم أخرى فى مناطق قريبة ، فباءت المحاولات بالخسران ، وهبت عوامل الطبيعة تحمى مجدها القديم ، فانتصرت العاصمة التاريخية بعد صراع قصير .

ولا يصح أن تعتبر دلهى مدينة واحدة ؛ فهى سبع مدن مندمجة متصلة ، لبعضها تاريخ مجيد ، ولبعضها الآخر ذكريات

محزنة ، ما زالت ماثلة للأذهان بفصل الآثار القائمة : فقد أقام مدنها السبع ملوك وأباطرة متعاقبون ، شاءت التقاليد أن يشيد كل منهم مدينة حديثة تعرف باسمه ، وتخلده على مر الزمن ؛ وعند ما يتم بناء تلك المدينة ، تقام الاحتفالات الرائعة ، والأفراح الكبيرة ، ويشترك الشعب فيها ، فيشبع المحكوم غرور حاكمه ، ويشعره بما أتى من عمل مجيد .

ولا نستطيع أن نتكلم عن دلهى الحاضرة ، دون أن نذكر دلهى الماضية ، فحاضر المدينة وماضيها مندمجان بحيث لا يمكن التفرقة بينهما . وفى كل ركن منها يقوم أثر خالد ، يربط القديم بالجديد ، ويعيد إلى الذهن صفحات مجد تخللتها المآسي والأحزان .

وقد لا يمكن العودة بتاريخ المدينة إلى بدايته ، لأنها أقدم عهداً من أن يستطيع المؤرخ دراسة تلك الحقبة من الزمن ؛ ولكننا نعرف أنها كانت منذ عام ٣٨٠ ميلادية مدينة هندوسية صغيرة ، تعاقب على عرشها حكام هندوس ، منهم الامبراطور « تشاندرا جويتا » الذى ما زال اسمه منقوشاً على عامود حديدى تاريخى .

وظل الهندوس سادة المدينة حتى عهد «پريتڤى راج» الذى اشتهر بقوته وشجاعته ، فكتبت أعجب الأساطير عن غزواته وفتوحاته ، ثم قلبت الأقدار له ظهر المجن ، فقتل فى معركته الأخيرة أمام محمد الغورى عام ١١٩١ ميلادية ، وبموته سقطت المدينة فى يد المسلمين ، فدخلوها منتصرين ظافرين ، وغدت منذ ذلك العهد عاصمة الهند الإسلامية ..

وارتقت دلهى بفضل محمد الغورى ، وقفزت فجأة من مدينة صغيرة إلى عاصمة امبراطورية كبيرة ، تتوالى فيها العهود الإسلامية . وزال عنها شر المغول الذين أقلقوا بلاد الهند طويلا وأنزلوا بأهلها ألوان الشر والتعذيب ، فساد الأمن وعم الرخاء ؛ ولكن الحروب المتوالية ، والإصلاحات الضخمة ، أنهكت محمد الغورى ، فاعتكف بعيداً ، وترك الحكم بين يدى قائده « قطب الدين أيبك » ، مما أطمع القائد فى السلطان ، فأعلن استقلاله التام عام ١٢٠٦ م .

وتاريخ قطب الدين حافل بالمجد ، فقد دعم الأمن والاستقرار ، وحمى الهندوس شر المغول بجيوشه القوية ، وعلى الرغم من توالى الحروب والمعارك ، وجد فسحة من الوقت يقوم فى خلالها

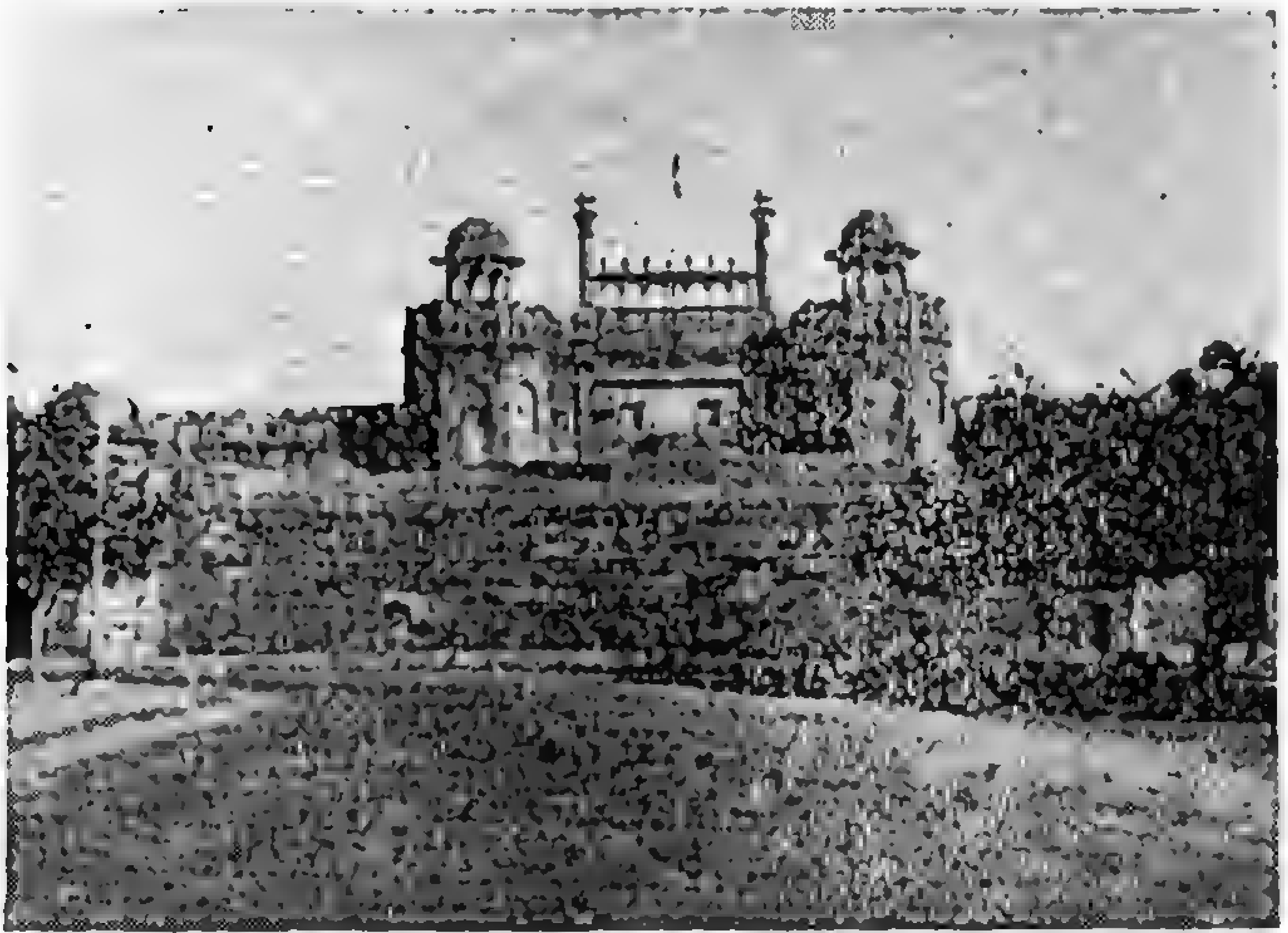
بإصلاحات داخلية ، كان لها أثر كبير فى رقى البلاد سياسة وإجتماعاً ، وسار على نهج من سبقوه فبنى حياً جديداً عند طرف المدينة يعرف الآن بمدينة « قطب » ، وجعل منه قلعة حصينة تطل على الطريق .

وأراد أن يتوج مدينته بجامع جديد ، فأمر بهدم معابد الهندوس ، فهدم منها سبعة وعشرون ، وبنى جامع « قوة الإسلام » بأعمدتها وأحجارها ؛ وبذلك أغضب الهندوس بعد رضا ، وأوغر صدورهم ، فحقدوا عليه ، وعلى أتباعه المسلمين ، فنشأت المشكلة الطائفية بين المسلمين والهندوس ، ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا بقيت مشكلة الهند الأولى !

وكانت دلهى بعد ذلك مسرحاً لظاهرة اجتماعية نبيلة ، تثبت ذكاء بعض حكام الهند المسلمين ، وسبقهم فى ميدان التقدم والتجديد ، فقد خلف قطب الدين ملك اسمه « الطمش » ، لم يعجبه ضعف أولاده وتخاذلهم ، فأورث عرشه ابنته المحبوبة « راضية » ، فكانت المرأة الوحيدة التى ارتقت العرش ، وحكمت الشعب منذ بدأ تاريخ الهند إلى الآن .

وحققت الملكة راضية آمال أبيها ، وأثبتت بتصرفاتها

الحكيمة قوة كبيرة ، ونظراً بعيداً ، وسلامة فى المنطق والسياسة ؛ ولكنها ماتت بعد سنوات ثلاث ، والبلاد مليئة بالفتن والثورات ، لأن راضية لم تتمكن – بالرغم من جبروتها — من تغيير عقيدة الرجال فى حكم النساء !



قلعة دلهى بناها الأمبراطور شاه جهان

وتوالى بعدها ملوك ، ونازع بعضهم بعضاً العرش ، فانتشرت الفوضى ، واختل الأمن ، حتى استقر الحكم فى يد « غياث الدين

توجلاك » فأعاد النظام ، ونشر الرخاء ، وأمن البلاد من المغول الذين تحركوا بفضـــل هذه الفوضى ، وارتفعت رؤوسهم من جديد .

وأراد تسجيل مجده بمدينة أخرى ، فشيد حياً جديداً فى دلهى ، « أسماه توجلاك أباد » ما زالت خرائبه قائمة ، تردد أسطورة عجيبة يتداولها الناس عن السبب فى موت المدينة الحديثة ، وهى ما تزال فى الهد . تقول الأسطورة : إنه كان فى دلهى إذ ذاك شيخ طيب اسمه « نظام الدين » ، أراد أن يبنى لنفسه صومعة فمنعه الملك وطرده ، فغضب الشيخ ولعن المدينة الجديدة ، ودعا عليها بالخراب . وحدث بعد ذلك مباشرة أن هجر الناس « توجلاك أباد » فجأة فخلت إلا من الوحوش والضوارى ؛ فلما سمع الملك بذلك ، خرج على رأس جيش كبير ، لتأديب الشيخ ؛ وأقيمت الزينات وأقواس النصر فى طريقه ، فسقط قوس منهـا على رأس الملك ، فقتل لساعته ؛ مما ضاعف إيمان الناس بقوة نظام الدين وسطوته .

وقد يرجع السبب فى هجر المدينة إلى غير لعنة الشيـخ ، ولـكن المصادفات ساعدت على رواج القصة ، فرجفت قلوب

الناس هلعاً من اللعنة ، وكتب على توجلاك أباد أن تظل إلى الأبد مأوى للقردة و بنات آوى والذئاب !

و تعاقب الملوك على عرش دلهى ، وقام كل منهم بما استطاع من أعمال يتوجها أبداً حى جديد . وكان بعض الملوك خشنا ، فخلف خشونة فى آثاره، وكان البعض الآخر رقيقاً فنانا ، فسجل فى البناء والتعمير تجديدات رائعة . وكان بعضهم متسامحاً ، فعاش الهندوس فى ظله آمنين ، وكان البعض قاسياً متعصباً ، فاضطهد هذه الفئة وأذلها كثيراً .

وفى عهد محمد توجلاك — ثالث حاكم بعد غياث الدين — نزلت بدلهى ضربة قاضية ، حطمت عظمتها ، ونالت من مكانتها وتركتها تتقلب فى ألوان الشقاء ردحا غير قصير من الزمن ؛ فقد اشتد ساعد المغول من جديد ، إثر انحلال العرش فى العهود الأخيرة ، وما نتج عنه من ثورات وضعف . وتحركت أطماع المغيرين ، فقام تيمور الأعرج ليستعيد مجد المغول ، واسترد بغاراته المروعة معظم أراضيهم القديمة ، فلما اكتملت قوته هجم على شمال الهند بجنده الأشداء .

وكانت دلهى قبلته فسار إليها وهو يصحب مائة ألف أسير

هندوسى ، فلما وصل إلى ضواحى المدينة ، فوجىء بجيش يقوده « مالوخان » ، فأثار الجيش وحشية تيمور ، فقتل جميع الأسرى خشية أن يهبوا لمساعدة مواطنيهم ! !

ولم يثبت « مالوخان » طويلا أمام المغير ، فسقطت دلهى فى يد المغول ، واجتاحت جيوشهم الشوارع والقصور ، فتركتها خرائب وأطلالا . واشتبك الأهالى مع الجنود ، وقام بين الفريقين عراك انتهى بأفظع مذبحة يذكرها التاريخ . ولم يبق تيمور بدلهى أكثر من أسبوعين ، وغادرها متجها نحو نهر جومنا ، وعاد إلى بلاده عن هذا الطريق ؛ فلم يكن المغول أهل استعمار دائم ، بل كانوا أشبه بعصابات تسعى وراء الثروة والكنوز ، وتعود بها من حيث أتت .

وتركت غارة تيمور فى دلهى آثاراً لا تنسى ، فعلى الرغم من بقاء العرش ، ذهبت هيبته ، وأصبح عرشاً مزلزلا خاوياً : تحيط به الفاقة ، ويخيمه العوز ، وتتردد فى جنباته آهات الأهالى ، وقد كاد يهلكهم الجوع والفقر . وبقى الملك « محمد توجلاك » على العرش يأتمر بأمر تيمور ، ويرتجف جزعا لذكرى هذا الأعرج ، فيدفعه الجزع إلى تنفيذ أوامر المغير ، وتلبية رغباته .

وعلى جدران المسجد الذى بنى عام ١٤٠٤ نجد وصفاً محزناً ، للشقاء الذى نتج عن غارة المغول ، وللتعس الذى خلفه تيمور وراءه . وبموت « محمد توجلاك » عام ١٤١٤ تختفى حياة كلها شقاء ، وينتهى عهد الأسرة التوجلاكية ، التى حكمت دلهى أجيالا متعاقبة ، ويليها حكم المغول بما فيه من فضائل ونقائص .

ولم تترك عهود المغول الأولى غير خرائب نراها اليوم فى دلهى ، حتى تولى العرش الامبراطور العظيم « أكبر » فاستهل حكمه بمحاربة الهندوس الذين قويت شوكتهم ، فاستقلوا بدلهى ، ونصبوا عليها واحداً منهم ، فهزمهم شر هزيمة ، وأعاد سلطان المسلمين على المدينة .

ولا شك أن « أكبر » أعظم باطرة الهند قوة وجبروتا وصلاحاً ، ولكنه كان متقلب المزاج ، نارى الغضب ، فإذا ثارت ثورته ، أتى أهول الأعمال وأقساها . ويذكر تاريخ الهند قصصاً كثيرة عن غضبات هذا العاهل ، منها أنه كان لأكبر مرضع أفرط فى حبها ، فغدت وابنها «أدهم خان» صاحبى السلطة والقوة فى البلاد . واستلان لهما « أكبر » عن طيب خاطر ،

فنفذ سياستهما ، وعمل بمشورتهما ، مما حرمه الاستقلال فى الحكم والرأى .

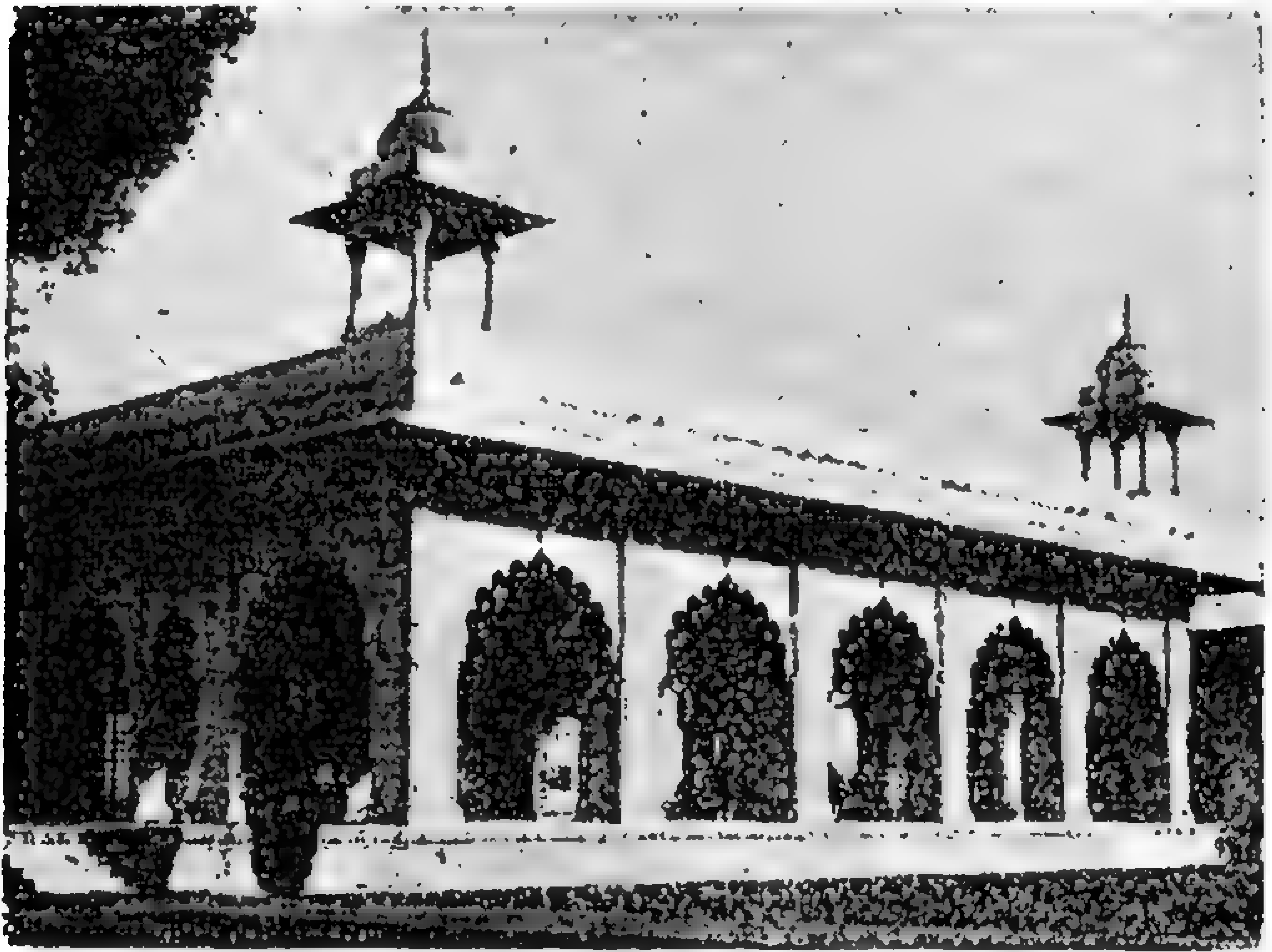
وحدث ذات يوم أن قامت مشادة بين « أدهم خان » وأحد الأمراء ، وانتهت المشادة بأن قتل « أدهم » الأمير فى بهو من أبهاء القصر ، ثم خشى أن تصل القصة مشوهة إلى الإمبراطور ، فأسرع إلى مقابلته ، واقتحم حجرته ، وما زال سلاحه فى يده ، لطلب العفو والمغفرة من صديقه وأخيه فى الرضاعة .

وفوجىء « أكبر » بابن المرضع أمامه بسلاحه فانقلب مزاجه ، وتأججت نيران غضبه ، فلم ينتظر حديثاً أو إيضاحاً ، وهجم على « أدهم » وحمله بين ذراعيه ، وألقاه من النافذة ، فسقط فوق أسوار القصر قتيلا مهشما ! !

وعندما زايله الغضب تبين أن المرضع لن تغفر له قتل ابنها الوحيد ، فأقصاها عن القصر ، وأبعدها عن المدينة ؛ واستقل بالحكم والرأى ، ولم يعد هناك من يوحى إليه أو يوجهه .

واستعادت دلهى مجدها ثانية ، فغدت كما كانت قديما سيدة المدن ، وتاجها الرفيع ، ولكن محنة أخرى نزلت بها ، ففى يوم من عام ١٥٦٤ كان الإمبراطور « أكبر » يمتطى صهوة حصانه

فى طريقه إلى قصره بعد جولة خاصة ، فقام أحدهم بمحاولة للاعتداء على حياته ، فتضايق الإمبراطور ، وقرر أن يؤدب أهل دلهى جميعا ، فأمر بنقل عاصمة ملكه إلى مدينة «آجرا» ، وبذلك قضى على تجارة البلدة ، التى كانت تقوم على التعامل



ديوان ايقاس
أو قاعة الاجتماعات الخاصة بقصر شاه جهان

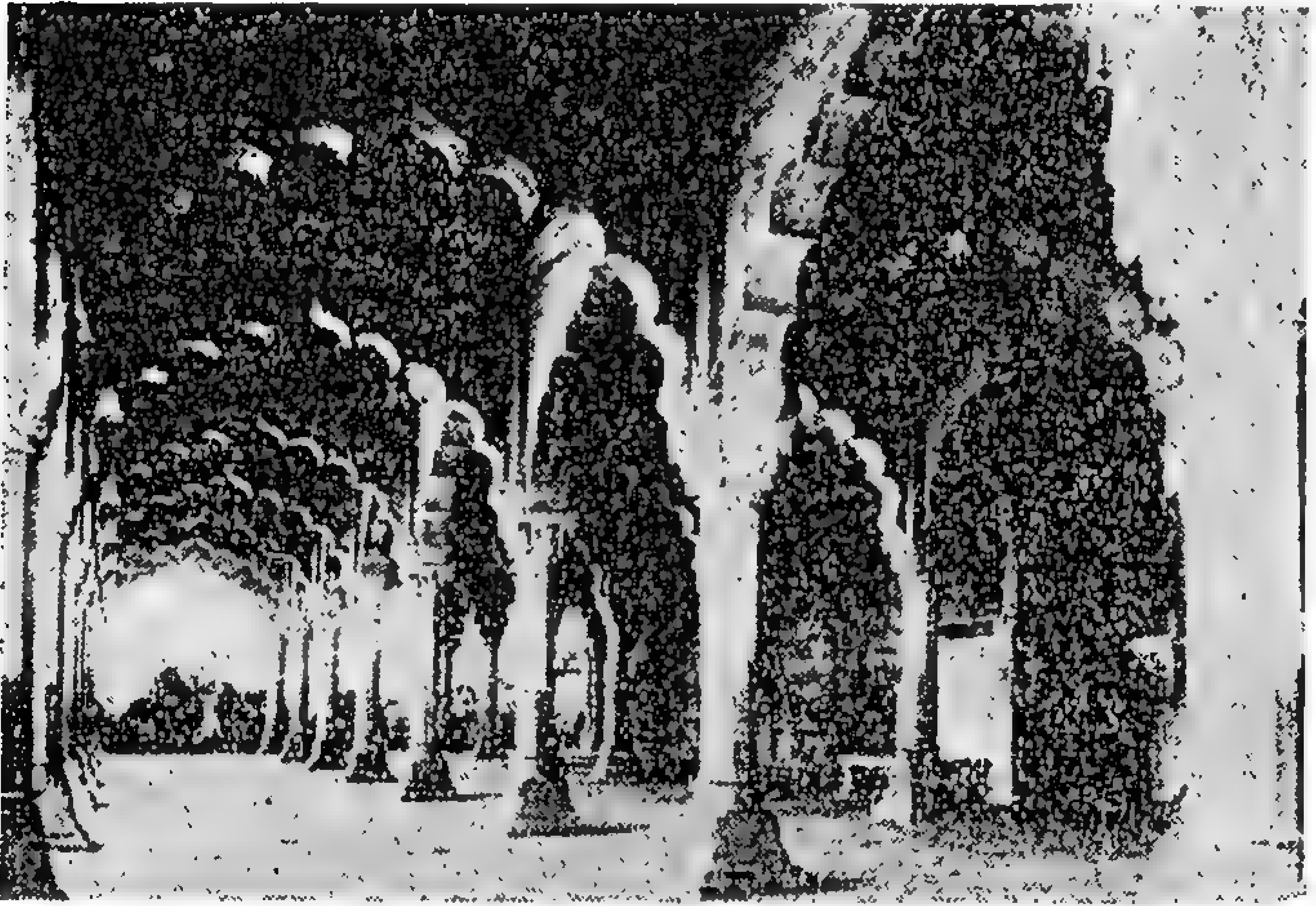
مع البلاط والأمراء والحكام ؛ وقاست دلهى أزمة اقتصادية شديدة ، أنزلتها مرة أخرى إلى مدينة ثانوية لا حول لها ولا قوة.

وانتعشت « آجرا » على أطلال محنة دلهى ؛ وظلت معقل الأباطرة بعد عهد « أكبر » ، وبلغت أوج عزها ورفاهيتها فى عهد « شاه جهان » الذى أغرم بالجمال فى المبانى والمنشآت ، مما جعل تلك المدينة جنة وارفة الظلال .

ولشاه جهان قصة خلدته إلى اليوم ، فقد كان له زوجة إسمها « ممتاز » ، اشتهرت بجمالها الرائع وحسنها الفريد ، فتدله الإمبراطور فى حبها ، وفضلها على نسائه الأخريات . وماتت ممتاز فى أوج شبابها ، فحزن زوجها عليها ، وشيد لها مقبرة «تاج محل » بمدينة آجرا، وتعتبر هذه المقبرة أعظم قصور الدنيا ، فقد بنيت جدرانها بأثمن أنواع المرمر ، وزينت بالذهب الخالص ، ورصعت بالماسات واللآلىء النادرة ؛ وهو عمل جديد فى البناء لم يعرف من قبل أو من بعد . ويقال إن منظر القصر فى ضوء القمر قد ذهب بلب بعض الأوروبيين ، فاختبلت عقولهم أمام جماله الساحر .

وكما ارتفعت آجرا فى أيام شاه جهان ، قدر عليها أن تموت فى عهده أيضاً ، فقد أراد الإمبراطور أن ينشىء شوارع واسعة فى الحى التجارى ، ولكن التجار رفضوا الخضوع لإرادته ،

وأبوا تخريب حوانيتهم بتلك الطرقات الواسعة ، وبذلك صبوا الخراب على رءوسهم ؛ فقد عاد بالعاصمة إلى دلهى ، ليلقى على العصاة درساً لا ينسى ، فدبت الحياة فى سيدة المدن ، وماتت



ديوان إيام أو قاعة الاجتماعات العامة بقصر شاه جهان

غريمتها بعد بوار تجارتها ، ودمار تجارها الجشعين !

وبنى شاه جهان حياً فى مقره الجديد ، وأقام « جهان أباد » عند أطراف دلهى ، وتوجها بقصر منيف ، وجامع فسيح ،

وقاعة كبيرة للحفلات ، فبذت بجمالها وفخامتها ما سبق أن بناه الأباطرة السابقون . وظلت إلى اليوم صبية وفتية ، وقد هرمت مدن دلهى الأخرى ، وتداعت جدرانها ، وأمست خرائب وأطلالا .

ولا شك أن دلهى أفادت كثيراً خلال عهد شاه جهان ، وسمت إلى مكانة لم تصل إليها من قبل ، فانتقلت إلى أوروبا شهرة ثرائها وجمالها ، واسترعت أنظار الكتاب والأدباء هناك ، فكتبوا الكثير عنها ، مما دفع تجار الغرب إلى زيارتها ، فباعوا تحفهم لبلاطها ، وعادوا بأضعافها إلى بلادهم .

ولكن الثراء يورث الطمع ، فعند ما اشتد المرض بالإمبراطور تنازع أولاده الملك ، وعمل كل منهم على استلابه دون الآخرين ، وتوج ابنه « أورنجزيب » نفسه على شمال المدينة ، واعتقل والده ، ونقله إلى آجرا ، ويقال إنه سجنه حتى موته فى غرفة صغيرة تطل من بعيد على « تاج محل » ، ليرى فى كل لحظة رمز مجده ، ويوازن بينه وبين تعسه وشقاوته !

وبعد وفاة شاه جهان خرج أورنجزيب يبحث عن أخيه « دارا » ليقتله ، ويزيحه من طريقه ، فظفر به أخيراً . وتقول كتب

التاريخ إن الأخ القاسي وضع «دارا» على حصان وقد اتجه وجهه إلى الذيل ، ليكون هذا دليل الذلة والمهانة ، وأمر أن يطوف هكذا في جميع أنحاء المدينة ، ثم قتله بعد الطواف شر قتلة ، فبكى الناس أميرهم المحبوب ، وحزنوا عليه عهداً طويلاً .

وحكم أورنجزيب بلاد الهند حتى بلغ الواحدة والتسعين من عمره ، فكان مصدر الرعب والفزع ، ورمز الوحشية المنقطعة النظير ، حتى عاش ابنه « باهور شاه » أربعين عاماً وهو يرتجف لمجرد رؤية اسم ابيه مخطوطاً على الورق !

وظلت دلهي معقل الأباطرة حتى أفل نجم المغول ، وغربت شمس إمبراطوريتهم ، فزالت بزوالهم صفحة هندية ، مليئة بالمجد والشر : فقد كان حكم المغول على عظمته ومظاهر عمرانه ، حاشداً بالمؤامرات والدسائس والتقتيل ، ففسدت أخلاق الشعب ، وارتفعت رءوس المشاغبين ، وتوالت الثورات والمذابح ، وتسلل إلى البلاد خطر داهم ، يتمثل في شركة تجارية انجليزية هي « شركة الهند الشرقية » ! ! !

وتوطدت دعائم الشركة فوق أطلال الفساد والانحلال ، وتأصلت جذورها مع عهود الثورات المتوالية ، وبلغت قوة

لا يستهان بها أيام الإمبراطور « علم شاه » ، فلما أحس جنود المهراتا — حرس الإمبراطور — بالخطر المقبل ، نظموا الجيوش لمحاربة الإنجليز ، وهجموا على قوات لورد ليك ، فردهم على أعقابهم ، واحتل دلهى ، فذهب استقلال الهند إلى الأبد !

ولم يرض المهراتا بالهزيمة ، فأعادوا تنظيم جيوشهم ، وحاصروا دلهى بعد عام ، ولكنهم خذلوا ثانية أمام الإنجليز ، واضطروا إلى رفع الحصار بعد أسبوعين . وتلا رفع الحصار ثورة داخلية قام بها المسلمون لطرد المستعمرين ، واستعادة مجدهم فى الهند ، ففشلت الثورة ، وأتت بعكس النتيجة المرجوة ، إذ عقد الانجليز عزمهم على إخماد أنفاس تلك الفئة المشاغبة ، فصادروا أملاك المسلمين ، وقتلوا خيرة رجالهم ، وطردوا الباقين من المدينة ، وشردوا النساء والأطفال ، وهدموا المساجد الصغيرة ، وأسكنوا جنودهم في الكبيرة منها ، حيث لا تزال آثار نيران مطابخهم باقية على جدرانها إلى الآن !

ورحب الهندوس بالمستعمر الجديد ، ووجدوا فيه منجداً لهم من أعدائهم الأولين ، فاستجاب الانجليز لشعورهم ، واحتضنوهم

وخصوهم بالمراكز والوظائف العالية وغير العالية ، فدالت دولة المسلمين فى الهند ! ! !



هذا هو مجمل تاريخ مدينة دلهى ، وفيه تقرأ قصة بلاد الهند كلها ، بأحداثها السياسية والطائفية ، فدلهى كما قلت سابقا هى الهند ، والهند دلهى ، ومن المستحيل الفصل بين الأثنتين ، ففى جوها يختلط القديم بالحديث ، وعلى مسرحها يمتزج الماضى بالحاضر ، مما يضفى عليها سحراً عجيبا .

وعلى مقربة من دلهى القديمة أنشأ الإنجليز عام ١٩٣٠ مدينة أخرى هى دلهى الجديدة ، وفيها تتمثل روح العصر الحديث وفنه ، فبيوتها صغيرة أنيقة ، تحيط بها مسطحات واسعة من الحشائش الخضراء ، والأشجار الباسقة المظللة ، حتى لتعجز العين عن رؤية المنازل المختفية وراءها .

ويخترق المدينة طريق « كوينزواى » ، ويقوم على رأس هذا الطريق قصر نائب الملك ، الذى زاره دوق وندسور أيام

كان ولى عهد الامبراطورية البريطانية ، فقال لفرط ما رآه من البـذخ :

— الآن عرفت كيف يعيش المرء عيشة الملوك !

وتقوم دور الحكومة فى قلب دلهى الجديدة ، وتتكون تلك الدور من بناءين ضخمين متواجهين: أحدهما «السكرتارية» والأخرى « المجلس التشريعى » وكلاهما مبنى على الطرزين الكلاسيكى والهندى .

وتسترعى دار الإذاعة الأنظار بجمالها ، فهى بناء مستدير به اثنتا عشرة غرفة للغناء والمحاضرات، فرشت أرضها بالبسط الحمراء الجميلة ، ويتوسط كل منها مذياع صغير منخفض لا يزيد ارتفاعه على قدم ، لأن العادة المتبعة هنـاك أن يجلس الفنانون على الأرض !

وبدار الإذاعة واحد وعشرون جهازا للارسال مما يجعلها من أقوى محطات العالم ، ويمكن القائمين بها من إعداد برامج شتى بالعربية والإنجليزية والإيرانية ولغات الهند المختلفة .

ودلهى الجديدة تعتبر عن جدارة أنظف مدن الهند فلا تعيش بها ذبابة أو حشرة واحدة ، وذلك لأنها شيدت على أسس

علمية حديثة ، فرشت أرجاؤها من الجو بالعقاقير المطهرة . وتعد المدينة ملجأ الأمراء والأغنياء وكبار الموظفين الذين يتقاضون مرتبات ضخمة ، رفعت مستوى المعيشة ، فغدت نفقات الحياة فيها فاحشة .

وتركت الحرب العالمية الثانية على دلهى الجديدة أثراً ملحوظاً ، فالسيارات الخاصة معدومة ، ووسائل النقل ضئيلة ، ونفقات الانتقال عالية جدا ، لإهمال الحكومة تحديد سعر لها معقول . وأزمة المساكن هناك على أشدها ، فقد شغلت القوات المتحاربة كثيرا من مبانيها ، وحال الغلاء دون تشييد الجديد منها ، ولذلك أقامت حكومة الهند خياما فى قطعة من الفضاء المتسع ، ليعيش فيها صغار الموظفين مع أسراتهم .

٨

كنت أظن أن مصر تفوق البلاد الأخرى من حيث عدد المتسولين الذين يعيثون فساداً فى مجتمعها ، ويتجمعون فى طرقاتها تجمع الذباب ، فيسيئون إلى سمعة بلادنا ، ويتركون فى ذهن السائح صوراً قبيحة ، تظل إلى الأبد واضحة ، حتى ليصغر أمام

وضوحها ما قد يراه ذلك السائح من صور مصرية أخرى ، لمظاهر عمرانية طيبة ، أو آثار تاريخية خالدة .

وكنت وما زلت أعتقد أن آفة مصر الكبرى هؤلاء المتسولون ، الذين ارتضوا الذلة ، ولم يقبلوا عنها بديلا ، لأنها تدر عليهم أرباحا عظيمة ، دون جهد ، ودون مقاومة مذ كورة من الشعب والسلطات . وضاعف عددهم تهاون الحكومات وشجعهم على المضى فى طريقهم الممقوت ، فانتشروا فى المدن انتشار الجراد ، ليقتحموا كل مكان حتى بيوت الله ، و يضطهدوا العباد بلجاجتهم و إلحاحهم ، و يمسكوا بتلابيب الناس فلا خلاص إلا بدفع الفدية وهى القرش !

والعجيب أن الكثرة الساحقة من متسولينا لا تثير رؤيتهم رحمة أو شفقة ، فعلى وجوههم سيماء الرذائل التى ينطوون عليها ، وعلى أبدانهم الصحيحة دلائل القوة التى تمكنهم من العمل الشريف ، وا كتساب الرزق بوسائل غير التسول والاستجداء .

ولكن عدد المتسولين المصريين تضاءل فى ذهنى أمام جيوش إخوانهم الهنود ، حتى خيل إلىّ أن مصانع التسول

الأساسية تقوم فى تلك البلاد ، وما مصر إلا دولة صغيرة تستورد جزءاً يسيراً من منتجات هذه المصانع !

وتلفت هذه الظاهرة نظر الغريب هناك ، فنى كل طريق أساسى أو فرعى ، وفى كل ركن ظاهر أو خفى ، يتجمع المتسولون الهنود عشرات عشرات ، يستجدون المارة بصلوات ودعوات لا نهاية لها .

ولكن المتسولين الهنود يختلفون عن زملائهم المصريين كل الاختلاف ، فدلائل البؤس الحقيقى فى وجوههم الصفراء الذابلة ، وعيونهم التى أعماها الجدرى ، وأجسادهم الضامرة النحيلة تنطق بالحرمان والجوع والعرى ، مما لا يدع مجالا للشك فى أنهم يقاسون شظف العيش ، وضيق ذات اليد .

والفقر فى الهند ظاهرة ملحوظة ، لا تقتصر على طائفة المتسولين فالطبقات العاملة محرومة أيضاً مما لا غنى عنه ، والقرى صور صادقة للغبن الاجتماعى الذى ينزل بأهلها .

والجوع والعرى والحرمان أول مشا كل الهند الخطيرة ، فقد استفحل الشر فى هذه الناحية ، وتهدد حياة مئات الملايين ، وفى العام الماضى ذهبت مجاعة البنغال بمليونين من الأنفس . وقد

يكون من المستحيل أن نصف للقارىء ما حدث فى هذه المجاعة من فظائع ، ولذلك سأ كتفى بنقل نبذ قليلة من مقال كتبه چون فردريك ميهل — أحد الجنود الذين اشتركوا فى مكافحة مجاعة البنغال — وقد ترجم هذا المقال ونشر بمجلة « المختار » .

قال بعد أن وصف فنادق كلكتا الناضرة ووسائل الراحة فيها :

« بيد أن كلكتا كانت كذلك بلداً يخيم عليه الجوع والموت ، فلم يك ثمة أرز أو ذرة لسكان أحيائها الوطنية الممتدة الأطراف ، أو لطائفة الشحاذين والمنبوذين الذين يذرعون الشوارع والطرقات . ولم يكن لهؤلاء جميعاً إلا الأفاريز الجرد حيث يستجدون المارة فضلة من الطعام ، ويدلكون بطونهم المنتفخة وهم يزحفون وراء أهل اليسار من الخاصة والأوروبيين. هناك على قارعة الطريق كانوا يسقطون جثثاً هامدة حتى تأتى سيارات النقل ، فتحملهم إلى أفنية حرق الموتى » .

ويقول فى مكان آخر :

« لن يعرف أحد أبداً كم من الناس ماتوا فى مجاعة البنغال، فقد غلا الأرز ورخصت الحياة فى طول الولاية وعرضها ، ولم يكن ثمة إحصاء دقيق لعدد من أحرقوا ، فقد ترك كثير من الجثث

تبلى حيث وقعت . وقد تضلعت كلاب كلكتا شبعاً فى وليمة الموتى ، وجاست خلال الشوارع تنهش لحوم البشر وتحمل عظامهم بين أنيابها ، وكانت تهاجم الموتى الذين يسقطون ساعة يكفّون عن المقاومة . ولقد رأيت غير مرة كلباً يصارع امرأة تملكها الفزع ، ليستولى على جثة زوجها » .

ويقول فى مكان ثالث :

« ومررنا بمحلة لإعانة الجائعين من ضحايا المجاعة ، فرأينا المشرفين عليها يوزعون غرارة من الأرز — غرارة واحدة فقط — على آلاف من الناس ، فكنت ترى الأحياء فى مقدمة الحشد يتبلغون بما يقيم أودهم ، وترى الموتى يحصى عددهم فى فناء فى مؤخر الدار . وفى هذا المساء عندما قدمنى كروفورد إلى رئيسه سألته عن محلات إعانة المجاعة ؟ وكم نفس استطاعت هذه المحلات إنقاذها ؟ فجاء جوابه صريحاً قاطعاً : « إنك لن تستطيع أن تقف شر المجاعة ببضعة أكياس من الأرز كما تعلم ، ولكن هذه المحلات تخدم غرضين ، فان فرصة الحصول على حفنة من الأرز تجتذب من الجائعين من هو أقرب إلى التضعضع .

والسقوط ، وحتى إذا نحن لم نستطع أن نطعمهم جميعاً ، فإن هذه المحلات تجعل من السهل جمع جثثهم[١] »

هذا ما حدث فى مجاعة البنغال منذ عام ، أما الأخبار الحديثة فتقول : إن شيطان الفناء جوعاً ، يلوح بمنجله البغيض فوق رؤوس مائة مليون من الهنود .

والوسيلة الوحيدة لإنقاذ هؤلاء أن يسرع العالم الخارجى بإرسال الأغذية ، وهو مطلب متعذر ، فالعالم أجمع يتضور جوعاً ، وأزمة الغذاء فى الغرب أشد منها فتكا فى الشرق ، فما بالنا بالهند ، وهى تقع فى نهاية المعمورة ، وتتطلب مساعدتها مئات السفن التى لا تتوافر فى الوقت الحاضر !

والهند بلاد المفارقات العجيبة ، فهى أيضاً موطن الغنى الفاحش ، فبين جنباتها يعيش ملايين العراة الجياع ، كما يعيش أعظم أثرياء الدنيا ، ممن يملكون ثروات لا تعد أموالها ولا تحصى .

وثروة كثير من الأغنياء فى الهند ، لا مثيل لها فى أى بقعة أخرى من بقاع الأرض . ومن ذلك أن أحد الأغنياء الهنود

---

(١) هذه النبذ منقولة حرفياً من الترجمة العربية للمقال فى مجلة المختار !!

أقرض الحكومة البريطانية عند بدء الحرب العالمية الثانية ، ثلثمائة وخمسين مليوناً من الجنيهات ! ونحن نعرف أن المرء عادة لايقرض ثروته كلها ، بل جزءا مما يستغنى عنه ، فعلى هذا القياس يمكننا أن نتصور ثراء هذا الرجل بالتقريب .

وأذكر بهذه المناسبة أنى نزلت فى إحدى البلدان الهندية ضيفة على مليونير معروف ، فلما سافرت بعد ذلك إلى أماكن أخرى ، حدثت أصدقائى عن مضيفى ، وثروته الكبيرة ، فنظروا إلى دهشين وقالوا :

— نحن نعرف هذا الرجل ، وهو ليس غنيا كما تتصورين ، فثروته لا تزيد على خمسة عشر مليوناً من الجنيهات !

قلت :

— وكم تبلغ ثروة الغنى اذاً فى بلادكم ؟

قالوا :

— مئات الملايين بل آلافها !

وحدثتهم عن مصر ، وأفهمتهم أن ثروة مضيفى التى يزدرونها لايملكها مصرى واحد ، فدهشوا وتعجبوا ، واستنكر بعضهم قولى ، لأن مصر فى اعتبارهم بلد الغنى والرخاء !

ومرتبات كبار الموظفين الهنود عالية جداً ، تبلغ فى أحيان كثيرة بضع مئات من الجنيهات كل شهر ، ويتقاضى بعضهم فى سن مبكرة ، ما يتقاضاه رئيس الوزراء فى بلادنا . وقد سألنى أحدهم عن نصيب زملائه المصريين من مال الحكومة ، فلما ذكرت له أنهم ـ عدا الوزراء ـ قلما يبلغون مائة جنيه عند سن الستين ، حزن واغتم ، لفقر إخوانه كبار الموظفين المصريين !!

والعجيب أن بعض الأغنياء الهنود ينفقون المال فيما لا يجدى أو يفيد فى نظرى ، فيمضغون «البان» المحشوة باللؤلؤ المصحون ، ويأكلون الفضة والذهب مع الطعام ؛ فقد دعيت مرة إلى وليمة كبيرة ، ورأيت صحون الأرز والمهلبية مغطاة بورق فضى كالذى يستعمل فى لف الحلوى ، فلما حاولت أن أزيح ذلك الورق ، قيل لى إنها صفائح من الفضة الصافية ، علىّ أن ألتهمها مع الطعام ، ففعلت خضوعاً لتقاليدهم ، وإن ارتجف قلبى طيلة الوقت لمجرد التفكير فى أن أمعائى تضم معدناً نفيساً كنت أغنى لو قبضت عليه بيدى !

وبينما نجد أحد زعماء الهنود يوزن بالماس ، إذ بنا نجد آخر إذا رزق ابناً أو حفيداً وضعه فى مهد صغير فى البهو الرسمى للقصر ،

ثم يدعو أهل مقاطعته لمشاهدته ، فيلبون جميعا الدعوة ، ويضع كل منهم عند مروره بالمهد عملة ذهبية ، مع أن هذا الرجل أغنى أغنياء العالم، وليس فى حاجة إلى المزيد من أتباعه العراة الجياع .

هذا هو حال أغنياء الهنود وكبار موظفيهم وسواد الشعب تفتك به المسغبة ، وخمسة وسبعون فى المائة من الهنود لا يستر أجسامهم شيء غير قطعة صغيرة من النسيج البالى حول خصورهم ، والعمال والمزارعون يقاسون ألوان الحرمان ، لضآلة أجورهم فطبقة السكناسين أى المنبوذين ، رجالاً ونساءً ، يتقاضى الواحد منهم روبية فى الشهر أى ثمانية قروش ! أما أجر العامل الزراعى ، فثلاث أنات أى تسعة مليمات كل يوم ، مع غلاء الحياة الحاضرة !

وتسعون فى المائة من الشعب الهندى يتناولون وجبة واحدة كل يوم ، وهى وجبة صغيرة لا تغنى ولا تشبع من جوع ، ولا تسلح الجسم بمناعة ضد الأمراض والأوبئة المنتشرة هناك ولكل هذه الأسباب نجد أن نسبة الوفيات فى الطفولة مرتفعة جداً ، ومتوسط عمر الهندى سبعة وعشرون عاماً ، فى حين أنه فى مصر ثلاثة وثلاثون، ومع ذلك نضج ونستغيث لضآلة هذا المتوسط فى بلادنا .

ومن المؤكد أن بلاد الهند غنية، وتربتها خصبة، وغاباتها كثيفة وثروتها المعدنية كثيرة ، فكيف أمكن أن يبلغ الفقر فيها هذه الدرجة ؟

ولقد أثارت هذه النقطة عجبي ودهشتي ، ودفعتني إلى دراسة شيء قليل عن الحالة الاقتصادية هناك ، فخرجت من تلك الدراسة القصيرة بنتيجة صادقة وهي: إن مثل الهند مثل شجرة ضخمة من الذهب البراق ، ولكن هذه الشجرة السحرية لا تعطى غير ثمار الجوع والموت والحرمان !

وقد يكون تشبيهي عقيما ، وبعيداً عن الجمال؛ ولكني أضعه بأمانة كما تراءى لذهني تماماً دون تحريف أو تبديل . أما كيف ولماذا بدت لى الهند شجرة ذهبية ، فهذا ما سأحاول توضيحه في اختصار ، حتى لا يثقل على القارئ تتبع ذلك التوضيح .

الهند قطر عظيم ، بل قارة واسعة، يبلغ طولها الفين من الأميال ويبلغ عرضها الفين آخرين . وعلى هذا السطح المترامى الأطراف يعيش أربعمائة مليون من البشر ، أى خمس العالم !

ولم يقتصر كرم الطبيعة للهند على المساحة وعدد السكان فقط فهى أيضا بلاد غنية من عامة الوجوه ، وفيها من الثروة مالو حسن

استغلاله لرفع الشعب الهندى إلى مصاف أرقى الشعوب المتمدينة

أما أين توجد الثروة ، فنى المواقع ، والمناخ، والسكان ، والطاقة الزراعية ، والـكنوز المعدنية .

وموقع الهند فريد ، ففيها من مظاهر الطبيعة ما يحميها ، ويرد عنها شر العدوان ، فالمحيط يحوطها من ثلاث جهات ، وجبال الهملايا تقف سدا منيعا فى الجبهة الرابعة . والقارة الهندية المنيعة بهذه الحدود الطبيعية مقسمة ثلاثة أقسام : فنى الشمال سلسلة جبال الهملايا أعلى جبال العالم ، وفى الجنوب هضبة الدكن ، وبين المنطقتين تقع سهول منبسطة ذات خصوبة زراعية لا يستهان بها ؛ وقد بلغ المزروع من هذه المنطقة مائة مليون من الأفدنة !

وتقوم الهملايا بعمل حيوى عظيم فى الزراعة ، فهى تمنع الرياح الجافة المنحدرة من وسط آسيا ، فيظل جو الهند محتملا مقبولا . وهى منبع الأنهار الضخمة مثل السند والجنج والبراهما بوترا : فرياح المنسون تحمل أبخرة البحار إلى تلك الجبال ، فتتحول إلى أمطار غزيرة تملأ الأنهار بالمياه ، فتروى الأراضى ، وتنبت غلة وفيرة . وبفضل الهملايا وُجدت بالهند مساقط مياه ، تولد الـكهرباء المستعملة فى الأضاءة ، وفى إدارة

المصانع ، وفى تسيير القطر . ويقول الأخصائيون إن هذه المساقط لا مثيل لها إلا فى الولايات المتحدة وكندا ، فلو استغلت على الوجه الصحيح ، لتوافرت الكهرباء فى أصغر القرى والدساكر ، ولأصبح فى مقدور كل مزارع فقير أن يقتنى جهازاً لاسلكيا ، وينير كوخه، ويستعمل الآلات الكهربائية فى حقله وعمله وطهيه.

وتمتد بلاد الهند على خطوط عرض مختلفة ، ففيها المناطق الاستوائية بغاباتها وزنوجها ؛ وفيها الجبال بثلوجها الدائمة، وسكانها الشقر، وفيها السهول بحقولها ومزارعيها الآريين أى أن الهند تحوى أجناسا بشرية مختلفة ، وهى ميزة عظيمة ؛ لأننا نعلم أن لكل شعب صفاته الخاصة، التى تؤهله لناحية من نواحى الحياة العملية والاقتصادية.

وباختلاف المناطق تختلف الحيوانات أيضاً ، فهناك الدببة الثلجية ، والفيلة الاستوائية ، والسائمة على أنواعها ؛ فمن البقر وحده يملك الهنود مائة وثمانين مليوناً وهو ثلث بقر العالم أجمع ، ومن الغنم والماعز سبعة وثمانين مليوناً ، وهو سبع ما فى العالم أيضاً .

والسهول الزراعية واسعة يبلغ المزروع منها مائة مليون فدان ، ويمكن مضاعفة هذا القدر بوسائل الرى الحديثة . وخصب التربة

الهندية عظيم ، ومناطقها المختلفة تصلح لزراعة أهم المحصولات ، وهى تغل فى الوقت الحاضر كميات وفيرة من القمح والأرز وقصب السكر والطباق والقطن والشاى .

أما المواد المعدنية فموفورة فى الهند، وفى باطن أرضها ما يحتاج إليه سكانها ، ويفى بمطالب الصناعة فيها ، مهما ارتقت تلك الصناعة واتسعت ، بحيث لا يحتاجون معه إلى مزيد ؛ ففيها المنجنيز والميكا والفحم والنحاس والبترول والقطران والحديد والمطاط إلى آخره . ويقول الإخصائيون إن باطن الأرض يحوى من الفحم ستين ألف مليون طن ، وتقول الإحصائيات إن الهند ثانى دولة فى العالم من حيث المنجنيز ، وقد بلغ ما استخرج منه عام ١٩٣٨ أربعمائه واثنين وتسعين ألف طن !

والهند لا تفتقر إلى شىء : فيها مائة مليون فدان من الغابات الاستوائيـة ، قال الخبراء الإنجليز إنها تستطيع أن تمد البلاد بمائة مليون طن من الخشب كل سنة ، فلا ينال ذلك المقدار شيئاً من عزة الغابات ، أو يقلل من كثافتها !

ونرى من هذا العرض القصير كيف بدت بلاد الهند فى نظرى شجرة ذهبية ، فروعها السحرية طويلة ممتدة ، فلو أمكن

الشعب أن يصل إلى تلك الفروع ، ويستظل بها ، لكان للهنود شأن غير شأنهم الحاضر .

ولكن هذه الشجرة السحرية فى الوقت الحاضر لا تظل إلا القلة ، أما الكثرة فنصيبها منها الجوع والحرمان . وسأشرح فى إيجاز العلات التى تحول دون الاستفادة من خيرها ؛ فأهم الأنهار التى تنبع من الهملايا ، وتروى السهول الزراعية ، وهى السند والجنج والبراهما پوترا ، لا يمكن أن تؤدى وحدها وظيفتها كاملة ، بل يجب أن تساعدها مشروعات الرى الحديثة ، لتتمكن من القيام بهذه الوظيفة ، وأهم تلك المشروعات القنوات التى توزع المياه بالعدل على أنحاء الهند ، وتحملها وتتوغل بها إلى الجهات البعيدة . والخزانات ضرورية أيضاً ، لحفظ الزائد أيام الفيضان ، فيستفاد منه فى زمن الجفاف . ولكن القنوات والخزانات قليلة جداً فى الهند ، ولا يمكن أن يفى عددها الحاضر بمطالب الأرض الزراعية ، ولذلك تذهب المياه الفائضة هباء منثوراً ، وتزرع معظم الحقول مرة واحدة فى السنة ، ومئات الملايين من الأفدنه صحراء جرداء ، لو وصلت المياه إليها ، لا نقلبت إلى جنة خضراء .

والقوى المائية مهملة كذلك ، فالمساقط المولدة للكهرباء

لا يستغل منها إلا الخمس فقط . و يستنفد «تاتا» المليونير الهندوسى معظم هذا الخمس فى إدارة مصانعه الجمة ، وفى إضاءة مدينة بومباى . أما أربعة أخماس القوى الكهربائية فلا تجد من يستخرجها أو يستغلها ، والنتيجة أن نور الكهرباء لا أثر له فى معظم مدن الهند و بلدانها ، والإضاءة به مقصورة على بضع مدن كبيرة فقط ؛ وأكثر المصانع والقطر مازالت تسير على النمط البخارى القديم ، مما يكلف نفقات باهظة ، يرتفع معها ثمن المصنوعات الهندية إلى ضعف مثيلاتها المستوردة من الخارج .

والشعب الهندى على اختلاف أجناسه ، وتعدد مواهبه ، جاهل أمى ، لا يزيد عدد المتعلمين فيه على سبعة فى المائة مع حسن الظن . وتعدد الأديان يقسم ذلك الشعب فرقاً وأشياعاً ، يهدم بعضها بعضاً ، ونار الشقاق بينهم دائماً متأججة ، فتشغل المعارك الطائفية أذهانهم ، وتصرفهم عن التفكير فى التقدم والإصلاح ، ولذلك تموت المواهب ، وتنقلب نعمة تعدد الأجناس إلى نقمة فى بلاد الهند .

ولقد ذكرت سابقاً أن من نعم الطبيعة على تلك البلاد ، وفرة الحيوانات فيها . ونحن نعلم أن الحيوان عنصر هام فى حياة المزارع ،

فمنه يأخذ اللبن والدسم واللحم والصوف والوبر ، وبه يستعين فى النقل والحرث والعمل . ولكن شعب الهندوس يعبد البقرة ، ويقدس الحيوانات ، ويحرم ذبحها ، وأكل لحمها ، فكانت النتيجة أن تكاثر عددها ، وغدت عبئاً ثقيلا على البلاد . وعجز الناس عن إطعامها كما يجب ، فهزلت أجسادها ، وتضاءلت قوتها ، ولم تعد قادرة على القيام بواجباتها . وبلغ الجوع بها مبلغاً جف معه لبن سبعين فى المائة منها ، فانخفض سعرها ، وأصبحت البقرة تباع الآن بمبلغ يتراوح بين ثلاثين وثمانين قرشاً ! هذا إلى جانب ماتنزله قطعانها من خسارة زراعية فادحة ، فهى تسير عشرات على غير هدى ، وتقتحم الحقول ، فيتهشم الزرع تحت أظلافها ، ومع ذلك لا يجرؤ أحد على زجرها أو إبعادها ، لقداستها فى عقيدة من يعبدونها .

والزراعة صناعة سواد الشعب الهندى ، فعليها يعيش تسعون فى المائة منهم ، ومن هؤلاء خمسة وسبعون فى المائة لا يملكون شيئاً من الأراضى الزراعية . ومع جودة التربة ووفرة المياه ، نجد المزارعين عراة جياعاً ، فالأرض تعطيهم أجوراً تافهة ، وغلة ضئيلة ، لا تقوم بثمن الخبز وحده . ويرجع ذلك إلى خطأ النظم

الزراعية ، فالسماد الطبيعى غير مستعمل ، لحاجة الناس إليه فى الوقود ؛ والمواد الكيميائية التى تنوب عنه ، ليست فى متناول المزارع الفقير ، والآلات بدائية ، ومصارف التسليف الزراعى معدومة ، وإشراف الحكومة يوجب الخزى ، فقد خصصت مثلا مفتشاً زراعياً لكل تسعمائة مزرعة ! والنتيجة أن أجهدت الأرض ، فتضاءلت غلتها ، وقل محصولها ، وأعطى فدان القطن منها ثمانية وتسعين رطلا ، فى حين أنه يعطى مائتين فى الولايات المتحدة ، وأربعمائة وخمسين فى مصر ! وهكذا الحال فى القمح والأرز وغيرهما من الغلات .

أما كنوز الأرض المعدنية ، فنصفها مهمل ، والنصف الآخر يستخرج بوسائل بدائية تضيع جزءاً مذكوراً منه ، والجزء الباقى يباع للدول ذات النفوذ بنصف ثمنه الحقيقى ، فيصنع فى تلك الدول ، ثم يعود إلى الهند آلات فاحشة الثمن ، يعجز عن شرائها الكثيرون .

ولا شك أن هذا العرض المقتضب يمكننا من لمحة خاطفة إلى حالة البلاد الاقتصادية ، ويكشف لنا عن موارد الثروة ، وعلات تلك الموارد ، وهى علات خطيرة ، لا يمكن أن تعالج إلا باستقلال

البلاد ، حتى يصبح للهندى الرأى الأول فى ترقية وطنه ، واستغلاله لصالحه ، لا لصالح غرباء تقف أغراضهم الاستعمارية دون انتشال الهند من وهدتها ، والأخذ بيدها إلى المدنية والتقدم .

٩

تبرز فى أفق السياسة الدولية مشاكل كثيرة ، تعقد أمور العالم ، وتصبغ المستقبل بلون قاتم من الوجوم والتشاؤم . فالشعوب تتطاحن والأمم تتنابز ، وكل دولة تعمل على سحق غيرها ، من أجل السيادة والتفوق ، ولكن مشكلة الهند فريدة فى نوعها ، تختلف كل الاختلاف عما نراه على مسرح سياسة العالم الحديث ، فالتطاحن فيها داخلى ، والصراع محلى ، والشعب فرق مختلفة ، يحاول كل منها أن يمسك بخناق بقية مواطنيه فيخمد أنفاسهم ، و يبيدهم عن آخرهم ، ليكون له النصر والغلبة .

وتعود مشكلة الهند الطائفية الى ألف سنة مضت ، عندما كان أهل الهند — وجلهم من الهندوس — يتيهون فى بيداء الجهل والخرافات ، ويفتك بهم الهزال وضعف البنية ، لنفورهم من أكل اللحم والبيض ، كما يقضى بذلك دينهم ، الذى يدعو

إلى عبادة البقرة ، وتقديس الروح ، حتى روح أحقر الحيوانات والحشرات .

وإذ ذاك جاء إلى البلاد أول فوج من المسلمين ، ولم يكن عددهم يتجاوز خمسين ألفاً ومع ذلك استطاعوا أن ينتصروا على الملايين ، فخضعت الهند لسلطانهم ، وحكمت فئة قليلة أمة كبيرة قروناً متعاقبة ، بفضل ما امتازت به هذه الفئة من ثقافة عالية وبنيان قوى ، وشجاعة وحنكة فى ميادين الحرب والوغى .

ولكن حكام المسلمين طغوا بعد عدل ، وأضلتهم الثروة العظيمة التى أصابوها من بلاد الهند الغنية ، فتمردوا ، واستبدوا بالناس ، وحطموا المعابد ، وشغلوا بمباهج الحياة عن مصالح الوطن فبدأ عهد اضمحلال ، وتطرق الفساد إلى الإمبراطورية الإسلامية فى الهند .

وانتهز الإنجليز فرصة هذا الاضمحلال ، فتسللوا الى الهند وأنشأوا هناك شركة تجارية ، توسعت شيئاً فشيئاً ، حتى ظفرت بالبلاد وحكمتها ؛ وسر الهندوس لخلاصهم من سلطان أعدائهم المسلمين ، فرحبوا بالمستعمر الجديد ، وتعلقوا بأهداب الأجنبى الظافر ، وقدموا اليه آيات ولائهم المطلق وخضوعهم التام .

واستجاب المستعمر إلى شعورهم ، وانحاز إلى الأغلبية الضعيفة ضد الأقلية القوية ، وكافأ أصدقاءه الهندوس على خضوعهم وولائهم بالوظائف الهامة وغير الهامة ، وأنزل بسادة الهند المسلمين أنواع الاضطهاد والذلة ، فلم يمض وقت طويل حتى سيطر الهندوس على مرافق البلاد من أقصاها الى أدناها .

وانتشرت المدارس الإنجليزية فى أنحاء الهند ، فثارت كرامة السادة المسلمين ، وقاطعوا دور العلم التى افتتحها المستعمر أما الهندوس فقد أقبلوا عليها ، ودخلوها أفواجا : أولا بدافع الرغبه فى رفع مستواهم الثقافى ، ليصل إلى مستوى المسلمين ، وثانيا لإرضاء السيد الجديد الذى يحتمون به ، و يتملقون بأهدابه .

ومرت الأجيال فأصاب الهندوس هدفهم ، فتعلموا وتثقفوا ، واضمحل شأن المسلمين الثقافى ، وصارت نسبة التعليم فيهم أقل منها فى الهندوس بكثير .

وعندما حقق الهندوس جوهر أهدافهم، وهو العلم والوظائف التفتوا الى الأعراض ، و بحثوها بدقة ، فوجدوا أن أعداءهم مازالوا يتفوقون عليهم فى الصحة والمال ، فقرروا علاج الناحيتين . وأقبل بعضهم على أكل اللحم سراً ، وأكثر

البعض الآخر من تناول الأطعمة التى تتوافر فيها مواد اللحم الغذائية ، ومارسوا الألعاب الرياضية، فزايلهم الهزال والضعف ، وأصبح فى مقدور الهندوسى ملاقاة المسلم ، بعد أن كان ذلك المسلم يخيف وحده حيا تهندوسيا بأجمعه .

وأخرجوا أموالهم بالربا ، فاستدان المسلمون منهم ، وعجزوا عن وفاء ديونهم ، فتسربت الثروات من أيديهم إلى أعدائهم ولم يبق فى حوزتهم غير خمسة فى المائة من مجموع أراضى الهند ، بعد أن كانوا يملكون ثلثها . وفتح الهندوس المصارف لتنظيم ثرواتهم ومعاملاتهم الاقتصادية ، فى حين رفض المسلمون أن يفعلوا مثل ذلك ، لأن المصارف معناها الربا فى نظرهم ! ! وأصبحت التجارة والصناعة بطبيعة الحال فى يد الهندوس ، ولم يبق فى يد المسلمين شىء .

وهكذا حقق الهندوس أهدافهم جميعها ، فأصابوا من الثقافة والمال والصحة والسلطان ما كانوا ينشدونه ، ففاقوا المسلمين فى كل ميادين الحياة ، وغدوا قوة هائلة تجرف ماعداها .

وتنبهوا إلى قوتهم الجديدة ، فطمعوا فى الاستقلال ، وتمردوا على وليهم الانجليزى القديم ، وثاروا عليه بعد ذلة وخضوع ،

وقاموا يطالبونه بالحرية ، فتغيرت السياسة البريطانية ، وجنحت إلى جانب المسلمين الذين أضعفهم وأذلهم اضطهادها القديم ، فرحب هؤلاء بتلك السياسة الجديدة ، وجروا وراء المستعمر ، وأمسكو بأذياله خوفاً من أعدائهم الأقوياء ، فانقلبت الآية ، وأعاد التاريخ نفسه ، ووقف المسلمون موقف الهندوس فى بدء عهد الاستعمار ! !

هذا مجمل تاريخ المشكلة الطائفية ، ومنه نرى أن الهندوس والمسلمين على مر الدهور والأجيال ، كانوا فى خصام وعراك ونزاع لا ينتهى . ولم يحدث فى تاريخ تلك البلاد أن تصافى الفريقان تماما ، وتعاونا قلباً وقالباً ، وأن سجلت بعض العهود هدنة قصيرة مبعثها الخوف لا الرضا .

واشتد الخلاف بطبيعة الحال خلال الاستعمار، وأذكت القوة الأجنبية نيران ذلك الخلاف ، عملا بسياسة فرق تسد ! فما هو السبب الأول فى هذا النفور الطائفى الأزلى ؟ !

اعتقد — أن لبعض الشرائع الهندوسية دخلاً كبيراً فى التفرقة بين الطائفتين . ويقوم الدين الهندوسى على نظام عجيب من تعدد الطبقات، يبدأ من أعلى بالبراهما أو أشراف

الدين، وتليهم طبقة المحاربين، فطبقة التجار والمزارعين ، وتنتهى تلك السلسلة بالمنبوذين أو الأنجاس ، وهم الطبقة العاملة التى تعرف بالكناسين . ولكل طبقة من الميزات والحقوق ما يرفعها عما يليها ، اللهم إلا المنبوذين ، فلا حقوق لهم ولا ميزات .

ولا يقتصر نظام الطبقات هذا على شئون الدين، بل هو أساس اجتماعى قوى ، فكل طبقة مضطرة بحكم تعاليم الشريعة الهندوسية ، أن تلتزم حدودها ، بحيث لا يصح لأفرادها التعامل مع غيرهم ، أو احتراف مهنة غير التى خصصت لهم ، أو الزواج من طبقة أخرى . ومهما ارتقى الهندوسى واغتنى ، أو مهما ذل وافتقر ، فلا سبيل إلى خروجه عن طبقته ، ودخوله فى أخرى ، ولذلك كان من المألوف أن يقابل المسافر إلى هذه البلاد فقيراً من البراهما ، يتضور جوعا ، ومع ذلك لا يستطيع اكتساب رزقه بالزراعة ، لأن الزراعة لا تليق بمكانته ، فهى مهنة طبقه أدنى من طبقته .

ولو اقتصر الأمر على هذا الحد لكان محتملا ، ولكن مسألة المنبوذين تدعو إلى الأسف ، فعملهم محدود بحكم النظام الهندوسى ، لا يخرج عن كسح الفضلات وكنس الطرقات ،

وبعض الحرف الدنيا المماثلة . و يعتبر المنبوذ نجساً لا يصح لمسه، و إن حدث اللمس عفواً استدعى الأمر تطهيراً يتطلب إجراءات دينية قاسية ، منها الاغتسال فى الأنهار المقدسة .

وعدد المنبوذين خمسون مليونا ، ومع ذلك يعيشون فى ذلة دفعت بالكثيرين منهم إلى اعتناق الإسلام أو المسيحية ، هروبا من الذل والاستعباد .

و يعتبر الهندوس أصحاب العقائد الأخرى منبوذين أيضاً ، فالمسلم بالنسبة إليهم نجس ، وكذلك المسيحى واليهودى ، ولهذا يرفض الهندوسى رفضاً باتاً أن يسمح لمسلم بزيارته ، والشرب من مياهه، وشراء الطعام من حانوته . ويفضل الموت جوعاً أو عطشاً على مد يده إلى طعام أو شراب لمسه مسلم ، أو نال منهما شيئا ، ولذلك كان فى كل مكان بالهند ماء للمسلمين ، وماء للهندوس ، وطعام للمسلمين ، وطعام للهندوس وهلم جرًا .

ولا شك أن هذه الفروق المحزنة فى طريق الانقراض بين أفراد الطبقة الراقية والمتعلمة، فهم يتزاورون و يختلطون ، ويجالس بعضهم بعضا ؛ ولكن هؤلاء قلة نادرة ، والحقد والنفور

والكراهية ما زالت تأكل قلوب ثلاثة وتسعين فى المائة من الشعب على الأقل .

ولقد أخفقت الجهود فى التوفيق بين الطرفين ، لأن أوجه الخلاف مرجعها الدين ، وليست بنت تقاليد اجتماعية ، يمكن القضاء عليها ، وتغييرها بسهولة . وأظن أن العداء سيبقى فى الهند ما بقى الجهل ، فالجهل يورث تعصباً دينياً ، يحول بين المرء وتفهمه روح دينه على حقيقتها ، مما يدفعه إلى التعلق بالأعراض دون الجواهر .

ولقد أبدى المسلمون على الرغم من ذلك استعدادهم للتفاهم والتعاون ، أو أنهم على الأقل تظاهروا بذلك ، فلما شكل غاندى حزب المؤتمر انضموا تحت لوائه ، وشاركوه فى الجهاد أملا فى أن يزيل العمل المشترك عداوة القديم المتأصلة فى النفوس.

وسارت الأمور على ما كان يرجى ، إلى أن تولى حزب المؤتمر حكم البلاد عام ١٩٣٧ ، فطالب المسلمون أن تكون لهم السيادة فى المقاطعات الإسلامية ، حتى لا ينشب خلاف بين الحاكم والمحكوم ، ولكن غاندي واتباعه رفضوا هذا المطلب ، وصمموا على أن يكون تمثيل المسلمين فى كل مقاطعة

مطابقاً لنسبتهم العامة من الشعب ، وهى نسبة الربع . أى أن يظل المسلمون إلى الأبد أقلية ، لا كلمة لها ولا رأى ، حتى فى المناطق الإسلامية البحتة ، مثل البنجاب وكشمير والسند والبنغال ومقاطعة الشمال الغربى وبلوخستان ، فلا ينالوا فيها غير ربع المقاعد فقط ، وتبقى ثلاثة الأرباع للهندوس .



باكستان وهندستان

ودب الخلاف ، فحدث ما كان يخشى ، واختلف الفريقان وأساء كلاهما الظن بالآخر ، فاتهم الهندوس المسلمين بالإخلال بالأمن ، ورد المسلمون هذه التهمة بتهمة ظلم الهندوس لهم ، واستشهدوا ببعض الوقائع .

وزاد البلاء عند ماخرج حزب المؤتمر بقرار جديد ، يتلخص فى الاستغناء عن لغة « الأردو » ، بجعل « الهندوستانية » اللغة الرسمية في جميع أنحاء البلاد ، مع أن الأولى لغة المسلمين من زمن بعيد .

وانسحب المسلمون من حزب المؤتمر ، وخرجوا بزعامة محمد على جناح ، وأعادوا تشكيل حزب الجامعة الإسلامية ، و بذلك انتهى عهـد الصفاء المصطنع ؛ وبدأ التطاحن والعراك من جديد .

وفـكر المسلمون فى موقفهم جيداً ، فوجدوا أن الخلاف بينهم و بين الهندوس واسع جوهرى ، فهم يختلفون فى الجنس والدين واللغة والزى والعادات والتفكير والطعام ؛ فعادوا إلى الفكرة القديمة التى نادى بها شاعر الهند « محمد إقبال » ، وهى فكرة تقسيم الهند قسمين ، يكون أحدهما من المناطق الإسلامية ،

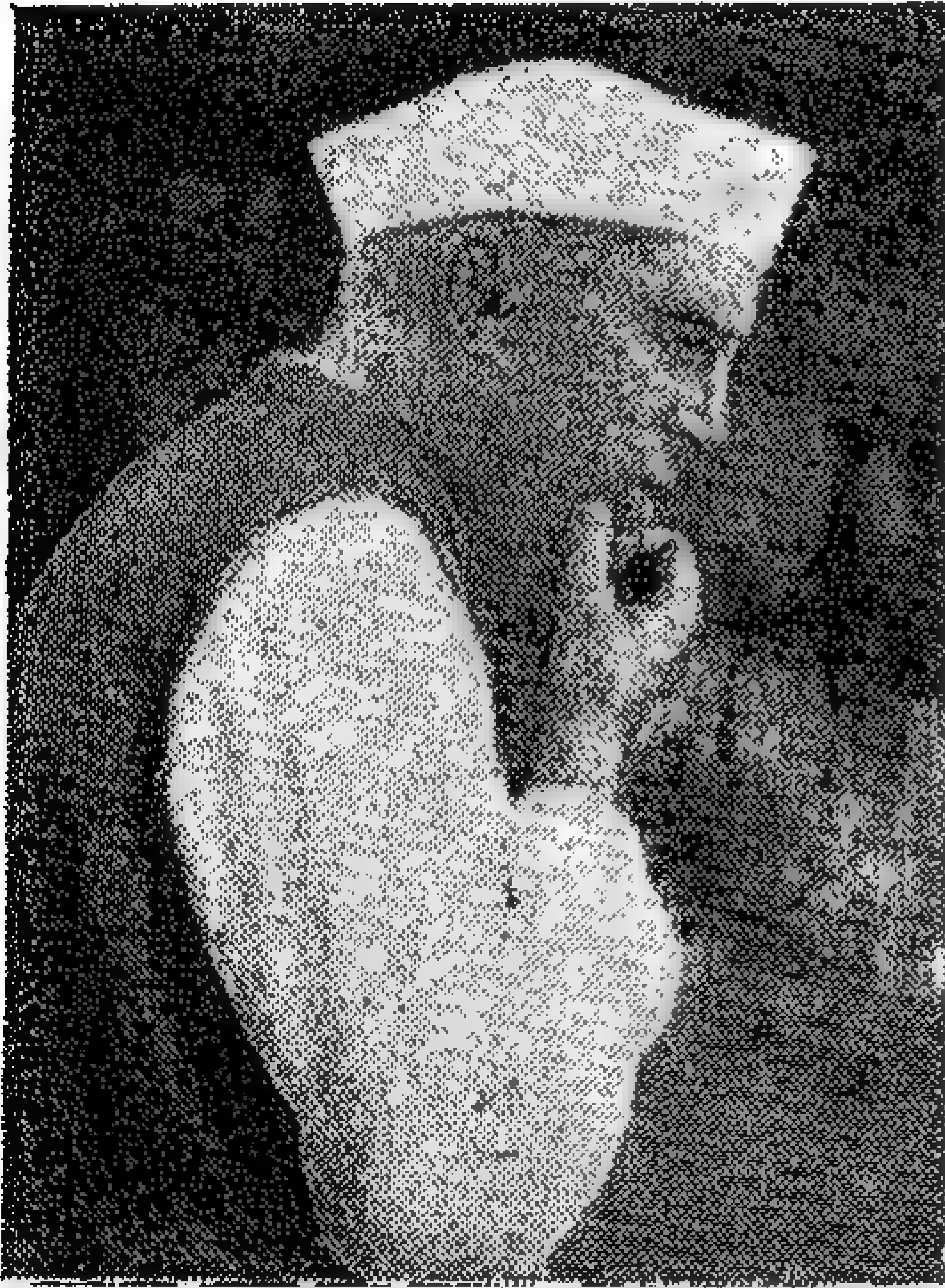
ويسمى دولة « پا كستان » . ونلاحظ أن كل حرف من هذه الـكلمة مأخوذ من اسم مقاطعة من المقاطعات الإسلامية ، وهى البنجاب وكشمير والسند ومقاطعة الشمال الغربي والبنغال وبلوخستان !

ولم يكتف المسلمون بالمطالبة بتقسيم الهند ، بل نادوا أيضاً ببقاء الانجليز ، حتى يتحقق الأمل ، ويتم التقسيم ، والا استبد الهندوس بهم وقضوا عليهم ، وهو أمر ميسور ، لتفوقهم على المسلمين فى المال والثقافة والعدد والسلطان .

وعاضد المستعمر فكرة پا كستان سراً ، وبهـذه المعاضدة أشتد ساعد المسلمين فى المطالبة ، فثارت ثائرة الهنـدوس ، وعارضوا فكرة التقسيم ، لثلاثة أسباب خطيرة : أولها أن فكرة پا كستان تحطم وحدة الهند ، وثانيها أن المناطق الإسلامية غنية بالغلة والمعادن ، فلو انفصلت عاش الهندوس إلى الأبد تحت رحمة مايجود به المسلمون عليهم . والسبب الثالث، وهو أخطرها قيام دولة إسلامية فى تلك المناطق ، يجعلها متاخمة لأفغانستان فأيران ، فبلاد العرب جمعاء، ومثل هـذه المتاخمه تقرب بين

مسلمى الهند وإخوانهم فى البلاد الأخرى ، مما يجعلهم قوة تهدد الهندوس .

وخيل الى الهندوس — وهم محقون فى خيالهم — أن المستعمر يختفى وراء فكرة پاكستان ، فضاعفوا حملتهم عليه ، وألحوا فى استقلال سريع ، وتمردوا تمرداً شديداً ، فانتشرت الثورات ، وعم العصيان أنحاء الهند المختلفة . وكل ذلك ليضطر المستعمر إلى الخروج قبل أن تتحقق باكستان . ويقود هذه الحملة ويوجهها « جواهر لال نهرو »



جواهر لال نهرو

وجواهر لال نهرو رجل عالى الثقافة ؛ قوى الشخصية ، حاد الذكاء ، يمتاز عن كثير من زعماء الهندوس بروح متسامح مجدد كفيل بأن يجعله حاكماً عادلا عظيما إذا أطلقت يده ؛ ولكن

يد جواهر لم تطلق إلى الآن ، فهو تلميذ غاندى ، وتابعه الأمين؛ وغاندى بالرغم من صفاته الطيبة الكثيرة ، متعصب لدينه تعصباً شديداً يحول دون تفاهم الفريقين المتخاصمين .

وجواهر زعيم الهندوس الأول ؛ فالشعب يعتبر غاندى الآن أبا روحيـاً فقط ؛ يستمد منه الوحى والبركة . أما السياسة والقيادة فالعيون فيها تتطلع الى جواهر لال .

ويقول الهندوس فى المشكلة الطائفية ، وفى مسألة پاكستنان:

« نحن والمسلمون أخوة ؛ ولـكن المستعمر يفرق بيننا وبينهم ، لأن التفرقة تزيده قوة وسلطاناً . ويوم ينسحب هذا الدخيل سيعود الصفاء وينمحى كل خلاف وعداء . ونحن على استعداد للتفاهم مع المسلمين ، بتأمين حياتهم وسعادتهم وأموالهم ، ولقد خطونا فعلا الخطوة الأولى فى مؤتمر سملا ؛ فأعطيناهم نصف المقاعد ، مع أن تعدادهم لا يخولهم أكثر من الربع ؛ ومع كل ذلك خذلونا فى اللحظة الأخيرة ، وتخلفوا عن الحضور ، فأخفق المؤتمر ، وضاعت فرصة استقلال الهند . والجامعـة الإسلامية ليست حزبا سياسياً ، بل هى هيئة دينية ، ولو لم تكن كذلك ، لوقف المسلمون إلى جانبنا فى الجهاد حتى إذا تحقق

الاستقلال ، و حررنا وطننا من الأجنبي، استطعنا تسوية خلافاتنا القائمة ، فإن لم نستطع تسويتها ، تقاتلنا نحن والمسلمون ، و بلاد الهند لمن ينتصر. أما باكستان ، فدون تحقيقها الدماء . »

هذه وجهة النظر الهندوسية ، ولقد تناقشت فيها مع الكثيرين منهم ، فاتفق رأيهم جميعاً على ذلك . ورأيت بعد أن أستوعبتها جيداً ، أن أستطلع رأى قادة المسلمين ، فسافرت إلى دلهى ، وقابلت محمد على جناح زعيم الجامعة الإسلامية .

ومحمد على جناح شخصية فذة ، فهو رجل عالى الثقافة ، عظيم الذكاء، بادى النشاط والقوة والجلال ، فمن عينيه المتألقتين ينبعث شرر عجيب ، وعلى أنفه المحدودب ترتسم قوة الصقر الجارح ، الذى تأبى عزته أن يهبط على فريسة ، ثم يحلق فى الهواء ثانية بدونها.

وليس محمد على جناح بالرجل المتعصب ديناً ، فهو حديث الأفكار والآراء ، واسع الصدر ، يعرف أن التعصب لا خير فيه ، ولكنه مع ذلك يتخذ الدين وسيلة لضم صفوف المسلمين الهنود ، المفتقرين إلى الثقافة والمنطق . ولقد نجح فعلا بهذه الوسيلة فى ضم صفوفهم ؛ فغدوا وحدة قوية ، يخشاها الهندوس فى الوقت الحاضر .



وعندما اجتمعت به، وسألته عن رأيه فى مشكلة الهند الخطيرة قال :

— «إن الخلاف بيننا و بين الهندوس جوهرى ، فالتفاهم والصداقة إذاً من المستحيلات ، فهم شعب ونحن شعب ، ور بط الإثنين لا يمكن بحال من الأحوال: نحن من الجنس الآرى وهم درافدا ومغول . ونحن من أهل الكتاب،

محمد على جناح زعيم الجامعة الاسلامية

وهم وثنيون يعبدون البقرة و يقدسون الحيوانات . وسنظل إلى آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله ، وسيظلون هم إلى آخر الدهر أيضاً يقدسونه و يعبدونه. هم يتكلمون الهندوستانية ، ولا ير يدون عنها بديلا ، ونحن نتكلم الأردو ، ولن نقبل عنها بديلاً . أبطال تاريخنا أعداؤهم ، لأنهم دحروهم وهزموهم . وأبطال تاريخهم أعداؤنا ، لأنهم دحرونا وهزمونا . و يوم يحتفل أحد الفريقين بذكرى أبطاله ، يبكى الآخر حزناً وحسرة ! ولا يمكن أن

تزول الخلافات بيننا و بينهم ، ولن نثق فى وعودهم، فقد حاولنا وأبنا بالخيبة أكثر من مرة ، وحكومة المؤتمر دليل على صدق قولى ، وفظائعها معنا شهيد على ذلك ، فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس ، وهم كثرة ونحن قلة ، فبمثل ذلك الحكم فناؤنا النهائى . وفرصتنا الوحيدة باكستان ، وسنريق دماءنا إلى آخر قطرة فى سبيل تحقيقها ، فالمناطق الإسلامية يجب أن يحكمها مسلمون ، والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس ، وستبقى أقلياتنا عندهم ، وأقلياتهم عندنا ، فيحفظ التوازن ، و يطمئن الطرفان إلى العدالة والمساواة .

ولما اعترضت على فكرة التقسيم ، وتعجبت لنداء حزب الجامعة الإسلامية ببقاء الإنجليز فى البلاد ، قال :

« ليست فكرة التقسيم جديدة ، فالبلاد أوسع من أن تكون دولة واحدة ، والتقسيم فى الهند قائم منذ آلاف السنين إلى الآن ، بدليل وجود المقاطعات الهندية المستقلة ، أى إننا الآن دويلات صغيرة ضمن حدود دولة كبيرة » .

وسكت محمد على جناح قليلا ثم قال فى شيء من الحدة :

— « ليس فى مناداتنا ببقاء الإنجليز إلى أن تتحقق فكرة

باكستان ، ما يدعو إلى العجب والدهشة ، فإن خرجوا الآن انتهينا تماما ، فضلا عن أننا لا نقبل أن نستبدل باستبداد الإنجليز استبداداً هندوسياً أقسى وأمر ، فالإنجليز على الأقل من أهل الكتاب مثلنا ، والتفاهم معهم ميسور ! » .

ولم أوافق على هذا الجزء الأخير بطبيعة الحال ، ولكنني سكت ولم أعترض عليه ، فالمناقشة في مثل هذه النظريات غير مجدية . ولم أشأ أن أسأل محمد على جناح عن السبب الذى حدا به لأن يرفض نصف مقاعد مؤتمر سملا ، مما أدى إلى القضاء على فكرة الاستقلال إذ ذاك ، فلقد فهمت السر قبل مقابلته ، من محادثاتي الكثيرة مع قادة الرأى في الهند .

والحقيقة أن حزب الجامعة الإسلامية طالب بنصف المقاعد ، فعارض الهندوس ، معارضة شديدة ، ولكنهم قبلوا أخيراً ، وخضعوا لمطلب المسلمين ، أملا في تحقيق الاستقلال . ولكن نائب الملك في الهند لعب دوراً خفياً ماهراً ، ففاجأ حزب الجامعة بعد الاتفاق برأى جديد ، وأعلنه أنه يحتفظ ببعض المقاعد ، لحزب إسلامى آخر في بومباى . ولما كان حزب الجامعة هو حزب الأغلبية الإسلامية الساحقة ، ولما كان حزب بومباى

صغيراً ، يعد أعضاؤه على الأصابع ، ويتصفون بحبهم للمستعمر مما أفقدهم احترام مواطنيهم جميعاً ، فقد ثار محمد على جناح لذلك ، ورفض قبول الوضع المهين ، وتخلف عن الحضور احتجاجاً ، فمات المؤتمر فى مهده ، واتسعت شقة الخلاف ، لأن الهندوس رأوا فى موقف الجامعة عاملاً أساسياً فى ذلك المآل .

والواقع أن مشكلة الهند خطيرة عويصة ، تأصلت جذورها فى المجتمع ، حتى أصبح حلها يبدو مستحيلا ، ولكنى مع ذلك ما زلت أقول إن الهنود لو تركوا معاً دون عنصر ثالث محرك للبغضاء بينهم ، لنظموا أمورهم ، وقضوا على خلافاتهم .

ومصيبة الهند الكبرى فى زعمائها ، فبالرغم من أهدافهم الطيبة ، ومقاصدهم النبيلة ، لم يخلقوا للسلم والوفاق ، فلقد ولدهم الخلاف والعداء والصراع ، وأصبحوا لا يصلحون لغيرها . أما السلام ففى حاجة إلى زعماء آخرين ، من أبناء السلام لا أبناء القتال ، فنحن نعرف أن القائد الحربى ، قد يسجل لبلاده نصراً عالمياً فى الحرب ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وعاد إلى وطنه ، عجز عن إدارة دفة الشئون فى عهد السلم الذى لم يخلق له .

وليست هذه الظاهرة مقصورة على الهند ، بل توجد فى جميع

البلاد الناشئة مثل بلادنا ، تلك التي حكمت عليها الأقدار بالجهاد والصراع من أجل حرية مسلوبة ، فزعماؤها أيضاً أبطال حرب ، لا قادة سلم وهدوء . ولو تركنا السلم بين أيديهم المقاتلة ، لتحركت طبيعتهم الحربية مرة أخرى ، وقامت تخلق معارك داخلية جديدة ، تستنفد فيها قوتها .

١٠

قرأنا فى الصفحات السابقة مجملا للمشكلة الطائفية فى الهند ، يتضمن أقوال كل فريق وبراهينه فى التدليل على صحة وجهة نظره : فالمسلمون يقولون المرة بعد الأخرى إنهم شعب قائم بذاته ، لا صلة له بالهندوس ، ولا رابطة تجمع بينه وبين الطوائف الأخرى . أما الهندوس فينكرون ادعاء المسلمين ، وينسبونه إلى تعصب دينى ، يثيره المستعمر فى قلب الأقلية الكبيرة ؛ ثم يؤكدون أنهم والمسلمين شعب واحد ، لا يصح تقسيمه ، أو عزل طائفة منه .

والآن سنرى مبلغ دعوى المسلمين من الحقيقة ، ونصيبها من

الصدق ، وذلك بسرد حججهم الجغرافية والتاريخية ، وللقارئ بعدها أن يحكم لهم أو عليهم .

يقول المسلمون : إن بلاد الهند أقرب إلى قارة منها إلى دولة ، فطولها ألفان من الأميال ، وعرضها ألفان آخران ، ولهذا الاتساع العظيم تحتوى البلاد على شتى أنواع المناخ ، ففيها الجبال الشامخة التى تغطيها الثلوج طيلة العام ، وفيها الصحارى القاحلة ، والسهول الخصبة ، والغابات الاستوائية الكثيفة .

ويختلف السكان باختلاف مظاهر الطبيعة ، ولذلك فهم خليط عجيب ، لا مثيل له فى الدول الأوروبية ، مع أن مساحة الهند تماثل مساحة أوروبا خلا الروسيا . ولكن سكان أوروبا المتسعة فينتمون إلى شعبة بشرية واحدة ، وهى الشعبة البيضاء ، فهم يرتبطون معاً برابطة اللون ، مضافاً إليها رابطة الدين وهى المسيحية . أما الهنود فينتمون إلى ثلاث شعب : البيضاء والصفراء والسوداء ، ويتباينون فى اللون والدين ، وفى كل مظهر آخر من مظاهر الحياة . ومع ذلك نجد أن أوروبا مقسمة إلى عشرات الدول ، فلماذا تكون الهند دولة واحدة ! ؟

والأجناس البشرية المختلفة ، لا تعيش مختلطة فى الهند ،

فلكل منها موطنه الخاص ، الذى كيفته الطبيعة له ، لاستحالة حياته فى غيره : فالشعب الأبيض مسلم الدين ، آرى الجنس ، يقطن الشمال الغربى ، ويتكلم الأردو وهى لغة آرية . وموطنه صحارى قاحلة ، وسهول واسعة ، يبلغ متوسط الأمطار فيها عشرين بوصة فى العام على أكثر تقدير ، وفى بعضها يبلغ خمس بوصات فقط . والجو صحراوى ، قارس البرودة فى الليل ، مشمس معتدل فى النهار ، فإذا جاء الصيف اشتدت الحرارة ، وهبت رياحها الساخنة ، على تلك الأراضى المستوية ، حتى تكاد تحرق بلفحاتها ما تجده فى طريقها .

ولقد هاجر هؤلاء الآريون من آسيا الوسطى ، فاحتلوا سهول الهند الشمالية الغربية ، لأنها فى جفاف المناطق التى نزحوا منها ، ولم يستطيعوا على مر القرون أن يتقدموا أكثر من ذلك ، لأن التكوين الجثمانى والصحى لتلك الفئة ، لا يساعد على احتمال جو المناطق الجنوبية الاستوائية ، ولا الجهات الشرقية المنسونية .

وللآريين الهنود ميزات ظاهرة : فهم بيض الوجوه نسبياً ، عريضو الأكتاف ، طوال القامة ، أنوفهم حادة ، وشفاههم رقيقة . وهم يأكلون اللحم كثيراً ، ولا يصنعون خبزهم إلا من

القمح ، فضلاً عن أنهم ، بحكم المناطق التى يعيشون فيها، كرماء مثل عرب البادية ، خياليون أهل أدب وشعر ورقة .

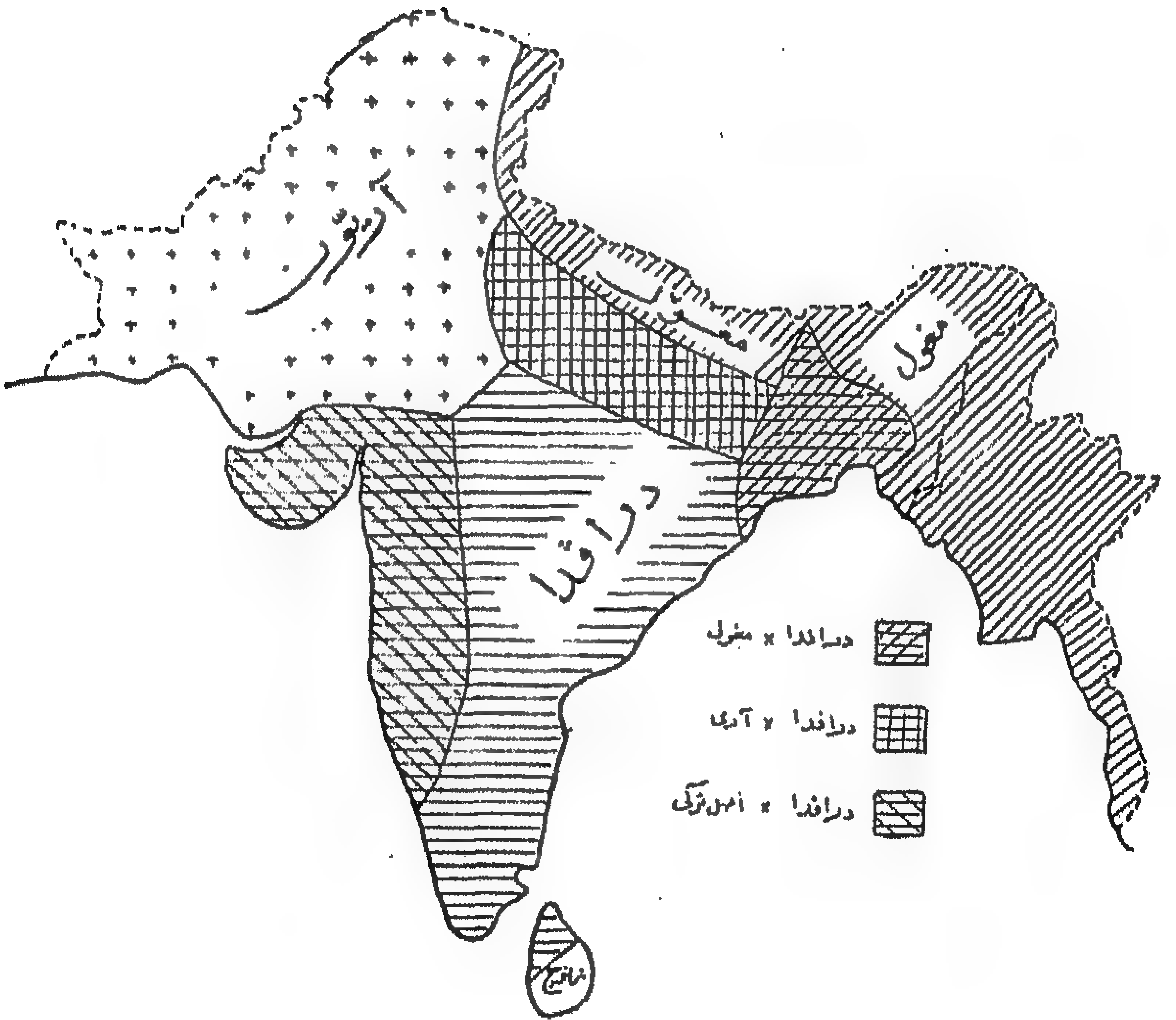
ويتخذ هذا الفريق الإسلام ديناً ، فيؤمنون بالله ووحدانيته ، ويحترمون الأديان السماوية الأخرى ، ولا يعترفون بالتفرقة ، وسمو طبقة على أخرى ، فالجميع سواء أمام العدل والشريعة ، وأقرب الناس إلى الله وأكرمهم عنده أتقاهم .

ولغتهم الأردو مليئة بالألفاظ الفارسية والعربية،وهم يتمسكون بها ويكتبونها بحروف عربية ، ففيها كلمات من القرآن ، وعليها بنوا ثقافاتهم وآدابهم وأشعارهم الرقيقة الخالدة .

ولقد ميزت الطبيعة هؤلاء حتى فى الحيوان ، فالجمل دابتهم الأساسية ، ولا وجود له فى غيرها من المناطق ، فقد خلق الجمل للمناطق الرملية ، ولذلك يحتمل العطش ، ويقطع بخفافه القفار والرمال ، وتتسع خياشيمه ، لرياح الصحارى المحملة بالرمال .

أما الجنس الأصفر فيعيش فى شرق الهند حيث الأمطار شديدة الغزارة ، يبلغ متوسط ما يسقط منها كل عام مائة بوصة ، والشتاء فى هذه المنطقة معتدل ، وصيفها مقبول ، بفضل الأمطار الغزيرة ، ورياحها منسونية تساعد على نمو غابات كثيفة متشابكة الأغصان ،

فيحتجب الضوء فى قلب تلك الغابات ، وتبدو ظلاماً دامساً فى رائعة النهار .



توزيع الأجناس البشرية فى الهند

« والهنود الصفر امزيج من الدراندا والمغول أصلا ولغة ، (فلغتهم سنسكريتية تكتب بحروف عجيبة خاصة) ودماءهم المغولية لا تنحدر من المغول المسلمين الذين اجتاحوا شمال غرب الهند أيام الامبراطورية الهندية الأسلامية ، بل هم سلالة المغول الوثنيين الذين انحدروا من هضبة التبت فى غارات قديمة سابقة للأسلام . وهم قصار القامة صفـــر اللون أنوفهم فطساء ، وعيونهم ضيقة متقاربة ، فضلا عن أنهم نباتيون ، لا يتذوقون اللحم ، ولا يصنعون خبزهم من القمح أبداً ، ويعيشون على الأرز الذى ينمو عندهم فى كثرة وسهولة . والطعام مظهر من مظاهر اختلاف البشر ، وقد قال « دكتور ستامب » الجغرافى الإنجليزى ، عندما تكلم فى كتابه، عن منطقة مدراس الهندية :

« بالنظر إلى الشمال ، نلاحظ غياب القمح فى هذه المنطقة . ومنذ سنوات مضت حدثت مجاعة شديدة فىمدراس،فاستوردت الحكومة من الشمال كميات كبيرة من القمح إلى المنطقة الجوعانة، ولكن اختلاف العادات بسبب اتساع الهند ، والرجعية الموروثة في الجماهير الجاهلة ، جعلا الناس يموتون آلافاً ، وهم على مرأى من عربات القمح ، التى أبوا أن يلمسوها . . . » .

ولقد صدق دكتور ستامب فى قوله فقد أبى هندوس مدراس ، أن يلمسوا القمح لأنهم اعتادوا الأرز ، فبقيت العربات محملة كما هى ، وأمات الجوع آلاف الناس .

ولأن الطبيعة كريمة مع الصفر، تعطيهم كل ما يحتاجون إليه، نرام على عكس المسلمين الآريين بخلاء ، لا يعرفون الكرم ، ولا تجود أيديهم بشىء ، لأنهم لا يفهمون معنى لذلك، ما دامت الطبيعة تقوم عنهم بواجب الكرم نحو الجميع وتمتاز هذه المنطقة أيضاً بحيواناتها ، فالفيل دابتها الأولى ، و بفضل جلده السميك يمكنه اختراق طريقه فى الغابات المتشابكة الأغصان، و بخرطومه الحساس يتحسس طريقه ، و يحطم الأشجار التى تعوقه ، ومعدته الضخمة تتسع لقدر كبير من الطعام الموفور فى كل مكان .

والهندوسية دين أهل هذه المنطقة، وهى تختلف عن الإسلام كل الاختلاف ، فتقوم على عبادة البقرة وتقديس الروح، ومرجع ذلك عدم استقرار الحياة حيث يعيشون ، بفعل صواعق المونسون فى الشرق والجنوب ، و بفعل ثعابين الكبرا السامة ، ووحوش الغابات الضارية، والأوبئة والأمراض القاتلة ، التى تنتاب هذه المناطق كثيراً ، فتودى بأرواح الآلاف . وهذه العوامل تنقض

فجأة وتزول فجأة ، لذلك يخشى الناس شرها ، ويعتبرونها مظهراً من مظاهر غضب الآلهة ، ويقدمون من أجلها القرابين ، ويعبدون تلك الروح الغامضة المجهولة ، التى تغادر الإنسان ، فتتركه بعد ثانية واحدة جثة هامدة .

ومن أصعب الأمور أن نصف الديانة الهندوسية ، فقد حار فى ذلك الوصف كتاب ومؤرخون كثيرون ؛ فقال مرجع انجليزى :

« إنها مجموعة من الحقوق والعادات والأساطير » .

وقال أحد زعماء الهنود :

« إنها ما يفعله عامة الهندوس » .

وعلى كل حال فهى مجموعة من الأنظمة ، تقوم على أساس متين من تعدد الطبقات ، وفصل بعضها عن بعض ، مع وضع واجباتها وحقوقها ، بحيث تقرر مركز الإنسان الاجتماعى من المهد إلى اللحد . ومن أجل ذلك لا يستطيع هندوسى ، مهما حاول ، أن يخرج عن طبقته ، أو يحطم الجدران الفاصلة بينه و بين غيره .

والجنس الأسود ثالث الأجناس البشرية الهندية ، من سلالة « ما قبل الدرافدا » ، أى أقدم الأجناس البشرية فى الهند .

ويسكن هذا الفريق الجنوب الاستوائى ، حيث لا تتغير الفصول ، فيغطى النبات الأرض طوال العام ، وتنتشر المستنقعات فى كل مكان ؛ ولسخاء الطبيعة ترام كسالى ، لا يقوم معظمهم بعمل ، ما دامت ضروريات الحياة فى متناول كل يد .

وزنوج الهند سود اللون ، قصار القامة ، صغار الأجسام ، فطس الأنوف ، غلاظ الشفاه ، ويتكلمون لغات زنجية خاصة .

أما دياناتهم فهندوسية أو وثنية ، وعاداتهم فطرية بدائية ، وطعامهم الأرز ، وحليفهم البخل ، فهم على الإجمال من حيث الأخلاق والغرائز والطعام أقرب إلى الهندوس منهم إلى أى جنس آخر ، ولذلك يعتبرهم الهندوس جزءاً منهم .

هذا بيان قصير لكل جنس من الأجناس الثلاثة الأساسية التى تعيش فى الهند ، وبه يدلل المسلمون على العوامل الحيوية المختلفة التى تقوم دون وحدة البلاد ، وتستوجب عدم بقائها على ما هى عليه . ويقولون إن تلك العوامل كانت أبداً مبعث البغضاء والقتال فى الهند ، حتى قبل دخول المسلمين ، فلا ينتظر — والحال هكذا — أن يسود التفاهم ، ويرفرف الوئام على هذه الشعوب ، طالما هى مجبرة على الحياة معا ، ضمن حدود

واحدة ، وتحت قوانين واحدة ، قد تلائم طبيعة البعض ، ولا تتناسب مع البعض الآخر .

قال البروفسور « لايد » عندما تكلم عن التجار الأوروبيين الذين كانوا يتاجرون مع الهند منذ ألفي سنة قبل دخول الإنجليز :

« من سوء الحظ أن قرنا من التجارب ترك هؤلاء التجار يؤمنون بفكرة واضحة صادقة تتلخص في أن الهند ما هي في الواقع إلا تعبير جغرافي ، فأهلها من أجناس مختلفة ، ويتكلمون لغات مختلفة ، ولا يكفون أبداً عن قتال بعضهم بعضاً » .

ويقول في مكان آخر من الكتاب :

« ليس في الهند أي نوع من الوحدة اللهم إلا وحدة الاستعمار الإنجليزي » .

ويذكر في مكان ثالث :

« وبفضل هذه الأجناس الثلاثة البشرية ، والشعب الثلاثة اللغوية ، والعقائد الثلاث المتباينة ، ستبقى الهند إلى الأبد معضلة بلاد مختلفة الشعوب ، لا تجمع بينها أية رابطة ، حتى الطعام والعادات » .

وبهذا تنتهي حجج المسلمين وأدلتهم ، وقد تكون تلك

الأدلة مقنعة، وقد لاتكون كذلك، فعلينا إذاً أن ننتظر ماتتمخض عنه أحداث المستقبل القريب ، لنرى أفى استطاعة الهنود أن يتناسوا الفوارق بعد استقلالهم ، ويعيشوا أخوة أحباء ، أم تقوم بينهم حرب أهلية تسجل الغلبة لفريق على فريق .